دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٥

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

ذكريات من منزل الأموات

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الخامس

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٣٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

ذكريات من منزل الأموات

« ذكريات من منزل الأموات »
ZAPISKI IZ MERTVAGO DOMA

نشرت في مجلة « العالم الروسي » . فأما المقدمة والفصل الأول ففي شهر أيلول (سبتمبر) ١٨٦٠ ؛ وأما الفصول ١ ، ٣ ، ٧ ، وهي الفصول المندرجة تحت عنوان « منزل الأموات » و « المشاعر الأولى » ففي شهر كانون الثاني (يناير) ١٨٦١ ، وفي شهر نيسان (ابريل) ١٨٦١ استؤنف نشر « ذكريات من منزل الأموات » في مجلة « الزمان » .

تقديم

يضم هذا المجلد من أعمال دوستويفسكي الأدبية الكاملة عملا واحدا هو « ذكريات من منزل الأموات » . والحق أن ترجمة عنوان الكتاب على هذا النحو ليست دقيقة كل الدقة ، فان دوستويفسكي يحدثنا في هذا الكتاب عن « منزل ميت » يدفن فيه البشر أحياء » .

ذكريات من منزل الأموات

١٨٦٠ — ١٨٦١

لقى هذا الكتاب اقبالا شديدا وأصاب نجاحا عظيما . وقد نشر فى ظروف مواتية كما قال أحد معاصريه ، فان روحا من التسامح والتساهل كانت تسيطر عندئذ على الرقابة ، فظهرت كتب ما كان يتخيل أحد أن تظهر قبل بضع سنين . لقد أحدثت « ذكريات منزل الأموات » أثرا كبيرا فى النفوس ، فرأى القراء والنقاد فى كاتبها « دانتى » جديدا هبط الى « جحيم » رهيب ، لا سيما وأن هذا الجحيم موجود في الواقع لا فى خيال الشاعر وحده . ان هذه الأوصاف الواقعية المرة الكاوية التى تصور عالما لم يكن يعرفه القراء قبل ذلك ، عالم هذا الخليط من السجناء ، عالم الأشغال الشاقة التي يقدمون بعبثها ، والمهن التى يتعاطونها ، والتسليات التى يسرون بها عن أنفسهم ، والمستشفى الكريه الذين يعالجون فيه ، ولا سيما العقوبات الجسمية الرهيبة التى تنزل فيهم ، هذه الاوصاف التى يقدمها كاتب موهوب عاش هو نفسه فى هذا الجحيم ، قد أثرت فى نفوس القراء تأثيرا كبيرا ، وهزتها هزا قويا . حتى الاسكندر الثانى كانت تهطل دموعه على صفحات هذا الكتاب .

ومن الشائق مع ذلك أن نذكر أن رئيس لجنه الرقابة بالعاصمة قد أعتقد أن عليه أن يعترض على نشر الفصل الثانى · وهذه هى الحجة التى تعلل بها : « أليس من الجائز أن يذهب الظن بالبسطاء من القراء الى أن العمل الانسانى العظيم الذى تقوم به الحكومة فى السجون هو تخفيف للعقاب المخصص لجرائم خطيرة جدا ؟ » · وقد أعد دوستويفسكى عندئذ مذكرة يشرح فيها أن افتقاد الحرية سنين طويلة هو أقصى عقوبة ولكن دوستويفسكى لم تتهيأ له فرصة نشر هذه المذكرة · وفى اليوم الثانى عشر من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٨٦٠ أذنت الادارة المركزية للرقابة بنشر « ذكريات من منزل الأموات » صارفة النظر عن آراء اللجنة ، مشترطة شرطا واحدا هو أن تحذف من الكتاب « بعض التعابير التى تعوزها الحشمة » ·

ان دوستويفسكى قد بدأ تدوين انطباعاته فى سجن أومسك نفسه ، وظلت المذكرات التى دونها مخبأة زمنا طويلا لدى أحد موظفى المستشفى · ثم عمل دوستويفسكى فى كتابة هذه المذكرات بمدينة سيميبالاتنسك · ولكنه لم يستطع أن ينجز هذا العمل الا حين عودته الى العاصمة · ان هذا الكتاب الذى يفيض بذكريات مروعة رهيبة انما هو ثمرة تجربة شخصية· ان دستويفسكى يتحدث عما عاناه هو نفسه فى السجن · ولئن نسب هذه المذكرات الى رجل سماه الكسندر جوريانتشيكوف ، فان هذا التمويه لم ينطل على أحد ·

ان الانطباعات الاولى التى يشعر بها دوستويفسكى فظيعة : افتقاد الحرية ، الحياة المشتركة مع قتلة ولصوص · فهذا دوستويفسكى يقول فى رسالة له : « كانت المصاحبة المستمرة الدائمة للآخرين تفعل فى نفسى فعل السم ، وما تألمت من شىء خلال تلك السنوات الاربع كما تألمت من ذلك العذاب الذى لا يطاق » والشىء الذى كان يشق على نفسه خاصة هو تلك العداوة الشديدة التى كان يشعر بها نحوه السجناء لأنه ينتمى الى طبقة السادة الذين يضطهدون أبناء الشعب ملاكين أو ضباطا أو موظفين · لقد شعر دوستويفسكى فى السجن بعزلة رهيبة ، لا سيما وأن القلة القليلة من السجناء الذين كانوا قبل سجنهم ينتمون الى طبقة النبلاء ، لم يشعر نحوها دوستويفسكى بشىء من المودة ولم يجذبه اليها شىء من العاطفة · وهو ينظر الى رفاقه فى السجن ، فلا يرى فى أول الأمر الا

رجالا غلاظا أفظاظا ليس فيهم أثر من خجل ولا يخالج ضمائرهم شيء من ندم ، وانما هم فجرة مستهترون متأهبون في كل لحظة للتشاجر والتشاتم والسكر وسرقة بعضهم بعضا • بل انه ليرى طباعا كريهة كأنها تجسد الشر المطلق • فمن هؤلاء قاطع الطرق الرهيب أورلوف الذى كان يقتل الصغار والشيوخ بهدوء وبرود ، وكان ينعم بارادة جبارة فهو يحتقر كل عقاب ويحتمل أى قصاص • ومنهم أيضا ذلك التترى جازين الذى يملك قوة خارقة ، ويشعر من يراه أنه أشبه بعنكبوت ضخم عملاق • لقد كان جازين، فيما قيل، يجد لذة عظيمة فى ذبح الأطفال الصغار، فى قتلهم بعد أن يمتلىء تلذذا بافزاعهم • ومنهم أيضا رئيس عصابة قطاع الطرق كورينف ، الوحش الكاسر الذى كان لا يشعر بشيء الا الرغبات الجسمية والشهوات الحسيه والظمأ الى المباهج•ومنهم أخيرا ١٠٠٠ف (أرستوف) ، السيد المنحل الفاجر العاهر المستهتر الذى لا يتورع عن شيء والذى يقول عنه دوستويفسكى انه فى تشوهه الروحى أشبه بكازيمودو فى تشوهه الجسمى • وهنا يطرح دوستويفسكى هذا السؤال : ما هى الجريمة ؟ وما هو قدر الانسان الذى تجاوز الحدود المحرمة ؟ ويمضى دستويفسكى يهبط الى الأغوار العميقة من النفس الانسانية ويسبر كل ما فى طبيعة الانسان من أعماق لا يسيطر عليها العقل ولا يدركها العقل • ويدرس دوستويفسكى نفسية الجلاد فينتهى الى هذه النتيجة ، وهى أن خير الناس يمكن أن يقسو قلبه بتأثير العادة فاذا هو يصبح حيوانا كاسرا ، وان الدم والسطو يسكران فيولدان التوحش والشذوذ والفساد ، حتى ليؤكد دوستويفسكى أن بذور الغرائز البهيمية موجودة فى جميع معاصريه من الناس تقريبا•

غير أن هذه المشاعر التشاؤمية لا تتغلب على دوستويفسكى • لقد أخذ يميز بين الأشرار والأخيار شيئا بعد شيء ، وأخذ يجد بين السجناء رجالا يمكن أن تفهم جرائمهم بل يمكن أن تعذر من وجهة نظر الأخلاق • هذا آكيم آكيمتش الضابط الصغير الذى أمر باطلاق النار على أمير قوقازى متمرد دون أن يحاكمه وفقا للأصول : انه رجل هادىء وقور شريف جاد ؛ وهذا باكلوشين المرح الذى قتل منافسه فى الحب دون أن يريد ذلك تقريبا ، لأنه لم يكن ينوى فى أول الأمر الا أن يروعه بمسدسه ، وهذا نورا الطيب البسيط الساذج الذى حكم بالسجن بتهمة السطو والنهب : انه انسان متدين شريف يلقبه السجناء « نورا الأسد » وهذا على اللطيف الوديع الخجول الذى يشبه أن يكون خفره كخفر العذارى : لقد انضم الى

اخونه في أعمال السلب لا عن ميل الى ذلك، بل لأنه لايجرؤ أن يعارضهم. وهذا شيخ ستارودوب المؤمن الذى أشعل النار فى الكنيسة الأرثوذكسية وقرر ان يتعذب في سبيل الدين : انه رجل شهم يحترمه السجناء ويجلونه . وهذا أوريب المولع بالتهريب ولعا شديدا لا يملك أن يغالبه : انه انسان على جانب عظيم من الشرف والاستقامة والهدوء والوداعة واللطف ، وهذا هو الشاب الوسيم سيرودكين الذى لم يستطع أن يتحمل عبء الخدمة العسكرية فاذا هو بعد ان يحاول الانتحار يقتل رئيسه الضابط لا لشيء الا « أن يغير مصيره » ، وهذا بتروف الذى ضربه رئيسه الكولونيل مرارا فاذا هو يقتله ذات مرة فى سورة من غضب ، وهذا لوقا الذى اعتقل بتهمة التشرد فلما سمع الميجر يقول له : « أنا قيصر ، أنا الله » لم يطق أن يسمع هذا الكلام فاذا هو يقتل الميجر . هؤلاء فى اكثر الأحيان رجال أخرجتهم عن طورهم قسوة مضطهديهم ودفعتهم الى الجريمة دفعا . فواحد ، كما يقول دوستويفسكى ، قد قتل طاغية فاجرا لينقذ شرف خطيبته أو أخته أو بنته ، وواحد هو قن هارب لعله كان يوشك أن يموت جوعا ، قتل واحدا من رجال الشرطة الذين يطاردونه دفاعا عن حريته وعن حياته. ليس المجرمون في كثير من الأحيان الا ضحايا الظروف الاجتماعية التى تحيط بهم ، وليست الجريمة التى يقترفونها الا مصيبة تنزل عليهم وشقاء يحل فيهم ، فما أصدق غريزة الشعب حين يعطف عليهم ويطلق عليهم اسم « الأشقياء » ! لقد تأثر دوستويفسكى تأثرا عميقا بهذا العطف : ما كان أعظم تأثره بالصدقات التى كان أبناء الشعب يجودون بها على السجناء فى سخاء أيام الأعياد ! وما كان أعظم تأثره بحنان ناستاسيا ايفانوفنا المرأة الفقيرة التى كانت تفعل كل شيء فى سبيل تخفيف آلام السجناء! وقد لاحظ دوستويفسكى أن أكثر السجناء متدينون ، وأنهم يصلون، وأنهم يتوقون الى رحمة الله ، ويطلبون غفرانه، فاذا هو يقول : ان فى كل مكان أشرارا ! فمن يدرى ؟ قد لا يكون هؤلاء السجناء شرا من غيرهم ، قد لا يكونون أسوأ من أولئك الذين يعيشون خارج الأسوار ! كان دوستويفسكى لايرى فى رفاقه أول الأمر الا وحوشا مفترسة ، ثم اذا هو يرى جوانب الخير فى نفوسهم شيئا بعد شيء ، حتى لتنكشف له فى بعض الأحيان على حين فجأة ، لدى واحد منهم ، عواطف غنية ومودة قوية وقدرة على الفهم والتعاطف ومشاركة الآخرين آلامهم ، فلا يكاد « يصدق عينيه ولا أذنيه » ! انه حين دنا من هؤلاء المنبوذين

والتصق بهم أصبح لا يخشى أن يقول « ان أبرز سمة وأوضح سمة فى شعبنا انما هي شعوره بالعدالة وظمؤه الى العدالة ، فمتى نزعت القشرة الظاهرة الفظة ، وأنعمت النظر فى البذور الثاوية فى الأعماق رأيت فى هذا الشعب مزايا لم تخطر لك على بال! »· حتى أن دوستويفسكى يهتف قائلا قبل خروجه من السجن ، حين أصبح له بين السجناء كثير من الأصدقاء والرفاق الطيبين : نعم يجب أن نعترف بالحقيقة : لقد كان هؤلاء الرجال يملكون كنوزا رائعة ·· ولعلهم كانوا بين أبناء شعبنا أعظمهم مواهب وأكثرهم طاقات لكن ملكاتهم الممتازة قد هلكت الى غير رجعة · فمن المذنب ؟ ان مشكلة الذنب والجريمة والعقاب تحتل مكانا كبيرا فى أعمال دوستويفسكى الذى عانى هذه المشكلة معاناة شخصية أكثر مما عاناها أى كاتب ، حتى لنراه يقول بعد خروجه من السجن بزمن طويل : « لطالما باركت القدر الذى وهب لى أن أعانى هذه التجربة · لقد كان لهذه السنين الأربع التى قضيتها فى السجن فضل كبير على · ان نفسى وايمانى وفكرى ، ان ذلك كله قد تبدل تبدلا عظيما بفضل هذه التجربة » · لقد جعله السجن مؤمنا · لقد رد اليه السجن ايمانه بالله وايمانه بالشعب الروسى ، حتى لقد كتب يقول : ان الانسان ، أثناء الحسرات التى يحسها فى سجن الأشغال الشاقة ، يرتوى بالايمان كما يرتوى العشب اليابس بماء المطر · انه يجد الايمان أخيرا لأن الايمان يظهر فى ساعات الشقاء أقوى وضوحا وأشد سطوعا · وكتب يقول أيضا : « لعل الاله العلى القدير قد شاء أن يرسلنى الى هناك حتى أتعلم جوهر الأشياء فأنقل علمى الى غيرى وأبلغه الناس » · ان ايمانه قد صفاه العذاب ونقاه · لقد استمد دوستويفسكى من الألم حنانا وشفقة على البشر الذين ترددوا فى الخطيئة والشقاء فأصبحوا أحوج الى الحب من الأبرياء والسعداء ! ان روحا مسيحية تترقرق فى الكتاب كله · وذلك ما جعل تولستوى يتحمس له أشد التحمس فيكتب سنة ١٨٨٠ الى ستراخوف قائلا: « كنت أشعر فى هذه الأيام بضيق شديد فتناولت كتاب «ذكريات منزل الأموات » فأعدت قراءته · كنت قد نسيت كثيرا منه ، فلما أعدت

قراءته ، أيقنت أن ليس فى الأدب الجديد كله كتـاب واحد يفوقه ، حتى ولا كتب بوشكين ! ليست النبرة هى الشيء الرائع فيه ، بل وجهة النظر التى يشتمل عليها : انه صادق طبيعى مسيحى • انه كتاب يعلم الدين • فاذا رأيت دوستويفسكى فقل له انى أحبه » •

وقد كان لهذا الكتاب أثر سياسى أيضا ففى شهر حزيران «يونيه» من عام ١٨٦٢ ، بعد نشر الفصول التى تصف العقوبات الرهيبـة كتب الجنرال الأمير نيكولا أورلوف رسـالة الى الامبراطور يرجوه فيهـا الغاء العقـاب الجسدى الذى وصفه دوستويفسكى فى كتابه وصفا حيا قويا • وشكلت لجنة خاصة لحل هذه المسألة فكان هنالك تياران متعارضان أحدهما يقول بابقاء هـذه العقوبات والثانى ينادى بالغائها ، وتغلب التيار الثانى أخيرا فصدر قانون ١٧ نيسان (ابريل) ١٨٦٣ الذى يلغى هذه العقوبة الرهيبة الغاء تاما •

الجزء الأول

مدخـــل

في وسط السهوب أو الجبال أو الغـابات الوعرة من المناطق النائية بسيبيريا يلتقي المـرء من حين الى حين بمدن صغيرة سكانها ألف أو ألفان ، مبنيـة كلها بالخشب ، دميمة كل الدمامة ، لها كنيستان، الأولى في وسط المدينة ، والثانية في المقبرة. فاذا أردنا أن نصفها موجزين قلنا انها أكثر شبهاً بقرية في ضواحي موسكو منهـا بالمدينـة بمعنى كلمة المدينة . وهي على وجه العموم مزوّدة بعـــدد وافـر من رجال الشرطة وجباة المال وغيرهم من الموظفين المرؤوسين . ولئن كان البرد شديدا في سبيريا فان خدمة الحكومة هناك رابحة مجـــزية الى أبعـد الحدود . ان السكان أناس بسطاء لا تعصف برؤوسهم الأفكار الليبرالية ، ولهم عادات قديمة رسّخها الزمن . والموظفون الذين يمكن أن نسميهم بالطبقة النبيلة في سيبيريا هم اما أناس من البلاد نفسها أي سـيبيريون متأصلون ، واما أناس وافدون من روسيا . فأما هؤلاء الوافدون من روسيا فهم قادمون من العواصم رأساً يحدوهم المرتب الضخم والمعونة الـكبيرة التي يُعطَوْنها نفقات سفر، كما تحدوهم آمال أخرى تتعلق بالمستقبل ولاتقل عن الراتب اغراءً . فالذين يعرفون كيف يحلـــون مشـــكلة الحياة يمكثون في سيبيريا دائماً على وجه التقريب ويستقرون فيها الى الأبد، ذلك أن الثمرات الوفيرة اللذيذة التي يجنونها بعـــد ذلك تعوضهم عن خســـارتهم خير تعويض . أما الآخرون ، وهم أناس خفافٌ لايعرفون كيف يحلون هذه

المشكلة فانهم ما يلبثون أن يسأموا ويضجروا ثم هم يتساءلون على حسرة وأسف : لماذا ارتكبوا حماقة المجيء الى هذه البقاع النائية ؟ وهم يسلخون السنين الثلاثة ، وهي الفترة المحدودة لاقامتهم ، متذمرين متململين قد نفد صبرهم ، حتى اذا تصرمت المدة التمسوا العودة ورجعوا الى بلادهم وهم يقدحون في سيبريا ويهزؤون بها ويسخرون منها • ألا انهم لمخطئـون ، فان سيبريا بلاد هناءة وغبطة لا من جهة الخدمة العامة وحدها بل من جهات كثيرة أيضا • المناخ فيها رائع ، والتجار أثرياء مضيافون ، والميسورون من أهلها كثير • أما صباياها فأشبه بورود متفتحة ، وأخلاقهن لا غبار عليها ، والطرائد تجري في شوارعها وترتمي على الصـيـاد ارتمـاء ، والناس يشربون فيها الشمبانيا وافرة غزيرة ، والكافيار مدهش ، والفلاحـون يحصدون من الغلال في بعض الأحيان أضعاف ما بذروا خمس عشرة مرة • صفوة القول : انها أرض مباركة ، وانمـا ينبغي الانتفـاع بها والاستفادة منها وما أيسر ذلك !

في مدينة من تلك المدن الصغيرة ـ البهيجة الراضية عن نفسها كل الرضى ـ التي ترك أهلها في نفسي ذكرى لا تمحي ـ انمـا التقيت بمنفي من المنفيين اسمه الكسندر بتروفتش جوريانتشيكوف ، وهـو من سراة الملاكين في روسيا • وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثـانية * ، لأنه قتل زوجته • فبعد أن قضى مدة الحكم ـ وهي عشرة سنين من الأشغال الشاقة ـ مكث في مدينة ك ••• * الصغيرة هذه ، هادىء البال لا يفطن الى وجوده أحد ، مستوطنا من المستوطنين • والحق أنه كان مسجلا في قرية من القرى المجـاورة ، ولكنه كان يعيش في مدينـة ك ••• حيث كان يستطيع أن يجني رزقه من اعطاء دروس خاصة للأطفال • ان المرء كثيرا ما يلتقي في سيبريا بمنفيين يعملون في التعليم • والناس لا يحتقـرونهم ، لأنهم يعلّـمون اللغة الفرنسية ، وهي ضرورية للحياة جدا ، وما كان لأحد

من سكان هذه الأماكن القاصية من سيبريا أن يعرف شيئا منها لولاهم •

وقد رأيت ألكسندر بتروفتش أول مرة في منزل موظف من الموظفين أسمه ايفان ايفانتش جفوزديكوف ، وهو شيخ محترم وقور مضياف له ثلاث بنات يعدن بأجمل الآمال • فكان الكسندر بتروفتش يعطيهن دروساً في اللغة الفرنسية أربع مرات في الأسبوع ، ويتقاضى أجره عن كل درس أربع كوبكات فضة • وقد لفت نظرى مظهره • انه رجل شديد الشحوب، شديد النحول ، ما يزال شابا (فهو في نحو الخامسة والثلاثين من عمره)، قصير واهن ، يعنى بنظافة ملبسه كل العناية ، ويرتدى الزى الأوروبى • اذا تحدثت اليه انتبه الى كلامك انتباها شديدا ، وأصغى الى كل قول من أقوالك مهذبا غاية التهذيب ، وقد بدا في وجهه التفكير كأنك تطرح عليه مشكلة أو كأنك تريد أن تنتزع منه سراً • حتى اذا أجاب كان جوابه واضحا موجزا ، ولكنه يزن كل كلمة من كلماته ، ويبلغ من ذلك أن من يستمع اليه يشعر بشيء من الحرج دون أن يعرف سبب هذا الحرج ، ويشعر بشيء من الضيق والبرم ، ويسعده بعد ذلك أن تنتهى المحادثةبينه وبينه • وقد سألت عنه ايفان ايفانتش فأعلمنى أن جوريانتشيكوف رجل لا غبار على سلوكه ، ولولا ذلك لما عهد اليه ، هو ايفان ايفانتش ، بتعليم بناته ؛ ولكنه يكره البشر كرهاً شديدا وينفر من مخالطة الناس نفورا قوياً ، ويظل مبتعداً عن الآخرين ؛ وأنه عدا ذلك على حظ كبير من سعة الثقافة ، فهو كثير القراءة والمطالعة ، ولا يتكلم الا قليلاً ، ولا يفتح قلبه لأحد في حديث •

وكان بعضهم يؤكد أن الرجل مجنون ، ولكن دون أن يرى في ذلك آفة كبيرة خطيرة ، لذلك كان خيار القوم في المدينة على استعداد لأن يداروا الكسندر بتروفتش ، لأنه يمكن أن يكون نافعا لهم كثيرا ، كأن يتولى عنهم كتابة العرائض وما الى ذلك • وكان يُعتقد أن له في

روسيا أقرباء من ذوى المكانة العالية والمنزلة الرفيعة ، وربما كان بينهم أناس يحتلون مناصب كبرى ؛ ولكن لم يكن مجهولا أن الرجل قد قطع كل علاقاته منذ نفيه ، فأساء بذلك الى نفسه على وجه الاجمال • وكان جميع الناس يعرفون قصته ، ويعلمون أنه قتل زوجته بدافع الغيرة بعد سنة من زواجه ، وانه سلّم نفسه للقضاء من تلقاء ذاته ، فكان ذلك من الأسباب التى دعت الى تخفيف الحكم عليه تخفيفا كبيرا • والناس ينظرون الى هذا النوع من الجرائم نظرتهم الى مصائب حلّت بالمجرم نفسه ، فهو يستحق الشفقة والرحمة • ومع ذلك كان هذا الانسان الشاذ يصرُّ على الابتعاد عن الناس اصرارا شديدا ، ولا يخرج الا لاعطاء الدروس التى يعهد بها اليه •

لم ألتفت اليه فى أول الأمر أى التفات • ولكنه أثار اهتمامى بعد ذلك دون أن أعرف لهذا سببا : انه أشبه بلغز • أما التحدث معه فأمر مستحيل اطلاقا • صحيح أنه كان يجيب عن جميع الأسئلة التى ألقيها عليه ، ولكن متى انتهى من اجابته لم أجرؤ أن ألقى عليه مزيدا من الأسئلة • وكان بعد أحاديث من هذا النوع يبدو فى وجهه عذاب وألم وتعب وارهاق • أذكر اننى فى ليلة جميلة من ليالى الصيف خرجت معه من عند ايفان ايفانتش • فخطر ببالى فجأة أن أدعوه الى بيتى لتدخين سيجارة • فما كان أشد الذعر الذى ارتسم على وجهه حينذاك ! اننى لا أستطيع أن أصف لكم ذلك الذعر •• لقد اضطرب اضطراباً شديداً ، وتمتم ببضع كلمات مفككة لا ترابط بينها ولا اتساق فيها ، ثم اذا هو يرشقنى بنظرة غاضبة حانقة على حين فجأة ، ويلوذ بالفرار عائدا أدراجه• وقد أدهشنى هذا • وصار يبدو منذ ذلك الحين كمن يشعر بنوع من الرعب متى رآنى ، ولكننى لم أيأس •• كان فيه شىء يشدنى اليه شدا•• وبعد شهر دخلت على جوريانتشيكوف من تلقاء نفسى ، دون أى عذر

أتعلل به ، دون أية حجة أنتحلها . واضح أن فعلتي هذه كانت حماقة شديدة ، وأنها كانت خالية من حسن الأدب ورهافة الذوق . كان الرجل يقطن في طرف من أطراف المدينة ، عند امرأة عجوز من الطبقة البورجوازية لها ابنة مصدورة . وكان لابنتها هذه ابنة غير شرعية في العاشرة من عمرها ، وهي صبية بارعة الجمال ، شديدة المرح والفرح. فلما دخلت كان ألكسندر بتروفتش جالساً قربها يعلّمها القراءة ؛ حتى اذا رآني اضطرب اضطراباً شديداً كأنني فاجأته متلبساً بجرم مشهود ، فنهض طائش اللب على حين فجأة ، ونظر اليّ مشدوهاً مبهوتاً الى أقصى الحدود . وجلسنا أخيراً ، فكان يتابع كل نظرة من نظراتي ، كأنه يرتاب فيّ ويتصور أن لي نية خفية أضمرها ؛ فأدركت أن الرجل شديد الشك، كثير الريب ، سيء الظن ، قوي الحذر ، كان ينظر اليّ حانقاً مغتاظاً ، ويوشك أن يسألني : « هلاّ انصرفت ؟ » .

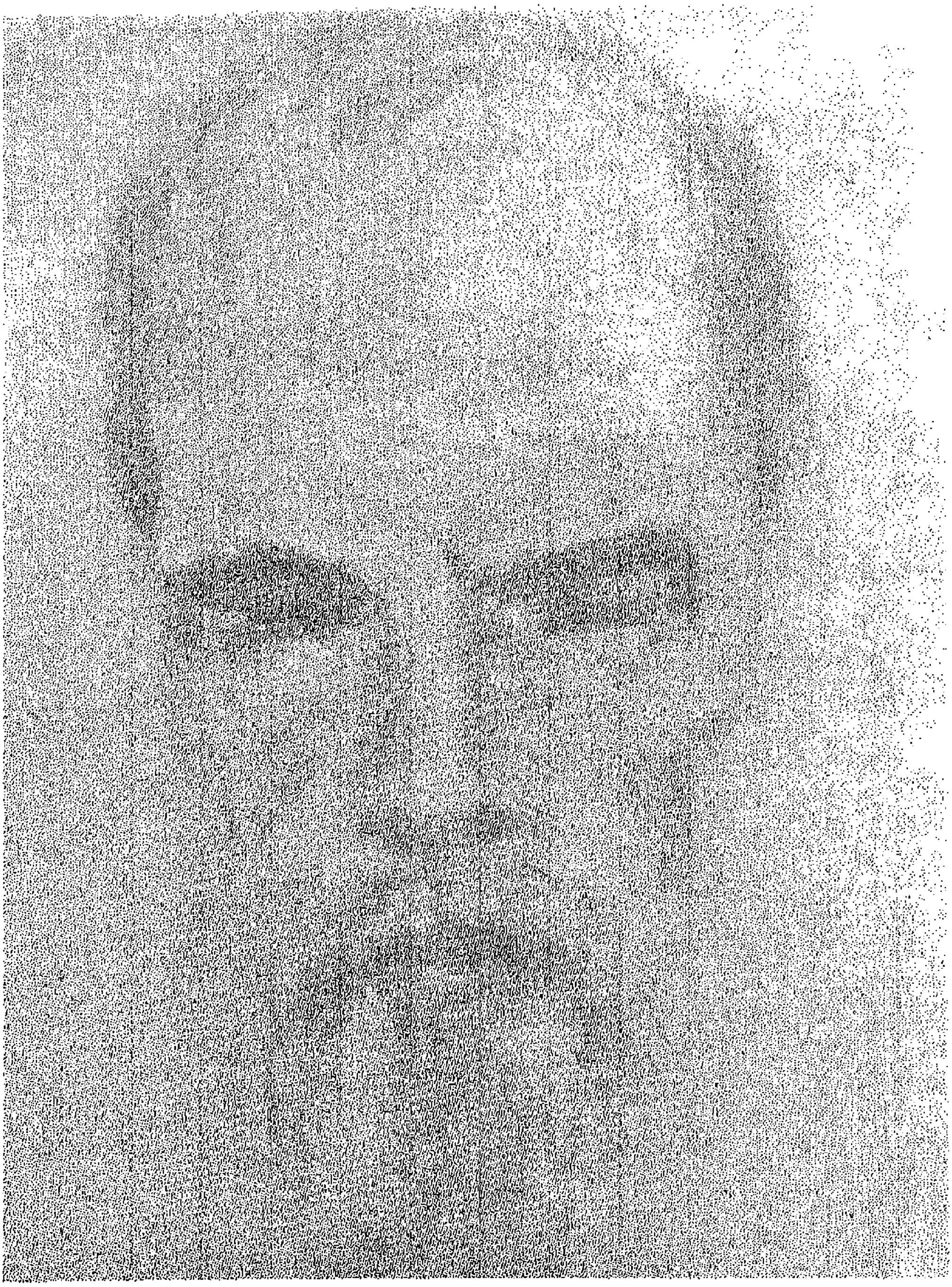
حدثته عن مدينتنا الصغيرة ، وعن الأنباء الرائجة ، فكان يصمت لا يقول شيئاً ، أو كان يبتسم ابتسامة صفراء سيئة . وأدركت أنه كان يجهل كل الجهل ما يجري في مدينتنا ، وأنه لا يحرص على أن يعرف من ذلك شيئاً البتة . وحدثته بعدئذ عن مقاطعتنا وعن حاجاتها ، فكان يصغي الى كلامي صامتاً ، محدّقاً اليّ بهيئة تبلغ من الغرابة أنني لم ألبث أن خجلت أنا نفسي من هذا الحديث ؛ حتى لقد كدت أغضبه حين قدمت اليه كتباً وجرائد كانت قد وصلتني في آخر بريد ولم أفضّها بعد . لقد نظر اليها في أول الأمر نظرة شرهة ، ولكنه سرعان ما غيّر رأيه فرفض أن يتناول ما قدمته اليه ، معتذراً عن ذلك بضيق الوقت وقلة الفراغ . واستأذنته أخيرا بالانصراف ، فأحسست وأنا أخرج من عنده أن حملاً ثقيلاً قد سقط عن كاهلي . وآلمني أن أكون قد ضايقت انساناً لا همّ له الا أن ينأى عن جميع الناس . لكن ما وقع فقد وقع . وكنت قد لاحظت

أنه لا يملك الا عددا قليلاً جداً من الكتب ، فليس صحيحاً اذن ما كان يُقال من أنه قرأ كثيراً • غير أنني قد اتفق لى أن مررت أمام نوافذه بالعربة مرتين فى ساعة متأخرة جداً من الليل ، فرأيت فى بيته ضوءاً • فلماذا كان يسهر اذن حتى الصبح ؟ أتراه كان يكتب ؟ واذا كان يكتب ، فماذا كان يكتب ؟

وغبت عن مدينتنا قرابة ثلاثة أشهر • فلما عدت فى الشتاء علمت أن ألكسندر بتروفتش قد مات ، وأنه لم يقبل حتى أن يستدعى أثناء مرضه طبيباً • وكان الناس قد نسوه أو كادوا • وكان بيته خالياً • وسرعان ما تعرفت بصاحبة البيت التى كان يسكن عندها ، عسى أن أعرف منها شيئاً عمّا كان يعمله جارها ، وعسى أن أعرف هل كان يكتب شيئاً ! فما كدت أنقدها عشرين كوبكا حتى جاءتنى بسلة ملأى أوراقاً تركها المتوفى ، واعترفت لى بأنها قد استعملت دفترين منها فى اشعال النار • والمرأة عجوز متجهمة الوجه عابسة الهيئة صموت لا تتكلم ، فلا أنا استطعت أن أنتزع منها شيئاً ذا بال ، ولا هى استطاعت أن تقول لى شيئاً عن الرجل الذى كان يقطن فى بيتها • ولكنها روت لى أنه كان لا يكاد يعمل شيئاً ، فهو يظل أشهراً برمتها لا يفتح كتاباً ولا يتناول قلماً ؛ وأنه كان فى مقابل ذلك يقضى الليل كله متجولاً فى غرفته جيئةً وذهاباً ، غارقاً فى تأملاته ذاهلاً عما حوله ، حتى لقد كان يتكلم بصوت عالٍ فى بعض الأحيان ؛ وذكرت لى أنه كان يحب حفيدتها كاتيا حباً كثيراً ، ولا سيما منذ عرف اسمها ؛ وكان يكره أن يزوره أحد ، ولا يخرج الا لاعطاء الدروس التى كان يعهد اليه بها : حتى أنه كان ينظر الى صاحبة البيت نظرة شزراء اذا هى جاءت ترتب غرفته بعض الترتيب مرةً كلَّ أسبوع ؛ وخلال السنين الثلاث التى قضاها مقيماً عندها لم يكد يتجه اليها بكلام يوماً • سألت كاتيا هل تتذكر شيئاً عن معلّمها ، فنظرت الىَّ صامتة ، ثم

التفتت الى جهة الحائط وأُخذت تبكي ٠ اذن لقد استطاع هذا الرجل أن يجعل أحداً يحبه ٠

مضيت بالأوراق ، وسلخت يومي كله في فحصها ٠ كان أكثرها لا قيمة له البتة ، فهو تمارين للتلاميذ ٠ وعثرت أخيراً على دفتر سميك بعض السمك ، قد ملئت صفحاته بكتابة دقيقة صغيرة ، ولكنه غير مكتمل، ولعل صاحبه قد نسيه٠ انه قصة السنين العشرة التي كان ألكسندر بتروفتش قد قضاها في سجن الأشغال الشاقة ، وهي قصة مفككة مجزأة لا تماسك فيها ولا تكامل ٠٠٠ تتخللها هنا وهناك حكاية قصيرة أو ذكريات غريبة رهيبة ينفضها صاحبها نفضاً يشبه أن يكون تشنجاً ، وينتزعها من نفسه انتزاعاً يوشك أن يكون اقتطاعاً٠ وقد أعدت قراءة هذه الأجزاء المنثورة، فأخذت أتساءل : تُرى ألم يكتبها كاتبها في لحظات من جنون ؟ على أن هذه المذكرات التي يسجلها محكوم بالأشغال الشاقة ، والتي يجعل عنوانها في موضع من مواضع قصته « ذكريات من منزل الأموات » ، بدت لي غير خالية من الطرافة ٠ انها تكشف عن عالم جديد كل الجدة ، عالمٍ مجهول الى ذلك الحين ٠٠٠ وأغراني ما في بعض وقائعها من غرابة ، وأغرتني ملاحظات خاصة عن هذا العالم الساقط الذي يصفه الرجل ، فكنت أقرأ في لذة وشوق ٠٠٠ قد أكون على خطأ : ولكنني أنشر بعض فصول هذه القصة ، تاركاً للقراء أن يحكموا عليها ٠



دوستويفسكي

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

١

منزل الموتى

يقاع

سجننا في آخر المدينة وراء الأسوار . فاذا نظرت من خلال شقوق السياج ، آملاً أن ترى شيئاً ، فلن يقع بصرك الا على ركن صغير من السماء ، وعلى متراس من تراب تغطيه أعشاب السهوب، ويتجول عليه الحراس ذاهبين آيبين ليل نهار ؛ فتقول لنفسك عندئذ ان سنين كثيرة ستنقضي ، وانك من خلال شق هذا السياج نفسه ستظل ترى هذا المتراس نفسه ، وهؤلاء الحرس أنفسهم ، وهذا الركن الصغير نفسه من السماء ، لا السماء التي تقوم فوق السجن ، بل سماء أخرى بعيدة . تصوروا فناءً كبيراً طوله مائتا قدم ، وعرضه مائة وخمسون ، يحيط به سياج سداسي الاضلاع على غير انتظام ، مؤلف من أوتاد غرست في الأرض عميقة : تلكم هي تخوم السجن الخارجية . وفي جهة من السياج بُني باب كبير قوي مغلق دائماً ، لا ينقطع عن حراسته عدد من الموظفين ، ولا يُفتح الا حين يخرج السجناء للعمل . فوراء هذا الباب يوجد الضياء وتوجد الحرية ... ووراءه يعيش أناس طلقاء ... والناس في داخل السياج يتصورون ذلك العالم الرائع العجيب حلماً من الأحلام ، أو حكاية من الخرافات ... أما عالمنا نحن فليس من ذلك العالم في شيء ... انه عالم خاص جداً ، لأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء . هو عالم له عاداته ، وله زيه ، وله قوانينه ... وكل ما فيه خاص . انه منزل « ميت حي » معاً ،

الحياة فيه لا شبيه لها ، والأحياء فيه ليس لهم نظراء . ان هذا الركن هو الذي أحاول أن أصفه .

اذا دخلت السياج رأيت بضع مبان . وفي كل جهة من جهات فناء واسع جداً يمتد مبنيان من خشب قد بنيا من جذوع الأشجار طبقة واحدة: تلكم هي ثكنات السجناء ، فيها يحتجزون بعد أن يقسموا عدة فئات . وفي آخر الفناء يُرى مبنى آخر هو المطبخ قد قُسم جناحين . وبعد المطبخ مبنى آخر يتخذ كهفاً للمئونة ومرآباً للعربات ومخزناً للغلال في آن واحد . اما وسط الفناء ، فهو عارٍ كل العري ، يشبه أن يكون ميداناً واسعاً . وهنالك انما يصطف السجناء ، فيجري تفقدهم وتتم مناداتهم ثلاث مرات في اليوم : صباحا وظهراً ومساءً ، وعدة مرات أثناء النهار أيضاً اذا كان الجنود الحرس ريَّابين غير بارعين في العد . وحول ذلك ، بين السياج والمباني ، تبقى مساحة خالية واسعة يحب بعض السجناء الذين يكرهون صحبة البشر ويتصفون بمزاج قاتم وطبع مظلم أن يتنزهوا حين لا يعملون: يجترون هنالك خواطرهم الحبيبة الى قلوبهم الأثيرة في نفوسهم بمنأى عن الناس وبمنجى من الأنظار . كنت اذا صادفتهم أثناء هذه النزهات التي يقومون بها أحب أن أنظر الى وجوههم الحزينة المتغضنة ، وأن أحزر ما يدور في رءوسهم من أفكار . كان أحب شيء الى أحد هؤلاء السجناء مثلاً أن يشغل نفسه بعدّ أوتاد السياج التي يبلغ عددها ألفاً وخمسمائة وتداً . لقد عدّها جميعاً ، وحفظها على ظهر القلب . وكان كل وتد من هذه الأوتاد يمثل في نظره يوماً من أيام الاعتقال ، فهو يسقط من الحساب في كل يوم من الأيام وتداً ، فيستطيع بهذه الطريقة أن يعرف على وجه الدقة عدد الأيام التي بقي عليه أن يقضيها في السجن . وما كان أصدق سعادته حين يأتي على آخر وتد من أوتاد أحد أضلاع السياج السداسي ! وكان عليه مع ذلك أن ينتظر سنين طويلة قبل أن يُطلق سراحه . غير أن

الانسان يتعلم الصبر في السجن • لقد شهدت في ذات يوم اطلاق سراح واحد من المسجونين قضى مدة الحكم ، فأخذ يودّع رفاقه • كان قدقضى في السجن عشرين عاما من الأشغال الشاقة • لقد رآه عدد من السجناء يدخل السجن شاباً ، غير عابىء بشيء ، غير مبالٍ شيئاً ، لا يفكر لا في الجريمة التي ارتكبها ولا في العقوبة التي وقعت عليه : وهو الآن شيخ أشيب الشعر ، حزين الوجه ، عابس الأسارير • لقد طاف على ثكناتنا الست صامتا ، فكان كلما دخل واحدة منها ، صلّى أمام صورة العذراء ، وحيّا رفاقه تحيةً عميقة ، راجياً منهم أن لا يحفظوا عنه ذكرى سيئة • وأذكر أيضاً أن قد نودي أحد السجناء في ذات مساء ، وهو رجل كان في الماضي فلاحاً سيبرياً غنياً ، وقد أُبلغ قبل ذلك بستة أشهر أن زوجته تزوجت غيره ، فأحزنه ذلك كثيراً ، وها هي ذي تأتي في هذا المساء لتعطيه صدقة • لقد تحدثا دقيقتين ، وبكيا كلاهما ، ثم افترقا الى غير لقاء بعد الآن ••• ورأيت وجه هذا السجين حين عاد الى الثكنة ••• حقاً ان الانسان يتعلم هنا كيف يتعود احتمال كل شيء •••

ومتى بدأ الشفق أدخلونا الى الثكنات نُسجن فيها الليل كله • ولقد كان يؤلمني ويحزنني دائماً أن أترك الفناء الى الثكنة • تصوروا غرفة طويلة منخفضة خانقة ، تضيئها شموع لا تكاد تنيرها ، وتشيع في جوها رائحة ثقيلة تبعث على الغثيان • لا أستطيع أن أفهم الآن كيف عشت في هذه الثكنة عشر أعوام كاملة • وكان سريري في الثكنة ثلاثة ألواح من خشب ، وذلك هو المكان الوحيد الذي كنت أستطيع التصرف فيه والتمتع به • كان يُحشر في كل غرفة أكثر من ثلاثين رجلاً • وفي فصل الشتاء كانوا يحبسوننا في ساعة مبكّرة ، فكان لا بد من انتظار أربع ساعات حتى ينام جميع السجناء ، أما قبل ذلك فصخب كبير ، وضجة شديدة ، وقهقهات وشتائم وصليل سلاسل وأبخرة فاسدة ودخان كثيف ، وفوضى

رءوس محلوقة وجباه متغضنة وثياب خلقة ... وما الى ذلك من أمور تثير الاشمئزاز وتبعث على التقزز ... نعم ان الانسان حيوان طويل العمر ! ويمكن أن نعرفه بقولنا : الانسان كائن قادر على أن يتعـود كل شيء ، ولعل هذا خير تعريف يمكن أن يعرّف به الانسان .

كان عددنا مائتين وخمسين سجيناً . وذلك عدد لا يكاد يتغير ، فما ان يكمل أحد مدة سجنه حتى يصل سجناء آخرون . وكان بين السـجناء من يلقى حتفه في السجن أيضاً . والسـجناء من جميـع أنواع البشر . وأغلب الظن أن كل حكومة من حكومات روسيا ، أن كل اقليم من أقاليم روسيا ، قد أرسل الى هذا السجن من يمثله . وكان بين السجناء أجانب ، بل وكان منهم رجال جاءوا من جبـال القفقاس . وكان هـذا العالم كله يُقسَّم فئات مختلفة ، تبعاً لضخامة الجريمة ومدة العقاب . وكان لجميع الجرائم أناس يمثلونها بين هؤلاء السجناء . ويتألف أكثر سكان السجن من محكومين بالأشغال الشاقة من الفئة المدنية (أى من «كبار المحكومين» على حد تعبير السجناء) ، فهم مجرمون جُرِّدوا من جميع حقوقهم المدنية ، وهم أعضـاء أدانهم المجتمع ، ولفظهـم ، ووسم جباههم بالحـديد المحمى وسماً يشهد الى الأبد بالجريمة التى قارفوها . وهم يودَعون السجن مدة تتراوح بين ثمانى سنين واثنتى عشرة سنة ، حتى اذا انقضت مدة العقوبة أُرسلوا الى أحد أقاليم سيبيريا مستوطنين . أما فئة المجرمين العسكريين فانهم لا يُجرَّدون من حقوقهم المـدنية ـ ذلك ما كان متبعاً فى الكتائب العسـكرية ذات النظام الروسى ـ ولا يرسـلون الى السجن الا مدة قصيرة بعض القصر . فمتى انقضت هذه المدة عادوا الى المكان الذى جاءوا منه ، وأُدخلوا جنوداً فى الفرق المعسكرة على حدود سيبريا . ان كثيـراً من هؤلاء كانوا يرجعـون الينا بسبب ارتكابهم جـرائم خطيرة ، ولكنهم لا يسجنون فى هذه المرة عدداً قليلاً من السنين ، بل يسـجنون عشرين

سنة فى أقل تقدير ، وهم يشكلون عندئذ فئة يطلق عليها اسم «المؤبدين». ومع ذلك لم يكن « المؤبدون » مجـردين من حقـوقهم . وكان ثمة فئة اخرى كبيرة العدد يطلق عليها اسم « القسم الخاص » ، وهى تتالف من اسوا المجرمين نوعاً وأشدهم خطرا ، فهم اناس مدمنـــون على الاجرام عريقون فيه ؛ وكان يُرسل الى هذا القسم الخاص محكومون من جميع البلاد الروسية . وكان هؤلاء يعدون أنفسهم مؤبدين ، لأن نهاية المدة التى يجب أن يقضوها في السجن غير معينة . وكان القانون يقضى بأن يعهـد اليهم بأشغال مضاعفة مثنى وثلاث . وهم يبقون فى السجن خارج سيبريا الى ان يُشرع في سيبريا بأعمال شاقة تبلغ غاية الارهاق . كان هـــؤلاء يقولون للسجناء الآخرين « أنتم هنا الى أجل معلوم ، أما نحن فباقون الى اخر الحياة . » . وقد علمت فيما بعد أن هـــذا القسم قـد ألغى ، وأن المحكومين العسكريين قد أبعـــدوا أيضاً ، وأنشئت لهم فـرقة ذات نظام خاص . وطبيعى أن ادارة الســـجن قد تبـدلت كذلك ، فأنا أصـف الآن اذن تقاليد عهد قديم ، وأموراً ألغيت منذ زمان طويل ...

نعم ، منذ زمان طويل ... حتى ليخيَّـــل الىّ أن ذلك كله كان حلماً من الأحلام . انني أتذكر الآن يوم دخولى الى السجن فى مساء من أماسى شهر كانون الأول عند هبوط الليل . كان السجناء عائدين فى تلك الساعة من أشغالهم وكان الموظفون يهيئونهم للتفقد . فتح لى عريف ذو شاربين طويلين باب هذا المنزل الغريب العجيب الذى سلخت فيه من عمرى ذلك العـــدد كله من السنين ، وقاسيت فيـه من الشـــدائد وكابدت من الانفعالات ما لم يكن في وسعى حتى أن أتصوره على وجه التقريب لولا أن قاسيته وكابدته فعلاً . هل كان في وسعى مثلاً أن أتخيل العـذاب الرهيب الذى يعانيه المرء حين لا يستطيع أن يخلو الى نفسه دقيقةً واحدة خلال عشرة سنين؟ نعم .. انني لم أستطع أن أخلو الى نفسى مرةواحدة

قط ••• سواء أثناء العمل تحت الحراسة ، أو في الثكنة مع مائتي «رفيق» ••• ولكن كان عليّ أن أتعود هذا •••

كان بين السجناء أناس ارتكبوا جريمة قتل عن طيش وخفة ، وكان بينهم أناس احترفوا القتل احترافاً ؛ كان بينهم قطاع طـــرف وقادة قطاع طرق وكان بينهم مجرد لصوص أتقنوا صناعة العثور على مالٍ في جيب أحد المارّة ، أو اختطـــاف أي شيء من فـــوق مائدة ؛ وكان بينهم أناس لا يستطيع المرء أن يقول لماذا ولا كيف أُدخلوا الســـجن • وكان لكل سجين من السجناء قصته المضطربة المبهمة الثقيلة الشاقة الاليمة كغداة ليلة سكر • والسجناء على وجه العموم لا يتكلمون عن ماضيهم الا قليلا جداً ، فانهم لا يحبون أن يقصوا هذا الماضي ، حتى أنهم يحاولون أن لا يفكروا فيه • وقد عرفت بين رفاقي في القيد الذي يشدنا معاً قتلةً يبلغون من شدة المـرح وقلة الاكتراث أن المـرء يســتطيع أن يراهن على أن ضميرهم لم يعـرف النـدامة في يوم من الأيام • ولكن كان بين رفاقي أيضـاً أناس عابسون صموتون لا يكادون يتكلمون• وكان يندر أن يقص أحد حكايته، لأن حب الاستطلاع هذا لم يكن رائجاً ولا مألوفاً، بل نستطيع أن نقول انه لم يكن مقبولاً • ومع ذلك كان يتفق من حين الى حين أن يروى سجين لسجين قصته من فراغ الوقت وقلة العمل ، فيصغي الثاني لكلام الأول بغير اكتراث ؛ والحق أنه ما كان لأحـد أن يدهش جاره بما يقصـــه عليه أو يرويه له • « أتظننا نحن جهلة ؟ » : تلكم هي العبـارة التي كان السجناء يقولونها ساخرين معتزين ! أذكر أن واحداً من قطاع الطرق سكر يوماً (وكان يمكن أن يسكر السجناء في بعض الأحيـان) فروى كيف قتـل طفلاً في الخامسة من عمره ، ثم قطّعه ارباً ارباً : اجتذبه في أول الأمر بلعبة ثم مضى به الى مخزن من مخازن المئونة فمـزقه هنالك أشلاء • فاذا بالثكنة كلها ، وكانت من قبـل تضحك لأمازيح الرجـل ، تطلق عندئذ

صرخة واحدة ، فاضطر الرجل أن يصمت • ولئن قاطعه السجناء وحالوا شينه وبين اتمام حديثــه ، فما ذلك لان القصة قد أثارت استياءهم أو بعثت الاستهجان والاستنكار ، بل لأنه ليس مقبولاً أن يتحدث المرء في «هذا» • ويجب ان أذكر هنا أن السجناء كانوا على درجة من التعليم • كان نصفهم ـ ان لم يكن اكثر من نصفهم ـ يعرف القراءة والكتابة • اين يمكنك أن تقع ، في روسيا ، بين أى طائفة من الناس عددها مائتان وخمسون رجلاً ، على نصف يعرف القراءة والكتابة ؟ وقد سمعت بعد ذلك من يقول ان التعليم يفسد أخلاق الناس ، وسمعت من يستدل على ذلك بهــذه الوقائع نفسها • الا ان هذا الحكم لخطا : فان التعليم لا شأن له قط بهذا السقوط الأخلاقى • يجب أن نسلّم مع ذلك بأن التعليم ينمّى روح العزيمــة ، ويقوّى ارادة التصميم لدى الشعب ، وما ذلك بعيب • وكان لكل فئة من الفئات أو لكل قسم من الأقسام زى خاص به : فهذه فئة يرتدى أفـرادها صدرةً من جوخ ، لونـها بين البنى والرمادى ، وسروالاً أحد ساقيه بنى والثانى رمادى • فى ذات يوم ، بينما كنا فى الشغل ، جاءت بنت صغيرة تبيع « سميطاً » مصنوعاً من الدقيق الأبيض ، فنظـرت الىَّ طويلاً ، ثم انفجرت ضـــاحكةً وصاحت قائلة : « هه ••• ما أبشع منظرهم ! انهم لا يملكون حتى ما يكفى لصنع ملابســـهم من جـوخ بنى أو من جـوخ رمادى•» • وكان ثمة فئة أخرى يرتدى أفرادها صدرة من جوخ رمادى، لكن أكمامها بنية • وكانت الرءوس تحلق أيضا على صور مختلفة ، فتارةً تُحلق الجمجمة طولاً من القذال الى الجبين ، وتارة تُحلق عَرْضاً من الأذن الى الأذن •

ان بين أفراد هذه الأسرة من التشابه الواضح البارز ما يتيح للمرء أن يميّزها من أول نظرة : فحتى الشخصيات المرموقة بينهم ، الشخصيات التى تسيطر على سائر السجناء دون أن تريد ذلك ، تحاول أن لا تشذ عن

الآخرين ، وانما تتبنى ما يتبنون وتسلك كما يسلكون • ويمكن أن نقول ان جميع السجناء ــ باستثناء عدد قليل يتمتع بمرح شـديد ويحظى لذلك باحتقار الآخرين ــ كانوا عابسي الوجوه ، مقطبين ، كالحين ، حسودين ، مغرورين غرورا رهيبا ، مدّعين ، سريعي التأذي ، شـــديدي التمسك بالامور الشكلية • والفضيلة العليا فى نظرهم هى ان لا يـدهش أحـدهم من شيء، لذلك كانوا يعنون أشد العناية باصطناع مظهر الرصانه والرزانة. ولكنّ كثيرا ما يحل محلّ مظهر التعالى ، بسرعة كومض البرق ، صغار واضح وجبن جلي • ومع ذلك كان بينهم رجال أقوياء أشداء حقاً ، وكان هؤلاء ينطلقون على سجيتهم وطبيعتهم مخلصين صادقين ••• ولكن الشيء الغريب هو أنهم فى أغلب الأحيان على جانب كبير من الخيلاء توشك من فرطها أن تكون مرضاً • كانت الخيلاء فى المحل الأول دائماً • أما أكثر السجناء فكانت أخلاقهم منحطة حقيرة ، لذلك كانت النمائم والوشــايات والسعايات تنهمــر انهمار المطـــر الهتـــون ••• كانت حياتنا جحيماً لا يطـاق •• ولكن ما كان لأحد أن يجـرؤ على رفع صـوته بالشكوى من أنظمة الســجن الداخلية ، ولا من العادات المألوفة المقبـــولة • فكان السجناء يخضعون لهذه الأنظمة وهذه العادات صاغرين ، شاءوا أم أبوا• وكان هنالك أشخاص ذوو طباع شرسة ومراس صعب، فهؤلاء لايخضعون الا بعد لأى ، ولكنهم يخضعون على كل حال • ان السـجناء الذى كانوا قبل دخولهم السجن قد تجاوزوا كل الحدود ، ودفعهم غرورهم الطائش الاهوج الى ارتكاب جرائم رهيبة على غير شعور منهم ، كمـا لو كانوا فى حالة هذيان أو جنون ، فروّعوا مدناً بأسرها ، ان هؤلاء أنفسهم ما يلبث نظام السجن أن يروّضهم ••• فتلين قناتهم ، وتهدأ طباعهم بعض الهدوء• والقادم « الجـديد » الذى يحاول أن يشــــذ ، سرعان ما يلاحظ أنه لن يدهش هنا أحداً ، فاذا هو يخضع شيئاً بعد شيء ، ويتلاءم مع الجو العام ،

ويصطنع وقاراً شخصياً يكاد يصطنعه كل سجين ، تماماً كما لو كان اسم السجين عنوان شرف ولقباً من ألقاب المجـد . ثم انك لا تلاحظ أية علامة من علامات الخجل ، أو أية امارة من امارات النـدامة ، ولكن نوعا من الخضوع الخارجي الذي يشبه أن يكون خضوعاً رسمياً ، هو الذي يتحكم بمستقبل السلوك . «نحن أناس مضيّعون ، لم نعرف كيف نعيش احرارا . فعلينا الآن أن نجتاز الشارع الأخضر * ، وأن نعد صفوفه ونعيد عدّها . » « لم تشأ أن تطيع أباك وامك ، فعليك الآن أن تطيع جـــلد الحمار . » ؛ « أبيت أن تطرِّز ، فكسر الآن الحجارة . » . كذلك كانوا يقولون ، وكذلك كانوا يرددون ، على ســبيل الموعظة بالأقوال المأثورة والامثـال المضروبة ، دون أن يأخذوا هذه الاقوال مأخذ الجد رغم ذلك ، فما كانت الا كلمات يطلقونها في الهواء ... وهـل اعترف واحـد منهم بأنه أثم ؟ ابدا ! ... انه ليكفي أن يحاول غريب ـ لا سجين ـ أن يعيب على أحد السجناء جريمته أو أن يهينه حتى تنطلق الشتائم والمسبات هنا وهناك الى غير نهاية ! وما كان أحذق هؤلاء السجناء في صنع المسبّات والشـتائم مرهفةً لطيفة ! ... ان في سبابهم وشتائمهم لرقة ودقه ... انهم في هذا المجـــال فنانون ! ... الشتيمة علم حقاً .. انهم لا يحـاولون أن يجرحوا الخصم باللفظ الصريح بل بالمعنى الخفي الذي تشتمل عليـه عبارة يشيع في داخلها السم . وكانت مشاجراتهم التي لا تنقطع تساهم كثيراً في تطوير هذا الفن الخاص ، وفي تحقيق النمو والتقدم له .

ولمـا كانوا لا يعملون الا في ظل التهديد بالعصا ، فلقد كانوا كسالى فاسدين ساقطين . والذين لم يكونوا قد فسدوا قبل وصولهم السـجن ، فانهم ما يلبثون أن يفســـدوا فيه . وكانوا غرباء بعضـهم عن بعض ، قد جمعتهم الظروف على غير ارادة منهم . كانوا يقولون : « لقد أبلى الشيطان ثلاثة أزواج من الأحذية حتى استطاع أن يجمعنا . » . وكانت المـكائد

والدسائس والوشايات والنمائم والسعايات والحسد والمشاجرات ، كان ذلك كله يحتل المقام الأول في حياة الجحيم تلك التي نعيشها . ما من لسان بذيء بقادر على أن يصمد لهؤلاء القتلة الذين تهمّ الشتيمة أن تخرج من أفواههم في كل لحظة .

كان بينهم ، كما سبق أن قلت ، رجال أقوياء الارادة ، صلاب العود، شديدو البأس ، شجعان القلب ، تعودوا كيف يسيطرون على أنفسهم وكيف يتحكمون بسلوكهم . لقد كان الآخرون يهابون هؤلاء ويقدرونهم ويحترمونهم على غير ارادة منهم ؛ وكان هؤلاء رغم حرصهم الشديد على سمعتهم يحاولون أن لا يسيطروا على أحد وأن لا يفرضوا أنفسهم على أحد ، وأن لا يحاصروا أحداً ، وكانوا لا يتهاترون ولا يتشاجرون ولا يتشاتمون بغير داع الى مهاترة أو مشاجرة أو مشاتمة . كان سلوكهم سلوكاً رضياً سليماً كريماً من جميع النواحي . كانوا يتميزون بالعقل والتبصر والحكمة ، وكانوا طيّعين دائماً على وجه الاجمال ، لا عن تقيد بمبدأ ولا عن شعور بواجب ، بل على أساس اتفاق صامت بينهم وبين ادارة السجن ، اتفاق يدركون هم ما يعود عليهم به من مزاياه وما يجلبه لهم من منافع . ومع ذلك كانوا يعاملون في حذر . أذكر أن سجيناً شجاعاً قوى البأس معروفاً بما يتصف به من ميول تشبه ميول الوحوش الكاسرة ، استدعى في ذات يوم ليجلد . كان ذلك أثناء الصيف . ولم يكن أحد يعمل . وكان الضابط الذى هو الرئيس المباشر للسجن قد وصل الى مقر الحرس الموجود قرب الباب الكبير ليشهد تنفيذ العقوبة بنفسه . كان هذا الضابط ، وهو برتبة ميجر ، بليةَ السجناء العظمى* ، قد جعلهم يرتعدون أمامه خوفاً وذعراً . كان يبلغ من القسوة حداً يفقده صوابه ويضيّع له رشده . كان ينزل عليهم نزول الصاعقة ، على حد تعبيرهم . غير أن نظرته التي لا تقل حدةً عن نظرة الفهد هي التي كانت ترعبهم خاصة . كان

يستحيل اخفاء شيء عنه . كان يرى دون أن ينظر ان صح التعبير . كان اذا دخل السجن عرف على الفور ماذا يجرى فى اقصى الطرف الآخر من السور . لذلك كان السجناء يطلقون عليه اسم « صاحب الاعين الثماني». وكان أسلوبه فى المعاملة سيئاً ، فهو لا يزيد على أن يثير الحنق والغيظ فى نفوس هؤلاء الناس الذين لا يعوزهم حنق ولا غيظ . ولولا الضابط النقيب ، الذى كان انسانا حسن التهذيب واسع الصدر عاقلا يهدّىء روع الميجر ويطامن اندفاعاته ويمنع نزواته اذن لاحدث ذلك الميجر كثيراً من الأذى ولأوقع كثيراً من المصائب ولسبب كثيراً من الآلام بسوء ادارته . وانى لأتساءل كيف أمكن أن يحال على التقاعد سليماً لم يمسسه أذى ؛ والحق أنه صرف من الخدمة بعد صدور حكم فى حقه .

امتقع لون السجين حين نودى . كان فى العادة يرقد على الأرض شجاعاً لا ينطق بكلمة واحدة ، حتى اذا فرغوا من جلده بالسوط نهض ينفض جسمه . كان يتحمل هذا التعذيب بهدوء كفيلسوف . صحيح أنهم كانوا لا يعاقبونه الا لذنب قارفه ، ولا يوقعون فيه العقوبة الا بكثير من الحذر والاحتياط . ولكنه كان يعد نفسه فى هذه المرة بريئاً . لذلك امتقع فى هذه المرة لون وجهه ، واستطاع وهو يدنو من جنود الحرس فى رفق وهدوء أن يخفى فى كمّه سكيناً من السكاكين التى يستعملها الحذاءون . يجب أن نذكر مع ذلك أنه كان محظوراً حظراً مطلقاً على السجناء أن يملكوا آلات قاطعة ، كالسكاكين والخناجر والمدى وما الى ذلك . وكان يجرى من أجل ذلك تفتيش يقوم به المفتشون قياماً دقيقاً على حين غرة أحياناً كثيرة . وكانت مخالفة هذا النظام من أنظمة السجن تنزل فى المخالف عقوبات شديدة قاسية . ولكن لما كان من الصعب أن ينتزع من مجرم ما يريد اخفاءه ، ولما كان السجن من جهة أخرى لايخلو من آلات قاطعة حتماً ، فان هذه الآلات القاطعة لم تغب من السجن فى

يوم من الأيام فاذا أمكنت مصـــادرة بعض هذه الآلات القاطعة ، لم يلبث السجناء أن يحصلوا على آلات قاطعة جديدة تحل محــل تلك التى تمت مصادرتها • اندفع السجناء نحو السياج خافقى القلوب ليشهدوا من خلال الشقوق ما سيحدث • كانوا يعرفون أن بتروف سيرفض فى هذه المـرة أن يعنو للجلد ، وأن نهاية الميجر قد أزفت • ولكن الميجر قد ركب عربتـه فى اللحظة الحاسمة وانصرف عاهداً بتنفيذ العقوبة الى ضابط مرءوس • قال السجناء فيما بعـد : « ان الله هو أنجاه ! » • أما بتروف فقد تحمـل القصاص هادئاً ، ذلك أن غضبه قد تطامن منذ انصراف الميجر •انالسجين يخضع ويطيع الى درجة ما ، غير أن هنالك حـــدوداً ما ينبغى تجاوزها •

لا شيء أدعى إلى الدهشة والعجب من تلك الانفجارات الغريبة التي تظهر لدى السجناء في بعض الأحيان اندفاعاً وعصياناً وتمرداً • وما أكثر ما نرى رجلاً ظل خلال سنين عدة يتحمل أقسى العقوبات ثم اذا هو يثور ويعصى ويتمرد لسبب تافه ، لأمر لا قيمة له البتة ••• حتى ليمكن أن يقال عنه عندئذ انه قد جُنّ ••• وذلك ما يقال على كل حال •••

سبق أن قلت اننى لم ألاحظ خلال عدة سنين أية علامة من عــلامات الندامة ، ولا أيسر أثر من آثار الأسف للجــريمة المرتكبة ، وان أكثر السجناء كانوا فى قرارة نفوسهم يعتقدون أن من حقهم أن يفعلوا ما يحلو لهم ••• ولا شك أن للكبر والغرور والقدوة السيئة والتباهى والتواضع الكاذب شأناً فى ذلك • ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم على كل حال أنه سبر قرارة هذه القلوب التى استسلمت للضياع ، فوجدها موصدةً دون كل ضياء ؟! ••• على أننى كان فى وسعى خلال هذا العدد كله من السنين أن ألتقط أية ايماءة ، ولو كانت عابرة خاطفة ، تدل على شيء من أسف أو ندامة أو عذاب ضمير• وذلك ما لم ألاحظ منه شيئاً والحق يقال • ليس فى وسع الانسان أن يحـكم على الجــريمة وفقاً لآراء جاهزة ، وفلسفة

الانسان فى الحكم على الجريمة أعقد قليلاً مما قد نتوهم . ومن الثابت المحقق أنه لا السجون ولا المعتقلات ولا نظام الأشغال الشاقة ، لا شيء من هذا كله بقادر على اصلاح المجرم . ان هـــذه العقوبات لا تزيد على أن تنزل فيه قصاصاً ، وأن تقى المجتمع من الجرائم التى قد يقارفها . وليس من شأن الاحتجاز والأشغال المرهقة الا أن تفاقم الكره والبغض والحقـد لدى هؤلاء الناس ، والا أن تزيد ظمأهم الى الملذات المحـرّمة ، والا أن تولّد فيهم مزيداً من الاستخفاف والاستهتار . واننى من جهة أخرى لعلى يقين من أن نظام الزنزانة المنفردة لا يحقق الا هدفا ظاهراً خداعاً ، فهـو يجرّد المجـرم من كل قوته وكل طاقته ، وهـــو يثير الحفيظة فى روحه ويضعف نفسه ويروّعها ، ثم يخرج لنا من ذلك كله موميـاء جافة شبه مجنونة ، يقدمها الينا مثالاً على الصـلاح الذى تحقق فى نفس المجرم ، وعلى الندامة التى شـــعر بها . ان المجرم الذى تمرد على المجتمع يكره المجتمع ويعد نفسه دائماً على حق : فالمجتمع هو المخطىء فى نظره ، أما هو فليس بمخطىء . ثم انه قد عوقب ، لذلك يرى أنه قد أصبح بريئا . دعك من اختلاف آراء الناس بعضهم مع بعض فى شأن الجريمة : انهناك جرائم يعترف كل انسان فى كل مكان وزمان ، وتعترف جميع القـوانين والأنظمة والشرائع بأنها جرائم لا جدال فيها ، وبأنها ستظل تعـد جرائم ما ظل الانسان انساناً . واننى لم يتح لى أن أسمع الا فى السجن قصصا عن أشد الجرائم غرابة وهولاً يرويهـا صاحبها ضاحكاً ضحكاً يشبه أن يكون ضحك طفل ، ولا يكاد يحاول أن يكظم ضحكه. لن أنسى مدى الحياة قصة ابن قتل أباه* ، وكان قبل ذلك ضابطاً وكان من طبقة النبلاء . لقد كان هذا الابن مصدر شقاء أبيه . كان ابناً شاذاً ما فى ذلك شك. وكان الأب يحاول جاهداً أن يصدّه عن سلوكه السيء باسداء النصح اليه عسى أن يوقيه من الانزلاق الى الهاوية التى كان ينحدر اليها ، فلم يجده ذلك

شيئاً . واذ كان الابن مثقلاً بالديون ، وكان يتصور أن أباه يملك عدا المزرعة مالاً يخبئه ، فقد قتل أباه بغية أن يئول اليه الميراث بمزيد من السرعة . ولم تكتشف الجريمة الا بعد انقضاء شهر على ارتكابها . وفى أثناء ذلك الشهر استمر القاتل على فجوره واستهتاره بعد أن أبلغ القضاء اختفاء أبيه . وأخيراً استطاعت الشرطة ، أثناء غياب الابن ، أن تكتشف جثة القتيل الشيخ فى قناة تغطيها الأشجار . وكان الرأس الأشيب مفصولا عن الجذع ، مسنداً الى الجسم العارى كل العرى ، وقد وضع القاتل تحت الرأس وسادة من قبيل السخرية والهزء . لم يعترف الشاب بشيء : ولكنه جرِّد من رتبته العسكرية ، وانتزعت منه امتيازات النبالة ، وأرسل الى سجن الأشغال الشاقة يقضى فيه عشرين عاماً . فكيف كان هذا الشاب طوال المدة التى عرفته فيها ؟ لقد كان دائما مشرق المزاج لا يبالى شيئا ولا يحفل بشيء ... لم ألق فى حياتى شابا فى مثل طيشه وقلة تبصره ، رغم أنه لم يكن غبيا قط ... ولم ألاحظ فيه شيئا من الافراط فى القسوة . وكان السجناء الآخرون يحتقرونه ، لا بسبب جريمته ، فما كان أحد يأتى على ذكرها أو يناقش فيها ، بل لأنه لم يكن على شيء من الرصانة والوقار . وهذا هو يمتدح فى ذات يوم ماتتصف به أسرته من قوة الجسم وتمام العافية بالوراثة ، فيقول : « انظروا الى أبى مثلا : انه الى يوم موته لم يمرض قط ! » . ان مثل هذا التبلد الحيوانى فى الاحساس يبدو أمرا مستحيلا حين يبلغ مثل هذه الدرجة الرهيبة : انه شيء شاذ الى أبعد حدود الشذوذ . فلا بد أن يكون ثمرة آفة عضوية ، لا بد أن يكون ثمرة تشوه جسمى وروحى لم يعرفه العلم حتى أيامنا هذه ، ولا يمكن أن يكون الامر أمر جنوح أو اجرام فحسب . ولم أصدق طبعا أن تُرتكب جريمة تبلغ هذا المبلغ من الوحشية ، غير أن أناسا من المدينة التى كان يقطنها الشاب ، كانوا يعرفون جميع تفاصيل

قصته فرووها لى ؛ وكانت الوقائع من الوضوح بحيث يستحيل رفض التصديق والاقتناع بصحة وقوع الجريمة •

وقد سمعه السجناء ذات مرة يصيح أثناء نومه : « اقبض عليه ! اقبض عليه ! اقطع رأسه ، اقطع رأسه ، رأسه ! ••• »

وكان جميع السجناء تقريبا يحلمون بصوت عالٍ ، أو يهذون أثناء النوم • وكانت ألفاظ الشتم والسب وأسماء الخناجر والفئوس تتردد فى أحلامهم أكثر الأحيان • وكانوا يقولون : « نحن أناس مخربون ، ليس لنا أحشاء ، لذلك نصرخ فى الليل • » •

ولم تكن الأشغال الشاقة فى قلعتنا عملا بل الزاما : كان السجناء يقومون بمهمتهم أو يعملون عددا من الساعات يحدده القانون ، ثم يعودون الى السجن • • وكانوا يكرهون هذا العمل الذى يُجبرون على القيام به اجبارا ، فلولا أن كل سجين من السجناء كان يشغل وقته بعمل شخصى يقبل عليه من تلقاء نفسه ويهب له كل ذكائه ، اذن لاستحال عليه أن يطيق احتمال السجن • وكيف يمكن لهؤلاء الناس الذين يتصفون جميعا بطبيعة قاسية ، والذين عاشوا حياة عريضة وما يزالون يريدون أن يعيشوا ، والذين جمعتهم الظروف على غير ارادة منهم ، بعد أن نبذهم المجتمع ، كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يعيشوا حياة سليمة طبيعية ؟

ان الكسل وحده ينمى ويعزز لدى السجناء أشد الغرائز الاجرامية عتواً ، حتى تلك التى ما كان لهم أن تخطر ببالهم فى يوم من الأيام •

ان الانسان لا يستطيع أن يحيا بلا عمل ، ولا يستطيع أن يحيا بدون تملك طبيعى مشروع • فاذا لم تتوفر هذه الشروط انحلت أخلاقه وفسدت طباعه وانقلب وحشا كاسرا • لذلك كان لكل سجين ، بحكم

ضرورة طبيعته وبحكم غريزة حب البقاء ، كان لكل سجين عندنا مهنة يتعاطاها وعمل يقوم به • وكانت أيام الصيف الطويلة تنقضي كلها تقريبا في الأعمال المفروضة ؛ وكانت ليالي الصيف القصيرة لا تكاد تكفي للنوم • وليس الأمر كذلك في الشتاء • كان النظام يوجب أن يحبس السجناء في الثكنات متى هبط الليل • فما عساهم يصنعون أثناء الليالي الطويلة الحزينة غير أن ينصرفوا الى عمل من الأعمال ؟ لذلك كانت كل ثكنة من الثكنات تتخذ في ليالي الشتاء مظهر ورشه كبيرة رغم أن ذلك ممنوع محظور ! والحق أن العمل نفسه لم يكن ممنوعا أو محظورا ، ولكن الممنوع والمحظور انما هو اقتناء آلات أو أدوات ••• وهل يمكن العمل بغير آلات أو أدوات ! ••• كان السجناء يعملون اذن خفية في السر ••• ويظهر أن ادارة السجن كانت تغمض أعينها عن هذا • وكان كثير من السجناء يصلون الى السجن وهم لا يعرفون ماذا يصنعون بأصابعهم العشرة ، فاذا هم يأخذون يتعلمون من رفاقهم مهنة من المهن ، حتى اذا أطلق سراحهم خرجوا من السجن عمالا مهرة • كان بينهم حذاءون واسكافيون وخياطون ونحاتون وقفالون ونقاشون • حتى لقد كان بينهم يهودي اسمه اشعيا بومشتاين كان يعمل صائغا ومرابيا في آن واحد • كان جميع السجناء يعملون ، فيجنون من عملهم بعض الدريهمات ، لأن طلبات كثيرة كانت تأتي اليهم من المدينة • ان المال حرية رنانة راجحة في نظر من حرم من الحرية حرمانا كاملا • فاذا شعر أن في جيبه بعض المال ، كان له في ذلك عزاء عن حاله ، ولو لم يكن يستطيع أن ينفق هذا المال في وجه من الوجوه (ولكن يجب أن نذكر أن انفاق المال ممكن في كل مكان وكل زمان ، لا سيما وأن المرء يشتهي الثمرة المحرمة اشتهاء مضاعفا ، ولقد كان يمكن الحصول على خمرة حتى في السجن) • وكان السجناء جميعا يدخنون رغم أن

الغلايين كانت ممنوعة منعاً باتاً . فكان المال والتبغ يقيان السجناء شرّ الجريمة : فلولا العمل لأهلك بعضهم بعضاً ، لولاه لدمّر بعضهم بعضا ، كما تفعل العناكب حين تُحبس فى حق من زجاج . ومع ذلك كان العمل والمال كلاهما ممنوعين محظورين : وكثيراً ماكانت ادارة السجن تقوم فى الليل بحملات تفتيش دقيق فتصادر كل ما تقع عليه عندالسجناء من أشياء تحظّر الأنظمة اقتناءها ؛ وكانت حملات التفتيش هذه تظفر باكتشاف بعض هذه الأشياء المحظورة مهما يتفنن السجناء فى اخفائه . وكان هذا أحد الأسباب التى تدفع السجناء الى أن لا يحتفظوا بهذه الأشياء زمنا طويلا ، بل يسارعون الى أن يستبدلوا بها خمرا يشربونه . وذلك يعلل لنا كيف كان لا بد أن تدخل الخمرة الى السجن . كان السجين لا يحرم من ماله متى صودر فحسب ، بل كان الى ذلك يجلد جلداً قاسياً ! ...

وما يكاد ينقضى على حملات التفتيش زمن قصير ، حتى يحصل السجناء من جديد على نظائر الأشياء التى تمت مصادرتها ... فتعود الأمور الى ما كانت عليه ... وكانت ادارة السجن تعلم ذلك ... ورغم أن ظروف حياة السجناء كانت أشبه بظروف حياة الناس الذين يسكنون فوق بركان فيزوف ، فلم يكن أحد منهم يتمتم بكلمة واحدة تذمرا من العقاب .

ومن لم يملك صنعةً يدوية كان يتاجر بطريقة من الطرق . وكانت أساليب الشراء والبيع طريفة . فبعضهم يشترى أشياء عتيقة ثم يبيعها ، وهى أشياء ما كان لأحد غير سجين أن يخطر بباله بيعها أو شراؤها ، حتى ولا اعتبارها ذات قيمةٍ ما . ان أحقر خرقة بالية كان لها ثمنها ، وكان يمكن أن تنفع . وكان المال يكتسب فى نظر السجناء ، بسبب فقرهم ، قيمة أعلى من قيمته فى الواقع . ان أشغالا طويلة شاقة ،

بل ومعقدة كل التعقيد في بعض الأحيان ، كان لا يُدفع ثمنها الا بضعة كوبكات • وكان بعض السجناء يقرضون بالربا لمدة اسبوع ، فيجنون من ذلك بعض الأرباح • كان السجين المبـــذّر أو المتلاف يحمل الى المرابى الأشياء القليلة التى يملكها ، فيرهنهـا لديه لاقتراض دريهمات قليلة بفائدة ضخمة • فاذا لم يسترد المدين آشـــياءه بدفع الدين فى موعده المضروب ، كان من حق المرابى أن يبيعها بالمزاد فى غير رحمة ، وبلا ابطاء • وقد بلغ الربا فى السجن من الرواج والازدهار أن السجناء كانوا يرهنون حتى أشياء تملكها الدولة : كالملابس والأحذية وما الى ذلك من أمتعة لا غنى عنها فى لحظة من اللحظات • فاذا قبل الدائن رهن أمتعة من هذا النوع ، جرت الأمور فى كثير من الأحيان مجرى لم يكن فى الحسبان : فها هو ذا صاحب الامتعـــة يمضى بعد اسـتلام المال الى العريف (رئيس المراقبين فى السجن) ، فيبلغه نبأ اختفاء امتعة من ملك الدولة ، فتنتزع الامتعة عندئذ من المرابى ، دون أن يرى أحد أن هناك ما يدعو الى تبليغ ادارة السجن حقيقة الأمر • وما من مشاجرة قامت يوماً بين المرابى وصاحب الأمتعة ــ وذلك أظرف ما فى الأمر ــ فان المرابى يرد الامتعة المطلوبة صامتاً عابس الوجه مقطب الجبين ، كأنه كان يتوقع ذلك منذ زمن طويل •• ولعله كان يعترف لنفسه بأنه لو كان فى محل المدين لما فعل غير ما فعله المدين •• ولذلك اذا تشاتم الرجلان فى اثر حادثة من هذا النوع ، فانهما لا يتشاتمان عن كـره وبغضاء ، بل يتشـاتمان ابراءً للذمة ان صح التعبير •

وكان السجناء يسرق بعضهم بعضا بلا خجل ولا حياء • ان لكل سجين صندوقا صغيراً مزوداً بقفل ، يدس فيه الأمتعة التى تعهد بها اليه ادارة السجن • غير أن السماح باستعمال هذه الصناديق لم يمنع السرقات قط • وسهلٌ على القارىء أن يتصور براعة اللصوص الذين كانوا بيننا

ان أحد السجناء ، وكان مخلصا لي كل الاخلاص ، (أقول هـــذا بلا ادعاء) قد سطا على كتاب التوراة الذي كنت أملكه ، وهو الكتاب الوحيد الذي كان يسمح للسجناء اقتناؤه في السجن . وقد اعترف لي بفعلته في ذلك اليوم نفسه ، لا ندما على ما فعل ، بل لأنه حين رآني أبحث عن الكتاب مدة طويلة أشفق عليّ وأخذته بي رحمة . وكان بين رفاقنا في القيد عدد من السجناء يسمون «خمّارين» ، وهم يبيعون الخمر ويثرون من هذه التجارة اثراءً لا بأس به . سأتحدث عن هذا فيما بعد ، لأن هذه التجارة شائقة جداً فيحسن أن أتلبث عليها قليلا . ان عدداً كبيراً من السجناء قد جيء بهم الى هنا لانهم مهربون ، فلا غرابة والحالة هذه ان يهرّب الخمر سرا الى السجن ، رغم المراقبة الشـــديدة ، والحراسة المستمرة التي لا بد منها ولا غنى عنها ... ويجب أن أذكر عابرا أن التهريب جريمة لها شأن خاص ... هل تتصـــورون أن المال والربح الذي يجنيه المهرّب من التهريب ليس في المقام الأول دائما في نظـــر المهرّب ؟ تلك حقيقة مع ذلك . ان المهرّب يعمل في التهريب لا طمعاً في الربح بل تحقيقاً لرسالة : انه في نوعه شـاعر . انه يجـــازف بكل ما يملك ، ويعرّض نفسه لأشد المخاطر ، ويمكر ، ويحتال ، ويبتكر ، ويخرج من المآزق ، وينجو من المتاعب ... حتى لكأنه أحياناً ملهم فيما يعمل ... ان هوى التهريب لا يقل قوة وعنفا عن هوى القمار . عرفت سجيناً ضخم الجسم قوي البنية كان بين جميع من عرفت أكثرهم دماثةً وألينهم عريكة وأشدهم مسالمة وخضوعاً ... حتى ليتساءل المرء كيف أمكن أن يسجن هذا الانسان ؟ لقد كان من حسن المعشر ولطف السلوك وحب الناس أنه لم يتشاجر مع أحد طوال المدة التي قضاها في السجن . انه من روسيا الغربية ، وكان يقطن على الحدود ، فاعتقل وأرسل الى السجن بتهمة التهريب . وكان طبيعياً أن لا يستطيع مقاومة الاغراء الذي

يحضه على المجيء بخمرة الى السجن • كم من مرةٍ عوقب على ذلك ! والله يعلم كم كان يخاف السياط ! وكانت هذه المهنة لا تدر عليه الا ربحا زهيداً ••• وكان المتعهد (المقاول) هو الذى يثرى على حسابه•• كان الرجل يبكى بكاء امرأة عجوز كلما عوقب ، ويحلف أغلظ الأيمان لينقطعن عن هذا العمل ••• فكان يبر بالعهد الذى قطعه على نفسه شهراً، ثم اذا هو يعود سيرته الأولى منساقاً مع هواه من جديد ••• فبفضل هواة التهريب هؤلاء كان السجن لا يخلو من الخمرة فى يوم من الأيام •

وهناك مورد آخر ثابت كان يحسن الى السجناء وان لم يكن يغنيهم ••• ذلك المورد هو الصدقات • ان الطبقات الراقية فى مجتمعنا الروسى لا تعرف مدى اهتمام التجار والباعة والكسبة وسائر شعبنا الروسى «بعاثرى الحظ» • كان سيل الصدقات لا ينقطع عن السجن فى يوم من الأيام ، وهو أنواع من الخبز الأبيض فى أكثر الأحيان ، أو شيء من المال فى بعض الأحيان • فلولا هذه الصدقات لكانت حياة السجناء ، ولا سيما حياة أولئك الذين ساءت تغذيتهم ، شاقة أليمة الى أبعد الحدود • وكانت الصدقات توزع على السجناء بالتساوى • فاذا كانت احدى الصدقات غير كافية شطرت الأرغفة الصغيرة نصفين ، حتى ينال كل سجين نصيبه • ما زلت أذكر أول صدقة تلقيتها ، وكانت قطعة نقد صغيرة • ففى ذات صباح ، بعد وصولى بزمن قصير ، كنت عائدا من العمل وحدى مع أحد الحرس ، فالتقيت بأم وابنتها ••• ان البنت فى العاشرة من عمرها ، جميلة كملاك ••• كنت قد رأيتها مرة قبل ذلك • (الأم أرملة جندى شاب مسكين حوكم أمام المجلس الحربى ومات بمستشفى السجن أثناء وجودى فيه • لقد بكتا بكاءً حاراً حين جاءتا

كلتاهما تودعانه الوداع الأخير) . فلما رأتني الفتاةاحمر وجهها وتمتمت تهمس في أذن أمها ببعض الكلام ، فتوقفت الأم ، وتناولت من سلتها ربع كوبك مدته الى البنت ، فأسرعت البنت الىّ تقول : « خذ هذا الكوبك أيها المسكين ، على روح يسوع المسيح ! » . فأخذت قطعة النقـــد التي دستها البنت في يدي . وعادت البنت الى أمها فرحةً كل الفرح . لقد احتفظت بذلك الكوبك ... زمنا طويلا ...

٢

المشاعر الأولى

إن الأسابيع الأولى من سجنى ، وبداياتى الأولى فيه بوجــه عام تعرض لخيـــالى الآن واضحة وضوحا قويا . أما السنون التالية فقد اختلـط بعضــها ببعض ولم تخلف فى نفسى الا ذكــرى غامضـــة مبهمة . حتى أن بعض فترات هـــذه الحيـاة قد امَّحت من ذاكرتى تماماً ، ولم أحتفظ منها الا باحســـاس واحد لم يتغير ، وهو الاحساس بأنها شاقة رتيبة خانقة .

ان ما رأيته وشعرت به أثناء تلك الآونة الاولى من اعتقالى يبدو لى كأنه حدث بالامس . وكان لا بد أن يكون الامر كذلك .

أذكر تماما أن هذه الحياة انما أدهشتنى فى أول الامر لأننى لم أجد فيها شيئاً خاصاً خارقاً يلفت النظر أو يثير الانتباه ، أو قل بتعبير أصدق لأننى لم أجد فيها شيئاً غير متوقع . ولم أفهم كل ما فى مثل هذه الحياة من أمور استثنائية غير متوقعة الا بعد أن عشت فى السجن زمنا طويلاً طولاً كافياً ، فدهشت عندئذ أشد الدهشة . ويجب أن أعترف أن هذه الدهشة لم تفارقنى طوال المـــدة التى قضيتها فى السجن ؛ ولا استطعت أن أتصالح مع هذه الحياة بحال من الاحوال .

شعرت فى أول الأمر باشمئزاز لا سبيل الى مغالبته حين وصلت الى السجن ، ولكن الشيء الغريب أن الحياة فيه بدت لى أقل مشقة وألماً مما كنت أتصورها فى طريقى اليه .

فهاهم أولاء السجناء ، رغم ضيقهم بالاغلال ، يذهبون ويجيئون فى السجن بحرية . انهم يتشاتمون ويغنــون ويعملون ويدخنون الغليــون ويشربون الخمر (كان الشاربون مع ذلك قلة نادرة) ، بل ويقيمون فى الليل ندوات لعب بالورق . ولم تبد لى الأشغال شاقة جدا . وخيّل الىّ أنها ليست هى المشقة أو العناء أو التعب الذى يلقاه السجين فى معتقـل الأشغال الشاقة . ولم أدرك الا بعد ذلك بزمن طـويل لمـــاذا كان هذا العمل قاسيا ومفرطاً . انه قاس ومفرط لا لأنه صعب ، بل لأنه اجبارى ، لأنه الزامى ، لأنه قهرى ، ولأن المرء لا يقوم به الا خوفا من العصا . لا شك أن الفلاح يعمل أكثر كثيراً من السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، فهو يكد ويجهد فى الصيف ليل نهار . ولكنه من أجل مصلحته انما يكد ويجهد ، فهدفه معقول وغايته مفهومة ، لذلك لا يقاسى مايقاسيه السجين الذى يقوم بعمل اجبارى لا يجنى منه نفعاً . خطر ببالى ذات يوم أنه اذا أريد تحطيم انسان من الناس تحطيماً ، ومعاقبته معاقبة قاســية رهيبة ، وسحقه سحقاً يرتعش ازاءه أشد الســـفاكين عتواً ، وأكثرهم ضراوة ، اخافته من هذه العقوبة خوفا رهيبا قبل انزالها فيه ، يكفى أن يُفرض عليه القيام بعمل ليس له أى فائدة البتة ، عمل سخيف باطل مستحيل . ان الأعمال التى يُفرض على السجناء أن يقـــوموا بها الآن لا تفيد هؤلاء السجناء فى شيء ، ولا تعـود عليهم بنفع ، ولكنها أعمال معقولة على كل حال : فالسجين يصنع قرميدا أو يحفر الأرض أو يطيّـن أو يبنى ، وتلك كلها أعمال لها معناها ولها هدفها . فهو يريد عندئذ أن يقوم بعمله بمزيد من الحذق ، ومزيد من الفائدة . أما اذا أكرهته مثلا

على أن يصب ماءً من وعاء في وعاء ، ثم أن يعيد الماء من الوعاء الثاني الى الوعاء الاول ؛ أو اذا اكرهته على أن يدق رملاً ، او على ان ينقل كومة تراب من مكان الى مكان لتأمره متى أتم نقلها بأن يردها الى حيث كانت، فانني لعلى يقين من أن السجين سيقتل نفسه ذبحاً بعد بضعة أيام ، أو سيرتكب ألف جريمة من الجرائم التي يعاقب فاعلها بالاعدام ، مؤثرا ذلك على أن يحيا في مثل هذا الهوان وهذا العذاب • ان عقوبة كهذه العقوبة لهي أقرب الى التعذيب والانتقام الرهيب منها الى التأديب • وهي سخيفة مستحيلة لا تحقق هدفا معقولاً •

مهما يكن من أمر ، فانني لم أصل الى السجن الا في فصل الشتاء، في شهر كانون الأول (ديسمبر) • لم تكن الأعمال حينذاك كثيرة في قلعتنا • ولم يكن في ذهني اية فكرة عن اعمال الصيف التي يساوي تعبها خمسة أضعاف تعب أيام الشتاء • كان السجناء أثناء فصل الشتاء ينقضون مراكب قديمة تملكها الدولة على نهر ارتيش ، ويعملون في الورشات ، وينزعون الثلوج التي تراكمها عواصف الثلج على المباني ، أو يحرقون الجص ويدقونه ، الخ • ولما كان النهار قصيراً جداً ، فان العمل ينتهي في ساعة مبكرة ، ويعود السجناء الى السجن حيث لا يعملون شيئاً عدا العمل الاضافي الذي ابتدعوه لأنفسهم •

وكان ثلث السجناء في أكثر تقدير يقوم لنفسه بعمل جاد : أما الآخرون فيتسكعون كسالى لا يعملون ، ويحومون هنا وهناك في الثكنة بغير هدف ، يكيد بعضهم لبعض ويشتم بعضهم بعضاً • والذين يملكون منهم شيئاً من مال يشربون الخمرة ويسكرون ، أو يخسرون في القمار ما ادخروه ••• ذلك كله كسلاً وضجراً وفراغاً ••• وقد عرفت نوعاً من العذاب لعله أشد وآلم أنواع العذاب التي يمكن أن يقاسي منها سجين الى جانب حرمانه من الحرية : ألا وهو السكنى المشتركة قسرا • ان

السكنى المشتركة أمر يُقسر عليه الانسان قسراً فى كل مكان تقريباً ، ولكن السكنى المشتركة ليست رهيبة فى مكان كما هى رهيبة فى سجن : ان هناك أناساً لا يطيق أحد أن يعيش معهم • وانى لعلى يقين من أن كل سجين قد قاسى من هذا الأمر ، ربما دون أن يشعر •

أما الطعام الذى كان يقدم للسجناء فقد بدا لى مقبـــولا • وكان السجناء يؤكدون أنه خير كثيرا من الطعام الذى يقدم فى أى معسكر من معسكرات التأديب فى روسيا الأوروبية • غير أننى لا أستطيع أن أشهد بصدق قولهم ، لأننى لم أدخل سجناً غير هذا السجن • وكان كثيرون منا يستطيعون أن يحصلوا على الطعام الذى يطيب لهم • ولكن رغم أن سعر رطل اللحم لا يزيد على كوبكين شتاءً ، وثلاثة كوبكات صيفاً ، فان الذين كانوا يسمحون لأنفسهم بترف أكل اللحم انما هم الذين يملكون مالاً • أما أكثر السجناء فكانوا يكتفون من الطعام بالنصيب الذى يوزع عليهم •

واذا امتدحوا طعام السجن فانهم لا يعنون الا الخبـــز الذى كان يوزع بالوزن على الغرف لا على الافراد ، ولو قد اتبعت هذه الطريقـة الأخيرة لأرعب ذلك السجناء ؛ لأن ثلثهم على الأقل كان ســيُعانى من الجوع فى هذه الحالة بغير انقطاع ؛ أما الطريقة المتبعة فقد كان كل منهم راضياً عنها • وكان خبزنا طيب المذاق لذيذ الطعم مشهورا فى المدينـة كلها : وانما تعزى جودته الى أن افران السجن قد أحسن بناؤها • أما حساؤنا الذى كان يُصنع من حامز الملفوف (الكلانب) ويطبخ فى قدر كبيرة ويكثّف باضافة شىء من الدقيق اليه ، فلم يكن منظـره بالمنظـر السارّ ، وهو فى أيام العمل رائق هزيل يكاد يخلو من الدسم • على أن الشىء الذى كان يثير فى نفسى الاشمئزاز خاصةً ، انما هو عدد الهـوام

والحشرات التي كثيراً ماكانت توجد فيه • على أن السجناء كانوا لا يولون ذلك أيّ انتباه •

لم اذهب الى العمل في الأيام الثلاثة الأولى التي أعقبت وصولي : فلقد كان السجناء الجدد يُمهَلون بعض الوقت للاستراحة من متاعب السفر • وكان علي ان اخرج من السجن في الغداة لتبديل أغلالي ، فان السلسلة التي كنت مقيداً بها ليست من النموذج المستعمل في السجن، فهي مؤلفة من حلقات ترن رنين الجلاجل ، كما وصفها بذلك السجناء ؛ وهي تُحمل من الخارج فوق الثياب ، ولا كذلك قيود رفاقي فانها لم تكن مصنوعة من حلقات بل من قضبان أربع بسمك الاصبع ، تضمها ثلاث حلقات تلبس تحت السروال وتشدُّ الحلقة الوسطى منها بحزامٍ معقود على القميص • ما زلت أرى الصبيحة التي قضيتها في السجن رؤية واضحة الى الآن • لقد دق الطبل عند مقر الحرس قرب الباب الكبير في السور ، فما هي الا عشرة دقائق حتى فتح العريف أبواب الثكنة ، فأخذ السجناء يستيقظون بعضهم وراء بعض ، فينهضون عن أسرتهم المصنوعة من ألواح الخشب ، مرتجفين من شدة البرد ، على ضوءٍ كابٍ يصدر عن شمعة مشتعلة •

انهم عابسون جميعاً على وجه التقريب : يتثاءبون ويتمطون وتتغضن جباههم الموشومة • فبعضهم يرسم اشارة الصليب وبعضهم يبدأ بقذف الشتائم وصب اللعنات • والأبخرة التي تملؤ جو الثكنة رهيبة • غير أن الهواء البارد يهجم من الخارج متى فُتح الباب ، ويأخذ يدور في الثكنة كالاعصار • ويتدافع السجناء حول دلاء الماء يملئون منها أفواههم ليغسلوا وجوههم وأيديهم • ويكون هذا الماء قد حمله السقاء منذ الأمس • والسقاء سجين توجب الأنظمة أن يعنى بتنظيف الثكنة ، وينتخبه السجناء بأنفسهم ، فهو لا يمضي الى العمل ، لأن عليه أن يعنى بفحص الأسرّة ،

وملاحظة الأرض ، وأن يجيء بطشت الغسيل في الليل وأن يخرجه في الصباح ، وأن يملأ دلاء الثكنة بالماء البارد يُستعمل في الصباح للاغتسال ويستعمل في النهار للشرب • وفي ذلك الصباح الذي دخلت فيه السجن شبت على الفور مشاجرات حول جرة الماء :

ـ ماذا تفعل هنا يا ذا الجبين الموشوم ؟

بهذا دمدم سجين فارع القامة ، أعجف الجسم ، أسمر اللون ، يلفت النظر بالنتوءات الغريبة التي تغطي جمجمته • قال ذلك ودفع بيده سجينا آخر مدوّر الجسم ، قصير القد ، مرح الطبع ، أحمر الوجه • فأجابه الثاني :

ـ هلاّ انتظرت قليلا !

ـ لماذا تصرخ ؟ ألا تعلم أن من يطلب من غيره الانتظار فلا بد له أن يدفع ثمن ذلك ؟ هيا امض ! أرأيتم الى هـــذا التمثال أيها الاخوة ! لا ••• لا ••• انه لا يملك شيئاً من « الفارتيكوليتانبوست » •••

وأحدثت هذه الكلمة « فارتيكوليتانبوست » * أثرها ••• فانفجـر السجناء ضاحكين مقهقهين ••• وذلك كل ما كان يتمناه السجين المازح الهازل الذي كان واضحاً أنه يقوم في الثكنة بدور المهرّج • فرمقـــه السجين الثاني بنظرة احتقار عميق •

قال الأول :

ـ يا لك من عجل ••• انظروا كم سمّنه خبز السجن ! •••

ـ ماذا تظن نفسك ؟ طائرا جميلا ؟ •••

ـ كما تريد ! •••

ـ قل لنا اذن : أيّ طائر جميل أنت ؟

ـ انك ترى •••
ـ كيف أرى ؟
ـ قلت لك : طائر •••
ـ ولكن أى طائر ؟

كان الرجلان يلتهم كل منهما صاحبه بعينيه التهاماً • وكان القصير ينتظر جوابا وهو قابض يديه كأنه يستعد للنزال • وقدّرت أن معركة ستنشب • كانت هذه الأمور كلها جديدة عليّ • لذلك كنت أنظر الى المشهد مستطلعاً مدهوشاً • ولكننى علمت بعد ذلك أن المشاجرات التى من هذا القبيل بريئة كل البراءة ، يراد بها تسلية السجناء الآخرين ، كأنها تمثيلية مضحكة ••• ولا يكاد يصل الشجار فى يوم من الأيام الى حد استعمال الأيدى • ذلك أمر تتميز به عادات السجن وأخلاقه تميزاً واضحاً •

لبث السجين الطويل القامة هادئاً رضياً وقوراً جليلاً • كان يحس أنهم ينتظرون جوابه • ان عليه أن يدافع عما قاله ، وأن يبرهن على أنه طائر عظيم ، على أنه شخصية ••• والا تلطخ شرفه أمام الآخرين ، وضحكوا عليه ما شاء لهم هواهم أن يضحكوا • لذلك ألقى على خصمه نظرة شزراء تفيض احتقاراً لا يوصف ، محاولاً أن يثير حنقه بنظرة من فوق الكتف يروزه بها من أعلاه الى أدناه ، كما يمكن أن يفعل ذلك بحشرة من الحشرات ، ثم قال يجيبه بصوت بطىء متميز :
ـ كاجان *

يريد أن يقول انه طائر من نوع « الكاجان » • فما ان نطق بهذه الكلمة حتى انطلقت من الصدور قهقهة رهيبة ، وحتى أخذت الأكف تصفّق تهليلاً للجواب المحكم •

ـ أنت لست طائر « كاجان » ••• بل أنت وغد حقير •••

كذلك صاح يقول الرجل القصير السمين الذى أحس أنه غُلب • وثارت ثائرته للهزيمة التى ألحقها به خصمه ، فأوشك أن يهجم عليه لولا أن رفاقه أحاطوا بالرجلين كليهما خشية أن تقوم مشاجرة حقاً •

صاح أحد المشاهدين يقول من ركنه البعيد :

ـ مالكما لا تقتتلان بالأيدى بدلاً من تراشق الكلام بالألسن ؟

فأجيب :

ـ بل حولوا بينهما ••• فلسوف يقتتلان ••• نحن رجال أشداء •• واحدنا بسبعة اذا جد الجد ••• ولا نحجم عن منازلة •••

ـ يا للمقاتلين الأشداء.! ••• واحد جيء به الى هنـــا لأنه سرق رطلاً من خبز ••• وواحد لأنه من لصوص الأوانى ••• أوسعه الجلاد جلداً بعد أن سرق من احدى العجائز وعاء لبن رائب •••

صاح رجل من مشوهى الحرب :

ـ هيّا ••• كفى ••• كفى •••

هو جندى سابق مهمته أن يحافظ على النظام فى التكنة ، وكان ينام فى ركن من الأركان على سرير خاص •

ـ ماءً يا أولاد ! ماءً لأخيكم نيفاليد بتروفتش ! ••• ماءً لأخينا نيفاليد* بتروفتش ••• ها هو ذا يستيقظ الآن !

ـ أخوك ؟ أأنا أخوك ؟ اننا لم نشرب خمرة معاً بقرش واحد فى يوم من الأيام •••

كذلك دمدم يقـــول الرجل المشوه وهو يدس ذراعيه في كمي معطفه ٠

وتهيأ الســـجناء للتفقد ... ذلك أن النهـــار قد طلع ... تدافع السجناء نحو المطبخ جمهوراً متزاحماً ... كانوا قد لبسوا صدراتهم ... وها هم يتلقون بقبعـــاتهم ذات اللونين الخبز الذي يوزعه عليهم أحـــد الطباخين ٠ كان هؤلاء الطباخون يختارهم السجناء أنفسهم ، وكان يوجـد منهم اثنان في كل مطبخ ... وهم يتصرفون بالسكين الوحيدة المرخّص بها في المطبخ ، يستعملونها في قطع الخبز وقطع اللحم على السواء ٠

وتفرق الســـجناء في الأركان وحول المـــوائد ، لابسين طاقياتهم وستراتهم ، متزنرين بحزام الجلد ، متأهبين للذهاب الى العمل ٠ وكان أمام بعض السجناء شيء من شراب الكفاس*يفتون فيه خبزهم ثم يلتهمونه.

الجلبـــة لا تطاق ٠ ومع ذلك كان بعض الســـجناء يتحـدثون في الأركان وقد لاح في وجوههم الجد والهدوء ٠

ـ نعمت صباحاً ، وطاب طعامك أيها الأب أنطونتش ٠

كذلك قال أحد الشبان من السجناء ، وهو يجلس الى جانب شـيخ أثرم عابس ٠ فأجابه الشيخ دون أن يرفع عينيه محاولاً أن يمضغ خبزه بلثتيه اللتين ليس لهما أسنان :

ـ نعمت صباحاً ، اذا كنت لا تمزح !

ـ كنت أحسب أنك مت يا أنطونتش ! ما أغباني ! ... حقاً كنت أظن أنك مت ! ...

ـ متْ أنت أولاً فأتبعك ...

جلست قرب الرجلين . كان على يمينى سجينان وقوران يتبادلان الحديث ويحاولان أن يحافظا على رصانتهما وهما يتحدثان .

قال أحدهما :

ـ لست أنا من يمكن أن يسرقه أحد ... بل اننى لأخشى أن أقوم أنا بسرقة أحد ... لن ينفع أحداً أن يسرقنى ... والا دفع الثمن غالياً ...

ـ ما عساك تستطيع أن تفعل ؟ ما أنت الا سجين ... هل لنا اسم آخر ؟ ... لسوف ترى أنها ستسرقك ، هذه اللئيمة ... دون أن تقول لك شكراً . لقد صنعت بى ذلك . هل تتصور أنها جاءت منذ بضعة أيام ؟ تساءلت : أين يمكن أن نختفى عن الأنظار ؟ قلت : استأذن بالذهاب الى تيودور الجلاد . كان لا يزال يملك داراً فى ظاهر البلدة ... هى تلك الدار التى اشتراها من سالومون الأجرب ... هل تعرفه ؟ انه ذلك اليهودى الذى قتل نفسه منذ عهد قريب .

ـ نعم أعرفه ... هو الذى كان خمّاراً هنا منذ ثلاث سنين ، وكانوا يسمونه جريشكا ... الخمّار الأعور ... أعرفه .

ـ بل أنت لا تعرف شيئاً ... أولاً : هو خمّار آخر ...

ـ كيف ؟ خمّار آخر ؟ أنت لا تعرف ماذا تقول ... أستطيع أن آتيك بالعدد الذى تشاء من الشهود على أنك لا تدرى ماذا تقول ! ..

ـ أأنت تأتينى بشهود ؟ من أنت ؟ أتعرف من تخاطب يا هذا ؟

ـ من أنا ؟ أنا من ضربك مراراً ، رغم أننى لا أتباهى بذلك ولا أفخر ولا أزهو ... فدعك اذن من التكبر والاستعلاء ! ...

ـ أنت ضربتني ؟ لمّا يولد بعد من يضربني ••• والشخص الذي ضربني هو الآن راقد في باطن الارض على عمق ست أقدام •••

ـ أنت امرؤ مصاب بالطاعون !

ـ ليت جذام سيبريا يملؤك قروحاً !

ـ ليت تركيا يشق رأسك شقاً ! •••

وانهالت الشتائم كالمطر المنهمر •••

ـ انظروا ••• ها هما يصيحان • على المرء أن يبقى هادئاً بعد أن لم يعرف كيف يسلك سبيل الرشاد في هذه الحياة ••• انهما لسعيدان جدا بالمجيء الى هنا ليأكلوا خبز الحكومة ، هذان الفتيان الشجاعان ! ••

وسرعان ما فصلوا أحدهما عن الآخر ، فحالوا بين اشتباكهما • لأن « يقتتل المقتتلون بالألسن » ماشاء لهم أن يقتتلوا ، فذلك أمر مباح ، لأنه يسلّي الجميع ، أما ان يشتبكا بالايدي فلا ! ••• ان الاعداء لا يشتجرون بالأيدي الا في حالات نادرة استثنائية !. ••• فاذا نشب عراك أ بلغ الميجر ، فأمر الميجر باجراء تحقيق ، وتدخّل في الامر بنفسه ـ وعندئذ تجري الامور مجرى سيئا يصيب السجناء باذى • لذلك تراهم يسارعون الى انهاء اي شجار جدي • ثم ان المتخاصمين يتشاجرون من قبيل التسلية والتمرن على فصاحة اللسان وبلاغة البيان في الدرجة الأولى • انهم يتحمسون في أول الأمر ، ويتخذ الشجار بينهم طابع السخط والغضب والحنق ، فيتوقع المرء أن يهمّ أحـــدهما بالآخر يريد أن يقتله ، ثم لا يقع شيء من ذلك البتة ؛ فما ان يبلغ بهم الغضب حداً معيناً ، حتى يفترقا ويمضي كل منهما في سبيله • ولقد أدهشني ذلك كثيراً ••• ولئن كنت أصف هنـا بعض ما كان يجري بين السجناء من أحاديث ، فانما أفعل ذلك عامداً • هل كان يمكنني قبل ذلك أن أتصور أن يتشاتم اثنان نشداناً للذة ، وأن يجدوا

في هذا التشاتم متعة ! يجب أن لا ننسى ميل المرء الى الظهور والشـهرة : ان المحاور الذي يعرف كيف يشتم شتماً موفقـا كفنان ، يحظى باحترام الآخرين ••• حتى ليكاد السجناء يصفقون له كما يصـفق الناس لممثـل أجاد تمثيل دوره •

وكنت قد لاحظت في المساء المـاضي نظرات شزراء يوجهها الى بعضهم ؛ ولاحظت في مقابل ذلك عدداً من السجناء يحوم حولى ، لظنهم أننى احمل معى الى السجن بعض المال • حاولوا أن يستميلونى ، وذلك بأن يعلمونى كيف أضع الاغـلال دون أن تضـايقنى ، وقـدموا لى ايضاً صندوقاً ذا قفل أودع فيه أمتعتى التى سلمتنيها الادارة وأودع فيه الملابس الداخلية القليلة التى سـمح لى ان ادخلها معى الى السجن (وقد قبضـوا ثمن الصندوق طبعاً) • وبعد ذلك بيوم واحد فقط ، سرق هؤلاء السجناء هم أنفسهم صندوقى، بعد أن شربوا بثمنه خمراً • ان واحدا منهم قـد أخلص لى الود بعد ذلك ، وبلغ من ذلك أنه أصبح يسرق لى كل ما تتيح الفرص أن تمتد يده اليه من أشيائى • ولم يكن يشـعر من سرقاته باى خجل أو حياء ، لأنه كان يرتكب هذه السرقات وهو لا يكاد يشعر بمـا يعمل ، حتى لكأن ما يقوم به واجب : لذلك لم أستطع أن أحمل له أى حقد أو ضغينة •

وقد عرفت من هؤلاء السجناء أن في امكان المرء أن يحصـل على شيء من الشاى ، وأن من مصلحتى أن أهيىء لنفسى غلاية • ووقعـوا لى على غلاية استأجرتها الى زمن • ودلونى كذلك على طبـاخ يمكن اذا أنا نقدته ثلاثين كوبكاً في الشهر أن يدبِّر لى الأطعمة التى أرغب فيهـا ، هذا اذا كنت أريد أن أشترى مؤناً خاصةً وأن يهيأ لى طعام خاص ••• واقترضوا منى بعض المال بطبيعة الحال ••• بل انهم في يوم وصولى نفسه قد جاءونى يطلبون الاقتراض ثلاث مرات •

ان من كانوا ينتمون الى طبقة النبــلاء قبل دخولهم السجن ، كان السجناء ينظرون اليهم شزرا • فرغم انهم جر دوا من جميع حقوقهم ، وأصبحوا كسائر السجناء سواء بسواء ، فان هؤلاء كانوا لايعدونهم رفاقاً. صحيح • كانوا ينظرون الينا دائما نظرتهم الى نبلاء ، رغم أنهم كثـيراً ما يسخرون من سقوطنا • كانوا يقولون مثلاً :

ـ هيه ! أنظر الى هذا السيد النبيل ! كانت عربته في الماضي تدوس الناس بموسكو ! أما الآن فقـــد انتهى الأمر • انه الآن يجـــدل حبال القنب •

كانوا يغتبطون لآلامنا التي نحـــاول اخفاءها ما اســـتطعنا الى ذلك سبيلاً • وكنا نقاسي أكثر ما نقاسي حين نعمل معهم، ذلك أن قوانا لا تعادل قواهم ، ولم نكن نستطيع أن نساعدهم حقاً • لا شيء أصعب من كسب ثقة الناس ، وكسب ثقة أمثال‌هؤلاء الناس خاصةً ، والحظوة برضاهم ونيل محبتهم وعاطفتهم •

ولم يكن في السجن كله الا بضعة أشخاص من قدامى النبـلاء ، فهم خمسة بولونيين كان السجناء يكرهونهم أكثر مما يكرهون الروس من قدامى النبلاء (وسأتكلم عن هؤلاء البولونيين تفصـــيلاً فيما بعد) ؛ كان البولونيون (ولا أتكلم الآن الا عن المحـكومين السياســيين) يُكرهون أنفسهم على معاملة السجناء بشيء من التهذيب اكراها جارحاً مسيئاً مؤذياً، ولا يكادون يخاطبـــونهم يوما بكلمة ، ولا يخفـــون ما يشعرون به من اشمئزاز من صحبتهم • فكان الســـجناء يدركون ذلك حـق الادراك ، ويكيلون لهم الصاع صاعين •

احتجت الى ما يقرب من سنتين من أجل أن أظفر بمودة بعض رفاق السجن ، على أن أكثرهم كان يحبني ويعلن أنني انسان طيب شهم •

كان عدد قدامى النبلاء من الروس في السجن خمسة منهم أنا . ولقد سمعت من يصف أحدهم ـ حتى قبل وصولي ـ بأنه انسان شرير حقير فاسد الأخلاق وغد متفسخ يتجسس على السجناء ويشي بهم . لذلك تحاشيت منذ أول يوم أن تكون لي علاقة بهذا الانسان . أما ثاني الخمسة فهو قاتل أبيه الذي سبق أن أتيت على ذكره . وأما الثالث فاسمه آكيم آكيمتش ، ما رأيت في حياتي انسانا اطرف منه ، وما تزال ذكراه في نفسي حية قوية الى الآن .

انه طويل القامة ، نحيل الجسم ، ضعيف العقل ، على جانب رهيب من الجهل ، مماحك مناكد كالماني . كان السجناء يسخرون منه ويستهزئون به ولكنهم كانوا يخشونه ، لأنه سريع التأذي ، كثير المطالب ، ميال الى المشاجرة . وقد وضع نفسه منهم موضع الند منذ وصوله ، فهو يبادلهم الشتائم والضرب ، وهو لما يتصف به من استقامة وشرف ونزاهة واخلاص ، ما ان يلاحظ ظلماً يقع على مخلوق حتى يتدخل في الأمر الذي لا يعنيه ، فكأنه طرف فيه . وكان الى ذلك ساذجاً الى أبعد حدود السذاجة . كان في مشاجراته مع السجناء يعيب عليهم أنهم لصوص ، وينصحهم مخلصاً صادقاً بأن يقلعوا عن السرقة . كان في الماضي ملازماً ثانياً بالقفقاس . وقد انعقدت بيني وبينه الصلة منذ أول يوم ، فسرعان ما قص علي قضيته . قال انه بدأ حياته العسكرية متطوعاً برتبة صف ضابط في فرقة على الحدود . وبعد أن انتظر ترقيته الى رتبة ملازم ثان زمناً طويلاً ، نال هذه الترقية أخيراً ، وأرسل الى الجبال رئيساً لحصن صغير . وكان هنالك أمير صغير من الأراضي التابعة للحصن ، حاول اشعال النار في الحصن ، وقام ذات ليلة بهجوم على الحصن ، فلم يظفر بطائل . وعمد آكيم آكيمتش الى الحيلة في الاقتصاص من الأمير ، فتظاهر بأنه يجهل أن

الأمير هو الذى شن ذلك الهجـوم على الحصن ، ونسب ذلك الهجوم الى عصاة كانوا يطوفون فى الجبل • وبعد شهر من ذلك ، دعا آكيم الأمير الى زيارته زيارة مودة وصداقة • فجاء الأمير ممتطياً صهوة جواده دون أن يخطر ببـــاله أى شك ، ودون أن تراوده أية شـــبهة • جمع آكيم آكميتش جنوده ، وأعلن لهم أمام الأمير الخيـانة التى ارتكبها الزائر ، وقرّع الأمير على سلوكه ، وبرهن له على أن احراق حصن من الحصون جريمة شنعاء ، وشرح له بكثير من الدقة والتفصيل ما يقع على أمير تابع للحكومة من واجبات ، ثم ختم ذلك كله بأن أمر باطـلاق الرصاص على الأمير ؛ ثم أسرع يبلغ رؤساءه بأنه نفذ فى الأمير حكم الاعدام ، ذاكـراً جميع التفاصيل اللازمة • فأحيل آكيم آكميتش الى المحاكمة أمام مجلس حربى ، فصدر الحكم باعدامه ،ثم خفّف الحكم فأرسل الجانى الى سيبيريا سجيناً من الفئة الثانية ، أى سجيناً مدة اثنتى عشرة سنة • اعترف لى آكيم بأن تصرفه لم يكن شرعياً ، وأن الأمير كان يجب أن يحاكم أمام محكمة مدنية لا أمام مجلس عسكرى • ومع ذلك كان آكيم غير قادر على أن يفهم أن فعله جريمة • فكان يجيب على جميع اعتراضاتى بقوله :

ــ لقد أشعل النار فى حصنى ، فماذا كان يجب علىّ أن أعمــل ؟ أكان يجب علىّ أن أشكر له فعلته ؟

وكان السجناء ، رغم أنهم يسخرون من آكيم آكيمتش، ويستهزئون به ، ويزعمون أن به لوثة ، كانوا يقـــدرونه بسبب حـذاقته ومهـارته ودقته •

كان يتقن جميع المهن الممكنة ، ويصنع لك ما تشاء أن يصنعه : كان حذاءً ، واسكافياً ، ودهاناً ، ونقاشاً ، وقفالاً • وقد اكتسب هذه المواهب كلها فى السجن نفسه ، فقـــد كان يكفيه أن يرى شيئاً من الأشياء حتى

يقلده أحسن تقليد • وكان يبيع في المدينة سلالاً وفوانيس ودمى ، أو قل كان يكلف احداً يبيع له هذه الاشياء •

وبفضل عمله كان يملك بعض المال دائماً ، يشتري به على الفور ملابس او وسادة أو ما الى ذلك مما يحتاج اليه • وقد هيا لنفسه فراشاً • واذ كان يقيم في نفس الثكنة التي اقيم انا فيها ، فقد أفادني كثيرا في اول عهدي بالسجن •

وكان السجناء قبل أن يخرجوا من السجن الى العمل يصطفون صفين أمام مقر الحرس ، فكان الحرس يحيطون بهم وقدأمسكوا ببندقياتهم محشوة • وكان ياتي عندئذ ضابط من سلاح الهندسه مع مراقب الاشغال وعدد من الجنود الذين يشرفون على أعمال السجناء • فكان المراقب يعد السجناء ويرسلهم أفواجاً الى الأماكن التي يجب عليهم أن يعملوا فيها •

وذهبت مع عدد من السجناء الى ورشة الهندسة ، وهي مبنى واطىء من خشب ، شيد وسط فناء كبير تراكمت فيه مواد البناء • كان هناك كور لصهر المعادن ، وورشات نجارة واقفال ودهان • فكان آكيم آكيمتش يعمل في هذه الورشة الأخيرة : يحضر زيت الدهان ، ويشكل الألوان ، ويطلي الموائد وغيرها من الاثاث بلون يوهم أنها من خشب الجوز •

وبانتظار أن يضعوا لي أغلالاً جديدة ، نقلت اليه احساساتي الأولى، فقال :

ــ نعم ، انهم لا يحبون النبلاء ، ولا سيما المحكومين السياسيين ، ويسعدهم أن يلحقوا بهم أذى أو أن ينالوهم باساءة • وذلك أمر ما ينبغي أن نستغربه في حقيقة الأمر ! أنت لست منهم ، أنت لا تشبههم : لقد كانوا كلهم قناناً أو جنوداً ، فكيف يمكن أن يحبوك ؟ ان الحياة قاسية هنا ، ولكن قسوتها ليست شيئاً مذكوراً اذا قيست بقسوة الحياة في

معسكرات التأديب بروسيا • حتى أن الذين يجيئون من هنالك يمتدحون سجننا ، ويصفونه بأنه جنة بالقياس الى تلك السجون ••• لا لأن العمل هنالك أصعب ؛ ويقال ان الادارة هنالك تعامل سجناء الفئة الأولى (وليست الادارة هناك عسكرية فحسب ، كما هي هنا) معاملةً تختلف عن المعاملة هنا كل الاختلاف • ان للسجناء هناك بيوتاً صغيرة خاصة بهم (قيل لي ذلك ولكنني لم أره بنفسي) ، وانهم لا يرتدون زياً موحداً ، وانهم لا تُحلق رءوسهم ؛ على أن الزي الموحّد والرءوس المحلوقة خير في نظري ••• انها تنظم الأمور ، ثم ان منظرها أجمل ••• ولكنهم ، هم ، لا يحبون هذا • ياله من برج بابل ! أولاد مجندون ، شراكسة ، ملاحدة، أورثوذكس ، فلاحون تركوا نساءهم وأولادهم ، يهود ، غجر ، وأناس آخرون لا يدري الا الله من أين جاءوا ! ••• وعلى هذا الخليط العجيب من البشر أن يعيش معاً كأسرة واحدة ، جنباً الى جنب ؛ على هؤلاء الناس جميعاً أن يأكلوا من أطباق واحدة ، وأن يناموا على ألواح واحدة ••• ما من لحظة حرية : ولا يمكن للمرء أن يرفه عن نفسه قليلا الا خلسةً وخفية ••• عليه أن يخبيء ماله في حذاءيه ••• ثم السجن فالسجن ••• ولا شيء الا السجن ••• ان الانسان لتراوده عندئذ حماقات دون أن يريد ذلك •

كنت أعلم هذا كله من قبل • وانما كنت أحب خاصةً أن أسأل آكيم آكيمتش عن الميجر • فلم يخف عني آكيم شيئاً ، فتركت أقواله في نفسي أثرا ليس بالممتع ! •••

كان عليّ أن أعيش سنتين كاملتين تحت سلطة هذا الضابط • وكل ما قصّه عليّ آكيم آكيمتش عنه لم يكن الا الحقيقة نفسها بلا زيادة ولا نقصان • ان هذا الضابط انسان سيء الطبع ، شرس الخلق ، رهيب ، لا سيما وأنه كان يملك سلطةً تكاد تكون مطلقةً على أكثر من مائتي

انسان . كان ينظر الى السجناء نظرته الى أناس يناصبونه العداء شخصياً ، وتلك خطيئة أولى خطيرة كل الخطورة . وحتى كفاءاته النادرة ، بل وربما حسناته القليلة كان يفسدها طيشه وخبثه وميله الى الشر والأذى. كان يسقط على النكتة في بعض الأحيان سقوط قنبلة في وسط الليل ، فاذا رأى أحد السجناء نائماً على ظهره أو على جنبه الأيسر أيقظه ليقول له : « يجب أن تنام على الجنب الأيمن كما أمرت أنا بذلك . » . وكان السجناء يكرهونه ويمقتونه ويخافونه خوفهم من الطاعون . ان وجهه الكريه المحمرّ يرتجف لمنظره جميع السجناء . وكان كل سجين يعرف أن الميجر خاضع خضوعاً كاملاً لسلطة خادمه فدكا ، وأنه كاد يُجن حين مرض كلبه تريزوركا* . كان يؤثر هذا الكلب على جميع خلق الله ... فلما أعلمه فدكا أن بين السجناء سجيناً ملماً بالبيطرة ، وأن حالات شفاء عجيبة قد تمت على يديه ، استدعى السجين على الفور وقال له :

ـ أعهد اليك بمعالجة كلبي من مرضه ، فان شفيت تريزوركا أغدقت عليك ذهباً وفضة ...

والرجل فلاح سيبيرى ذكى جداً ، هو فى الواقع بيطرى ممتاز ، ولكنه فلاح ماكر قبل كل شيء . وقد قص على رفاقه قصة زيارته للميجر بعد أن نُسيت تلك القصة ، قال :

ـ نظرت الى كلبه تريزوركا . كان راقداً على أريكة وتحت رأسه وسادة ناصعة البياض . وأدركت فوراً أنه يعانى من التهاب ، وأنه فى حاجة الى فصد ، وأيقنت أن فى امكانى أن أشفيه ، ولكننى قلت لنفسى : « فماذا لو فطس الكلب ؟ لسوف يكون الذنب عندئذ ذنبى أنا » ، فقلت للضابط : « لا يا صاحب النبالة ... لقد تأخرت فى استدعائى ... فلو

قد رأيت كلبك أمس أو أمس الأول اذن لكان الآن مشافى معافى ••• ولكن فات الأوان ، فلست أستطيع أن أصنع له شيئاً ، وسيموت لا محالة !

وفطس تريزوركا •

وحكى لى أن أحد السجناء أراد فى يوم من الأيام أن يقتل الميجر • كان هذا السجين قد عُرف منذ عدة سنين بخضوعه وامتثاله وانصياعه ، كما عرف أيضاً بسكوته وصمته : حتى لقد كان يعد مجنوناً • ولما كان على جانب من ثقافة ، فقد كان ينفق لياليه فى قراءة التوراة • فمتى نام جميع السجناء نهض وتسلق المدفأة فأشعل شمعة من شموع الكنيسة وفتح انجيله وأخذ يقرأ • فعلى هذه الحال انما قضى سنةً بكاملها •

وفى ذات يوم ، خرج من الصفوف وأعلن أنه لن يذهب الى العمل • فأبلغ الميجر الأمر ، فغضب غضباً شديداً ، ولم يلبث أن جاء الى الثكنة فوراً • فما ان رآه السجين حتى اتجه نحوه ، ورماه بقرميدة كان قد هيأها سلفاً ، ولكنه لم يصبه • فقبض على السجين ، وحوكم ، وجلد بالسياط ، بضع لحظات لا أكثر ••• نُقل بعدها الى المستشفى ، فما هى الا ثلاثة أيام حتى مات • وقد صرّح وهو يحتضر بأنه لا يكره أحداً ، وانما أراد أن يتألم وأن يتعذب ، وانه مع ذلك لا ينتمى الى أية ملة من الملل المنشقة • كان الناس اذا أتوا على ذكره فى الثكنات يذكرونه بالخير والاحترام دائماً •

وأخيراً أبدلوا لى أغلالى • وفيما كانوا يلحمونها دخلت الى الكور بائعات أرغفة صغيرة من الخبز الأبيض ، واحدةً بعد أخرى • كان أكثرهن فتيات صغيرات يأتين لبيع أرغفة الخبز التى تحضرها أمهاتهن • حتى اذا شببن عن الطوق ظللن يجئن الينا ، ولكن دون أن يحملوا بضاعة للبيع ••• كان لا بد أن يلقى المرء واحدة منهن دائماً • وكان ثمة نساء

متزوجات . ان سعر رغيف الخبز الصغير كوبكان ، فكان جميع السجناء تقريباً يشترون ...

وقد لاحظت سجيناً نجاراً ، أشيب الشعر محمرّ الوجه باش الهيئة مبتسم الثغر ... كان هذا السجين النجار يمازح بائعات أرغفة الخبز الصغيرة . عقد على عنقه منديلاً أحمر قبل مجيئهن . فما هي الا لحظات حتى وصلت امرأة سمينة في وجهها بثور ، فوضعت سلتها أمام منضدة النجار ، ودار بينهما الحديث التالى :

ـ لماذا لم تجيئى أمس ؟

كذلك سألها النجار مبتسماً ابتسامة رضى .

فأجابته المرأة بجرأة قائلة :

ـ بل جئت ، ولكنك كنت قد مضيت .

ـ نعم لقد ذهبوا بنا من هنا ، والا لكنا التقينا حتماً ... لقد جئن أمس الأول جميعاً لرؤيتى ...

ـ من اللواتى جئن ؟

ـ مارياشكا ... هافروشكا ... تشيكوندا ... وكانت هنا دفوجروشفايا (أربعة كوبكات) أيضاً ...

سألت آكيم آكيمتش :

ـ ماذا ؟ هل مثل هذه الأمور ممكنة هنا ؟

ـ نعم ، تحدث أحياناً ...

قال آكيم ذلك وهو يغض طرفه ، لأنه رجل عف جداً .

نعم ، كانت هذه الأمور تحدث أحياناً ، ولكنها لا تحدث الا نادراً ..

وذلك بعد تخطى مصاعب كبيرة جداً ... فكان السجناء يؤثرون أن ينفقوا مالهم فى الشراب ، رغم كل ما فى حياتهم المكبوتة من عنت . لقد كان من الصعب جداً اللحاق بهاته النسوة . كان لا بد من الاتفاق على المكان والزمان ، كان لا بد من تحديد موعد ، من العثور على خلوة ، وذلك من أعسر الأمور ، وكان لا بد من مغافلة الحرس ، وذلك أمر يكاد يكون مستحيلاً ، وكان لا بد من انفاق مبالغ طائلة ... نسبياً ... ومع ذلك رأيت بعض مشاهد الغرام ... ففى ذات يوم ، كنا ثلاثة تعمل فى تسخين فرن القرميد فى مكان على شاطىء نهر ارتيش . وكان معنا جنود من الحرس متسامحون . فاذا بامرأتين تصلان .

قال أحد السجناء يخاطب المرأتين ، وكان ينتظرهما ولا شك :

ـ أين بقيتما طوال هذه المدة ؟ تلبثتما عند آل زفيركوف ، أليس كذلك ؟

ـ عند آل زفيركوف ؟ حين يصبح للدجاج أسنان أذهب الى آل زفيركوف !

كذلك قالت احداهما متضاحكة .

انها أقذر بنت يمكن أن يتصورها الخيال . كانوا يطلقون عليها اسم تشيكوندا ... وقد وصلت فى صحبة صديقتها « الأربعكوبكات » (دفوجروشفايا) التى تفوق كل وصف .

قال الشاب الغزل مخاطباً الأربعكوبكات :

ـ هيه ... أصبحنا منذ زمن طويل لا نراك ... لكأنك نحلت قليلاً .

ـ ربما ... لقد كنت قبل الآن جميلة سمينة ، أما الآن فكأننى بلعت ابراً ...

ـ وما تزالين تصاحبين الجنود ، أليس كذلك ؟

ـ انظروا الى هؤلاء الناس كم يتقولون ويغتابون ! ثم أى ضير في أن أصاحب جنودا ؟ •••

ـ دعي جنودك أولئك ، وأحبينا نحن ••• ان معنا مالاً •••

تصوروا هذا المغازل المحلوق الرأس ، المغلول القدمين ، اللابس سترةً من لونين ، العامل تحت حراسة الخفراء •••

وحين أصبح في وسعي أن أعود الى السجن ، وكنت قد أوثقت بالأغلال ، ودّعت آكيم آكيمتش ، وانصرفت بحراسة أحد الجنود • ان الذين يعملون لا على أساس عدد معين من الساعات بل على أساس مهمة معينة ينجزونها ، يعودون أول العائدين ••• ولذلك حين وصلت الى ثكنتنا كان قد سبقني اليها عدد من السجناء : ان الوسيلة الوحيدة التي تحمل السجناء على المواظبة والاستمرار في العمل هي أن يُعهد اليهم بمهمة معينة يجب عليهم انجازها ؟ انهم ينجزون المهمة عندئذ مهما تكن صعبة بنصف الوقت الذي يحتاجون اليه لانجازها حتى ولو استمروا على العمل بغير انقطاع الى أن يقرع الطبل • فمتى انتهى السجين من انجاز مهمته عاد رأساً ، ولم يخطر ببال أحد أن يصده عن العودة •

واذ كان المطبخ لا يمكن أن يتسع لسكان ثكنة بكاملها ، فقد كان السجناء لا يتناولون الطعام معاً ، فمن يصلون قبل غيرهم يأكلون نصيبهم ويفرغون فيخلوا المكان للآخرين • وقد ذقت الحساء المصنوع من حامز الملفوف ، ولكنني لم أستسغ مذاقه لأنني لم أتعود عليه ، وهيأت لنفسي شيئاً من الشاي ، ثم جلست الى طرف مائدة مع أحد السجناء ، وهو مثلي نبيل سابق •

كان السجناء يدخلون ويخرجون • ولم يكن المكان هو الذي

يعوزهم ، ذلك أن عددهم ما يزال قليلاً • وجلس خمسة منهم على حدة، قرب المائدة الكبيرة ، وصبّ الطباخ لهم طاستين من حامز الحساء ، وأتاهم بقصعة فيها سمك مقلي • كان هؤلاء الأشخاص يحتفلون بعيد فيرفهون عن أنفسهم ويدخنون• ونظروا الينا من جانب• ودخل أحد البولونيين فجلس قربنا •

صاح سجين طويل القامة وهو يدخل ويشمل رفاقه بنظرة :

ـ لم أكن معكم ، ولكنني أعرف ماذا تعملون •

انه رجل في نحو الخمسين من عمره، نحيل الجسم ناتيء العضلات، ينم وجهه عن المكر ، كما ينم عن المرح ، وشفته السفلى سميكة متدلية تضفي على وجهه مظهراً مضحكاً •

قال وهو يجلس قرب الذين يحتفلون ويولمون :

ـ هيه ! هل طاب نومكم ؟ لماذا لا تردون التحية ••• طيب ••• يا أصدقائي الكورسكيين ••• هنيئاً مريئاً ! ••• هأنذا أجيئكم بضيف جديد •

ـ لسنا من مقاطعة كورسك !

ـ اذن يا أصدقائي التامبوفيين •

ـ ولا نحن من تامبوف • وليس لك أن تطلب منا شيئاً • فاذا أردت أن تولم فعليك بفلاح غني فاتجه اليه •••

ـ في معدتي اليوم ايفاني تاسكون وماريا ايكوتشينا (ايكوتا تعني بالروسية : الفواق) أي انني أكاد أموت جوعاً ، فأين يسكن هذا الفلاح الغني الذي ذكرتموه ؟

ـ هو جازين ، فعليك به !

ـ ان جازين يشرب اليوم يا اخوتى ، فيتلف كل ما يملك !

ـ معه عشرون روبلاً على الأقل . ألا ان مهنة بيع الخمر لمهنة تدر ربحاً كثيراً ...

كذلك قال سجين آخر .

أجاب الرجل قائلا :

ـ أترفضوننى اذن ؟ طيب ... سآكل طبيخ الحكومة .

ـ هل تريد شيئاً من الشاى ؟ عليك اذن بهـذين السيدين اللذين يشربان الشاى ، فاسألهما منه قليلاً ! ...

ـ أين ترون سيدين ؟ ما هما الآن بنبيلين ، ما هما الآن خير منا .

بهذا نطق بصوت قاتم سجين آخر كان جالساً فى ركن ، ولم يكن قد جازف قبل ذلك بكلمة واحدة .

قال السجين ذو الشفة السميكة وهو يلقى علينا نظرة فكهة :

ـ وددت لو أشرب قدحاً من الشاى ، ولكننى أستحى أن أطلب .. ذلك أن لنا كرامتنا نحن ...

فقلت له وأنا أدعوه باشارة من يدى :

ـ اذا شئت قدمنا اليك قدحاً من الشاى . هل تريد ؟

ـ وكيف لا أريد ؟ من ذا الذى لا يريد ؟

قال ذلك وهو يقترب من المائدة .

ـ انظروا الى هذا الرجل ! حين كان حراً فى بيته كان لا يأكل الا حساءً حامزاً وخبزاً أسود أما فى السجن فلا بد له من شرب الشاى كأنه نبيل من النبلاء !

كذلك أردف يقول السجين ذو الوجه القاتم الكئيب .

سألته :

ـ ألا يشرب أحد الشاى هنا ؟

ولكنه لم يجدنى جديراً بجواب •

ـ أرغفةً بيضاء ، أرغفةً بيضاء ! أول مبيع •••

كان سنجين شاب يحمل أرغفة بيضاء منظومة في خيط ، هى حمل ثقيل من الأرغفة يبيعها فى الثكنات •

ان البائعة تعطيه رغيفاً عن كل عشرة أرغفة يبيعها ، أجراً له ، وعلى هذا الرغيف انما كان يعتمد لطعامه •

ـ أرغفة صغيرة ! أرغفة صغيرة !

كذلك كان يصيح وهو يدخل المطبخ •

ثم يردف قائلاً :

ـ أرغفة صغيرة من موسكو ، ساخنة ، ساخنة ••• أتمنى لو آكلها كلها ، ولكن لا بد عندئذ من مال ، لا بد من مال كثير • هيَّا يا أولاد ! لم يبق الا رغيف واحد ••• من كان يحب أمه فليشتر منى هذا الرغيف ••

ضحك الجمع من هذه الاستعانة بحب الابن أمه ••• فاشتروا منه بضعة أرغفة بيضاء •

قال :

ـ ان جازين يسكر الآن سكرة رهيبة ! يالها من خطيئة! ولقد اختار اللحظة المناسبة ••• ماذا لو وصل « ذو العيون الثمانى » ؟ (يقصد الميجر) •

ـ سنخبئه ••• هل سكر ؟

ـ نعم ••• ولكنه فظيع ••• لقد ثارت ثائرته ! •••

ـ لا شك أننا سنصل الى مرحلة اللطمات .

سألت البولندى جارى :

ـ عمَّن يتكلمون ؟

فقال :

ـ عن جازين .. هو سجين يتعاطى بيع الخمرة . فاذا جنى من تجارته بعض المال ، شرب بالمال الذى جناه الى آخر كوبك. انه منى شرب أصبح وحشاً كاسراً قاسياً شريراً . أما قبل أن يشرب فهو هادىء مسالم ... حتى اذا شرب ظهر على حقيقته ، فاذا هو يهجم على الناس مشرعاً سكينه الى أن ينتزعوها منه .

ـ وكيف يستطيعون ذلك ؟

ـ يهجم عليه عشرة أشخاص ، فما ينفكون يضربونه ضرباً شديداً مبرحاً الى أن يفقد وعيه ، ويسقط مغشياً عليه . فاذا صار كالميت من كثرة الضرب أرقدوه على سريره المصنوع من ألواح الخشب وغطوه بمعطفه .

ـ ولكنهم بذلك قد يجهزون عليه !

ـ لو ضرب غيره كما يضرب هو لمات حتماً ، أما هو فلا ... انه قوى الجسم الى درجة خارقة ، انه أقوى السجناء طرا ... ان بنيته تبلغ من المتانة والصلابة أنه يصحو فى الغداة سليماً معافى كأن لم يحدث شىء ...

تابعت أسأل البولونى :

ـ قل لى ، من فضلك : هؤلاء أناس يأكلون على حدة ، ومع ذلك أراهم ينفسون علىَّ الشاى الذى أشربه ... فما معنى هذا ؟

ـ لا دخل للشاى فى هذا ... وانما حقدهم منصب عليك أنت :

الست نبيلا ؟ انك لا تشبههم . وانه ليسعدهم أن يناكدوك وأن يذلوك . انك لا تعرف المتاعب التى تنتظرك . ان حياتنا هنا استشهاد ، انها شاقة من ناحيتين . ولا بد أن نكون على جانب عظيم من قوة الارادة وشدة الصبر حتى نعتادها ونألفها . لسوف يسببون لك كثيراً من نكد العيش وكثيراً من التنغيص بسبب طعامك وشايك ، مع أن الذين يأكلون طعاماً خاصاً ويشربون الشاى كثيرون . ان ذلك من حقهم هم ، أما أنت فليس من حقك ...

قال البولونى هذا ثم نهض وبارح المائدة . وبعد لحظات كانت نبوءاته قد تحققت ...

٣

المشاعر الأولى

تتمة

ماكاد يخرج . ... كي * (البولوني الذي تحدثت عنه) حتى دخل جازين الى المطبخ مسرعاً وقد أخذ السكر منه كل مأخذ .

لأن أرى سجيناً سكران في وسط النهار ، رغم أن على جميع السجناء أن يذهبوا الى العمل ، ورغم ما عُرف عن الميجر من قسوة شديدة ، ورغم أن هذا الميجر قد يباغت الثكنة من لحظة الى أخرى ، ورغم مراقبة ضابط الصف الذي كان لا يبارح السجن لحظة ، ورغم وجود جنود وحرس وموظفين ، فان ذلك خليق بأن يبلبل الأفكار التي كانت قد قامت في ذهني عن السجن . وقد احتجت الى زمن طويل حتى أفهم وأعلل وقائع كهذه الوقائع ظهرت لي في الوهلة الأولى أقرب الى الألغاز والأحاجي .

سبق أن قلت ان جميع السجناء كانوا يزاولون حرفة من الحرف، وان هذا العمل كان لهم ضرورة طبيعية لا بد منها . وهم يحبون المال حباً شديداً ، وينزلونه منزلة عالية لا تعلوها منزلة أي شيء من الأشياء ، ويكادون يقدرونه تقديرهم للحرية نفسها . ان السجين يتأسى بعض التأسي حين ترن في جيبه بضعة كوبكات . أما اذا لم يكن يملك شيئاً من

مال فان الحزن يستولى عليه ، وان القنـــوط واليأس يستبدان به ، حتى ليمكن أن يقارف أية جناية فى سبيل الحصول على بعض المال • غـير أن هذا المال ، رغم المنزلة العالية التى ينزلها فيه السجناء، ورغم القيمة الكبرى التى يضفونها عليـــه ، لا يبقى فى جيب صاحبه زمناً طـويلاً قط ، لأن الاحتفاظ به والابقاء عليه هما من أشق الأمور • فهو اما أن يصادر واما أن يُسرق • كان الميجر يصادر أثناء حملاته التفتيشية المباغتة كل ما قد يقع عليه من مبالغ صغيرة لقى أصحابها فى جمعها اكبر العناء ؛ فينفق المال عندئذ فى تحسين طعام السجناء ، لأن ادارة السجن تخصص المال المصادر لهذا الغرض • ولكن المال يسرق فى أكثر الأحيان • ان من المستحيل أن يثق السجين بأحد ، وأن يركن اليه ويعتمد عليه • على أن السجناء قـد اهتدوا الى وسيلة للمحافظة على المال • كان هناك شيخ عجوز ينتمى الى الملة الدينية المنسوبة الى مدينة فياتكا* وقد التجأ الى منطقة ستارودوب ، فهذا الشيخ هو الذى يتولى اخفاء مدّخرات السجناء • لا أستطيع أن أقاوم الاغراء الذى يدفعنى الى قول بضع كلمات عن هذا الرجل: انه فى الستين من عمره ، نحيل ، قصير القامة ، أشيب الشعر تماماً • وقد أوقعنى فى حيرة شديدة منذ وقع بصرى عليه أول مرة ، ذلك أنه لا يشبه السجناء الآخرين فى شيء • ان نظرته تبلغ من الهدوء والوداعة والمسالمة والعذوبة أننى كان يحلو لى دائماً أن أرى عينيه الصافيتين الرائقتين المخفوفتين بغضون كثيرة • وقد تحدثت معه مرارا ، فقلما رأيت انساناً يبلغ ما يبلغه هذا الرجل من طيبة القلب ، ونبل النفس ، وشهامة الخلق ، ودماثة السلوك • ولقـــد أرسل الى سجن الأعمال الشاقة لجريمة خطيرة ارتكبها • كان عدد بنى ملته الدينية فى ستارودوب (اقليم تشرنيجوف) قد ارتدوا الى الارثوذكسيه• لقد عملت الحكومة كل ما تستطيع أن تعمله من أجل أن تشجعهم على المضى فى هذا الطريق ، ومن أجل أن ترد الى هذا الطريق سائر المنشقين•

فقرر الشيخ مع عدد من المتعصبين للملة الدينية أن يدافعوا عن « الدين القديم » . فلما أخذت الحكومة تبنى فى مدينتهم كنيسة أرثوذكسية ، أضرموا في الكنيسة النار وأحـرقوها . ونتج عن ذلك اعتقـال الفاعل وارساله الى السجن فى سيبيريا . ان هذا الرجل الغنى (وكان يعمل فى التجارة) قد خلف وراءه امرأة وأولاداً يحبهم ، ولكنه ذهب الى المنفى رابط الجأش شجاعاً ، معتقداً لعماوته أنه يتألم فى سبيل « الدين القديم » و « الايمان الصحيح » ... ان المرء ليتساءل رغم ارادته ، بعد أن يعيش زمنا الى جانب هذا الشيخ : « كيف أمكن أن يتمرد هـذا الرجل وأن يثور ؟ » . ولقد سألته عـدة مرات عن « دينه » ، فكان لا يجيب بشيء يتعلق بمعتقداته ، ولكننى لم ألاحظ فى ردوده أية بغضاء أو سخيمة . ومع ذلك فقد أضرم النار فى كنيسة فدمَّر الكنيسة ... وكان لا ينكر أنه فعل ذلك أبداً : كان يبـدو أنه مقتنع كل الاقتناع بأن جريمتـه و « استشهاده » ، على حد تعبيره ، هما من الأعمال المجيدة التى تستحق أن يعتز بها صاحبها وأن يفخر . وعبثاً حاولت أن أحاصره بالأسئلة وأن أدرسه ، فاننى لم أستطع أن أجد فيه أثراً من آثار العُجْب بنفسه أو الزهو أو الخيلاء أو الغرور . وكان بيننا سجناء آخرون من المنشقين عن الأرثوذكسية المنتمين الى هذه الملة ، وكان أكثرهم من سيبيريا ، فـكان هؤلاء على جانب كبير من توقد الذكاء وحسن الحيلة ، كما يُلاحظ ذلك لدى كثير من الفـلاحين . كانوا يحبون الجـدل على طريقتهم ، وكانوا يتبعون عقيدة ملتهم اتباعاً أعمى ، ويميلون الى المناقشة ميلاً واضـحاً . ولكنهم كانوا يتصفون بعيوب كثـيرة : فهم متعـالون متكبرون فيهم من الغطرسة ما لا يطاق ولا يحتمل . ولا كذلك صـاحبنا الشـيخ . انه لا يشبههم فى شيء . فهو ، على أنه قوى جداً ، وعلى أنه أقوى من أتباع هذه الملة الآخرين حجةً وأوسع منهم ثقافة ، يتحاشى أى نقاش ؛ وكان

دمث الطبع ، لين العريكة ، باش المـزاج ، حتى ليتفق له أن يضحك ـ لا ضحكا فظاً ساخراً كما يضحك غيره من السجناء ـ بل ضحكا حلـوا مضيئا يسمع فيه المرء كثيرا من براءة الطفولة ، وينسجم اكبر الانسجام مع راسه الاشيب • (قد اكون على خطا ، ولكننى احسب أن فى الامكان معرفة رجل من ضحكته وحدها ؟ فاذا بدت لك ضحكته محببة ، فكن على يقين من انه انسان طيب كريم النفس) • وقد ظفر هذا الشيخ باجماع السجناء على احترامه ولكن ذلك لم يصبه بشيء من غرور • كان السجناء يطلقون عليه اسم « الجد » ، ولا يسيئون اليه فى يوم من الأيام • وعندئذ أدركت كيف استطاع هذا الشيخ أن يكون له تاثير كبير فى أتباع ملته • وان المرء ليشعر ، رغم أن الشيخ كان يتحمل قسوة الحياة فى السـجن رابط الجاش قوى العزيمة ، أنه يخفى حزناً عميقاً لا شفاء منه ولا برء له • ففى ليلة من الليالى ، فى نحو الساعة الثالثة من الصباح ، استيقظت من نومى ، فسمعت نشيجاً بطيئاً مخنوقاً • كان الشيخ جالساً على المدفأة (حيث كان قبـل ذلك يصـلى الرجل الذى أراد أن يقتـل الميجـر) ، يقرا فى كتاب ملته المخطوط • وكان يبكى • وسمعته يردد : « لاتتركنى يا رب ! لا تتركنى يا رب ! يا رب شدّ أزرى وقوّ عزيمتى •• أولادى الصغار المساكين ! ••• أولادى الصغار الأحبة ••• لن نلتقى اذن بعـد اليوم أبدا ••• » • لا أستطيع أن أصف لكم الحـزن الذى شعرت به حينذاك !

عهدنا اذن بمالنا الى هذا الشيخ • كان قد ذاع فى ثكنتنا ـ لايدرى الا الله لماذا ؟ ـ أن الشيخ لا يمكن أن يُسرق • كانوا يعلمون أنه يخفى المدخرات التى تودع عنده فى مكان ما ، ولكن لم يستطع أحد أن يكتشف سرّه • وقد كشف لنا عن هذا السر ، كشفه لى وللبولونيين •

كان لأحد الأوتاد التى يتألف منها السياج غصن يبـدو فى الظاهر

مرتبطاً بالجذع ارتباطاً قوياً ، ولكن كان يمكن فى الواقع انتزاعه ثم رده الى مكانه • فها هنا اذن فراغ • وهذا الفراغ هو ما كان يتخذه الشيخ مخبأً للمال •

والآن أعود الى ما كنت بصدد الكلام عليه • لماذا لا يحتفظ السجين بماله ؟ انه لا يحتفظ بماله ، لا لأن الابقاء على هذا المال صعب فحسب ، بل أيضا لأن حياة السجن حزينة كئيبة كثيراً ••• ان السجين فى ظمأ شديد الى الحرية بطبيعته ! انه من جهه وضعه الاجتماعى انسان يبلغ من قله الاكتراث وشدة الفوضى ان فكرة تبديد ماله فى سكر وعربدة وموسيقى تراود ذهنه بطبيعة الحال ، ولو لينسى شقاءه دقيقة واحدة • انه ليبدو للمرء غريباً أن يكب بعض الناس على العمل دائبين صابرين ، لا لهدفٍ آخر غير أن يتلفوا فى يوم واحد كل ما جنوه بالتعب والعرق حتى آخر قرش ! ••• ثم هم يعودون الى العمل يكدون ويجهدون الى أن يحين حين احتفال جديد ينتظرونه أشهراً برمتها • وكان بعض السجناء يحبون الثياب الجديدة المتفردة بعض التفرد ، يحبون السراويل الغريبة ، والصديرات ، والمعاطف السيبيرية ••• ولكن القمصان الهندية هى ما كان يحبه السجناء أكثر مما يحبون أى نوع آخر من أنواع الثياب ، وكذلك الأحزمة ذات المشابك المعدنية •

وكان الأنيقون فى أيام الأعياد * يرتدون أبهى حلة : ليتك تراهم يتبخترون فى جميع الثكنات ! ان سرورهم بارتداء ثياب أنيقة يبلغ بهم مبلغ الطفولة • والحق أن السجناء هم فى أمور كثيرة اطفال كبار • وهذه الملابس الجديدة سرعان ما تختفى ، وكثيراً ما تختفى فى مساء اليوم الذى اشتريت فيه ، فان أصحابها ما يلبثون أن يرهنوها أو يبيعوها بأبخس الأثمان • والاحتفالات انما تتكرر فى أوقات توشك أن تكون دائماً محدّدة ، فهى تطابق مواعيد الاحتفالات الدينية أو تطابق أيام الأعياد

الشخصية * • فالمحتفل يضع شمعة أمام صورة العذراء متى نهض من نومه ، ويقرأ صلاته ، ثم يرتدى أبهى حلله ويأمر لنفسه بغدائه • ويكون قد اشترى لحماً وسمكاً وفطائر ••• فها هو ذا يزدرد الطعام كالثور ، يزدرده وحده فى أكثر الأحيان ••• فقلما يدعو سجين رفيقاً له الى مشاركته احتفاله بعيده • وفى أحد هذه الأوقات انما تظهر الخمرة : يعب السجين منها ما شاء له هواه أن يعب ، ثم يقوم يتجول فى الثكنات مترنحاً متعثراً ، حريصاً أشد الحرص على أن يُظهر لجميع رفاقه أنه سكران ، ليستحق بذلك احتراماً خاصاً وتقديراً خاصاً •

ان الشعب الروسى يشعر دائماً بشىء من العطف على امرىء سكران• ولكن شعور السجناء نحو السكران فى السجن ليس عطفاً بل احتراماً • ان السكر فى السجن نوع من التميز الارستقراطى •

ومتى استخف السجينَ الطربُ دعا موسيقياً يعزف له • لقد كان بيننا بولونى قصير هارب من الجندية ، دميم الوجه بشع المنظر ••• لكنه يملك كماناً يحسن العزف عليها • ولم يكن هذا البولونى يمارس أية مهنة غير العزف على كمانه ، فها هو ذا يتبع السجين الطرب من ثكنة الى ثكنة يعزف له ألحان رقص بكل ما أوتى من قوة • وكثيراً ما كان يفصح وجهه عن الملل والسأم والاشمئزاز من هذه الموسيقى التى تتكرر الى غير نهاية ولا تتجدد قط ، فاذا السجين يصيح قائلا له : « اعزف ما دمت قد نلت على هذا أجرا • » ، فيعود الموسيقى يواصل العزف على أوتار كمانه بمزيد من الهمة والقوة •

وكان هؤلاء السكارى على ثقة من أن رفاقهم يحمونهم ، فاذا اتفق أن وصل الميجر أخفوهم عن أنظاره • وتلك خدمة منزهة عن الغرض مبرأة من المنفعة ؛ كما أن ضابط الصف والجنود الذين يبقون فى الثكنة للمحافظة على النظام لا يحركون ساكناً قط : فان السكير لا يمكن أن

يسبب أية فوضى • ومتى حاول أن يثور أو أن يحدث جلبة وضجة وصخباً ، قام رفاقه يهدئونه ، وقد يوثقونه • لذلك كان الموظفون المرءوسون (من مراقبين وغيرهم) يغضون الأبصار • انهم يعلمون أن تحريم الخمرة سيجعل جميع الأمور تجرى فى السجن مقلوبة • والسؤال الآن هو : كيف كان السجناء يحصلون على الخمرة ؟

كانوا يشترونها فى السجن نفسه من « الخمارين » (بهذا الاسم كان السجناء يسمون أولئك الذين يتعاطون هذه التجارة ، وهى تجارة مربحة جداً ، رغم أن عدد الشاربين والمحتفلين قليل ، نتيجة لغلاء تكاليف كل احتفال من هذا القبيل ، اذا قيست هذه التكاليف بقلة موارد السجناء) • وكانت هذه التجارة تبدأ وتستمر وتنتهى على نحو طريف كل الطرافة • هذا سجين لا يجيد أى حرفة ، ولا يريد أن يعمل ، ولا بد له مع ذلك من أن يغتني اغتناء سريعاً ، فاذا هو يقرر ، متى ملك بعض المال ، أن يتعاطى تجارة الخمرة يشتريها ويبيعها • والمغامرة خطرة جريئة : فهى تقتضى شجاعة وتتطلب جسارة ، لأن المغامر لا يخاطر بجلده وحده ، بل يخاطر ببضاعته أيضاً • ولكن الخمّار لا يتراجع أمام هذه العقبات • وهو فى أول الأمر يحمل الخمرة الى السجن بنفسه ، لأنه لا يملك ، بعدُ ، الا قليلاً من المال ، ويبيعها فيجنى من ذلك ربحاً كبيراً • ثم يكرر هذا العمل مرة ثانية ، فثالثة ••• فاذا لم تكشف أمره الادارة ملك من المال ما يتيح له أن يوسّع تجارته ••• فيصبح عندئذ «مقاولاً» ، يصبح « رأسمالياً » : انه يتخذ لنفسه عملاء ومساعدين ، وبذلك تقل المخاطر التى يتعرض لها ، وتزداد الأرباح التى يجنيها • فالمساعدون هم الذين يجازفون الآن من أجله وفى سبيله •

ان السجن ملىء دائما بسجناء لا مال عندهم ولا حرفة لهم ، ولكنهم يملكون الجرأة والشجاعة ، ويملكون الحذق والمهارة • فرأس المال

الوحيد الذي ينعمون به انما هو جلود ظهورهم ، وهم كثيراً ما يقررون استغلال رأس المال هذا ، فيقترحون على الخمّار أن يتولوا تهريب الخمرة الى الثكنات . ولا بد أن يوجد في المدينة دائماً جندي أو متكسب أو حتى فتاة ، يشترون خمراً بمال الخمّار (ويتقاضون على شراء الخمر ربحا يُتفق عليه ، وهو ربح زهيد على وجه الاجمال) ثم يخفونه في مكان يعرفه السجين المهرِّب ، قرب ورشة العمل التي يعمل فيها ؛ والمهرِّب لا بد أن يذوق هذا السائل الطيب في طريق عودته الى السجن ، فيفرغ بذلك بعض الزجاجة ، فيعمد الى ملء الفراغ بالماء القراح ... ولسان حاله يقول : «لك أن تأخذ أو أن تدع» .. وان يستطيع الخمّار أن يكون متشدداً ، بل عليه أن يعد نفسه سعيداً اذا لم يسرق ماله أصلاً ، واذا جيء بالخمرة ممزوجةً بالماء على هذا النحو . ان المهرِّب الذي يعيِّن له الخمار مكان اللقاء بينه وبين الوسيط يحمل الى هذا الوسيط أمعاء من امعاء البقر أحسن غسلها سلفاً ، وملئت ماءً، لتحتفظ بمرونتها ولينها وطراوتها. فمتى تم ملء الأمعاء بالماء ، لفَّها المهرِّب وخبأها في جسمه ... في المواضع الخفية السرية من جسمه ... وهنا انما تتجلى الحيلة ويتجلى الدهاء والحذق لدى هؤلاء السجناء الشجعان ... والا تجلل شرفهم بالعار : ان عليهم أن يخادعوا الذين يرافقونهم الى العمل ، وأن يخدعوهم؛ فاذا كان المهرِّب بارع الحيلة لم يلاحظ الحارس شيئاً (وهو في الغالب من المجندين) لأن المهرب يكون قد أحسن دراسته ، كما يكون قد أحسن اختيار الزمان والمكان للموعد المضروب . هب المهرِّب يعمل في صنع القرميد مثلاً : انه في هذه الحالة يتسلق الفرن الذي يُشوى فيه القرميد، وطبيعي أن لا يرافقه الجندي الذي يحرسه ليراقب حركاته وسكناته . ومن ذا الذي يستطيع أن يرى هنالك ماذا يصنع ؟ حتى اذا قفل راجعاً الى السجن ، هيأ قطعة نقدية بخمسة عشر كوبكاً أو بعشرين كوبكاً ، وانتظر

عريف الحرس على الباب • ان العريف يفتش كل سجين ويجسه وينبشه عند عودته الى الثكنة ، ثم يفتح له البـاب ؟ والمهـرب يامل ان يستحيي العريف من تفتيشه وجسّه في بعض المواضع تفصيلاً ، ولكن العريف انما يجس هذه المواضع الحرجة بعينها حين يكون بارع الحيلة ماكرا ، فاذا هويعثر على الخمرة المهربة، فلا يبقى للسجين عندئذ الا سبيلواحدة للسلامه ، هي ان يدس في يد العريف قطعة النقد خلسةً فتصل الخمرة بهذه الطريقه الى ايدي الخمار بغير مشاكل في كثير من الاحيان • حتى اذا لم تنجح هذه الحيلة كان لا بد للمهرِّب من أن يضع في التداول رأس المال الوحيد الذي يملكه ، فالعريف يكتب تقريرا الى الضـابط الميجر ، والضابط الميجر يأمر بجلد المهرِّب العاثر الحظ بغير هوادة ولا رحمة ؟ وتصادر الخمرة ••• والمهرِّب يتلقى عقابه دون أن يشي بصاحبه المقاول ، لا لأن هذه الوشاية ستلطخ شرفه بل لأنها لن تجلب له نفعـا ، فلسوف يُجلد على كل حال ، سواء أوشى بصاحبه أم لم يش به ؟ وكل العزاء الذي يمكن أن يناله من الوشاية بصاحبه هو أن يشركه في تحمل العقوبة معه ، ولكنه في حاجة الى الخمـار ، لذلك لا يشي به ، رغم أنه لا يتقاضى أي أجر متى افتضح أمره فلم يستطع أن يهرِّب الخمـرة الى داخل السجن •

على أن الوشاية رائجة في السجن • والسجناء لا يغضـبون من الجاسوس ولا يبعدونه عنهم ، بل كثيراً ما يتخـذونه لهم صديقا • فاذا خطر ببال أحد أن يبرهن للسجناء على أن وشاية بعضهم ببعض أمر حقير غاية الحقارةلم يفهم عنه أحد شيئاً • ان النبيل السابق الذي تحدثت عنه آنفاً ، ذلك المخلوق الجبان الغدار الدنيء الذي قطعتُ صلتي به منـذ وصولي الى القلعة كان صديقاً لفدكا خادم الضابط الميجر ، فكان يروي له كل ما يجري في السجن ، وكان فدكا يسارع طبعاً فينقل الى مولاه ما قد

سمعه . والسجناء جميعاً يعرفون هذا الأمر ، ولكن ماكان ليخطر ببال أحد منهم أن يعاقبه على ذلك ، أو أن يعيب عليه سلوكه . ولكن هأنذا ابتعدت عن مجرى حديثي مستطرداً ، فلأعد الى ما كنت بصدده :

متى وصلت الخمرة الى السجن دفع المقاول للمهرب أجره وأخـذ يُجري حسابه ، والبضاعة قد كلفه ثمنها غالياً ، وهو لذلك من أجل أن يُربي ربحه يضيف الى الخمرة نصف مقدارها ماءً قراحاً ، فلا يبقى عليه بعد ذلك الا أن ينتظر المشترين . وهذا سجين يجيئه في مطلع يوم عيد ، بل وفي مطلع يوم من أيام الأسبوع : لقد عمل عدة أشهر عملاً شاقاً كما يعمل زنجي ، من أجل أن يجمع ، كوبكاً بعد كوبك ، مبلغاً من المال يقرر أن ينفقه دفعةً واحدة . لقد حد د السجين يوم احتفاله منذ زمن بعيد ، وحلم به أثناء ليالي الشتاء الطويلة ، وأثناء قيامه بأعماله القاسية المرهقة ، فكان الأمل بحلول هذا اليوم يشد أزره ويقوي عزيمته . ويسطع أخيراً فجر ذلك اليوم الموعود الذي طال انتظاره : ان المال في جيب السجين لم يصادر ولم يسرق ، وهو حر في انفاقه على مايشاء له هواه ، فهاهوذا يحمل مدخراته الى الخمار الذي يعطيه في أول الأمر خمرة تشبـه أن تكون صافية لأنها لم تمزج بالماء الا مرتين . ولكن كلما فرغت الزجاجة بعض الفراغ ملأ الخمار فراغها ماءً ، وهكذا يدفع السـجين ثمن قـدح الخمر سـتة أضعاف ما يدفعه في خمّارة . قد يتراءى لكم أن السجين يحتاج الى عدد كبير من مثل هذه الأقداح حتى يسكر ، وأنه يدفع مبالغ طائلة من المال قبل أن يسكر ... ولكن الواقع أن القليل من الكحول الذي يحويه الشراب يسكر السجين بسرعة كافية ، لأن السجين قد فقد عادة الشراب ... وهو يظل يشرب الى أن ينفق آخر قرش يملكه ، ثم يعمد الى بيع أمتعته الجديدة أو رهنها ليستمر على الشراب ، والخمّار يتعاطى تجارة الاقراض بالرهن في الوقت نفسه ، فاذا نفدت أمتعة السجين

الشخصية ، وهي قليلة ، لم يلبث أن يرهن الأمتعة التي تقدمها له الحكومة؛ فمتى شرب بثمن آخر قميص من قمصانه وآخر خرقة من خرقه ، استيقظ في صباح اليوم التالي مصدَّع الرأس ، فراح يتوسل الى الخمَّار أن يعطيه قطرةً من الخمر ديناً ليُذهب عنه هذا الصداع ، ولكن الخمَّار يرفض أن يعطيه شيئاً بالدين ، فما يملك المسكين الا أن يقبل الرفض حزيناً • وفي اليوم نفسه يعود يعمل ، ويظل يعمل أشهراً بكاملها ، كادحاً مرهقاً نفسه ، حالماً باليوم السعيد الذي انقضى ••• وشيئاً فشيئاً يسترد أمله ويستعيد شجاعته منتظراً يوماً كذلك اليوم ، يوماً بعيداً لكنه آتٍ لا ريب فيه •

وحين يجني الخمَّار مبلغاً كبيراً ـ بضع عشرات من الروبلات ـ فانه يشتري خمراً ، ولكنه لا يمزج هذه الخمرة الجديدة بماء ، لأنه يخص بها نفسه : كفاه تجارة ! ••• لقد آن له هو أن يتسلى ويطرب • فها هو ذا يشرب ويأكل ويدفع للموسيقي أجراً ••• ان موارده تتيح له أن يمنَّ على صغار الموظفين المرءوسين في السجن ببعض الهبات ••• ويدوم احتفاله هذا بضعة أيام ، حتى اذا نفدت مؤونته من الشراب مضى يشرب عند الخمارين الآخرين الذين ينتظرون ذلك منه ويتوقعونه، فيظل يشرب الى أن ينفق آخر كوبك يملكه • ومهما يكن انتباه السجناء قوياً من أجل حماية رفاقهم المحتفلين ، فانه ليتفق أن يلاحظ الضابط الميجر أو ضابط الحرس ما قام في السجن من فوضى ، فيقاد السكير عندئذ الى غرفة القصاص ، فيصادر ما معه من مال ـ ان كان قد بقي له منه شيء ـ ثم يُجلد ، حتى اذا فرغوا من جلده نفض جسمه كما ينفض جسمَه كلب تلطخ بالوحل ، وعاد الى الثكنة ، ثم استأنف عمله خماراً بعد بضعة أيام •

ويوجد بين السجناء في بعض الأحيان أناس من عشاق الجنس

اللطيف : انهم يستطيعون بمبلغ كبير من المال يرشون به جندياً من الجنود أن يتسللوا خلسة من القلعه الى ضاحية من ضواحي المدينة بدلا من ان يذهبوا الى العمل • وهناك ، في بيت هادىء المنظر ، يقيمون حفلة ينفقون فيها مبالغ طائلة • ان الجنود الذين يقبلون اصطحاب سجين من السجناء في رحلة كهذه يتقاضون رشوة كبيرة ، لذلك تراهم في بعض الاحيان يهيئون فراراً من هذا النوع سلفاً لثقتهم بأنهم سيكافئون مكافأة ضخمة • وامثال هؤلاء الجنود مرشحون لان يصبحوا هم انفسهم سجناء • وهذا الفرار يبقى في أكثر الأحيان سرياً ، بل يكاد يبقى سرياً في جميع الاحيان • ويجب ان أعترف مع ذلك ان حدوث هدا الفرار امر نادر ، لانه يكلف نفقات باهظة ، وعشاق الجنس اللطيف يلجئون الى وسائل أخرى لا تكلف مثل هذه النفقات الباهظة •

في بداية عهدي بالسجن لفت نظري واستأثر بانتباهي وأثار حب الاطلاع في نفسي سجين شاب وسيم الوجه حلو الملامح دقيق القسمات : ان اسمه سيروتكين : انه انسان يشبه أن يكون لغزاً من نواح كثيرة • لقد خطف وجهه بصري منذ أول نظرة • لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وكان ينتمي الى القسم الخاص ، أي أنه كان محكوماً عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، فكان ينبغي النظر اليه على أنه من أخطر المجرمين العسكريين • انه هادىء لطيف عدب لا يتكلم الا قليلاً ، ولا يضحك الا نادراً • ان عينيه الزرقاوين وبشرته الرائعة وشعره الأشقر ، ان هذا كله يضفي على وجهه تعبيراً جميلاً لا تفسده حتى جمجمته المحلوقة الشعر • ورغم انه لا يمارس اية حرفة فقد كان يحصل احيانا على مبالغ زهيدة من المال • كان كسولاً كسلاً واضحاً ، وكان زري الثياب دائماً • فاذا تكرم أحدهم فأهدى اليه قميصاً أحمر طار لبه من فرط الفرح وشدة الابتهاج ، فأخذ يطوف مرتدياً قميصه الجديد يعرضه في كل مكان •

وكان سيروتكين لا يشرب الخمر ولا يلعب القمار ولا يكاد يتشاجر يوما مع احد من السجناء • وكان لا يني يتجـول ، واضـعاً يديه في جيبي سرواله ، هادىء المشية واجم النظرة متأملاً مفكراً • أما في أي شيء كان يفكر ، فذلك ما لا أعلم عنه شيئاً • اذا نودي ليسأل عن امر من الامور ، او ليطلب منه شيء من الأشياء أسرع يجيب بكثير من الاحترام ، وتـكلم كلاماً واضحاً دقيقاً ، دون أن يثرثر كثيرا كما يفعل غيره : انه ينظر اليك دائماً بعينين ساذجتين سذاجة عيني طفل في العاشرة من عمره • اذا ملك مالاً لم يشتر شيئاً مما كان يعده سائر السجناء أشياء لا غنى عنهـا ، واذا تمزق قميصه لم يعهد الى أحد بترقيعه ، لا ولا كان يشتري أحذية جديدة • ان ارغفة الخبـز الأبيض والفطـائر هي ما كان يحلو له ان يشتريه أكثر من أي شيء آخر • فكان يقضم هذه الأرغفة وهذه الفطائر بلذة كلذة طفل صغير في السابعة من عمـره • كان السجناء يخـاطبونه بقولهم : « هيه ! سيروتكين ، يا يتيم * قازان الصغير المسكين ! » اذا كان رفاقه لا يعملون أخذ يتجول في الثكنات على عادته حتى اذا كان جميـع السجناء منكبين على عملهم ظل هو عاطلاً لا يحرك يديه • واذا مازحـه أحد أو سخر منه وهزىء به ـ وكان هذا يحدث كثيرا ـ لم يزد على أن يدير ظهره ويمضي الى مكان آخر دون أن يقـول كلمة واحدة • فاذا كانت المزحة ثقيلة قوية احمر وجهـه • تسـاءلت كثيراً ما عسى تكون الجريمة التي اقترفها حتى أرسل الى سجن الأشغال الشاقة • وفي ذات يوم كنت مريضاً راقداً في المستشفى ، وكان سـيروتكين متمدداً على فراش قريب مني ، فأخذت أتحدث معه ، فتحمس وقص علي بغير تحفظ كيف جُنِّد ، وكيف صحبته أمه باكية ، ووصف لي أنواع العذاب التي قاساها أثناء الجندية ، وأضاف الى ذلك أنه لم يستطع أن يتعود هـذا النوع من الحياة : فلقد كان جميع الناس هنالك قساة عتاة ، يغضبون لأتفه الأسباب،

وكان رؤساؤه حاقدين عليه ساخطين منه في جميع الأحيان تقريباً .
سألته :
ـ ولكن لماذا أرسلت الى هنا يا سيرونكين ؟ ولماذا الى القسم الخاص يا سيروتكين ؟
قال :
ـ نعم يا ألكسندر بتروفتش ! ... انني لم أقض في الجندية الا سنة واحدة : وقد أرسلت الى هنا لأنني قتلت رئيسي النقيب جريجوري بتروفتش .
ـ سمعت بعضهم يروي هذا ، ولكنني لم أصدّقه ... فكيف أمكن أن تقتله يا سيروتكين ؟
ـ كل ما روي لك صحيح . لقد كانت حياتي هنالك ثقيلة لا تطاق ولا تحتمل .
ـ ولكن المجندين الآخرين يحتملون تلك الحياة ! صحيح أنها شاقة قاسية في البداية ، ولكن المرء يتعودها أخيراً ويصبح جندياً ممتازاً . لاشك أن أمك قد أسرفت في تدليلك فأفسدت طباعك ... أنا واثق أنها كانت تغذيك بالفطائر واللبن حتى الثامنة عشرة من عمرك ! ...
ـ حقاً لقد كانت أمي تحبني كثيراً ... وحين سافرت رقدت على سريرها وبقيت فيه ... ألا ما كان أقسى حياة الجندية في نفسي حينذاك ! كان كل شيء يجري مقلوباً ... كانوا ينزلون فيّ العقوبة تلو العقوبة ... ولماذا ؟ لقد كنت أطيع جميع الناس ، وأخضع لجميع الأوامر ، وأتبع جميع القواعد ، وأعتني بكل شيء ، ولا أشرب الخمرة قط ، ولا أستدين من أحد شيئاً ... ذلك أن المرء يسيء صنعاً اذا هو أخذ يستدين ... ومع هذا كان جميع الناس حولي قساةً عتاةً الى أبعد حدود القسوة والعتو ... كنت في بعض الأحيان ألطو في ركن من الأركان وآخذ

أبكي ••• وأنتحب ••• نعم ••• أنتحب ••• وفي ذات يوم ، أو قل في ذات ليلة ، كنت مكلفاً بالحراسة ••• الفصل خريف ، والرياح شديدة ، والجو يبلغ من شدة الاظلام أن المرء لا يستطيع أن يرى قطة ••• وكنت حزينا ، حزيناً غاية الحزن ••• نزعت الحربة من بندقيتي ووضعتها جانباً، ثم وضعت فوهة البندقية على صدري ، وضغطت الزناد بابهام قدمي بعد أن خلعت حذائي • لم تنطلق الطلقة • فحصت بندقيتي وحشوتها بارودا جديداً ، ثم سددت فوهة البندقية الى صدري ••• ومرةً أخرى لم تنطلق الطلقة ••• قلت لنفسي : « ما العمل ؟ » • ثم انتعلت حذائي ، وأحكمت اعادة وضع الحربة في موضعها من البندقية ، ومضيت أتجول ذاهباً آيباً ، حاملاً بندقيتي على كتفي • قلت لنفسي : ألا فلأُرسل الى أي مكان ، ولكنني لا أريد أن أبقى جندياً• وبعد نصف ساعة وصل النقيب الذي كان يقوم بجولته التفتيشية • تقدم مني وقال لي : « أهكذا يسير الجندي حين يكون حارسا ؟ » ، فما كان مني الا أن أمسكت بندقيتي وأغمدت الحربة في جسمه • وقد جلدوني أربعة آلاف جلدة بالسوط ••• هكذا وصلت الى القسم الخاص •

لم يكذب سيروتكين ! ومع ذلك فأنا لا أفهم لماذا أرسلوه الى هنا • ان جرائم من هذا القبيل تعاقب معاقبة أقل قسوة • ان سيروتكين هو السجين الوحيد الذي كان جميل الوجه حقاً • أما سائر رفاقه في القسم الخاص ـ وعددهم خمسة عشر سجيناً ـ فقد كان لهم منظر كريه رهيب! ان لهم وجوها تبعث الاشمئزاز في النفس ! والرءوس الشائبة فيهم كثيرة• سأتحدث عن هذه العصبة فيما بعد • وكان سيروتكين في كثير من الأحيان على صداقة طيبة بالخمّار جازين الذي سبق أن تحدثت عنه في بداية هذا الفصل •

ان جازين هذا انسان رهيب • يحس كل من يراه أنه رجل مرعب

مخيف يبعث الاضطراب والقلق في النفس • ولقد بدا لى أنه لا يمكن أن يوجد على وجه الأرض مخلوق أشد منه شراسة وضراوة ووحشية ؛ لقد سبق لى أن رأيت في مدينة توبولسك قاطع الطريق كامنيف الذى اشتهر بجرائمه ؛ ورأيت بعد ذلك سولوكوف ، السجين الهارب ، الذى كان فارا من الجنديه ، وكان سفاحا كاسراً من السفاحين • ولكن لا هذا ولا ذاك أيقظ في نفسى من الاشمئزاز ما أيقظه جازين• تخيلوا عنكبوتاً ضخماً عملاقا في حجم انسان • وهو تترى • لم يكن في السجن كله انسان يضارعه قوة جسم ، وشدة بأس • انه يوحى الى القلوب الذعر والرعب ، بضخامة رأسه الغريب المشوه اكثر مما يوحي ذلك بقامته الطويلة وبنيته الهرقلية • وكانت تجرى في حقه شائعات من أغرب الشائعات : فبعضهم يقول انه كان جندياً، وبعضهم يزعم أنه قد فرّ من نرتشنسك*، وأنه نفى عدة مرات الى سيبيريا ، ولكنه استطاع أن يهرب في كل مرة ، ثم آل أخيراً الى سجننا فرداً من أفراد قسم المؤبدين ، ويقال انه كان يحب قتل الاطفال الصغار يستدرجهم في أول الأمر الى مكانٍ ناءٍ ثم يأخذ يرعبهم ويعذبهم، حتى اذا شفىغليله من الاستمتاع بذعر نفوسهمونبضاتقلوبهم، اخذ يقتلهم ببطء وهدوء ورصانة ووقار ، متلذذاً بذلك أكبر التلذذ • لعل الذين يروون عنه هذه الفظائع قد تخيلوها تخيلاً من الأثر الذى يحدثه في نفوسهم ، غير أن من الجائز أن تكون صحيحة ، وهى تتفق وسحنته على كل حال • على أن جازين ، حين يكون صاحياً غير سكران ، يتصرف تصرفاً لائقاً ويسلك سلوكاً لا غبار عليه • انه هادىء دائماً لا يخاصم أحداً، ويتحاشى المشاجرات احتقاراً لمن حوله، وتقديراً لشخصه • وكان لايتكلم الا قليلاً • وكانت حركاته جميعها محسوبة موزونة هادئة رصينة • ولا تخلو نظرته من ذكاء ، ولكن تعبير هذه النظرة تعبير قاسٍ ساخر كابتسامته • وكان بين تجارِ الخمرة أغناهم طراً • وكان يسكر

مرتين في السنة ، فاذا سكر انكشفت شخصيته على حقيقتها وحشية ضارية كاسرة • انه ينتعش شيئا فشيئا فياخذ يناكد السجناء بالسخريات اللاذعة المسمومة التي يكون قد حضّرها وسنّها وصقلها زمنا طويلا قبل ذلك ؛ حتى اذا بلغ غاية السكر واستبدت به نوبات حنق مسعور وغيظ مجنون ، تناول سكينا فأشرعها واتجـــه نحو رفاقه • والسجناء يعرفون قوة بأسه الهرقلية ، فهم لذلك يتحاشون ويختبئون عنه لانهم يعلمون أنه سيهجم على اول من يراه منهم • وقد انتهوا مع ذلك الى وسيلة يجردونه بهـــا من سلاحه هي أن ينقض على جازين عشرة من الســـجناء مباغتة ، فمـا يزألون يكيلون له ضربات شديدة على صرته وفي بطنه وتحت قلبه الى ان يفقد الوعي ويسقط مغشياً عليه • ان هذه الطريقة يمكن أن تجهز على أي انسان ، ولكنها لا تجهز على جازين • حتى اذا أوسعوه ضرباً لفوه بمعطف ورموه على سريره ، قائلين : « والآن فلينم » • ويستيقظ جازين في الغداة سليما معافى تقريباً • فيذهب عندئذ الى العمل صامتا كئيب المزاج مظلم النفس • وكلما سكر جازين عرف جميع السجناء كيف ينتهي نهاره • وكان هو نفسه يعرف ذلك ، ولكنه يشرب رغم كل شيء • وانقضت على هذا سنوات ، فلاحظ السجناء أن جازين قد أخذ يهزل ويضعف • أصبح لا يكف عن الأنين ، شـــاكياً من أمراض شـــتى • وازدادت زياراته للمستشفى • وقال السجناء : « ها هو يرضخ أخيراً » •

في ذلك اليوم دخل جازين المطبخ يتبعه البولوني القصـــير الذي يعزف على الكمان ، والذي كان السجناء يستأجرونه لتتم بموسيقاه بهجة أعيادهم • وقف جازين وسط القاعة صامتاً يحدّق الى رفاقه واحداً بعد واحد • لم ينطق أحد بكلمة • فلما رآني مع رفيقي ألقى علينا نظرته تلك الخبيثة الساخرة ، وابتسم ابتسامة رهيبة ، وقد لاح في وجهه ما يلوح من

الرضى فى وجه امرىء تخيَّل مهزلةً سوف يقــوم بها ... اقترب من مائدتنا مترنحاً وقال :

ـ هل لى أن أعرف من أين تجيئـــون بالموارد التى تتيح لكم أن تحتسوا شايا ؟

تبادلت وصديقى نظرة عجلى . وأدركت أن خـــير ما نفعله هو أن نصمت فما نجيب بشىء ... ذلك أن أية معاوضـــة يمكن أن تثير حنــق جازين ، فيجن جنونه ...

وتابع جازين يقول :

ـ لا شك أن عندكم مالاً ، بل لا شك أن عندكم مالاً كثيراً حتى تشربوا الشاى . ولكن قولا : أأنتم فى سجن الأشغال الشاقة من أجــل احتساء الشاى ؟ هه ؟ ... أأنتم هنا من أجل أن تشربوا شايا ؟ هلاَّ قلتم ... هلاَّ أجبتم ، حتى أعرف كيف ...

واذ أدرك أننا صامتان ، وأننا قررنا أن لا نلتفت اليه تقدم نحـــونا مسرعاً مكفهر الوجه مرتجفاً من شدة الغيظ والحنق . وكان يوجد على بعد خطوتين منا صندوق ثقيل يودع فيه خبز السجناء مقطعاً للغداء والعشاء، فما يحتويه الصندوق يكفى لاطعام نصف السجناء . وكان الصندوق فى تلك اللحظة خالياً ، فتناوله جازين بكلتا يديه ، وهزه فوق رأسينا . ورغم أن وقوع جناية قتل أو محاولة قتل يكون فى العادة مصدر انزعاج للسجناء (اذ تجرى عندئذ تحقيقات كثيرة ، وتفتيشات كثيرة) ، ورغم أن السجناء يحولون فى العادة دون حدوث مشـــاجرات يمكن أن تكون لها عواقب وخيمة ، فقد صمت الجميع وأخذوا ينتظرون ما سيحدث ..

ما من كلمة قالها أحد دفاعاً عنا ! ما من صيحة صدرت عن أحد فى ردع جازين ! لقد كان حقد السجناء على النبلاء يبلغ من الشدة أن كلاً

منهم كان يسره أن يرانا فى خطر ، وأن يحس أننا فى خطر ••• كان ذلك واضحاً كل الوضوح ••• غير أن حادثاً مواتياً سعيداً قد أنهى هذا المشهد الذى أوشك أن ينقلب الى فاجعة ••• كان جازين يهم أن يُسقط فوق رأسينا الصندوق الضخم الذى كان يديره بيديه ، حين جاء أحد السجناء مسرعاً من الثكنة التى يبيت فيها ، فصاح يقول لجازين :

ـ جازين ، لقد سُرق خمرك !

فاذا بالرجل الرهيب يدع الصندوق يسقط على الأرض ، ويسرع خارجاً من المطبخ • قال السجناء بعضهم لبعض : « الله أنقذهما ! » ••• وظلوا يرددون هذه الجملة زمناً طويلاً •

لم أستطع يوماً أن أعرف هل سُرق خمره حقاً ، أم أن تلك حيلة ابتكرت لانقاذنا •••

وفى ذلك المساء نفسه ، قبل اغلاق الثكنات ، حين هبط الليل ، كنت أتجول عند السور ••• ان حزناً ماحقاً قد سقط على نفسى ••• لم أشعر طوال مدة اقامتى فى السجن بتعاسة كالتعاسة التى شعرت بها فى ذلك المساء ، رغم ما يقال من أن أول يوم فى السجن هو أشقى أيام السجن على الاطلاق • كانت فكرة تهزنى فى ذلك المساء هزاً قوياً ، فكرة لم تبارحنى بعد ذلك طوال مدة اقامتى فى السجن ••• فكرة هى سؤال لم أجد له جواباً حينذاك ، ولا وجدت له جوابا الى الآن • ذلك السؤال هو : هل يمكن أن تقارن جريمة بأخرى ولو مقارنة تقريبية ؟ هذان رجلان اقترف كل منهما جريمة قتل ••• وقد درست ظروف اقتراف الجريمتين دراسة دقيقة ووزنت وزنا دقيقاً ••• ان القضاء يصدر على الرجلين حكماً واحداً وينزل فيهما عقوبة واحدة ••• ومع ذلك ما أعمق الهوة بين الفعلين ! ان أحد الرجلين قد قتل فى سبيل شىء تافه لا قيمة له ••• قتل فى سبيل

بصلة ... قتـــل فى الطريق فلاحاً كان ماراً هنالك ولم يجد معـــه الا بصلة .

ـ هه ... لقد أرسلونى الى سجن الأشغال الشاقة من أجل فلاح لم يكن معه الا بصلة ! ...

ـ يا لك من غبى ! ان ثمن البصـــلة كوبك ، فلو قتلت مائة فلاح لملكت مائة كوبك ... أى لملكت روبلاً ، فما قيمة ذلك ؟ ...

أما الرجل الثانى فقد قتل طاغية حقيرا لطخ شرف امرأته أو أخته أو بنته . وهذا رجل ثالث متشرد يكاد يموت جوعا ، تحاصره فصيلة كاملة من الجند فيدافع عن حريته وحياته . فهل هو مساو لذلك الوغد الذى يقتل الأطفال تلذذاً ، للاستمتاع بجريان دمهم الحار على يديه ، وبمنظرهم وهم يرتعشون آخر رعشة من رعشات عصفور تذبحه سكين ؟ ان هؤلاء القتلة جميعا يرسلون الى سجن الأشغال الشاقة . قد لا تكون مُددالأحكام متساوية . ولكن أنواع العقوبات قليلة ، فى حين أنْ أنواع الجرائم تعد بالالوف . فهنالك من أنواع الجرائم بقدر ما هنالك من انواع الطبـاع . وهبنا سلمنا بأن من المستحيل ازالة هذا الظلم الأول فىالعقوبة ، هبنا سلمنا بأن هذه المشكلة لا سبيل الى حلّها ، هبنا سلّمنا بأن هذه المشكلة صعبه صعوبة تربيع الدائرة ... هبنا سلّمنا بهذا ... هبنا تغاضـينا عن هذا الظلم ... ان هناك ظلماً آخر : هو الظلم الذى يتعلق بنتائج العقوبة ... فرب رجلٍ يذوى فى السجن ويهلك ويذوب كما تذوب الشمعة ؛ ورب رجل آخر ما كان ليخطر له ببال أن الحياة فى السجن يمـكن أن تكون ممتعة الى هذه الدرجة بين حلقة من الأصدقاء تحلو معاشرتهـم وتطيب صحبتهم ! ... هناك أشخاص من هذا النوع فى سجون الأشغال الشاقة . وانظر بعد ذلك الى انسان رقيق القلب مثقف الفكر مرهف الضمير ...

ان ما يشعر به لهو أشد ايلاماً لنفسه من العقوبة نفسها • ان الحكم الذى أصدره هو نفسه على جريمته أقسى حكم يصدره القضاء تطبيقاً لأشد نصوص قانون من القوانين صرامةً وقوة • انه يعيش جنباً الى جنب مع سجين آخر لم يفكر مرةً واحدة فى الجريمة التى ارتكبها والتى عوقب عليها ، لم يفكر فى هذه الجريمة مرة واحدة طوال مدة اقامته في السجن ، ولعله يعد نفسه بريئاً لم يقارف اثماً ••• وأخيراً ، أليس هناك أناس تعساء بؤساء يرتكبون الجرائم بغية أن يُرسلوا الى سجون الأشغال الشاقة حيث الحياة أقل مشقة من حياة الحرية خارج السجون ؟ ان الحياة ملأى بألوان الشقاء •• رب شخص لا يجد ما يأكله اذا جاع ••• رب شخص يرهق نفسه في العمل من أجل أن يغتنى سيده ••• وهو لذلك يؤثر حياة السجن على الحياة التي يعيشها خارج السجن ••• فالعمل في السجن أقل مشقة وعسراً ، والمرء في السجن يأكل متى جاع ، ولعله يأكل خيراً مما يأمل أن يأكل خارج السجن ••• سوف يأكل لحماً في أيام الأعياد ، وسوف تتوارد عليه الصدقات ، وسوف يجنى من عمل المساء بعض المال ••• وهـذا المجتمع الذى سوف يعرفه في السجن ، هل تعدونه غير ذى بال ؟ ان السجناء أناس بارعون ماكرون يعرفون كل شيء ••• والقادم الجديد ينظر الى رفاق الأغلال نظرة اعجاب لا يخفيها ••• انه لا عهد له بشيء كهذا من قبل •• فهو لذلك يتصور أنه في أحسن صحبة ! •••

فهل يُعقل أن يشعر هؤلاء الرجال جميعاً شعوراً واحداً بالعقوبة التى أنزلت فيهم ؟ ولكن علام الخوض في مشكلات لا سبيل الى حلها ، علام طرح أسئلة لا سبيل الى الجواب عليها ! ••• لقد قُرع الطبل ، فيجب أن أعود الى الثكنة •••

٤

المشاعر الأولى
تتمة

تفقدونا مرة أخرى ، ثم أغلقوا أبواب الثكنات ، وأقفلوا كل باب بقفل خاص ، وظل السجناء محبوسين حتى مطلع الفجر •

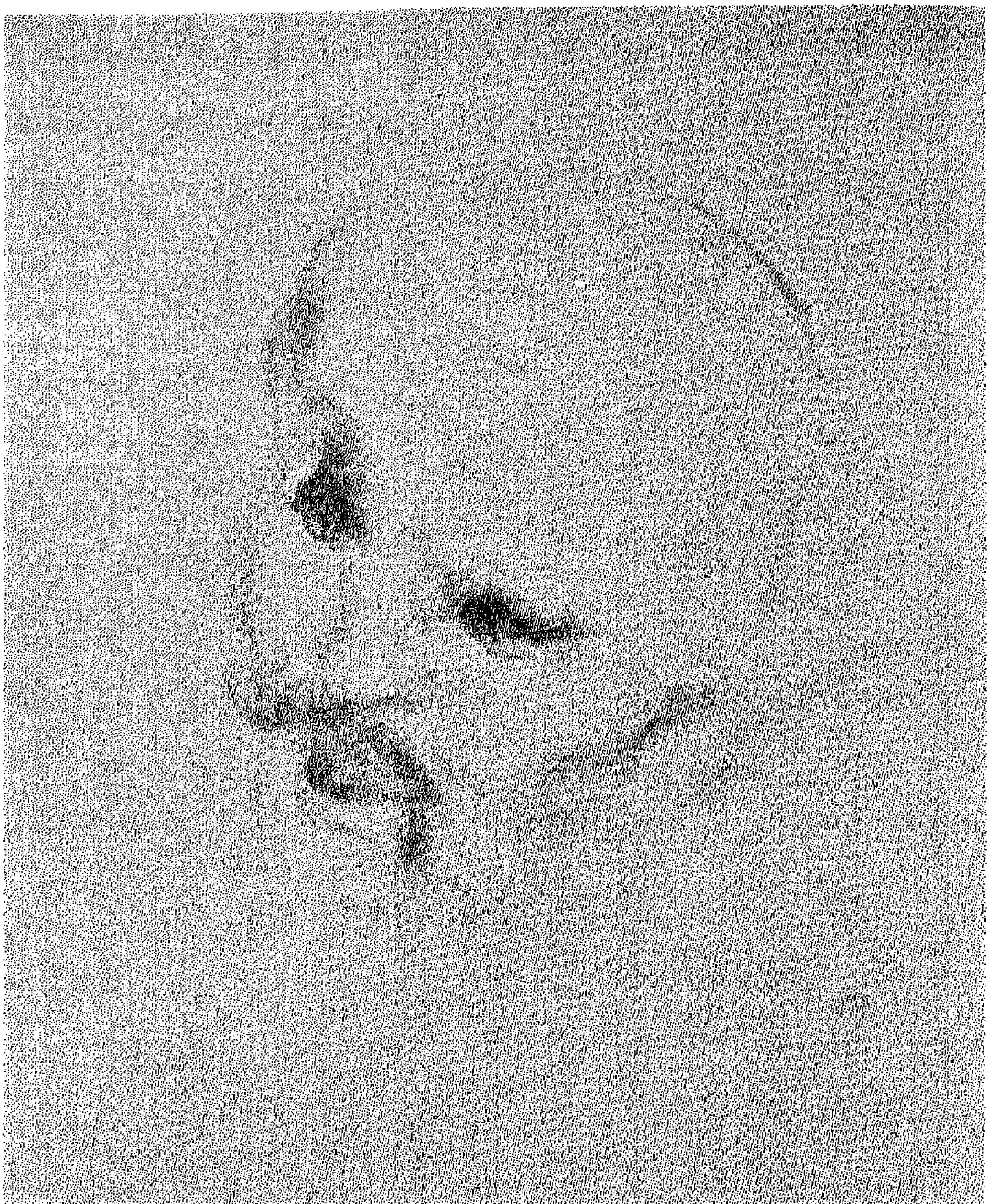
لقد قام بتفقد السجناء ضابط صف ، يصحبه جنديان • فاذا اتفق أن شهد التفقد ضابط من الضباط ، صُفّ السجناء فى الفناء • أما فى أكثر الأحيان فكان التفقد يتم فى داخل المبانى نفسها • ولما كان الجنود كثيراً ما يخطئون التعداد ، فانهم يخرجون ثم يعودون ليكرروا تفقدنا واحداً واحداً ، الى أن يتضح لهم أن العدّ كان صحيحاً ، فيحبسوننا عندئذ فى الثكنات • وكل ثكنة من الثكنات تضم نحو ثلاثين سجيناً ، لذلك كانت المضاجع متراصةً قريباً بعضها من بعض • ويأخذ السجناء يعملون ، لأن موعد النوم ما يزال بعيداً •

عاد الجندى المشوه الذى سبق أن أتيت على ذكره ، والذى كان يبيت معنا فى الثكنة ، ويمثل ادارة السجن أثناء الليل • وكان يوجد فى كل ثكنة سجين قديم يعينه الضابط المجير «عريفا» ، مكافأة له على حسن

سلوكه . ومع ذلك لم يكن بالأمر النادر أن يرتكب « العرفاء » أنفسهم مخالفات يعاقبون عليها بالجلد ؛ فهم يفقدون عندئذ رتبتهم ، ويحل محلهم سجناء آخرون ممن يكون سلوكهم مرضياً . كان « عريف » ثكنتنا هو آكيم آكيمتش . وقد أدهشني أنه كان ينهر السجناء ويقرعهم تقريعا شديدا ، ولكن السجناء لا يردون على تقريعاته الا بسخريات . أما الجندي المشوه فقد كان أقرب الى حصافة الرأى وسداد النظر فهو لا يتدخل في أمر من الأمور ، فاذا فتح فمه بكلام ، فهو انما يتكلم عندئذ مراعاة للواجب وتبرئة للذمة . وكان يظل جالسا على مرقده صامتا ، عاكفاً على ترقيع أحذية عتيقة . وكان السجناء لا يولونه أى اهتمام ولا يلتفتون اليه أى التفات .

وفي ذلك لاحظت أمراً ثبتت لى صحته وثبت لى صدقه بعدئذ ، وهو ان جميع من ليسوا سجناء ويتعاملون مع السجناء ، سواء أكانوا من جنود الحرس أم من الموظفين ، ينظرون الى السجناء نظرة خاطئة مبالغة ، كانهم يتوقعون ان ينقض عليهم السجناء بسكين لأتفه أمر أو لايسر سبب . وكان السجناء لعلمهم بهذا الخوف الذى يوقظونه في نفوس هؤلاء ، يشعرون من ذلك بزهو وخيلاء . لذلك فان خير رئيس للسجن انما هو ذلك الذى لا يشعر أمام السجناء بأى انفعال . والسجناء رغم المظاهر التى يصطنعونها يؤثرون هم أنفسهم أن يُمحضوا الثقة، حتى لقد تستطيع بهذه الثقة التى توليهم اياها أن تشدهم اليك وأن تربطهم بك . وقد أتيح لى غير مرة أن ألاحظ دهشتهم حين يدخل عليهم رئيس بلا حرس يرافقه .. وليس في هذه الدهشة شيء من التملق في الواقع : فان الزائر الشجاع يفرض احترامه ويفرض مهابته على السجناء . واذا وقع شيء مزعج في يوم من الأيام ، فان ذلك لا يمكن أن يقع في حضوره . ان الرعب الذى يوقظه السجناء في النفوس عام شامل ؛ ومع ذلك فأنا أرى أنه لا يقوم على

أساس • هل يرجع هذا الذعر الى أن سحنة السجين وهيئته التى تدل على الاجرام تولدان شيئاً من النفور والاشمئزاز ؟ أغلب الظن عندى آن هذا الذعر راجع الى شعور معين يستبد بنا منذ ندخل السجن ، هو الشعور بأن من المستحيل على المرء ، رغم جميع الجهود ورغم اتخاذ جميع الاجراءات الممكنة ، أن يحيل انساناً حياً الى جثة ، أن يخنق عواطف هذا الانسان ، أن يزيل ظمأه الى الانتقام والى الحياة ، وأن يبدد أهواءه وحاجته القوية العارمة الى ارضاء هـذه الأهواء • ومهما يكن من أمر فاننى أؤكد آنه لا داعى الى الخوف من نزلاء سجون الاشغال الشاقة • ما من انسان ينقض بسكين على قرينه بمثل هذه السرعة وبمثل هذه السهوله • ولئن وقعت حوادث من هذا القبيل فى بعض الاحيان ، فهى من الندرة بحيث يمكن أن لا تحسب • أنا لا أتكلم هنا طبعاً الا عمن تم صدور الحكم عليهم ، فهم ينالون عقابهم ، ويكاد يشعر بعضهم بالسعادة من وجوده فى السجن اخر الامر ، فان شكلاً جديدا من أشكال الحياة لا بد أن يجذب الانسان دائما • فهؤلاء يعيشون هادئين خاضعين راضخين مذعنين • أما المشاغبون فان السجناء أنفسهم يجبرونهم على المحافظة على الهدوء ، فلا يمكنهم آن يمضوا فى تبجحهم بعيدا • ان السجين ، مهما يكن جسورا ومهما يكن متهورا ، يخاف فى السجن كل شىء • ولا كذلك المتهم الذى لم يتقرر مصيره بعد • ان هذا المتهم لا يتورع عن الانقضاض على أى شخص ، دون أن يكون ثمة دافع من كره يدفعه الى ذلك ، لا لشىء الا لانه سيصدر فى حقه حكم غداً • فانه اذا ارتكب جريمة جديدة ، تعقدت قضيته ، وتأخر انزال العقاب فيه ، وكسب وقتا ••• ان لمثل هذا العدوان ما يفسره ويعلله ، ان له سبباً ، ان له هدفاً ••• ان السجين فى هـذه الحالة يريد أن « يغير مصيره » بأى ثمن ، ويريد أن يغير هذا المصير فورا • وبهذه المناسبة فقد أتيح لى أن أشهد واقعة نفسية غريبة جداً •



دوتوف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

كان فى قسم المحكومين العسكريين جندى قديم أرسل الى سجن الأشغال الشاقة يقضى فيه سنتين . كان هذا الرجل متبجحاً وجباناً فى آن واحد . ان الجندى الروسى قليل المباهاة بوجه عام ، ولا يتسع وقته للمباهاة ولو أراده. فاذا وجد بين الجنود الروس جندى كثير المباهاة شديد الافتخار فاعلم أنه جبان وأنه محتال . قضى دوتوف ـ وذلك هو اسم السجين الذى أتحدث عنه الآن ـ قضى مدة سجنه وعاد الى فرقة مرابطة على الحدود . ولكنه كان قد فسد فساداً كاملاً كسائر من يُرسلون الى السجن لاصلاحهم . ان كثيراً من هؤلاء السجناء يعودون الى السجن بعد أن يتمتعوا بالحرية أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، ولكنهم لا يعودون عندئذ لقضاء مدة قصيرة بعض القصر ، وانما يعودون ليقضوا فى السجن خمسة عشر عاماً أو عشرين . فذلك ما حدث لصاحبنا دوتوف . فبعد اطلاق سراحه بثلاثة أسابيع ، سرق أحد رفاقه عنوةً ، ثم شق عصا الطاعة وتمرد على النظام العسكرى ، فحوكم وصدر فى حقه حكم جسمى قاس ، فاذا هو من شدة هلعه من العقاب المقبل (لأنه جبان) ينقض بسكين فى يده على ضابط الحرس الذى دخل عليه مقرَّه عشية اليوم الذى كان يجب أن ينفذ فيه الحكم الذى أصدرته المحكمة بجلده . لقد كان يدرك تمام الادراك أنه بذلك يفاقم جريمته ويطيل مدة حكمه . ولكن الشيء الوحيد الذى كان يريده هو أن يؤجِّل اللحظة الرهيبة ، لحظة انزال العقوبة ، بضعة أيامٍ أو بضعَ ساعات على الأقل . وكان من الجبن بحيث أنه لم يستطع حتى أن يطعن الضابط الذى أشهر عليه سكينه . انه لم يرتكب هذا العدوان الا ليضيف الى « ملفِّه » جريمة جديدة ، توجب أن تُعاد محاكمته .

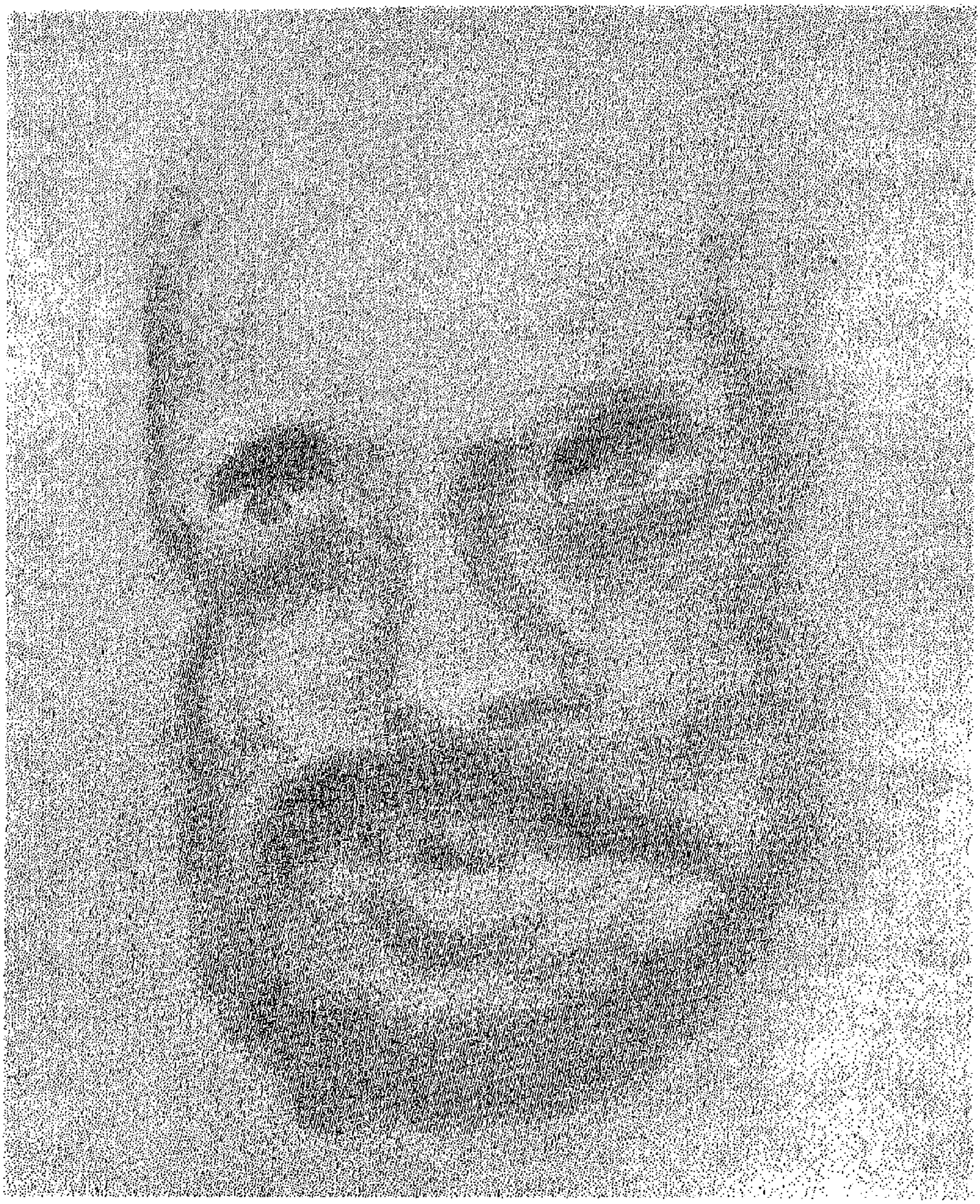
ان اللحظة التى تسبق تنفيذ العقاب هى لحظة رهيبة فى نظر المحكوم بعقوبة الجلد بالسياط . لقد أتيح لى أن أرى كثيراً من المحكومين قبل تنفيذ

الحكم فيهم بيوم . كنت ألقاهم عادةً في المستشفى حين أكون مريضاً ، وكثيراً ما كنت أمرض ... ان أرأف الناس بالمحكومين في روسيا انما هم الأطباء حتماً . انهم لا يفرّقون أبداً بين المحكومين تلك الأنواع من التفريق التي يعمد اليها غيرهم ممن هم على صلة مباشرة بهؤلاء المحكومين. ولعل الشعب وحده يرأف بهم أيضاً مع الاطباء ، لانه لا يلوم المجرم أبداً على الجرم الذي ارتكبه مهما يكن هذا الجرم ، بل يغفر له هذا الجرم ما دام قد كفر عنه بالعقاب الذي ناله .

ليس عبثاً أن الشعب في روسيا كلها يصف الجريمة بأنها سوء حظ، ويصف المجرم بأنه انسان سيء الحظ . ان لهذا التعريف دلالة بليغة عميقة ، دلالة هامه خطرة ، لا سيما وانه غريزي لا شعوري ... أعود الى حيث كنت من الحديث فأقول ان الأطباء هم الملجأ الطبيعي الذي يلجأ اليه السجناء ، وخاصة حين يكون عليهم أن يتحملوا عقوبة جسدية ... ان المتهم الذي أحيل الى مجلس عسكري يعرف على وجه التقريب الوقت الذي سيصدر فيه الحكم ، فمن أجل أن يجتنب هذا الموعد تراه يتمارض ويطلب الذهاب الى المستشفى عسى أن تُرجأ اللحظة الرهيبة بضعة أيام. وهو حين يصرّح أنه شُفي من مرضه لا يجهل أن تلك اللحظة موعدها غداة خروجه من المستشفى . لذلك ترى السجناء مضطربين أشد الاضطراب في ذلك اليوم . صحيح أن بعضهم يحاول اخفاء اضطرابه محافظة على كبريائه ، ولكن ما من أحد ينطلي عليه هذا التظاهر الكاذب بالشجاعة . ان كل انسان يفهم قسوة هذه اللحظة ، ويسكت من قبيل الشعور الانساني . لقد عرفت سجيناً شاباً كان في الماضي جندياً ، وقد أرسل الى سجن الأشغال الشاقة بتهمة القتل... وكان عليه أن يعاقب بالحد الأقصى من الجلد بالسياط . فقرر قبل تنفيذ العقوبة فيه بيوم أن يشرب زجاجة كاملة من الخمر غلى فيها مقداراً من التبغ . ان السجين

المحكوم بالجلد لابد أن يشرب قبل اللحظة الحاسمة شيئاً من خمر يكون قد أعده منذ زمن طويل ، واشتراه بثمن باهظ فى اكثر الاحيان : انه يؤثر أن يحرم نفسه من الاشياء الضرورية سته اشهر برمتها على ان لا يعب ربع لتر من الكحول قبل تنفيذ العقوبة فيه • فالسجناء يعتقدون اعتقادا جازما بأن الانســان لا يتألم من ضربات العصــا أو الســوط مثلما يتــالم منهــا وهو فى حالة الصحو • وأعود الى قصتى فاقول ان الشاب المسكين سقط مريضا بعد شربه زجاجة الخمر ببضع لحظات ، وأخذ يتقيا دماً ، ونقل الى المستشفى مغشيا عليه • وبلغ صدره من التمزق لهــذا أن سلاً أصابه ثم أودى بحياته بعد بضعة آشــهر • ولم يعرف الاطباء الذين تولوا علاجه سبب مرضه أبداً •

واذا لم تكن الأمثلة على الجبن نادرة بين السجناء ، فيجب أن نضيف أننا نقع عندهم على أفراد يملكون بسالةً مذهلة • اننى آتذكر ألواناً من الشجاعة وصلت الى حد فقدان الاحساس • وما يزال مشهد وصول أحد قطاع الطرق الى المستشفى محفوراً فى ذاكرتى الى الآن • ففى ذات يوم جميل من أيام الصيف ، انتشرت فىمستشفانا شائعة تقول ان قاطع الطرق الشهير أورلوف سيجلد فى مساء ذلك اليوم نفسه ، وأنه سينقل بعدئذ الى المستشفى • وقال الســـجناء الذين كانوا فى المستشفى ان تنفيذ العقوبة سيبلغ غاية القسوة ، لذلك كان جميع السجناء فى المستشفى مضطربين • وانى لأعترف بأننى كنت أنا نفسى أنتظر بكثير من حب الاطلاع أن يصل الى المستشفى هذا الرجــل الذى كانت تروى عنــه حكايات رهيبة • انه مجرم قلَّ بين المجرمين مثله ، قادر على أن يقتل شيوخاً وأطفالاً دون أن يهتز فيه عرق ، ودون أن يشعر بأى انفعال • وكان يملك ارادة جبارة لا يمكن ترويضها ولا يمكن السيطرة عليها ، وكانت نفسه تفيض زهواً وكبرياء من شعوره بقوته • ولمــا كان قد قارف جــرائم عدة فقد حكم



أورلوف
بريشة الفنانة السوفياتية ألكسندرا كورساكوفا

بالجلد . وجاءوا به أو قل حملوه في المساء . كانت القاعة غارقة في الظلام ، وقد أخذ السجناء يشعلون شموعاً . كان أورلوف شاحباً شحوبا خارقاً ، يكاد يكون فاقد الوعي مغشياً عليه ؛ ان شعره كثيف مضفور ، أسود على غير لمعان . وكان ظهره متشققاً متورماً أزرق اللون تغطيه بقع من الدم . وظل السجناء يعنون به طوال الليل ، يغيرون له الكمادات ، ويرقدونه على جنبه ، ويحضرون له المرهم الذي أمر به الطبيب ، واهتموا به وعطفوا عليه كما يهتم المرء بقريب له ، وكما يعطف على محسن اليه.

واسترد الرجل حواسه كاملة في الغداة ، فطاف بالقاعة مرة أو مرتين . فأدهشني ذلك كثيراً ، لأنه كان مهدماً محطم القوى حين جيء به الى المستشفى . لقد جلدوه نصف عدد الجلدات التي حددها القرار . ولكن الطبيب أوقف الجلد لاقتناعه بأن أورلوف سيموت حتماً اذا استمروا في جلده . وكان هذا المجرم ضعيف البنية قد هدمه طول اقامته في السجن . ان من رأى سجناء حكم عليهم بالجلد ، سيظل يتذكر وجوههم المزولة المهدودة ، ونظرتهم المحمومة المسعورة . وسرعان ما شفي أورلوف : لا شك أن طاقته الجبارة قد ساعدت جسمه على استرداد عافيته. ان أورلوف ليس بالشخص العادي . وتعرفت عليه حباً بالاطلاع ، واستطعت أن أدرسه على مهل خلال أسبوع بكامله . ما رأيت في حياته كلها رجلاً يضارعه قوة ارادة وصلابة شكيمة . كنت قد التقيت في توبولسك برجل مشهور من هذا النوع كان رئيس عصابة من قطاع الطرق . لقد كان ذلك الرجل وحشاً كاسرا حقاً ، ما ان يلامسه المرء ملامسة ، ولو دون أن يعرفه ، حتى يوجس أنه رجل خطر. والأمر الذي أرعبني فيه خاصة انما هو غباؤه . ان المادة تبلغ فيه من غلبتها على الروح أن المرء ما يكاد يراه حتى يحس أن لا وجود لشيء عنده الا ارضاء حاجاته الجسمية واشباع شهواته الحيوانية ... ومع ذلك فأنا مقتنع اقتناعا تاما

بأن كورنيف (وهذا هو اسمه) كان لا بد أن يغمى عليه لو سمع صدور حكم يقضي بتعذيبه تعذيباً جسـديا كالتعذيب الجسـدى الشديد الذى أوقعـوه فى أورلوف ، وكان لا بد أن يذبح عنـدئذ أول قادم دون ان يطرف جفنه • ولا كذلك أورلوف ، فلقـد كان انتصاراً رائعاً للروح على الجسـم ••• كان يسـيطر على نفسـه سـيطرة كاملة : كان لا يشعر نحو القصـاص الا بالاحتقار ، ولا يخشى فى العـالم شيئاً على الاطلاق • ان الشيء البارز فيه هو هذه الطاقة التى ليس لها حدود ، هو هذا الظمأ الى الانتقام ، هو هذا النشاط الذى لا يهدأ ، وهو الارادة التى لا تتزعزع ، حين يكون عليه أن يبلغ غاية من الغايات أو أن يحقق هدفاً من الاهداف • وقد أدهشنى مظهره المتعـالى المتغطرس ، كان ينظر الى الناس من علٍ ، لا اصطناعا للمهابة والوقار ، فلقد كان العجب والـكبر فطرةً فيه • وما أحسب أن أحداً قد أثر فيه أيّ تأثير فى يوم من الأيام • انه ينظر الى كل شيء نظرةً لا تبالى ، فلا شيء فى هذا العالم يمكن أن يثير دهشته أو يوقظ استغرابه • وكان يعلم حق العلم أن السجناء الآخـرين يحترمونه ، ولكنه لا يستغل ذلك لاصطناع الوجاهة واظهار الاستعلاء • على أن حب الظهور والزهو بالنفس آفتان لا يخلو منهما سـجين • وكان ذكياً • وكانت صراحته العجيبة ليست من الثرثرة واللغو فى شيء • لقد أجاب عن جميع الأسئلة التى ألقيتها عليه ، بغير لف ولا دوران : فاعترف لى بأنه ينتظر شفاءه بصبر فارغ ، حتى ينتهى من باقى العقوبة التى صدر الحكم بانزالها فيه • قال لى غامزاً : « عندئذ ينتهى الأمر : أنال باقى العقوبة ثم أُرحَّل الى فرتشنسك مع قافلة من السجناء ••• وسأنتهز هذه الفرصة فأهرب ••• نعم سوف أفر ، ما فى ذلك شك ! ولكن ••• ليت جـروح ظهرى تبرأ بمزيد من السرعة ! » • وظل خـلال خمسـة أيام يحترق شوقاً الى تحسن حاله بحيث يستطيع مغادرة المستشفى • وكان فى بعض

الأحيان مرحاً رائق المزاج • فكنت أستغل لحظات صفائه هذه لأسأله عن مغامراته • فكان يقطب حاجبيه قليلاً ، ولكنه يجيب على أسئلتي دائماً بصدق واخلاص • فلما أدرك أنني أحاول أن أنفذ الى أعماقه وأن أجد في نفسه بعض آثار ندامة ، ألقى علىّ نظرة استعلاء واحتقار ، كما لو كنت طفلاً غبياً بعض الغباء يشرفه كثيراً أن يرضى التحدث معه ؛ ولمحت في وجهه نوعاً من الاشفاق علىّ ، والرأفة بي • وما هي الا لحظة قصيرة حتى انفجر يقهقه ملء حنجرته ، دون أي استهزاء أو سخر • ويخيّل الىّ أنه لا بد قد ضحك بعد ذلك غير مرة حين كان يتذكر كلماتي • وأخيراً سجل اسمه بين الراغبين في الخروج من المستشفى ، رغم أن جروح ظهره لم تتندب بعدُ تندباً كاملاً • ولما كنت قد شفيت من مرضي فقد غادرنا المستشفى معاً في يوم واحد • أما أنا فعدت الى السجن ، وأما هو فأعيد الى المحل الذي كان مسجوناً فيه من قبل • فلما تركني صافحني مصافحة قوية ، وكان ذلك في نظره دليلاً على حسن الثقة ؛ وأحسب أنه انما فعل ذلك لأنه كان في تلك اللحظة رائق المزاج مغتبط النفس • فالحق أنه كان يحتقرني ولا شك ، لأنني انسان ضعيف يستحق الشفقة والرثاء من جميع النواحي ، انسان أذعن لقدره ورضخ للمصير الذي كتب له • وفي الغداة أنزلوا فيه النصف الثاني من العقوبة •

حين أقفلت علينا أبواب ثكنتنا اتخذت على الفور طابعاً آخر مختلفاً عن طابعها الأول كل الاختلاف ، اذ أصبحت مسكناً حقيقياً ، ومنزلاً آهلاً بسكانه • وعندئذ فقط انما رأيت رفاقي السجناء كأنهم في بيوتهم حقاً • ذلك أن ضباط الصف أو غيرهم من المشرفين على السجن كان يمكن أن يباغتوا السجناء أثناء النهار في كل لحظة ؛ لذلك يكون السجناء أثناء النهار على شيء من القلق ،لا يشعرون بالاطمئنان كاملاً • حتى اذا أغلقت الأبواب وأُقفلت بالأقفال ، جلس كل سجين من السجناء في مكانه،

وأخذ يعمل ••• وقد أضيئت الثكنة عندئذ اضاءة لم تكن في حسباني ، فلقد كان لكل سجين شمعة وشمعدان من خشب؛ فهؤلاء يأخذون يرتقون بعض الأحـــذية ، وأولئك يأخـــذون يخيطون بعض الثياب ، وهكذا دواليك •••

ويفسد الهواء مزيداً من الفساد ••• ها هم أولاء بعض السـجناء قد أقعوا في ركن من الأركان يلعبون بالورق على بساط ممدود • ان في كل ثكنة من الثكنات سجيناً يملك بساطاً طوله ثمانون سنتيمتراً ، وشمعة كبيرة ومجموعة من ورق اللعب متسخة أشد الاتساخ • كان هذا يسـمى « قماراً » • وصاحب الورق يتقاضى من المقامرين خمسة عشر كوبكاً عن كل ليلة • فتلك تجارته التي يمارسها • وكان المقامرون يلعبون في العادة لعبة « الورقات الثلاث » ، لعبة « الجوركا » ، وهي من ألعاب الحظ • ان كل سجين يضع أمامه كدسة من قطع النقد النحاسية ، هي ثروته كلها ، ولا ينهض عن اللعب الا بعـــد أن يخسرها أو يربح كل ما يملكه رفاقه الباقون ••• واللعب يستمر الى ساعة متأخرة من الليل ، حتى لقد يطـلع الفجر قبل أن يفرغ أصحابنا من المقامرة ، وكثيراً ما لا ينقطعون عن اللعب الا قبل فتح أبواب الثكنة بدقائق معدودات • وكان في ثكنتنا ـ كما كان في سائر الثكنات ـ شحاذون فقـدوا كل ما يملكون في القمـــار أو في الشراب ؛ أو قل كان هنالك شحاذون « فطروا » على الشحاذة • أقـــول « فطروا » ، وأعني ذلك • ذلك أنه يوجد بين أبناء شعبنا وسيظل يوجـد بينهم مهما تكن الظروف عدد من تلك الشخصيات العجيبة المسالمة التي قد لا تكون كسولة في كثير من الأحيان ، ولكن القدر فرض عليها أن يكون مصيرها مصير الشحاذين دائماً • ان هؤلاء الشحاذين أناس شاذون يظلون طوال حياتهم متبلدين مأخوذين مرهقين ، يخضـــعون لسلطان أحد من الناس ، ويبقون تحت وصاية أحد من الناس ، ولا سيما المتلافين الذين

وصلوا الى شيء من الاغتناء • ان كل جهد هو عبء على هؤلاء الشحاذين، وان كل مبادرة حمل تنوء به أكتافهم • انهم لا يحيـــون الا شريطة أن لا يبادروا الى القيام بعمل من الأعمال من تلقاء أنفسهم ، ولكنهم يخدمون دائماً ، ويعيشون دائماً في ظل ارادة شخص • لقد يُسِّروا لأن يعمـلوا بغيرهم ولغيرهم • وما من ظرف من الظروف يمكن أن يغنيهم ، حتى ولو كان ظرفاً طارئاً ليس في الحسبان ••• فهم يظلون شحاذين ••• لقـد التقيت بأناس من هذا النوع في جميع طبقات المجتمع ، وفي جميع الفئات، وفي جميع الهيئات ، وحتى في عالم الأدب • وأنت تجدهم في كل سجن، في كل ثكنة •••

فمتى تشكلت حلقة القمار نودي أحد هؤلاء الشحاذين الذين لاغنى عنهم للمقامرين ؟ انه يتلقى خمسة كوبكات فضة عن عمل ليلة بكاملها••• وياله من عمل ! ••• ان عمله هو أن يحرس الدهليز في جو بارد تبلغ درجة برودته ٣٠ ريثامور ، وفي ظلام دامس خلال ست ساعات أو سبع. فاذا سمع هذا المتربص أيسر ضجة أو أقل صوت ، لأن الضابط الميجر أو ضابط الحرس يقومون بجولاتهم التفتيشية في ساعة متأخرة من الليـــل أحياناً ، بخطوات كخطوات اللصـــوص ، فيداهمون اللاعبين والعاملين ، وينقضون عليهم متلبسين بالجرم المشـهود ، وذلك بفضل رؤيتهم ضـوء الشموع الذي تمكن رؤيته من الفناء ، أسرع ينبه المقامرين ، ذلك أنه حين يُسمع صرير المفتاح في قفل الباب ، لا يتسع الوقت للاختباء واطفاء الشموع والاستلقاء على المضاجع • وتلك مداهمات نادرة جداً على كل حال • والأجر الذي يتقاضاه الشحاذ خمسَ كوبكات ، أجرٌ تافه حتى في سجننا ••• ومع ذلك ترى المقامرين يتشددون مع من يعينونه لهـذا النوع من الحراسة ، ويقسـون في معاملته أشـــد القسوة ، وذلك أمر أدهشني ، كما أدهشتني أمور أخرى كثيرة على كل حال •• انهم يقولون

له : « لقد نقدناك أجرك ، فعليك أن تخدمنا ! » . وتلك حجة لا تحتمل جواباً ولا ردا .. يكفى أن تنقد أحد الناس بضعة دريهمات حتى تستفيد منه وتستغله الى أقصى درجة من درجات الاستفادة والاستغلال ؛ بل يكفى أن تنقده هذه الدريهمات القليلة حتى يكون من حقك عليه أن يعرب لك عن مشاعر الشكر والامتنان . حتى لقد رأيت بعض السجناء ينفقون بلا حساب ، ويبددون المال يمنةً ويسرة ، ثم هم يغشون الشخص الذى « يخدمهم » . رأيت ذلك بعينى غير مرة فى أكثر من سجن .

سبق أن قلت ان جميع الناس يأخذون يعملون ، باستثناء الذين يتحلقون للمقامرة . وكان هنالك خمسة سجناء لا يعملون شيئاً ، فما تكاد أبواب السجن تغلق حتى يرقدوا على الفور . وكان مكانى على ألواح الخشب قريباً من الباب ، وبعده يأتى مكان آكيم آكيميتش ... فاذا رقدنا تلامس رأسانا . ظل آكيم يعمل حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة فى الصاق مصباح صينى متعدد الألوان كان قد عهد اليه بصنعه أحد سكان المدينة ، وكان سيتقاضى ثمنه مبلغاً كبيراً . ان آكيم بارع براعة فذة فى هذا العمل ، فهو يتبع فى عمله نظاماً دقيقاً وطريقة ممتازة بلا كسل ولا تراخ ولا اهمال . فلما فرغ منه جمع أوراقه بعناية ، وبسط فراشه ، وقرأ صلاته ، ونام نوماً عميقاً . ان آكيم يبالغ فى التقيد بأدق تفاصيل النظام تقيداً يبلغ حد الحذلقة ... ولا شك أنه كان فى قرارة نفسه يعد نفسه انساناً ذكيا ، كسائر ذوى العقول المتوسطة المحدودة . انه لم يعجبنى فى أول الأمر ، رغم أنه حملنى على أن أفكر كثيراً فى ذلك اليوم . لقد أدهشنى أن يوجد رجل كهذا الرجل فى سجن الأشغال الشاقة ، بدلاً من أن يكون خارج السجن متفوقاً فى صناعة من الصناعات . وسأتحدث عن آكيم آكيمتش غير مرة ، فيما سيلى من هذه القصة .

ولكن يجب علىّ أن أصف أشخاص ثكنتنا . لقد كتب علىّ أن

أعيش في هذه الثكنة عدداً من السنين ، فهؤلاء الذين يحيطون بي لا بد أن يكونوا رفاق كل دقيقة من دقائق حياتي . وطبيعي أنني كنت أنظر اليهم بكثير من حب الاطلاع ! كانت تبيت على يميني عصبة من سكان جبال القفقاس ، قد نفي جميع أفرادها تقريباً لأنهم كانوا من قطاع الطرق ، وحكم عليهم بعقوبات متفاوتة : كان منهم اثنان من أهل لزخين ، وشركسي واحد ، وثلاثة من تتر داغستان . أما الشركسي فهو رجل عابس الوجه مقطب الأسارير لا يكاد يتكلم أبداً ، وهو يختلس اليك النظر اختلاساً ويبتسم ابتسامة وحش مفترس . وأما اللزخينيان فأحدهما شيخ مستقيم الأنف طويل القامة نحيل الجسم ، تدرك من أول وهلة أنه من قطاع الطرق ؛ ولا كذلك الثاني ، واسمه نورا ، فقد شعرت نحوه شعوراً طيباً، وأحسست بارتياح اليه . انه مربوع القد ، ما يزال شاباً ، قوي البنية ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، معقوف الأنف قليلا ، تشبه قسماته أن تكون قسمات فنلندي ... وكانت ساقاه مقوستين كجميع من عاشوا على ظهور الخيل . وكان جسمه ممتلئاً بالندوب ، محروثا بضربات الحراب أو طلقات الرصاص . لقد انضم هذا الرجل الى العصاة رغم أنه من رجال الجبال الخاضعين ، وقام مع هؤلاء العصاة بعدد من الغارات المتصلة على أراضينا . كان جميع من في السجن يحبه بسبب مرح طبعه وبشاشة وجهه . وكان يعمل بغير دمدمة أو تذمر ، هادئاً مسالماً بغير انقطاع . وكان يشمئز من السرقة والفسق والاحتيال والسكر ، بل كان يغضب من هذه الأعمال غضباً شديداً ، ولا يطيق أن يحتمل أي أمر معيب مشين مناف للشرف والكرامة . ولكنه لا يحاول أن يشاجر أحداً ، بل يكتفي باشاحة وجهه مستنكراً مستاءً . لم يقترف خلال اقامته سرقة ولا أتى أي عمل يمكن أن يؤخذ عليه. وكان شديد التقوى كثير العبادة ، فهو يؤدي صلاته كل مساء، ويصوم شهر رمضان ، ويتمسك بدينه الاسلامي ، وكثيراً

ما كان يقضي الليل كله متهجداً . كان جميع من في السجن يحبــونه ، ويرون أنه انسان شريف حقاً ... كان السجناء يلقبونه «نورا الأسد» ، وقد بقى له هذا اللقب . وكان مقتنعاً اقتناعا قويا بأنه سيرسل الى القفقاس متى أنهى مدة سجنه ، فكان في الواقع لا يعيش الا على هذا الأمل، ويقيني أنه لو حرم من هذا الامل لمات . لقد لاحظته يوم وصولي الى السجن . وكيف كان يمكن أن لا أميِّز هذا الوجه الهادىء النبيل الشريف وسط تلك الوجوه القاتمة الكئيبة العابسة المنفِّرة ! لقد مرَّ الى جانبي في نصف الساعة الأولى ، فربت على كتفي برفق ولطف وهو يبتسم لي ابتسامة عذبة طيبة . فلم أفهم في أول الأمر ما كان يريد أن يقــوله لي ، لأنه كان لا يحسن الكلام بالروسية . ولكنه لم يلبث أن عاد يمر قربي من جديد ، ويربت على كتفي مرةً أخرى وهو يبتسم ابتسامة المودة والصداقة تلك. وظل يكرر هذه الحركة ثلاثة أيام. لقد كان يريد أن يشير ، كما أدركت ذلك فيما بعد ، الى أنه يشفق عليَّ ويرثي لحالي ، ويدرك مدى ما أعانيه من آلام في هذه اللحظات الأولى من اقامتي بالسجن: كان يريد أن يبرهن لي على مودته وصداقته ، وأن يقوي عزيمتي ويشد أزري ويؤكد حمايته ورعايته لي . ما كان أطيب نورا ، وما كان أعظم سذاجته !

وأما تتر داغستان الثلاثة ، فقد كانوا اخوة ، الكبيران منهم كهلان، والثالث شاب اسمه علي ، لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمــره ، بل ان المرء حين يراه يقدِّر أن عمره أقل من ذلك . كان يبيت الى جانبي. وقد اجتذبني وجهه الذكي الصريح الطيب الساذج منــذ البــداية . وشكرت للقدر أنه وهب لي هذا الجار بدلاً من أن يرميني الى جانب سجين آخر ان نفسه كلها تُقرأ على صفحة وجهــه المفتوح . ان في ابتسامته الوادعة الهادئة المطمئنة بساطة كبساطة الأطفال. وان في عينيه الواسعتين السوداوين من الرقة والعذوبة والحنان ما كان يجعلني أشعر بلذة كبيرة حين أراه،

فكان ذلك يخفف عني ويسرّي عني في لحظات الحزن والهم والقلق والغم • لقد أمره أخوه الأكبر (وله خمسة اخوة كان اثنان منهما في مناجم سيبريا) أمره في ذات يوم أن يحمل سيفه وأن يمتطي جواده وأن يتبعه • ان احترام الجبليين لاخوتهم الكبار يبلغ من القوة أن الفتى علياً لم يجرؤ أن يسأل أخاه عن الدافع الى هذه الرحلة ، ولعله لم تدر في خلده أية فكرة عنها ؛ لا ولا رأى اخوته أن من الضروري أن يطلعوه على شيء • هكذا مضى الاخوة الثلاثة يقطعون الطريق على قافلة تاجر أرمني ثري استطاعوا أن يضللوه ، فقتلوا التاجر ونهبوا بضاعته • وشاء سوء حظهم أن تكتشف فعلتهم وأن يفضح أمرهم ، فاعتقل الاخوة الستة ، وحكم عليهم ، وجلدوا ، ثم أرسلوا الى سجون الأشغال الشاقة في سيبريا • ولم تعمد المحكمة الى تخفيف الحكم الا عن الفتى علي ، فحكم بالسجن مدة هي أقصر مدة : أربع سنين سجناً • وكان أخواه يحبانه كثيراً ، حتى يمكن أن يوصف حبهما له بأنه حب أبوي أكثر مما هو حب أخوي • وكان عزاءهم الوحيد في المنفى• فكانا يبتسمان له دائماً ، رغم أنهما في العادة عابسان مقطبان حزينان• فاذا تحدثا اليه ـ وكان لا يحدث ذلك الا نادراً لأنهما يعدانه طفلاً لا يمكن أن يفضيا اليه بشيء ذي بال ـ كان وجهاهما العابسان المكفهران يضيئان ، وأدركت أنهما لا يكلمانه الا كما يكلَّم طفل صغير ؛ حتى اذا أجابهما تبادلا نظرات سريعة وابتسما ابتسامة طيبة • وما كان له أن يتوجه اليهما بكلام من فرط ما يكن لهما من احترام • ولعمري لست أدري كيف استطاع هذا الفتى أن يحتفظ بقلبه الحنون الرقيق ، وبشرفه الفطري البريء ، وبمودته الصريحة السخية ، دون أن تفسد أخلاقه طوال هذه المدة التي قضاها في سجن الأشغال الشاقة ••• ان ذلك لأمر لا تفسير له ولا تعليل ••• ورغم كل ما كان يتصف به من رقة وعذوبة ولين ، فقد كان قوي الارادة شديد

البأس في تحمل المكاره ، كما استطعت أن أتحقق من ذلك فيما بعـد • وكان على عفة وخفر كالعذارى ، وكان كل فعل سيء او مستهتر أو معيب أو ظالم يلهب عينيه السوداوين استياءً واستنكارا ، فيزيدهما ذلك جمالاً.

وعلى أنه ليس من أولئك الذين يتهاونون في حق كرامتهم أو يسمحون لا أحد أن يهينهم أو يسيء اليهم ، فقـــد كان يتحاشى التشاجر ويتجنب الشتائم ، ويعف عن السب واللعن ، ويحافظ على وقاره ومهابته و كرامته• وليت شعري مع من كان يمـكن أن يشتجر ؟ لقـــد كان الجميع يحبونه ويلاطفونه ويدارونه ••• ولم يكن في أول الأمر معي الا مهذباً مؤدباً لطيفاً ، ولكننا وصلنا من ذلك الى أن أخذنا نتجاذب أطراف الحديث في المساء • لقد استطاع خلال بضعة أشهر أن يحسن الكلام باللغة الروسية، على حين أن أخويه لم يتوصلا يوماً الى اجادة الكلام بهـذه اللغة • لقـد رأيت فيه فتى خارق الذكاء من جهة ، وجمً التواضـع مرهف الشعور عاقلاً حكيماً من جهة أخرى • لقد كان الشاب على انساناً نادر المثـال • وما زلت أعد لقائي به حظاً من أجمـل حظـوظ حياتي • ان هناك أناساً يبلغون من جمال الطبائع من تلقاء أنفسهم ، ويبلغ ماوهب لهم الله من مزايا عظيمة أن المرء لا يتصور أن يفسدوا في يوم من الأيام ••• فهو مطمئن عليهم كل الاطمئنان واثق منهم كل الثقة ، لذلك لم أكن أخشى على الفتى علي من شيء ••• ترى أين هو الآن ؟

في ذات يوم ، بعد وصولى الى السجن بمدة طويلة ، كنت مستلقياً على مضجعي وكانت تهزني وتبث الاضـــطراب في نفسي خـواطر شاقة أليمة • وكان عليٌ الذي لا يكف عن العمل والنشاط ، لا يعمل في تلك اللحظة ، ولم يكن أوان النوم قد آن • كان الاخوة الثلاثة يحتفلون بعيد اسلامي ، فهم لذلك لا يعملون • ان علياً راقد الآن ، ممسك رأسه بيديه ، مسترسل في أحلامه • وها هو ذا يسألني فجأة :

ـ هه ! يبدو عليك أنك حزين جداً الآن ؟

نظرت اليه متعجباً • لقد بدا لى هذا السؤال من علىٍ غريباً • ذلك أن علياً لبقٌ دائماً ، يتحاشى أن يحرج أحداً ، ولكننى انعمت النظر اليه فلاحظت فى وجهه حزناً شديداً وعذاباً عميقاً • لا شك أن هذا الألم انما أيقظته فى نفسه الذكريات التى كانت تطوف بخياله • وأدركت أنه كان هو نفسه فى تلك اللحظة يعانى كرباً شديداً وكمـدا عظيما • ذكرت له ذلك فتنهد تنهداً عميقا وابتسم ابتسامة كئيبة • كنت أحب دائماً ابتسـامته اللطيفة الودود : كان اذا ابتسم يفتر ثغره عن صفين من الاسنان يمكن أن يحسده عليهما أجمل مخلوق فى العالم •

قلت له :

ـ لعلك كنت تتذكر يا على كيف يحتفلون بهذا العيد فى داغستان ! لا شك أن الاحتفال بالعيد رائع هناك •••

قال على متحمساً وقد سطعت عيناه :

ـ نعم هو كذلك ولكن كيف عرفت اننى كنت أحلم بهذا ؟

ـ كيف لا أدرك ذلك يا على ؟ أليس العيد هناك أجمل منه هنا ؟

ـ أوه ! لماذا تقول لى هذا الكلام ؟

ـ لا شك أن فى بلادكم أزهاراً جميلة ، أليس كذلك يا على ؟ ان بلادكم جنة !

ـ اسكت اسكت أرجوك •

كان واضحاً أنه انفعل انفعالاً شديداً •

قلت له :

ـ اسمع يا على ، هل لك أخت ؟

ـ نعم ولكن لماذا تسألنى هذا السؤال ؟

ـ لا بد أنها بارعة الجمال اذا كانت تشبهك !

ـ لا مجال للمقارنة بيني وبينها • ليس في داغستان كلها فتاة جميلة كجمالها • ما أجمل أختي ! أنا واثق أنك لم تر فتاة في مثل حسنها • ولقد كانت أمي جميلة جداً كذلك •

ـ هل كانت أمك تحبك ؟

ـ ما هذا السؤال ؟ لعلها قد ماتت حزناً وكرباً وكمدا • لقد كانت تحبني كثيراً • كنت أنا الأثير على نفسها • نعم ••• كانت تحبني أكثر من من أختي ، وأكثر من سائر اخوتي ••• لقد جاءت الي في الحلم هذه الليلة وذرفت على رأسي دموعاً سخية •

قال علي ذلك وصمت ثم لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة، لكنه أصبح منذ تلك اللحظة يسعى الى مصاحبتي ويحرص على التحدث معي رغم أنه لم يسمح لنفسه يوماً أن يكون هو البادىء في الكلام ، وذلك من باب الأدب والاحترام فما كان أسعده حين أتحدث معه ! كان يتكلم كثيرا عن القفقاس ، وعن حياته الماضية ، وكان أخواه لايمنعانه من الكلام معي بل أظن أن ذلك كان يسرهما فحين رأيا أنني أعطف على علي وأحبه أصبحا أكثر تودداً الي وتقرباً مني •

وكثيراً ما كان علي يساعدني في الأعمال• وكان في الثكنة يفعل كل ما يظن أنه يسرني ويخفف عني ويحمل بعض العزاء الى قلبي ، ولم يكن في عنايته بي والتفاته الي لا شيء من عبودية ولا أمل في منفعة ، بل عاطفة حارة ودود لا يخفيها قط • وكان علي يملك استعداداً خارقاً لتعلم الفنون الميكانيكية : لقد تعلم الخياطة وتعلم ترقيع الأحذية ، حتى لقد ألم بفن النجارة بعض الالمام ••• ذلك ما كان يمكن تعلمه في السجن ••• وكان أخواه يعتزان به •

قلت له ذات يوم :

ـ اسمع يا علي : لماذا لا تتعلم القراءة والكتابة باللغة الروسية ؟ ان ذلك قد يفيدك كثيراً في سيبيريا في المستقبل .

ـ أتمنى ! ولكن من ذا الذي يعلمني !

ـ ان من يعرفون القراءة والكتابة كثرة هنا . واذا شئت علمتك أنا .

ـ أوه علمني القراءة أرجوك .

بهذا هتف علي وهو ينهض ويضم يديه احديهما الى الأخر وينظر الي نظرة توسل وتضرع .

وشرعنا نعمل في مساء الغد . كان عندي ترجمة روسية للانجيل ، وهو الكتاب الوحيد الذي لم يكن محرماً في السجن . فبواسطة هذا الكتاب وحده وبدون تعلم الألفباء أتقن علي القراءة في غضون أسابيع وما انقضت ثلاثة أشهر حتى كان يفهم لغة الكتابة فهماً كاملاً لأنه كان يكب على الدراسة بحماسة قوية ونشاط متأجج .

وفي ذات يوم قرأنا معاً موعظة الجبل كاملة ، فلاحظت أنه كان يقرأ بعض الآيات بنبرة نافذة ولهجة مؤثرة ، فسألته هل أعجبه ما قرأ فرمقني بنظرة ثاقبة واشتعل وجهه بحمرة مفاجئة .

قال :

ـ نعم ان عيسى نبي ينطق بلسان الله . ما أجمل هذا الكلام !

ـ ولكن قل لي : ما الذي أعجبك أكثر من غيره ؟

ـ الآية التي تقول : « اغفروا لأعدائكم ! أحبوا أعداءكم ! لاتسيئوا الى أحد قط » . آه ما أجمل كلامه !

والتفت عليّ الى أخويه اللذين كانا يصغيان الى حديثنا وقال لهما بضع كلمات في حرارة وحماسه ، وتحدث الاخوة الثلاثه طويلا في جد واهتمام ، فكان أخواه يؤيدان كلامه بهز الراس في بعض الاحيان ، ثم أكدا لي وهما يبتسمان ابتسامة مهيبة لطيفة ، ابتســـامه مسلمة (ما أكثر ما أحب مهابة هذه الابتسامة) أكدا لي ان عيسى نبي عظيم وذكرا انه حقق معجزات كبرى منها أنه خلق طائراً من طين ثم نفخ في الطائر روحاً فطار الطائر . كانا مقتنعين بأنهما يحدثان لي سرورا عظيماً حين يمدحان عيسى. أما علي فقد أسعده كثيرا ان يرى اخويه يؤيدان كلامي ويهبان لي ما كان يعده رضىً وارتياحاً في نفسي .

ان النجاح الذي أصبته مع تلميـــذي في تعليمـــه القراءة كان نجاحا رائعاً حقا . وقد اشترى علي ورقا واقلاما وحبرا (اشترى ذلك من ماله لأنه لم يشأ أن أنفق انا هذه النفقة) فما انقضى شهران الا وكان علي قد تعلم الكتابة . ودهش الأخوان أشد الدهشة من هذا التقدم السريع الذي أحرزه علي ، وشـعرا بزهو ورضى وارتيـاح بغير حـدود ، حتى أصبحا لا يعرفان كيف يعربان لي عن عظيم شكرهما وعميق امتنانهما ، حتى اذا كنا نعمل في الورشة كانا يتنافسان في مساعدتي ويشعران من ذلك بلذة كبيرة ، ناهيك عن عليٍ الذي كان يكن لي عاطفة لا تقل عمقاً عن عاطفته نحو أخويه . لن أنسى ما حييت اليومَ الذي أطلق فيه سراحه . لقـد قادني يومئذ الى خارج الثكنة فارتمى على عنقي وأجهش باكيا . لم يكن قد قبلني قبل ذلك يوماً ولا بكى أمامي أبداً .

قال :

ـ لقد صنعت في سبيلي أشياء كثيرة ، أشياء كثيرة جداً ، فلا أبي ولا أمي كانا خيراً منك في معاملتي : لقد خلقت مني رجلاً ، فليبارك الله فيك، ولن أنساك مدى الحياة ، مدى الحياة ...

تُرى أين هو الآن ؟ أين هو صديقي الطبيب العزيز علي ؟

وكان في تكنتنا ، عدا الشراكسة ، عـــدد" من البولنديين يشكلون عصبة على حدة ، ولا يكاد يكون بينهم وبين سائر السجناء صلة • سبق أن قلت انهم بسبب تعصبهم وبسبب ما يضمرونه من بغض للسجناء الروس ، كانوا مكروهين منبوذين • انهم أناس ذوو طبائع مضطربة معذبة مريضة• وكان عددهم ستة ، اثنان منهم متعلمان سأتحدث عنهما تفصيلاً فيما سيلي من هذه القصة ، ومن هذين انما استعرت بضعة كتب في الفترة الاخيرة من اقامتي بالسجن • لقد أحدث أول كتاب قرأته من هـــذه الكتب أثراً غريباً عميقاً في نفسي ••• وسأتحدث فيما بعد عن هذه الاحساسات التي أعدها عجيبة جداً ولكن القارىء سيجد شيئاً من العناء في فهمها ، أنا من ذلك على يقين ، لأن هناك أشياء لا يستطيع المرء ان يقضي فيها ما لم يكابدها بنفسه • وحسبي أن أقول ان الحرمان من متع الفكر اشق على النفس من أقسى الآلام الجسمية • ان من يرسل الى السجن من عامة الناس يجـد نفسه في مجتمعه ، بل لعله يجد نفسه في مجتمع ارقى ، فلئن افتقد عندئذ الركن الذي ولد فيه ، والأسرة التي نشأ وترعرع بين أحضـــانها ، فان بيئته تظل هي نفسها • أما الرجل المثقف الذي حكم عليه القانون بالعقوبة نفسها التي يحكم بها على رجل من عامة الناس فانه يتألم ألماً لا يُقاس به الألم الذي يعانيه ذلك الرجـــل • ان عليه أن يخنق جميع حاجاته وأن يقضي على جميع عاداته وأن يهبط الى مستوى أدنى لا يرضيه ، وأن يتعود استنشاق هواء آخر • انه أشبه بسمكة أُلقيت على الرمل • فالعقوبة التي يتلقاها ، وهي تساوي بحكم القانون عقوبات جميع المجـرمين ، تُحدث له في كثير من الأحيان من الألم الممض والعذاب الكاوي عشرة أضعاف ما يعانيه من ذلك ابن الشعب • تلك حقيقة لا جـــدال فيها ، ولو اقتصر الكلام على العادات المادية التي ينبغي له أن يضحي بها •

غير أن هؤلاء البولنديين كانوا يشكلون عصبة على حدة ، ويعيشون معاً ، ولا يحبون من بين جميع السجناء في ثكنتنا الا سجينا يهودياً ، واذا كانوا يحبونه ، فلأنه كان يسليهم ويضحكهم ويسرى عنهم • وكان هذا اليهودي محبوباً على وجه العموم رغم أن جميع السـجناء يسخرون منه ويتهكمون عليه • ولم يكن بيننا يهودي غيره • وما زلت لا أستطيع حتى الآن أن أتذكره دون أن أضحك • كنت كلما نظرت اليه تذكرت اليهودي يانكل الذي وصفه جوجول في قصته تاراس بولبا والذي متى خلع ملابسه ليضاجع يهوديته فيما يشبه الخزانة ، كان أقرب ما يكون الى فرخ دجاجة. حقاً ان بين أشعيا فومتش وبين فرخ الدجاجة المنتوف الريش من الشـبه ما بين قطرتي ماء • انه متقدم في السن قليلاً ، فهو في نحو الخمسين من عمره قصير ضعيف ، ماكر على غباوة عظيمة ، متبجح على جبن شـديد • كان وجهه مليئاً بالغضون وكانت على جبينه وخديه ندبات الحـرق التي نشأت عن وشمه • لم أستطع في يومٍ من الأيام أن أفهم كيف أمكن أن يحتمل هذا الرجل ستين جلدة بالسوط بعـد الحكم عليه بتهمة ارتكابه جريمة القتل • كان يحمل في جيبه وصفة طبية وصفها له يهودي آخرون بعد تنفيذ الوشم رأساً • وكان المفـروض في المرهم الذي تضمه هـذه الوصـفة أن يزيل الندبات في أقل من أسـبوعين ولكن اشعيا فومتش لم يجرؤ أن يستعمل هذا المرهم ، فهو ينتظر انقضاء العشرين عاماً على سجنه حتى يستعمل مرهمه الشافي بعد أن يستوطن في المنطقـة • كان يقول لي : « لن أستطيع أن أتزوز (أتزوج) ما لم أستعمل هذا المرهم ، ولا بد لي أن أتزوز قطعاً » • كنا صديقين • ان مزاجه الرائق لا ينضب له معين ، وان الحياة في السجن لا تبدو له شاقة كثيراً ، وكانت مهنته الصياغة فما أكثر الطلبات التي ترد اليه ، اذ لم يكن في مدينتنا صائغ غيره • فبذلك كان ينجو من الأعمال الصعبة • وكما يليق بيهودي ، كان يقرض السجناء

بالربا فيجنى منهم فوائد طائلة ، وكان لا يقرضهم الا اذا أودعوه رهناً ، وكانت مدة القرض أسبوعاً لا تزيد • وقد وصل الى السجن قبلى فما كان أروع دخوله المظفر الذى رواه لى أحد البولنديين • تلك حكايه طويلة سأقصها فيما بعد لأن لى عودة الى اشعيا فومتش •

أما السجناء الآخرون فكان منهم أولاً أربعة من المنشقين ينتمون الى الملة التى ينتمى اليها العجوز القادم من ستارودوب ، ثم اثنان أو ثلاثة من روسيا الصغرى وهم أناس عابسو الوجه متجهمو المزاج ، ثم فتى مرهف الوجه دقيق الأنف في الثالثة والعشرين من عمره كان قد ارتكب ثمانى جرائم قتل ، ثم عصابة من مزيفى النقود كان أحد أفرادها مهرج ثكنتنا، وأخيراً بضعة سجناء مكتئبة نفوسهم حزينة قلوبهم محلوقة رؤوسهم مشوهة وجوههم صامتون حاسدون ينظرون نظرة شزراء الى كل من يحيطون بهم، وقد ظلوا ينظرون هذه النظرة ويحسدون هذا الحسد ويقطبون هذا التقطيب خلال سنين طويلة • هذا كله انما لمحته لمحاً فى ذلك المساء الحزين الكئيب ، مساء وصولى الى سجن الأشغال الشاقة وسط دخان كثيف وهواء موبوء وشتائم بذيئة وسباب مقذع واهانات مسمومة وضحكات ساخرة يصحبها صليل الأغلال وصريف القيود • استلقيت على ألواح الخشب العارية مسنداً رأسى الى وسادة صنعتها من ردائى (لم أكن قد ملكت مخدة بعد) والتحفت معطفى • غير أننى بعد تلك المشاعر الأليمة فى ذلك النهار الأول لم أستطع أن أنام فوراً • ان حياتى الجديدة انما تبدأ الآن • وكان المستقبل يدخر لى أشياء كثيرة لم تكن فىحسبانى ولا خطرت لى على بال •••

٥

المشهد الأول

بعد وصولى بثلاثة أيام تلقيت الأمر بالمضى الى العمل . ان الاحساس الذى بقى لى عن ذلك اليوم مايزال واضحاً جداً ، رغم أنه لا يشتمل على أى شىء خاص، اذا نظرنا بعين الاعتبار الى أن وضعى كله غير عادى أصلاً . ولكنها الاحساسات الأولى : فكنت فى تلك اللحظة أنظر الى كل شىء بكثير من حب الاطلاع وكثير من التعجب. لاشك أن تلك الأيام الثلاثة كانت أشق أيام سجنى . كنت أقول لنفسى : « انتهت أيام السفر . ها قد وصلت الى المعتقل الذى سأقيم فيه سنين طويلة . فى هذا الركن يجب أن أعيش . اننى أدخل الى هذا المكان منقبض الصدر ملتاع النفس مفعماً شكاً وحذراً . . » « ومن يدرى ؟ لعلنى سأفارقه موجع القلب أسفاً عليه وحنيناً اليه ، حين أفارقه . . » . هذا ما كنت أضيفه ، تدفعنى اليه تلك اللذة الخبيثة التى تحض المرء على أن ينكأ جرحه ، كأنه يستطيب الآلام ويستعذب العذاب . ان المرء ليجد لذة حادة فى بعض الأحيان حين يشعر بضخامة الشقاء الذى يعانيه ، وفداحة النازلة التى ألمت به ؛ فحين كنت أتصور أننى قد أبارح هذا المكان ، حين أبارحه ، آسفاً حزيناً على فراقه ، كان ذلك نفسه يرعبنى ويملؤنى خوفاً . وأوجست منذ

تلك اللحظة أن «الانسان حيوان يتعود» ... وأن هذا التعريف يصدق على الانسان الى درجة لا يصدقها العقل ... على أن ذلك كله هو من المستقبل ، أما الحاضر الذى يحيط بى فلقد كان رهيباً ، وكان يناصبنى العداء ... أو هذا ما بدا لى على الأقل ...

ان ما كان يرشقنى به رفاقى السجناء من نظرات مستطلعة متوحشة ، وما كانوا يعاملون به هذا « النبيل » السابق الذى يدخل الآن عضواً فى جماعتهم من معاملة قاسية تبلغ أحياناً حد البغض والكره ، ان هذا كله كان يعذبنى تعذيباً شديداً ، حتى صرت أتمنى أنا نفسى أن أمضى الى العمل ، بغية أن أعرف مدى شقائى دفعة واحدة ، وأن أعيش كما يعيش الآخرون ، وأن أسقط فى الهاوية معهم بأقصى سرعة . كانت تفوتنى أمور كثيرة، وتستعصى على فهمى وقائع شتى: كنت لا أستطيع مثلاً أن أميز بين العداوة الشاملة التى يظهرونها لى ، وبين المودة والعاطفة التى يبدونها نحوى . على أن ما أحاطنى به بعض السجناء من تودد وبشاشة قد شد أزرى وبث الشجاعة فى نفسى وأنعش قلبى . كان أكثر هؤلاء تقرباً منى وتودداً الى وعطفاً على هو آكيم آكيمتش . وسرعان ما لاحظت أيضا بضعة وجوه أخرى طيبة كريمة لطيفة محببة فى ذلك الجمهور الكئيب المبغض من السجناء الآخرين . أسرعت أقول لنفسى متأسياً : « ان فى كل مكان أشراراً ، ولكن الأشرار أنفسهم يشتملون على خير ! ومن يدرى ، فقد لا يكون هؤلاء الناس شراً من الآخرين الذين هم طلقاء أحرار . » قلت ذلك لنفسى وأنا أهز رأسى متحيراً ! ... ولم أكن أدرى الى أية درجة كنت على حق ! ...

انظروا الى السجين سوشيلوف مثلاً : اننى رجل لم أعرفه حق معرفته الا بعد مدة طويلة ، رغم أنه يجاورنى طوال الوقت تقريباً . اننى متى تكلمت عن الذين ليسوا شراً من الآخرين ، ينصرف ذهنى اليه على

غير ارادة مني • كان سوشيلوف يخدمني ، كما يخدمني سجين آخر اسمه أوزيب زكَّاه لي آكيم اكميتش منذ دخولي السجن ، وتعهد ، لقاء كوبك في الشهر ، بأن يطبخ لي غداءً خاصا حين لا يرضيني الغداء الذي يقدمه السجن للسجناء عادة ، أو حين أكون قادراً على أن أطعم بمالي • كان أوزيب واحدا من الطباخين الاربعة الذين يختارهم السجناء بأنفسهم في المطبخين • يجب أن أذكر هنا مستطرداً أن الطباخين يمكن أن يقبلوا هذه الوظيفة أو أن يرفضوها ، كما يمكن أن يتركوها متى حلا لهم أن يتركوها • كان الطباخون لا يذهبون الى العمل ، فمهمتهم تقتصر على خبز الخبز واعداد الحساء • وكان السجناء يطلقون عليهم لقب الطباخات ، لا احتقاراً لهم أو استخفافاً بهم ، فان أذكى السجناء واشرفهم هم الذين كانوا يُختارون لهذه المهمة ، وانما كان يطلق عليهم هذا اللقب من قبيل المزاح والدعابة • ولم يكن يُغضبهم هذا اللقب أبداً • ولقد ظل أوزيب يُنتخب «طباخة» عدة سنين ؛ فكان لا يترك هذه الوظيفة الا حين يلم به ضجر شديد ويستولى عليه سأم كبير ، أو حين يجد سبيلاً الى القيام بعمل تهريب الخمرة الى الثكنة • وهو ، رغم أنه أرسل الى سجن الأشغال الشاقة بسبب التهريب ، فقد كان على جانب عظيم نادر المثال من العفة والاستقامة والشرف وكان الى ذلك جباناً جبناً رهيباً ، فهو يخشى جلد السياط في كل ما يقبل عليه من أمر وما يهم به من عمل • وكان هادىء الطبع مسالماً لطيفاً في معاملة جميع الناس ، لا يتشاجر مع أحد يوماً• ولكنه ما كان ليستطيع بحال من الأحوال أن يقاوم الاغراء الذي يدفعه الى القيام بأعمال تهريب الخمر ، رغم كل ما يتصف به من جبن ، لأنه يعشق التهريب عشقاً كبيراً • فكان يتعاطى تجارة الخمر كسائر الطباخين ••• ولكن تجارته كانت أضيق كثيراً من تجارة جازين ، لأنه لا يجرؤ أن

يجازف مراراً وكثيراً كما يجازف جازين • لقد كنت دائما على صلة طيبة بأوزيب •

ليس يحتاج المرء الى أن يكون غنياً جـداً حتى يعد لنفسه طعاماً خاصاً : لقد كنت أنفق على طعامي روبلاً واحدا في الشهر على وجه التقريب ؛ ذلك طبعاً عدا الخبز الذى كان السجن يزودنا به ؛ وكنت في بعض الاحيان اكل حساء الملفوف الذى يقدم للسجناء ، وذلك حين يستبد بي جوع شديد ، رغم الاشمئزاز الشديد الذى كان هذا الحساء يوقظه في نفسي • على أن هذا الاشمئزاز قد زال زوالاً تاما بعد ذلك • كنت أشترى في العادة رطلاً من اللحم في اليوم ، فيكلفني ذلك كوبكين • ان الجنود المشوهين الذين كانوا يراقبون داخل الثكنات يقبلون طائعين مختارين أن يذهبوا الى السوق كل يوم يشترون للسجناء ما هم في حاجة اليه • وكانوا لا يتقاضون على ذلك أى أجر ، اللهم الا أن ينفحهم أحد مكافأة يسيرة زهيدة من حين الى حين ••• كانوا يفعلون ذلك ضماناً لراحتهم نفسها وهدوئهم نفسه ، فلو رفضوا أن يقوموا بهذه المهمة لأصبحت حياتهم في السجن عذاباً متصلاً وجحيما لا يُطاق • كانوا يشترون للسجناء تبغاً وشاياً ولحماً ، أى كل كل ما يريده السجناء عدا الخمرة ، ولم يكن أحد يطلب منهم ذلك على كل حال •••

ظل أوزيب عدة سنين يهيىء لى شريحة من اللحم المقلى كل يوم بدون تغيير ••• أما كيف كان يستطيع طهيها فذلك سره • وأغرب مافي الأمر أنني لم أبادله كلمتين طوال تلك المدة : لقد حاولت أن أتكلم معه غير مرة • ولكنه كان عاجزاً عن عقد أى حديث مع أى انسان • فكان يكتفي بالابتسام ، وكان يقتصر من الجواب على « نعم » أو « لا » في كل ما يُلقى عليه من أسئلة • لقد كان شخصاً عجيباً هذا الرجل الذى يملك جسماً كجسم هرقل ، وعقلاً كعقل طفل في السابعة من عمره •

وكان سوشيلوف أيضاً في عداد من يساعدونني • لم أندبه لذلك ، ولا بحثت عنه ، وانما ارتبط بشخصي من تلقاء نفسه لا ادري متى • وكان العمل الاساسي الذي يقوم به من اجلي هو غسل ملابسي وتنظيفها • كان يوجد لهذا الغرض حوض في وسط الفناء يجتمع السجناء حوله فيغسلون ملابسهم في اجران تملكها الدولة • وقد استطاع سوشيلوف ان يقدم لي طائفة من الخدمات الصغيرة : كان يغلي الماء في غلايه الشاي التي أملكها ، ويركض ذات اليمين وذات الشمال ينفذ شتى المهمات التي أعهد اليه بها، ويهيىء لي كل ما أنا في حاجة اليــه ، فيرقّع صـــدرتي متى احتاجت الى ترفيع ويدهن حذاءي بالشمع اربع مرات في الشهر • كان ينهض بهذه الاعباء كلها في همة ونشاط وحماسة وانهماك شاعرا بما يقع على عاتقــه من واجبات • الخلاصة أنه ربط مصيره بمصيري ، فكان يتدخل في كل شأن من شئوني ، ويهتم بكل امر من اموري • ما كان يخطر بباله مثلاً أن يقول لي : « عندك هــــذا العدد من القمصان ••• سترتك ممزقة » ، وانما كان يقول « عندنا هذا العدد من القمصان ••• سترتنا ممزقة ••••» لم يكن يرى شيئاً جميلاً غيري ، بل أعتقد أنني أصبحت الغاية الوحيدة لحياته كلها • ولما كان لا يجيد أية مهنة ، فانه كان لا يتلقى أي مال غير ما أعطيه أنا ، وهو نزر يسير طبعاً ••• ومع ذلك كان دائم الرضى مهما يكن المبلغ الذي أعطيه اياه • ما كان لهذا الرجل أن يطيق الحياة دون أن يخدم أحداً من الناس ، ولعله آثرني على غيري لأنني كنت أكثر لطفاً في معاملته ، وأكثر عدلاً وانصافاً في مكافأته • انه واحد من أولئك الناس الذين لا يمكن أن يغتنوا يوماً ، ولا يمكن أن يحســـنوا تدبير أمورهم ؛ ولقد كان أحد أولئك الذين يستأجرهم المقامرون ليسهروا طول الليل في الدهليز ، ينصتون الى أية نأمة يمكن أن تدل على وصول الضابط الميجر ؛ وكانوا يتقاضون خمسة كوبكات أجراً على سهرهم ليلةً بكاملها • أما اذا

جرى تفتيش في الليل ، فانهم لا يتقاضون أى أجر . وكانت ظهورهم هي التي تتحمل جزاء غفلتهم وسهوهم وقلة انتباههم . ان الشيء الذى يميّز هذا النوع من الناس هو انه لا شخصيه لهم البتة ، فى اى مكان وفى أى زمان ، فهم دائماً فى المحل الثانى أو المحل الثالث . وذلك فطرة فيهم . ان سوشيلوف انسان وديع مسكين اذا نظرت اليه رأيته مذعوراً كان أحداً قد ضربه منذ لحظة ... هكذا خلق . ومع هذا ما كان ليخطر ببال احد فى ثكنتنا أن يمد اليه يديه بلطمة ... كنت أشفق عليه دائما ، لا أدرى لماذا ... كنت لا استطيع ان انظر اليه دون أن أشعر نحوه بشفقة عميقة . لماذا كنت أحمل له هذه الشفقة؟ ذلكم سؤال لا أدرى بم أجيب عليه . وكنت لا أكلمه ، لأنه لا يحسن الكلام ... وما كان أشد ارتياحه وانتعاشه حين أعهد اليه بعمل من الأعمال، أو أكلفه بالركض الى أمرٍ من الأمور ! ... كل ذلك فى سبيل أن يتحرر من الحديث . وأصبحت على يقين من أنه يُسرُّ أكبر السرور متى أصدرت اليه أمراً من الأوامر ... انه ليس بالطويل ولا بالقصير ؛ ليس بالدميم ولا بالجميل ، ليس بالغبى ولا بالذكى ؛ ليس بالعجوز ولا بالشاب ... ان من الصعب على المرء أن يصف هذا الانسان بأية صفة محدّدة معينة . وكان وجهه مغطى قليلاً ببثور الجدرى ... وكان أشقر الشعر ... صفة واحدة كانت تبدو لى بارزة فيه هى أنه اذا صدق ظنى ينتمى الى الفئة التى ينتمى اليها سيروتكين ... انه ينتمى الى هذه الفئة من ناحية أنه مشدوه مذهول لا يشعر بالمسئولية . كان السجناء يسخرون منه ويتهكمون عليه فى بعض الأحيان ، لأنه أجرى مقايضةً فى طريقه الى سيبيريا ، ولأن هذه المقايضة كانت على قميص أحمر وروبل فضة . كانوا يضحكون من هذا المبلغ الزهيد الذى باع به نفسه . والمقايضة تعنى أن يجرى تبادل فى الاسم بين معتقلين اثنين ، أى أن يتحمل كل منهما عقوبة الآخر . قد يبدو لكم هذا

الأمر غريباً كل الغرابة ، ولكنه واقع لا مجال للشك فيه . كانت هـذه العادات التى رسختها التقاليد ما تزال قائمة بين المعتقلين الذين صحبونى الى منفاى فى سيبريا . لقد رفضت آن أصدّق وجود امر كهذا الأمر فى البداية ، ولكنه ثبت لى بعد ذلك فأيقنت منه .

واليكم الطريقة التى تتم بها هذه المقايضة : قافلة من المحكوم عليهم تسير فى طريقها الى سيبريا . ان بين أفراد القافلة سجناء من كل فئـة : فبعضهم محكوم بالأشغال الشاقة فى السجن ، وبعضهم محكوم بالعمل فى المناجم ، وبعضهم محكوم بالاحتجاز فى معسكر لا أكثر ... وفى أثنـاء الطريق ، فى مكانٍ ما ، فى مقاطعة برم مثلاً ، يعرب أحد المعتقلين عن رغبته فى المقايضة على الحكم الصادر فى حقه . هذا رجل اسمه ميخائيلوف مثلاً محكوم بالأشغال الشاقة لجريمة كبري . انه لا يطيق أن يتصور اَن يبقى محروماً من الحرية سنين طويلة . ولما كان ماكرا واسع الحيـلة ، فانه يعرف ماذا يجب عليه أن يعمل . فهذا هو يبحث فى القافله عن رفيق بسيط ساذج غر طيب ، هادىء الطبع ... محكومٍ بعقوبة أقل من عقوبته ... محكوم مثلاً بالعمل فى المناجم أو بالأشغال الشاقة بضع سـنين ، أو محكومٍ بالنفى وحده . وهذا هو يعثر على واحدٍ اسمه سوشيلوف هـو قن قديم لا يتعدى الحكم عليه احتجازه فى معسكر .. لقد سار سوشيلوف على قدميه حتى الآن ألفاً وخمسمائة فرسخاً دون أن يكون فى جيبه كوبك واحد ، لسب بسيط هو أن رجلاً مثل سوشيلوف لا يمكن أن يكون له أى مال . انه الآن متعب مكدود مرهق مهدّم القـــوى لأنه لا يملك من الطعام غير ما تقدمه الحكومة الى أفراد القافلة ولا يملك من الكساء غـير الرداء الموحّد الذى يرتديه السـجناء . انه عاجز حتى عن الحصول على لقمة طيبة من حين الى حين ... وهو يخدم جميع السجناء لقاء دريهمات قليلة بخسة ... وهذا ميخائيلوف يبـــدأ معه حديثاً . وها هى أواصر

الصداقة تنعقد بين الرجلين .. ثم تأتي مرحلة أخرى .. ان ميخائيلوف يسكر الآن صديقه . ثم يسأله هل يريد أن يقايض ؟ ... يقول له : « أنا اسمي ميخائيلوف، وأنا محكوم بالأشغال الشاقة ، ولكنها ليست اشغالاً شاقة لأنني ساكون في قسم خاص ... هي أشغال شاقة اذا شئت ، ولكنها ليست كغيرها ... ففرقتي خاصة ، فلا بد أن تكون خيراً من غيرها ! » .

قبل الغاء الفرقة الخاصة كان كثير من الذين يعملون في وظائف الحكومه ، حتى بمدينة سان بطرسبرج ، لا يتصورون وجود هذه الفرقه الخاصة ولا يخطر لهم وجودها ببال . كانت الفرقة الخاصة تقيم في ركن منزوٍ جدا بمقاطعة من أبعد مقاطعات سيبريا ، فيصعب على الناس ان يعلموا بوجودها . على أن عدد المحكومين من أفراد هذه الفرقة الخاصة ضئيل (كان في زماني لا يتجاوز سبعين سجينا) . وقد التقيت فيما بعد بأناس خدموا في سيبريا ، وعرفوا تلك البلاد معرفة تامة ، ومع ذلك لم يكونوا قد سمعوا بوجود « فرقة خاصة » ... وكل ما تنص عليه مجموعة القوانين فيما يتعلق بهذه الفرقة الخاصة لا يتجاوز ستة أسطر : «يتم انشاء فرقة خاصة في سجن ... للمجرمين الخطرين جداً ، بانتظار تنظيم أشغال شاقة أعنف ... الخ » . والسجناء أنفسهم لا يعرفون شيئاً عن هذه الفرقة الخاصة : أهي مؤبدة أم مؤقتة ؟ الواقع أن مدة الاعتقال في سجن الفرقة الخاصة ليست محددّة ، وانما هي فترة تطول الى « حين تنظيم أشغال شاقة أعنف » ، أي تطول مدة لا تعرف نهايتها . فلا سوشيلوف ولا أحد من أفراد القافلة ولا ميخائيلوف نفسه ، لا أحد من هؤلاء كان في وسعه أن يحزر معنى هاتين الكلمتين . غير أن ميخائيلوف يتصور كيف يمكن أن تكون طبيعة هذه الفرقة ، يتصور ذلك على أساس خطورة الجريمة التي عوقب عليها بثلاثة آلاف أو أربعة آلاف جلدة بالسوط . لا شك أنهم لا يرسلونه الآن الى مكان يعيش فيه حياة رضية ناعمة ...

وكان على سوشيلوف أن يستوطن ، فهل يمكن أن يرغب ميخائيلوف فيما هو خير من هذا . « الا تريد أن تقايض ؟ » ... هكذا يسال ميخائيلوف صاحبه سوشيلوف . وسوشيلوف سكران ، وهو انسان طيب القلب طاهر السريرة تفيض نفسه شكرا وعرفانا وامتنانا لرفيقه الذي يسقيه الخمرة ويغدق عليه ، فليس في وسعه أن يرفض . ثم انه قد سمع من سجناء آخرين أن المقايضة ممكنة ، وأن هناك سجناء آخرين قد قايضوا ، فلا عجب أن يقايض هو أيضاً ، وليس في هذا العرض الذي يعرضه عليه رفيقه شيء خارق للعادة خارج عن المألوف . وهكذا يتم الاتفاق بين الرجلين على المقايضة . فيشتري ميخائيلوف الماكر اسم رفيقه بقميص أحمر وروبل فضة يستلمهما منه سوشيلوف بحضور شهود يشهدون الصفقه . ويصحو سوشيلوف من سكرته في الغداة ، ولكن صاحبه يُسكره من جديد ، فلا يستطيع اذن أن يرفض . لقد شرب بالروبل خمرة ؟ وما هي الا وهلة يسيرةاذا هو شرب خمرة بالقميص الأحمر أيضاً . ويقول له ميخائيلوف : « اذا كنت تريد العدول عن الصفقة والنكول عما تم الاتفاق بيننا عليه ، فأعد اليّ المال الذي أعطيتك اياه . . » . ولكن من أين يمكن أن يحصل سوشيلوف على روبل فضة . واذا هو لم يردّ الروبل ، فان أفراد القافلة سيجبرونه على ذلك . ان السجناء أناس لا يحبون أن يحنث المرء بعهد قطعه على نفسه . فلا بد أن يفي سوشيلوف بوعده ، وويلٌ له اذا لم يفعل ... فان مصيره القتل ... أو ان مصيره الاذلال والتعذيب في أقل تقدير ...

ذلك أنه يكفي أن تتسامح الجماعة مرةً واحدة في أمر النكول عن المقايضة التي يكون قد تم الاتفاق عليها ، حتى تزول صفقة تبادل الأسماء هذه زوالاً تاماً ... فاذا كان في وسع المرء أن يتراجع عن تنفيذ العهد الذي قطعه على نفسه، وأن يفسخ الصفقة التي تم ابرامها بينه وبين صاحبه،

بعد أن قبض المبلغ المتفق عليه ، فمن ذا الذى يمكن أن يفى بعد ذلك بعهد قطعه وشرط ارتضاه ؟ ان القضية هى فى نظر الجماعة قضية حياة او موت، انها مسالة تهمهم جميعا ، فلا يمكن ان يتهاونوا فيها ولا ان يتسامحوا : ويدرك سوشيلوف اخيرا انه لا يستطيع التراجع او التملص ، ويدرك انه لا شيء يمكن ان ينقذه مما تورط فيه ، لذلك يذعن لما يراد منه ، ويرضخ شاء ام لم يشا • وعندئذ يذاع امر الصفقه فى القافلة كلها ، فاذا كان يخشى أن يشى بالقضية أحد، اعطيت رشوة لمن يظن فيهم أنهم قد يشون ••• وهؤلاء لا يهمهم الامر فى شيء ••• فسيان عندهم ان يكون ميخائيلوف او سوشيلوف هو الذاهب الى الفرقة الخاصة • لقد شربوا خمرة ودفعت لهم رشوات فلذلك يبقى السر مكتوماً لا يعلم به أحد • وفى المرحلة التالية يجرى التفقد فاذا نودى على ميخائيلوف أجاب سوشيلوف : حاضر ! واذا نودى على سوشيلوف أجاب ميخائيلوف : حاضر ! ••• وتمضى القافلة ولا يعود يتحدث أحد فى الامر من قريب ولا من بعيد ؛ حتى اذا وصلت القافلة الى توبولسك تم فصل السجناء فيمضى ميخائيلوف يستوطن البلاد ويقاد سوشيلوف الى الفرقة الخاصة تحت حراسة مضاعفة ، ويستحيل عندئذ على سوشيلوف ان يطالب بشيء أو أن يحتج على شيء ، لأنه لا يملك برهانا • ولو طالب واحتج فسيطول أمر القضية سنين عدة ولن يجنى من شكواه شيئاً فلا شهود يشهدون على صحة ما يقول ، اذ لا يعرف أحد أين هم الآن ، وهبهم وجدوا فلن يقولوا شيئاً ولن يشهدوا بشيء بل سيلوذون بالصمت • اليكم اذن كيف أرسل سوشيلوف الى القسم الخاص لقاء تناوله روبلا فضة وقميصاً أحمر •

كان السجناء يسخرون منه ويستهزئون به لا لأنه أجرى تلك المقايضة، رغم أنهم على وجه العموم يحتقرون أولئك البلهاء الذين ارتكبوا حماقة استبدال عمل شاق بعمل سهل، بل لأنه لم يقبض ثمن تلك الصفقة

الا قميصاً أحمر وروبلاً فضة وذلك مبلغ نزر يسير تافه ، فانما يقبل المرء عادةً أن يقايض على مبالغ ضخمة (ضخمة بالقياس الى موارد السجناء) حتى لقد يتقاضى بضع عشرات من روبلات . على أن سوشيلوف كان يبلغ من التلاشي والتفاهة وانعدام الشخصية أنه لا سبيل الى التهكم عليـــه ولا حاجة الى الهزء به .

لقد عشنا معاً أنا وهو ردحاً طويلاً من الزمن ، فتعودت عليه وتعلق بي . ومع ذلك فانه جاء يسألني بعض المال في ذات يوم ، ولم يكن قد نفذ أوامري ، فما كان أشـــد قسوتي حين قلت له : « انك تعرف كيف تطلب مالاً ولكنك لا تفعل ما تؤمر به » . آه ! انني لم أغفر لنفسي يوماً فعلتي تلك . وقد صمت سوشيلوف عندئذ ، وأسرع ينفذ أوامري طائعاً راضخاً ، ولكنه أصـــبح حزيناً جـــداً على حين فجأة . انقضى يومان لم أستطع أن أصدق أن يتأثر سوشيلوف هذا التأثر كله مما قلته له . وكنت أعلم أن سجيناً اسمه فاسيليف كان يطالبه ملحاً برد دين صغير له عليه ، ولعل سوشيلوف كان خالي الوفاض لا يملك قرشا واحداً ولا يجرؤ أن يطلب مني شيئا ، فناديته وقلت له : « اسمع يا سوشيلوف ! أعتقـد أنك أردت أن تطلب مني بعض المـال لسداد دين انطوان فاسيليف عليـك ، فاليك هذا المال ! » كنت جالسا على مضجعي ولبث سوشيلوف واقفا أمامي مدهوشا أشد الدهشة من أنني أعرض عليه المال بنفسي ، وأنني تذكرت وضعه الحرج وحالته الشائكة ، لا سيما وأنه كان في الآونة الأخيرة قد طلب مني في رأيه سلفاً كثيرة فهو لا يجـرؤ أن يأمل أن أنقده سلفة جديدة . نظر سوشيلوف الى الورقة النقدية التي مددتها اليه ، ونظر اليَّ ثم استدار فجأة وخرج . أدهشني ذلك غاية الدهشة ، وخرجت أجري

وراءه الى أن وجدته خلف الثكنات • كان واقفاً مسنداً وجهه الى السور متكئاً بيديه على الأوتاد •

سألته :

ـ ما بك يا سوشيلوف ؟

فلم يجبني • وما كان أشد دهشتي حين لاحظت أنه يهم أن يبكي•

قال بصوت مختلج وهو يحاول أن لا ينظر الىّ :

ـ انت •• تظن •• يا •• الكسندر •• بتروفتش •• أنني أقوم بخدمته••• في سبيل •• المال •• أما أنا •• فانني •••

قال ذلك واستدار من جديد وهوى بجبينه على السور وطفق يبكي منتحباً • تلك أول مرة في السجن أرى فيها رجلاً يبكي ، فأخذت أواسيه وأعزيه ، وبذلت في سبيل ذلك عناءً كبيراً • صار بعدئذ يخدمني بمزيد من الحماسة والهمة والنشاط ، وأصبح « يرصد » حركاتي وسكناتي ويداريني أشد المداراة ، ولكنني استطعت أن أدرك من بعض الامارات التي لا تكاد تلاحظ ومن بعض العلامات التي لا تكاد ترى أن قلبه لن يغفر لي في يوم من الأيام أنني نهرته وزجرته • على حين أن آخرين كانوا يضحكون عليه ويعاكسونه ويناكدونه كلما سنحت الفرصة، بل ويهينونه ويشتمونه فلا يغضب ولا يتأثر بل تظل صلاته بهم طيبة • نعم ان من المستحيل أن يعرف المرء انساناً معرفة صحيحة حتى بعد أن يعاشره سنين طويلة •

ذلكم هو السبب في أن السجن لم يكن له في نظري في أول الأمر الدلالة التي ستكون له بعد ذلك • ذلكم هو السبب في أنني رغم شدة انتباهي لم أستطع أن أدرك كثيراً من الوقائع التي فقأت عيني من بعد •

ان الذين لفتوا نظرى أول الامر انما كانوا هم الاشـخاص البارزين • لكن نظـرتى كانت خاطئـة • انهم لم يخلفـوا فى نفسى الا اثرا ثقيلا حزينا موئساً • ومما ساهم خاصة فى وصولى الى هذه النتيجه ، لقائى مع أ ••• ف وهو سجين وصل الى السجن قبلى وقد ادهشنى فى الايام الاولى ادهاشاً مؤلما غاية الالم • لقد سمم بداية اقامتى فى السجن وفاقم مزيدا من المفاقمة الآلام الروحية القاسية الرهيبة التى كنت أعانيها • انه اقذر مثـال للخسة والدناءة والحقارة التى يمكن أن ينحدر اليها انسان ماتت فيه كل عاطفة من عواطف الشرف دون مقاومة أو ندامة • كان هذا الشاب وهو نبيل سابق (سبق أن تحدثت عنه) ينقـل الى الضابط الميجر كل ما كان يجرى فى الثكنات ، لأنه كان على صلة بخادمه فدكا واليكم قصته : لقد وصل الى بطرسبرج قبل اتمام دراسته بعد مشاجرة قامت بينه وبين أبويه الذين أصابهما الذعـــر والرعب من اندفاعه فى أنواع الفجـور والعهر والدعارة • ومن أجل أن يحصل على المال لم يتورع عن ارتكاب وشاية كاذبة • لقد قرر أن يبيع دم عشرة رجال فى سبيل أن يرضى ظمأه الذى لا يشبع الى الملذات البهيمية الحقيرة الدنيئة ، وبلغ من نهمه فى التمتـع بهذه الملذات القذرة، وبلغ من فرط انحداره الى حضيض الفساد فى الحانات والمواخير ببطرسبرج أنه لم يتردد عن التـــورط فى قضية كان يعـرف ما تشتمل عليه من طيش وجنون لأن الذكاء لم يكن يعوزه فحكم عليـه بالنفى الى سيبيريا وبالاعتقال فى سجن الأشغال الشاقة • تلك كانت بداية حياته • وقد يتوهم المرء أن هذه الضربة الرهيبة التى أصابته كان لا بد أن تهزّه ، وأن توقظ فى نفسه شيئاً من المقـــاومة ، وأن تحدث له أزمة ، ولكنه ارتضى مصيره الجديد غير عابىء ولا مكترث ، حتى أنه لم يشعر بشىء من ذعر أو رعب • وكل ما كان يخيفه هو أنه سيضطر الى العمـل والى هجر فسقه ومجونه الى الأبد • فلما أصبح يسمى سـجيناً لم يزده

هذا الاسم الا امعاناً في المزيد من أنواع الحقارات والدناءات الكريهة المقيتة ، فكان يقول : « أنا الآن سجين محكوم بالاشغال الشاقة فلا جناح على اذا انغمست فيما أحب الانغماس فيه على ما يشاء لى هواى بلا خجل ولا حياء » . كذلك كان ينظر الى وضعه . انني آتذكر هذا الانسان المقزز كما اتذكر ظاهرة شاذة من الظاهرات الخارقة العجيبة . لقد عشت عدة سنين بين قتلة سفاكين وعهرة ماجنين واوباش واوغاد ، ولكنني لم اصادف في حياتي كلها حالة تمثل الخسة الاخلاقية والفساد المتعمد والحقارة الوقحة تمثيلاً يبلغ هذا المبلغ من الكمال . كان بيننا شاب من اصل نبيل قتل أباه (سبق أن تحدثت عنه) ولكنني استطعت أن أقتنع من نواح كثيرة وسمات شتى أن هذا الشاب كان أكرم نفسا وأكثر انسانية من صاحبنا آ ... ف . انني طوال مدة اقامتي في السجن لم ار في ا ... ف شيئا آخر غير كتلة من لحم لها أسنان ومعدة ، شرهة الى أوسخ الملذات الحيوانية ، نهمة الى أقذر المتع الوحشية التي لايتورع صاحبها عن اغتيال أي انسان في سبيل الحصول عليها؟ ولست فيما أقول بالمبالغ قط، فقد عرفت في آ ... ف نموذجاً من أتم نماذج الحيوانية التي لا يردعها مبدأ ولا تنظمها قاعدة ولا تزعها أخلاق . ولشد ما كانت ابتسامته الساخرة أبدا ، الهازئة دائماً ، تثير في نفسي الاشمئزاز والتقزز ! انه مخلوق عجيب مشوه ! انه في روحه مثل كازيمودو في جسمه ! ولقد كان ذكيا ماكراً وسيماً ، يملك بعض ثقافة ، وينعم ببعض كفاءات ... لا ! لا ! ألا ان الحرائق والأوبئة والمجاعات وسائر الكوارث والنوازل أفضل من وجود انسان كهذا الانسان في المجتمع . لقد سبق أن قلت ان التجسس والوشايات رائجة في السجن ، كثمرة طبيعية للانهيار الروحي والخسة الأخلاقية لا يستاء منها السجناء أي استياء . بالعكس ... لقد كانوا على صلات طيبة بصاحبنا آ ... ف ؛ وكانوا يتوددون اليه ويتقربون منه

ويلاطفونه ويدارونه أكثر مما يفعلون ذلك معنا • وكان صاحبنا الضابط الميجر السكير يحسن معاملته ، فكان ذلك يسبغ عليه شيئا من مهابة في نظر السجناء ، بل كان يهب له شيئا من قيمة • وقد زعم للميجر فيما زعم انه رسّام قادر على تصوير وجوه (كما اوهم السجناء بانه كان ضابطا برتبة ملازم في حرس القيصر) فأعفاه الميجر من الذهاب الى الاشغال الشاقة ، واستدعاه مخفورا الى منزله ليتيح له اعمال مواهبه الفنية برسم صورة له • حتى اذا استقر به المقام في منزل الميجر انعقدت بينه وبين فدكا الخادم أواصر الصداقة ، وكان للخادم تاثير كبير في مولاه وسلطان عظيم عليه ، وكان له تبعاً لذلك تأثير وسلطان على جملة السجناء • فكان آ ••• ف يكتب تقارير عنا ، بتكليف من الميجر الذى كان اذا سكر لا يتورع عن صفعه وشتمه ، ووصفه بأنه جاسوس وانه واشٍ • بل كان يتفق في كثير من الأحيان ، بعد أن يصفعه ويشتمه ، أن يجلس على كرسي ، فيطلب اليه متابعة عمله في رسم صورته • فرغم ان الضابط الميجر كان يعده رسّاماً من الطراز الاول يشبه أن يكون من مستوى برولوف* (وكان قد سمع عن هذا الرسّام الشهير برولوف) فقد كان يحسب أن من حقه عليه أن يصفعه ، قائلاً له بينه وبين نفسه : « مهما تكن رسّاماً ، فأنت في السجن ، وأنا أظل رئيسك أفعل بك ما يحلو لى أن أفعل » • حتى لقد كان يأمره في بعض الأحيان أن يخلع له نعليه ، أو أن يأتيه بالوعاء الذى يبول فيه ليلاً ••• واحتاج الضابط الى وقت طويل حتى يدرك أن الرجل لا يملك أية موهبة• فقد ظل الرسام يعمل فيها قرابة السنة ، فلاحظ الضابط أخيراً أن الرجل قد ضحك عليه ، فكلما تقدم العمل في رسم الصورة ، كانت الصورة تزداد بعداً عن الشبه بصاحبها •• وزعل الضابط ، فضرب الرسّام ، وطرده وأرسله الى الأشغال الشاقة••• وكان طبيعياً أن يستاء آ ••• ف : انه يأسف الآن على انقضاء أيام الفراغ

والكسل ، وعلى الحرمان من الهدايا الصغيرة ، وعلى الابتعاد عن اصناف الحلوى التي كانت تختلس من على مائدة الضابط اختلاساً، وعلى الانفصال عن فدكا ، وعلى هجر الطيبات التي كانا ينعمان بها كلاهما في مطبخ الميجر ...

وحين فقد آ ... ف حظوة الضابط ، كف الضابط عن اضطهاد م ... الذي كان آ ...ف يحرضه عليه للسبب التالي : حين وصل ا ...ف الى السجن كان م ... يعاني حزنا شديدا ويأسا قاتلاً ... كان لا يشعر بوجود أية صلة تربطه بهؤلاء السجناء ، وكان ينظر اليهم باحتقار واشمئزاز . انه لم يعرف كيف يجد فيهم ما يمكن ان يحمل بعض الهدوء الى قلبه ، وما يمكن أن يعزيه ويسري عنه ويخفف بلواه . كان يكرههم بدلاً من أن يحاول معرفتهم وفهمهم ، وكانوا من جهتهم يبادلونه كرها بكره . كان وضعه حرجاً رهيباً . وكان م ... لا يعرف السبب الذي سيق من أجله آ ...ف الى سجن الاشغال الشاقة . واذ أدرك آ ... ف طبيعة الرجل ، تقرب منه ، وأكد له في البداية أنه لم يحكم بالأشغال بسبب وشاية كاذبة ، بل بسبب جرم كالجرم الذي أدى الى الحكم على م ... فما كان أشد سعادة م ... بأن يعثر أخيراً بين هؤلاء السجناء على رفيق من رفاق المحنة والشقاء ! ... ولاعتقاده بأن صاحبه يعاني ولا شك آلاماً روحية كبيرة ، فقد أسرع اليه محاولاً أن يواسيه ، حتى لقد أعطاه بعض المال ، وجعله يتناول طعاماً خاصاً غير طعام السجناء ، وأشركه في جميع أشيائه ... غير أن آ ...ف الذي تفوق حقارته كل حد ، وتتجاوز دناءته كل وصف قد أخذ يكره صاحبه م ... بسبب هذا الكرم نفسه ، وبسبب هذا السخاء الذي أغدقه عليه ... فلم يجد خيراً من أن ينقل الى الميجر في الوقت المناسب كل ما أسر به اليه صاحبه م ... عن الضابط الميجر وعن السجن أثناء الأحاديث التي جرت بينهما ... فكره الضابط

صاحبنا م ••• وأضمر له الحقد ، ولولا وجـود آمر السجن اذن لمضى بهذا الحقد الى أقصى حد ، فاجهز على الرجل ••• وبعـــد ذلك ، حين اكتشف م ••• حقارة أ•••ف لم يشعر ا•••ف باى نوع من انواع الحرج ، حتى لقد صار يحرص على ان يلقى رفيقه ليرمقه بنظرة شزراء، وليبتسم له ابتسامة صفراء تعبر عن جميع معانى الشماته والتشفى والوقاحة والحقد ••• وكان ذلك يحمل الى قلبه الرضى والسرور • وقد لفت م•• انتباهى الى هــذا غير مرة • وقد فرّ هـــذا الانسان الحقير بعد ذلك من السجن فى صحبة جنـدى من جنود الحـراسة ، ولكننى ساقص حكاية فراره هذه فى الوقت المناسب والموضع المناسب ••• أما الآن فأحب أن اذكر أن هذا الرجل قد أخـذ يحوم حـولى فى أول الامر ، ظانا اننى لا أعرف قصته • وأعود فأقول انه سمّم حياتى وأفسد على أوائل أيامى فى السجن ، حتى هويت الى الحضيض من الحـــزن والكمد والكرب واليأس • لقد أرعبتنى هذه البيئة الحقيرة الجبـــانة التى أ لقيت اليها ، وتصورت أن كل ما فى هذه البيئة دنىء هذه الدناءة نفسها ، فاسد هـذا الفساد نفسه ، ولكننى أخطأت الظن حين خيّـــل الىّ أن جميع من فى السجن يشبهون م •••

فى تلك الأيام الثـلاثة الأولى كنت لا أزيد على أن أطــوّف فى السجن حين لا أكون راقداً على مضـــجعى الخشبى • وقد عهدت الى واحـد من الســـجناء كنت واثقاً منـــه (لأن آكيم آكيمتش زكاه لى) عهدت اليه بالقماش الذى ســـلمتنى اياه ادارة الســـجن ليصنع لى منه بضعة قمصان • وعملت بنصيحة آكيم آكيمتش أيضاً ، فهيـــأت لنفسى فراشاً يُطوى • انه فراش من لباد مغطى بقماش ، رقيق رقة فطيرة ، خشن كل الخشـــونة على من لم يألف مثله ولا اعتـاده • وتعهد آكيم كيمتش بأن يمدنى بجميع الأمتعة التى لا بد منها ، حتى لقد صنع لى

بيديه لحافا من قطع بالية من الجـوخ الذى توزعه ادارة السـجن على السجناء ، قطع اختارها وقصها من السراويل والسترات التى استغنى عنها أصحابها من فرط ما بلغت من الرثاثة ، وقد اشتريتها من عدد من السجناء . ان الامتعة التى توزعها الدولة على السجناء تصبح ملك هـؤلاء السجناء متى انقضت على ارتدائها المدة التى يحددها نظام السجن ، فما يلبث السجناء أن يبيعوها ، لأن نباساً من الألبسة تظل له قيمة مهما بلغ من الاهتراء والبلى . وقد أدهشني ذلك كثيرا ، ولا سيما فى البداية ، فى أوائل اتصالى واحتكاكى بهذا العالم . فلئن صرت بعد ذلك واحداً من هؤلاء الناس ، وأصبحت جزءا من هـذا العالم ، وغـدوت سجيناً كسائر السجناء ، فاصطبغت عاداتى وأفـكارى بعـاداتهم وأفكارهم من الخارج ، فان ذلك كله لم يبلغ أعماقى ، ولا نفد الى قرارة نفسى . لقد دُهشت وتحيَّرت ، كأننى لم أسمع بهذه الأمور فى يوم من الأيام ، ولا تصورت وجود مثلها فى لحظة من اللحظات . وعلى أننى كنت أعـرف ما سوف أراه فى السجن بعد أن سمعت ما سمعت عنه قبل وصولى اليه ، فقد أحدث الواقع فى نفسى من الأثر ما لم يحدثه السماع . هل كان فى وسعى أن أتصور مثلاً أن خرقاً بالية رثة خلقة ممزقة يمكن أن تبـقى لها قيمة ؟ ومع ذلك فقد كان لحافى مصـنوعاً كله من مثل هذه الخرق ! ان من الصعب علىَّ أن أصف نوع الجوخ المستعمل ثياباً للسجناء : انه يشبه الجوخ الرمادى السميك الذى يُصنع للجنود ، ولكنه ما ان يلبس زمناً قصيراً حتى تنسل خيوطه ويتمزق ويتقطع . ان على الرداء الموحَّد أن يُلبس عاماً كاملاً ، ولكن الرداء لم يكن يدوم أبداً كل هـذا الزمان ، فان السجين يعمل ، ويحمل أثقالاً باهظة ، فسرعان ما يهترىء القماش فى هذه المهنة ويتمزق . وكان على المعـاطف أن تُلبس ثلاث سنين ، فهى خلال هـذه السنين الثلاث تُتخذ ملابس وأغطيـة وألحفة

ومخدات ووسائد ، ولكنها متينة ، ومع ذلك لم يكن نادراً أن تراها في نهاية السنة الثالثة مرقعة بقماش عادي • ورغم أنها تهترىء أخيراً ، فان أصحابها يجدون من يشتريها منهم، بسعر أربعين كوبكا للقطعة الواحدة، فاذا كانت ما تزال محافظة على شيء من جدتها ارتفع السعر الى ستين ، وربما الى سبعين كوبكاً •

سبق أن قلت ان للمال سلطاناً أعلى في حياة السجن • وفي وسعي أن أؤكد جازماً أن السجين الذي يملك بعض المال يتالم اقل عشر مرات مما يتألم السجين الذي لا يملك شيئاً • ان رؤساءنا يقولون : « ما دامت الدولة تؤمن للسجين كل حاجاته ، فما شانه وشان المال ؟ » • كذلك يفكر رؤساءنا • ومع ذلك فانني أعود فأقول : لو حُرم السجناء من القدرة على امتلاك شيء يخصهم ويكون لهم ، لفقدوا عقولهم حقاً ، او لماتوا كالذباب ، أو لارتكبوا جرائم لا نظير لها ولا سمع بمثلها أحد ••• بعضهم ضجراً وسأماً ، وبعضهم حزناً وشجناً ، وبعضهم بغية أن يعاقبوا مزيداً من المعاقبة « فتتبدل حالهم ويتغير وضعهم » على حد تعبيرهم • ولئن كان السجين الذي كسب بضع كوبكات بالعرق الدامي يتصبب من جسمه وبمخاطرات ومجازفات قام بها ليحصل على هذه الدريهمات القليلة ، لئن كان هذا السجين ينفق بعد ذلك ما جناه يمنةً ويسرة بغباء كغباء الأطفال ، فان ذلك لا يعني أبداً أنه لا يدرك قيمة المال ، كما يمكن أن نتوهم لأول وهلة • ان السجين شره الى المال ، شره اليه شراهة تفقده عقله وصوابه ••• ولئن كان يتلفه بعد ذلك ويبذره ، فمن أجل أن يحصل على ما يعده خيراً من المال ••• وما هو الشيء الذي يعده السجين خيراً من المال ، ويضعه فوق المال قيمة وقدراً؟ انه الحرية ••• أو انه حرية موهومة ••• انه حلم حرية •• ان جميع السجناء أناس حالمون ••• وسأتحدث عن هذا تفصيلاً في حينه • أما

الآن فحسبي أن أقول انني سمعت سجناء محكومين بالاعتقال في سجن الاشغال الشاقة عشرين عاما يقولون لي وقد لاح الهدوء في وجوههم : « حين تنتهي مدة سجني ، ان شاء الله ، فعندئذ سوف ... » ان لقب السجين وحده يعني انسانا محروماً من حرية الارادة . فاذا انفق هذا الانسان ماله ، كان يتصرف على ما يشاء له هواه ، كان يتصرف على ما تشاء له ارادته ، كان يتصرف حرا ... انه رغم الوشم والاغلال ، رغم السور الذي يخفي العالم الحر من نظره ويحبسه في قفصٍ كما يحبس حيوان كاسر ، انه رغم ذلك يستطيع ان يحصل على خمرة ، ان يستمتع بمومس ، بل وان يرشو في بعض الاحيان (لا في جميع الأحيان) مراقبيه من مشوهي الجنود وحتى من ضباط الصف ، ليغضوا الطرف عن مخالفاته للنظام ... بل انه ليستطيع أيضاً ـ وذلك مايعشقه عشقا ـ آن يتبجح أمامهم ، أي ان يبرهن لرفاقه وأن يبرهن لنفسه كذلك ، الى حين ، أنه يتمتع بحرية هي أكبر من الحرية التي يتمتع بها في الواقع . ان السجين في حاجة الى أن يتوهم وأن يوهم أن له حرية وشأنا أكبر كثيراً مما يُظن ، فهو مباح له أن يتسلى ، وأن يصخب ويعربد ، وأن يؤذي الناس وأن يسيء اليهم حتى ليدخلهم تحت الأرض اذا شاء ! ان المسكين يريد أن يقتنع بأمور يعرف أنها مستحيلة : وذلكم هو السبب في أن السجناء يحبون أن يتباهوا وأن يتفاخروا ، ويبالغون في تقدير شخصياتهم التعيسة مبالغة ساذجة وهمية مضحكة .. ثم انهم حين يتلفون مالهم ويبذرونه ، يجازفون بشيء من الأشياء ، وذلك عندهم مظهر حياة وحرية ، وهوعندهم خير مايرجونه ويتمنونه ويطمحون اليه . تصوروا رجلاً يملك الملايين قد شدت على عنقه حبل : أفلا يتمنى هذا الرجل أن يهب كل ما يملك من ملايين في سبيل نشقة هواء ؟

رب سجين يعيش هادئاً سنين طويلة متتالية ، ويبلغ من حسن سلوكه

وسلامه تصرفه أنه يُعيّن « عريفاً » ، ثم اذا بهذا الرجل يصبح على حين فجاة شيطانا من الشياطين ، يعصى ويتمرد ويثور ، ولا يتورع عن ارتكاب اية جريمة ، قتلاً كانت أو اغتصابا أو ما الى ذلك ! ان رؤساءه ليدهشون عندئذ اشد الدهشة ، وان الناس عندئذ يعجبون أشد العجب . فماذا كان سبب هذا الانفجار الذى لم يكن ينتظره منه أحد ؟ ان سبب هذا الانفجار المباغت لدى رجل لا يتوقع احد منه مثله انما هو رغبة جامحة عارمه قلقة حزينة غريزية استحوذت عليه فجاة ، تدفعه الى اظهار شخصيته ، وتاكيد ذاته ... تلكم عواطف لا يفهمها من يراه ، فيحتار فى أمره ، ولا يعرف كيف يحكم عليه ... انها أشبه بنوبة صرعة ، انها أشبه بتشنج . تصوروا انساناً دفن حياً ثم صحا على حين فجأة : ان هذا الانسان لا بد أن يضرب غطاء تابوته ضرباً مستميتا . انه يحاول دفع الغطاء ، يحاول دفع الغطاء ، رغم أن عقله مقتنع بأن هذه الجهود كلها لن تجديه نفعاً ، ولكن العقل لا يملك أن يسكّن هذه التشنجات . يجب أن لا ننسى أن كل محاولة يحاولها السجين لاظهار شخصيته بارادته تشبه أن تكون فى نظر المسئولين جريمة ، يستوى عندهم فى ذلك أن يكون سبيله الى اظهار شخصيته خطيرا أو يسيرا . فاذا كان الامر كذلك، اذا كانت المخاطرة هى المخاطرة ، واذا كان الخروج على النظام هو الخروج على النظام ، فليمض السجين فى المجازفة الى أبعد حدودها ، ولو وصل من ذلك الى جريمة القتل . الخطوة الأولى هى الصعبة ، ثم يُجن جنون السجين شيئاً فشيئاً ، وينتشى ، فاذا هو عاجز عن السيطرة على نفسه وكبح جماحه . ولذلك يحسن أن لا يُدفع السجناء الى مثل هذا التطرف ... والغلو ... ليظل الجميع فى سلام وأمان ...

نعم ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟

٦

الشهد الأول
تتمة

كنت أملك حين دخولى السجن مبلغاً ضئيلا من المال، ولكنى لم أحمل منه فى جيبى الا جزءاً يسيراً مخافةَ أن يصادر . أما الباقى فقد ألصقته أوراقاً نقدية فى تجليدة انجيلى ، وهو الكتاب الوحيد المسموح باقتنائه فى السجن . وكان قد أعطانى هذا الانجيل فى مدينة توبولسك * أشخاصٌ منفيون منذ عشرات السنين ، ألفوا أن يعدوا كل « سيىء حظ » أخاً . ان فى سيبيريا أناساً نذروا حياتهم لنجدة « عاثرى الحظ » نجدةَ الأخ أخاه . انهم يشعرون نحوهم بالعطف الذى كان يمكن أن يشعروا به نحو أبنائهم . ان شفقتهم شفقة مقدسة منزهة عن الغرض مبرأة من المنفعة . ولا يسعنى هنا الا أن أروى فى بضع كلمات لقاءً تم لى حينذاك .

فى البلدة التى كان يوجد فيها سجننا ، كانت تقطن أرملة اسمها ناستازيا ايفانوفنا . لم يكن أى واحد منا على صلات مباشرة بهذه المرأة طبعاً . فقد نذرت هذه المرأة حياتها لمساعدة جميع المنفيين ولمساعدة نزلاء

سجن الأشغال الشاقة بخاصة • ترى هل كان أحد أفراد أسرتها امرءاً عاثر الحظ ؟ ترى هل كان أحد الأشخاص الأعزة على قلبها قد أنزلت فيه عقوبة شبيهة بعقوبتنا ؟ لست أعرف ذلك • ولكنها كانت تفعل كل ما تستطيع أن تفعله في سبيلنا • على أن ما كانت تستطيع أن تفعله في سبيلنا قليل جداً ، لأنها كانت هي نفسها فقيرة فقراً شديداً •

ولكننا كنا نحن نزلاء السجن نشعر أن لنا في خارج السجن صديقة مخلصة متفانية • كانت في كثير من الأحيان تنقل الينا الانباء التي كنا في حاجة كبيرة اليها (ولقد كنا فقراء جدا الى الأنباء) ، فلما تركت السجن وسافرت الى مدينة أخرى أتيح لي أن أزورها في بيتها وأن أتعرف اليها • كانت تقيم عند أحد أقربائها في مكان بالضاحية •

ليست ناستازيا ايفانوفنا مسنة ولا شابة ، وليست جميلة ولا دميمة ، ويصعب على المرء بل يستحيل عليه أن يعرف أهي ذكية أم غبية ، أهي مثقفة أم غير مثقفة • ولكن كل فعل من أفعالها يدل على طيبة لا حدود لها ، وعلى رغبة لا تقاوم في المسايرة والمجاراة والملاطفة والمواساة ، وفي أن تصنع شيئاً يسر ويبهج • ان المرء يقرأ هذه العواطف في نظرتها الطيبة الرقيقة العذبة الحنون • قضيت سهرة كامله لديها مع رفيق آخر* من رفاق السجن ، فكانت تنظر الينا وجهاً لوجه ، وتضحك اذا ضحكنا ، وتوافق فوراً على كل ما نقول من قول أو نعلن من رأي ؛ فهي ، أياً كان الكلام الذي نقوله ، تسارع الى تبني رأينا ، وهي ماتنفك تقوم وتقعد وتذهب وتجيء لتغدق علينا مما عندها من طعام ومن شراب •

قدمت لنا شاياً وحلوى • وان المرء ليدرك أنها لو كانت غنية لما كان يفرحها الغنى الا لأنه يتيح لها أن تهيىء لنا مزيداً من المسرة والبهجة ، وأن تواسينا مزيداً من المواساة ، نحن معشر السجناء •

فلما استأذناها بالانصراف أهدت الى كل منا علبة لحفظ السيكار مصنوعه من الكرتون ، على سبيل الذكرى • كانت قد صنعت هاتين العلبتين بيديها وغلفتهما بورق من ذلك الورق الذى تجلد به كتب الحساب للمدارس ، وزينتهما بحافة رقيقة من ورق مذهب لعلها اشترته من احدى الدكاكين تجميلاً لهما •

قالت لنا وهى تعتذر خجلى من هديتها :

ـ ما دمتما تدخنان فلعل هاتين العلبتين تناسبكما •

هناك أناس يقولون (قرأت هذا وسمعته) ان الايثار الشديد ليس الا أثرة شديدة فى الوقت نفسه ، وأن الغيرية أنانية ، فأين أين الأثرة أو الأنانية هنا ؟ لن أفهم ذلك يوماً

رغم أننى حين دخلت السجن كنت لا أملك مالاً كثيراً ، فاننى لم أستطع أن أغتاظ حقاً من أولئك السجناء الذين كانوا يقبلون علىَّ منذ وصلت هادئين ، بعد أن خدعونى مرة أولى ، ليقترضوا منى ثانية فثالثة فرابعة • غير أننى أعترف صراحة بأن الشىء الذى كان يغيظنى حقاً ويثير غضبى وحنقى هو أن هؤلاء جميعاً كانوا بحيلهم الساذجة يحسبوننى امرءاً غبياً أبله ، ويسخرون منى فى قرارة أنفسهم ، لا لشىء الا لأننى أقرضهم بعض المال مرة خامسة • لا شك أنهم كانوا يتخيلون أن مكرهم كان ينطلى على • وانى لعلى يقين من أنهم كانوا سيشعرون نحوى باحترام أعظم وتقدير أكبر لو رفضت أن أقرضهم ، ولو طردتهم شر طردة ، ولكننى كنت لا أستطيع أن أرفض لهم طلباً ، رغم أنه اتفق لى غير مرة أن غضبت غضباً شديداً •

كان يهمنى أثناء الأيام الأولى أن أعرف أين يجب أن أضع قدمى، وكيف يجب أن يكون سلوكى مع رفاقى • كنت أحس احساساً كاملاً

وأدرك ادراكاً تاماً أن هذه البيئة جديدة عليّ كل الجدة ، وأنني أسير فيها في ظلمات، وان من المستحيل على المرء ان يعيش في الظلمات عشر سنين. ولقد قررت ان اتصرف التصرف الصريح الواضح الذى يمليه على ضميرى وتامرنى به عواطفي . ولكنني كنت اعلم ان هذه السنة قاعدة نظرية صالحه ، اما الواقع فملىء بمفاجات ليست في الحسبان . لذلك فرغم جميع الهموم الصغيرة التى شغلتنى بها اقامتى فى الثكنة ، وهى الهموم التى سبق ان تحدثت عنها والتى أعاننى فيها اكيم آكيمتش راسا ، فلقد كان هنالك فلق رهيب يستبد بنفسى وغم عميق يقبض صدرى ويعذبنى مزيدا من العذاب شيئا بعد شيء . « المنزل الميت ! » كذلك كنت اقول لنفسى حين يهبط الليل وانا أنظر احيانا من عتبة ثكنتنا الى السجناء العائدين من العمل وقد أخذوا يطوفون في الفناء منتقلين من المطبخ الى التكنة أو من الثكنة الى المطبخ. كنت أحاول وأنا أتأمل حركاتهم ووجوههم أن أعرف الى اى نوع من البشر ينتمون وما عسى أن تكون طباعهم . كانوا يطوفون أمامى ، فبعضهم مغضن الجبين وبعضهم شديد المرح ـ وهذان مظهران يلاحظان دائماً في السجن وربما كانا يميزانه ـ وهم يتشاتمون أو يتحدثون ، أو لايزيدون على أن يسيروا منعزلين مستغرقين فى تأملاتهم فى ظاهر الأمر ، فبعضهم يبدو مهدود القوى متبلد الشعور لا يحس بشيء ، وبعضهم مختال يشعر بالتفوق والاستعلاء (حتى هنا !) ، جاعلاً طاقيته على أذنه ، ملقياً معطفه فوق كتفه ، مطوّفاً نظرته الجريئة الماكرة هنا وهناك ، موزّعاً أقواله الساخرة الوقحة بغير تعفف ولا حياء . قلت لنفسى : « هذه هى بيئتى الآن ، هذا هو عالمى الآن ، هذا هو العالم الذى لا أحب أن أعيش فيه ، ولكن يجب عليّ أن أعيش فيه ... » .

حاولت أن أسائل آكيم آكيمتش الذى كنت أحب أن أشرب

الشاى معه حتى لا أكون وحيداً ، وأن أستطلعه أمر مختلف السجناء .
يجب عليّ أن أذكر هنا مستطرداً بعض الاستطراد أن الشاى كان غذائى الوحيد في أول عهدى بالسجن ؛ وكان آكيم اكيمتش لا يضنّ على باحتساء الشاي معى ، حتى لقد كان يتولى بنفسه اشعال سماورنا البالى الذى صُنع فى السجن نفسه من الحديد الأبيض ، وكنت قد استأجرته من م ....

كان آكيم آكيمتش يشرب قدحاً من الشاى فى العادة (ولقد كان عنده أقداح) ، يشربه وقوراً رضـــياً صامتاً ، حتى اذا فرغ من شربه شكرنى وعاد يستأنف صنع لحافى على الفور . ولكنه لم يستطع ان يقول لى ما كنت أرغب فى معرفته ، حتى أنه لم يفهم اهتمامى هذا بمعـرفة طبائع الناس الذين يحيطون بنا . لقـــد أصغى الى أسئلتى وهو يبتسم ابتسامة ماكرة ما زالت ماثلةً أمامي الى الآن . قلت لنفسى : « لا ... لا ... فانما يجب أن أعانى كل شيء بنفسى ، وأن لا أسأل غيرى . » .

فى اليوم الرابع اصطف الســـجناء صفين فى ساعة مبـــكرة من الصباح ، فى الفناء ، أمام مقر الحرس قرب أبواب السجن . وكان من أمامهم ومن ورائهم جنـــود يمســـكون بنادقهم محشـــوة بالرصاص ، مزوّدة بالحربة .

ان من حق الجندى أن يطلق النار على السجين اذا حاول السجين أن يهرب ، ولكنه يكون فى مقابل ذلك مسئولاً اذا هو أطلق النار فى غير حاجة مطلقة الى ذلك . ويسرى هذا على حالات العصيان والتمرد التي قد يقوم بها السجناء . ولكن من ذا الذى يخطـر بباله أن يهرب علناً على رءوس الأشهاد ؟! ...

وصل ضابط من سلاح الهندسة يرافقه «السائق» * ، وعدد من ضباط الصف ، العسكريين ، والمهندسين ، والجنود المفروزين للأعمال .

ونودى على السجناء • فأما الذين يذهبون الى ورشات الخياطة فقد ذهبوا أول الذاهبين : كان هؤلاء يعملون في السجن نفسه ويعدّون الملابس لجميع السجناء • ثم جاء دور الذين يذهبون الى العمل في المصـــانع ، وآخيرا جاء دور الذين يذهبون الى الاشغال الشاقة في الخلاء • وكنت أنا بين هؤلاء ••• وكان عددنا عشرين سجينا • فوراء القلعـــة ، على الشاطىء المتجلد ، كان يوجد سفينتان تملكهما الدولة ، وقد اصبحتا غير صالحتين للعمل ، ولا قيمة لهما البتة ، فكان علينا أن نفكهما حتى لايضيع خشبهما سدى • الحق أن هذا الخشب لا يساوى شــيئاً ، لأن حطب التدفئة كان في المدينة زهيد الثمن ، فالمنطقة ملأى بالغابات •

وانما كانوا يكلفوننا بهذه الاعمال حتى لا نبقى عاطلين ••• وكان السجناء يعرفون ذلك حق المعرفة ، لذلك يقومون بها متراخين متكاسلين• ولا كذلك حين يكون للعمل شأنه وتكون له قيمته ، ويكون له مايسوّغه ••• أو حين يطلب الى السجين ان ينجز مهمـــة محددة معينـة ••• فالسجناء ينشطون عندئذ وينتعشون ويمتلئون حيـوية ••• حتى لقـــد رأيت سجناء يرهقون أنفسهم ارهاقاً شديداً لينجزوا العمل بأقصى سرعة مع أنهم لا يجنون منه أية فائدة ، وذلك لأن كرامتهم أصبح لها دخل في الامر •

على أن طلب انجاز مهمة معينة محدّدة لا يمكن أن يحدث حين يكون العمل من نوع العمل الذى نحن بصـدده الآن ، أى من الأعمـال التى يطلب الى السجناء أن يقوموا بها صـورةً وشـــكلاً لا ضرورةً وحاجة • ففى مثل هذه الأحوال يستمرالعمل الى أن يُقرع الطبل مؤذناً بالعودة الى السجن فى الساعة الحادية عشرة من النهار •

كان اليوم دافئاً ، وكان الجو مليئاً بالضباب ، ويوشـك الثلج أن يأخذ بالذوبان • اتجهت جماعتنا كلها نحو الشاطىء وراء القلعة ، تهز

أغلالها • ان الأغلال المختبئة تحت الثياب ترن رنيناً واضحاً جافاً لدى كل خطوة نخطوها • ومضى اثنان أو ثلاثة من السجناء ليجيئوا بالادوات من المستودع •

سرت مع السائرين • حتى لقد انتعشت قليلاً ، لأنني كنت أتمنى أن أرى وأن اعرف نوع الأشغال الشاقة التي سنقوم بها • ما نوع هذه الاشغال الشاقة ؟ كيف تراني سأعمل لاول مرة في حياتي ؟

ما زلت أتذكر جميع التفاصيل • التقينا في الطريق برجل من أهل المدينة ذا لحية ، توقف حين رانا ومد يده الى جيبه • فسرعان ما انفصل عنا أحد السجناء ومضى اليه مادأ قبعته ، فوضع الرجل في القبعة الصدقة التي أراد أن يتصدق بها علينا وهي خمسة كوبكات ، وعاد السجين الينا مسرعاً • وقد أنفقت هذه الكوبكات الخمسة في ذلك الصباح نفسه في شراء أرغفة صغيرة من الخبز الأبيض وُزّعت علينا بالتساوي •

وكان بين أفراد جماعتنا أناس عابسون صموتون ، وكان بينهم أفراد مرحون لا يبالون شيئاً ولا يحفلون بشيء ••• وكان بينهم أناس اذا تكلموا ففي كسل وتراخ وغير اكتراث • وكان بيننا رجل مرح راض سعيد فرح الى أقصى الحدود ـ لا يدري الا الله لماذا ! ـ فهو لا يني يغني ويرقص طوال الطريق ، فترن أغلاله عند كل وثبة يثبها : ان هذا السجين المربوع السمين هو ذلك الرجل نفسه الذي تشاجر يوم وصولي عند تزاحم السجناء حول الماء ليغسلوا وجوههم وأيديهم ، مع رفيق من رفاقه تجرأ أن يزعم أنه طائر من طيور الكاجان • ان اسم هذا الرجل هو سوراتوف • وها هو ذا يأخذ أخيراً بانشاد أغنية فرحة مرحة ما زلت لازمتها باقية في ذاكرتي :

بينما كنت بعيداً
احمل القمح الى الطاحون يوماً
زوجوني في غيابي
دون اذني ، رغم انفي .
لم ينقصه الا بالالايكا .

وكان طبيعياً أن يستاء عدد من السجناء من مزاجه المرح ذاك ، حتى لقد عدوا مرحه اساءةً اليهم واهانة لهم . فهذا أحدهم يقول بلهجة اللوم ، رغم أن الأمر لا يعنيه في قليل ولا كثير :

ـ أخذ صاحبنا يعوى .

وهذا آخر يقول بلهجة تدرك منها أنه من روسيا الصغرى :

ـ ليس للذئب الا أغنية واحدة ، وقد أخذها عنه هذا التولائي (نسبةً الى مدينة تولا) .

فلم يلبث سكوراتوف أن أجاب على الفور :

ـ صحيح ... أنا من تولا ... أما أنتم يا أهل بولتافا فانكم ما تنفكون تزدردون لقم العجين حتى تفطسوا بها اختناقاً .

ـ كذاب ! ما الذى كنت تأكله أنت ؟ حساء الكرنب تغرفونه بالنعال المصنوعة من قشر أشجار الزيزفون !

وقال ثالث :

ـ لكأن الشيطان قد أطعمك جوزاً ولوزاً ...

فقال سكوراتوف وهو يتنهد قليلاً دون أن يخاطب أحداً بعينه ، كأنما هو يشعر بالندم على أنه كان مترفاً :

ـ الحق يا رفاق أنني انسان مدلل رخو ... لقدنشأت منذ طفولتي

في أحضان الترف ، فكنت آكل الخوخ اللذيذ والخبز الشهي. ولاخوتي الآن تجارة واسعة في موسكو . انهم من تجار الجملة ينعمون بثراء عريض وغنى كبير ، كما ترون ! ...

ـ وأنت ، ماذا كنت تبيع ؟

ـ لكل انسان سجاياه ومزاياه ... فأنا مثلاً حين تلقيت أول مائتي ...

ـ مائتي روبل ؟ مستحيل

كذلك قاطعه سجين طُلعة انتفض مدهوشاً حين سمع كلاماً عن مبلغ ضخم هذه الضخامة .

ـ لا ... لا ياعزيزي ... لا مائتي روبل ... بل مائتي عصا ! هيه ... ! لوقا ! لوقا !

ـ بين الناس من يحق لهم أن ينادوني لوقا فقط ... أما أنت فلا يحق لك أن تناديني الا باسمي كاملاً : لوقا كوزمتش .

كذلك أجاب ، في استياء ، سجينٌ من السجناء قصير القامة نحيل الجسم مقرَّن الأنف .

فقال له صاحبه :

ـ طيب ... لوقا كوزمتش ... شيطان يأخذك !

ـ لا ... لا يحق لك أن تناديني لوقا كوزمتش ... بل يجب عليك أن تخاطبني بقولك : يا عمي المحترم .

ـ شيطان يأخذ عمي المحترم ! ... حقاً انك لا تستحق أن يخاطبك المرء بكلمة واحدة ... ولقد كنت أريد مع ذلك أن أتحدث

اليك في مودة وعاطفة وصداقة . أما أنتم يا رفاق ، فاسمعوا كيف حدث أن لم ألبث مدة طويلة بموسكو ... جلدونى آخر خمس عشرة جلدة ... ثم أرسلونى الى هنا ... ذلك ما حدث !

قال سجين كان يصغى الى قصته فى انتباه :

ـ ولكن لماذا نفوك ؟

ـ ... لا تسأل أسئلة سخيفة ! ذلكم هو السبب فى أننى لم أصبح غنياً ... كنت أتلهف على ذلك تلهفاً لا تستطيعون ان تتصوروا مداه !

أخذ كثير من السجناء يضحكون ...

ان سكوراتوف واحد من أولئك المرحين الطيبين ، والمازحين الخلّص الذين أخذوا على عاتقهم ان يسروا عن رفاقهم الحزانى المكتئبين ، ولكنهم لا يتلقون فى مقابل ذلك الا الشتائم بطبيعة الحال . انه ينتمى الى نموذج خاص من البشر قد أتحدث عنهم فيما بعد .

قال لوقا كوزمتش :

ـ وها هو ذا الآن سمور شجاع من سمامير سيبيريا ! ... ان ثيابه وحدها تساوى أكثر من مائة روبل ...

كان سكوراتوف يرتدى معطفاً لا يمكن أن يرى المرء معطفاً أعتق منه ولا أخلق ولا أبلى ... انه مرقع فى مواضع شتى برقع متهدلة متدلية ...

ونظر الى لوقا نظرة فاحصة من قمة الرأس الى أخمص القدمين .

ثم أجاب يقول :

ـ ولكن رأسى أيها الرفاق هو الذى يساوى مالاً كثيراً . وحين

ودّعت موسكو عزاني بعض العزاء أن رأسي سيرافقني طوال الطـــريق فوق كتفي ••• وداعاً يا موسكو ••• شـكراً على حمـامك النظيف ، وهوائك الطليق ••• وعلى الجلدات التي جُلـدتها ••• أما معطفي ، يا عزيزي ، فلستَ في حاجة الى أن تنظر اليه •

ـ لعلك تريد أن أنظر الى رأسك !

صاح لوقا كوزمتش :

ـ ويا ليت رأسه له ••• لقد تصدقوا عليه به في مدينة تومين حين مرّت بها القافلة •

ـ سكوراتوف ، هل كان عندك مصنع ؟

قال أحد السجناء الحزاني :

ـ أي مصنع يمكن أن يكون عنده ؟ لقد كان اسكافياً بسيطاً ••• يدق الجلد على الحجر •

قال سكوراتوف ، دون أن يلاحظ لهجة محدّثه اللاذعة :

ـ هذا صحيح ، لقد حاولت أن أرقع أحـذية ، ولكن مجمـوع ما رقعت لم يتجاوز زوجاً واحداً من الأحذية •

ـ وهل وجدت من يشتريه منك ؟

ـ نعم ••• وقعت على شاب لا شـــك في أنه كان لا يخشى الله ، لا شك في أنه لم ينل رضى أمه أو أبيه ، فعاقبه الله ، فاشترى ماصنعت !

انفجر جميع من كانوا يحيطون بسكوراتوف ضاحكين مقهقهين .

وتابع سكوراتوف يقول بهدوء لا يعكره شيء :

ـ ثم عملت مرة أخرى في سجن الأشغال الشاقة ، فركبت جلداً لحذاءي ستيفان فيدورتش بومورستيف ، الملازم الأول •

ـ هل أرضاه شغلك ؟

ـ لا والله يا رفاق ••• بالعكس ••• لقد شتمنى شتماً يمكن أن يكفينى طوال حياتى ••• ثم لطم قفاى بركبته ! ما كان أشد غضبه ! آه من هذه الغادرة العاهرة ••• حيـــاتى فى سجن الأشـغال الشاقة ••• خانتنى هذه المومس !

قال سكوراتوف ذلك ، ثم عاد يغنى وهو يضرب الأرض بقدميـه راقصاً :

ما هى الا لحظة من الزمن
اذا بزوج « آكلينا » بغتة
يغادر البيت لصحن الدار

جمجم السجين الوافد من روسيا الصغرى يقول وهو ينظر اليـه نظرة شزراء ، وكان يسير بجانبى :

ـ ما اقل حياءه •

وقال آخر بلهجة جادة قاطعة :

ـ هذا رجل لا خير فيه !

لم أستطع أن أفهم أبدا لماذا كانوا يذمون سكوراتوف ، ولماذا كانوا يحتقرون السجناء المرحين كما أتيح لى آن ألاحظ ذلك فى هـذه الأيام الأخيرة • وقد عزوت غضب السجين الوافد من روسيا الصغرى وعزوت غضب الآخرين الى عداوة شخصـية بينهم وبين سـكوراتوف • غير أننى أخطأت الظن والتقـــدير • فانما هم كانوا ساخطين على سكوراتوف لأن سكوراتوف لم يكن يصطنع هيئة الوقار الزائف التى كان يصطنعها كل من السجن ، ولأنه كان رجلاً « لا خير فيه » على حد تعبـــيرهم • ومع ذلك فقد كانوا لا يحنقون على جميع المازحين ، ولا يعاملونهم جميعاً كما

كانوا يعاملون سكوراتوف • لقد كان بين المازحين من يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم ، ولا يغفرون لأحد أن يسيء اليهم في شيء ، فكان الآخرون يحترمونهم ويوقرونهم شاءوا أم أبوا • كان بين عصبتنا واحد من هذا النوع ، فتى لطيف دائم الفرح ، لم أعرفه على حقيقته الا فيما بعد • كان شاباً فارع الطول ، حسن القامة ، على خده ثؤلول كبير جميل : وكان في وجهه تعبير مضحك جدا ، وان يكن على جانب من وسامة الطلعة ونباهة العقل • كان هذا الشاب يدعى باسم « المستكشف » ، لأنه كان قد خدم في سلاح الهندسة ، وهو ينتمي الآن الى القسم الخاص • وسأتحدث عنه فيما بعد •

هذا الى أن السجناء « الجادين » لم يكونوا جميعاً يفصحون عن أنفسهم كصاحبنا السجين الوافد من روسيا الصغرى ، حين يسوؤهم أن يروا الرفاق مرحين • لقد كان في سجننا أفراد يهدفون الى الظهور ويرغبون في التميز ويسعون الى التفوق ، سواء بما أوتوه من حذق في العمل أو براعة في التصرف أو القوة في الطبع أو توقد في الذهن • وكان عدد كبير منهم يملكون ذكاء وقوة ، ويصلون الى تحقيق الأهداف التي يرمون اليها ، ألا وهي أن يكون لهم على رفاقهم سلطان وغلبة ونفوذ • وكان هؤلاء يناصب بعضهم بعضاً أشد العداء ، وكان لهم حسّاد كثيرون • وكانوا ينظرون الى سائر السجناء بوقار ورصانة يمازجها لطف وتواضع ، ولا يشتجرون في غير داعٍ الى الاشتجار • ولما كان رأي ادارة السجن فيهم حسناً ، فانهم يتولون تسيير الأعمال بمعنى من المعاني • ما من أحد منهم ينزل الى مستوى التشاجر بسبب أغانٍ تُغنّى مثلاً : أنهم لاينحدرون الى هذه الدرجة • ولقد كان جميع هؤلاء لطافاً مهذبين في معاملتي طوال المدة التي قضيتها في السجن ، ولكنهم لا يسارّونني كثيراً ، وسيأتي حديث هذا بالتفصيل أيضاً •

وصلنا الى الشاطىء . ان المركب العتيق الذى يجب علينا أن نفكه غاطس ، تحت ، فى جليد النهر . وعلى الطرف الاخر من النهر كانت تمتد المروج زرقاء ، ويلوح الافق حـزيناً مقفراً . كنت أتوقع أن أرى جميع السجناء ينهدون للعمل بجد ونشاط وحماسة . ولكن لم يحـدث شيء من ذلك ، فهاهم أولاء بعض السجناء يجلسون بغير اكتراث ولا مبالاة على جذوع من جذوع الشجر كانت ملقاة قرب الشاطىء . وها هم جميع السجناء تقريبا يسلّون من أحذيتهم أكياسا تحتـوى على تبغ من التبغ الذى يدخنه سكان هذه المنطقة (وكان يباع فى السوق أوراقاً ، سـعر الرطل منه ثلاثة كوبكات) ، فيأخذون يشعلون غلايينهم بينما يتحـلق الجنود من حولنا ويستعدون لمراقبتنا وقد ظهـــرت فى وجوههم امارات الضجر وعلامات السأم .

قال أحد السجناء بصوت عال ، دون أن يتجه بكلامه مع ذلك الى أحد :

ـ من ذا الذى خطر بباله تقويض هذا المركب ؟ أتراهم فى حاجة الى حطب ؟

فقال آخر :

ـ ان من خطرت ببالهم هذه الفكرة الجميلة هم أولئك لا يخافـون منا يا صاحبى !

وقال الأول بعد صمت :

ـ أين يذهب هؤلاء الفلاحون ؟

انه لم يسمع الجواب عن سؤاله . فهو يلقى الآن سؤالاً جديداً ، مشيراً بأصبعه الى جماعة من الفلاحين كانوا يسيرون رتلاً متلاحقاً ، فى

بعيد ، فوق الثلج الذى لم تطأه قدم بعد • التفت جميع السجناء الى تلك الجهة فى توان وكسل ، وأخـــذوا يتهكمون على هـؤلاء المــارة تزجيةً للوقت • كان أحد هـؤلاء الفلاحين ، وهو آخـــرهم فى الرتل ، يمشى مشية غريبة مضحكة ، مباعدا ذراعيه مائلاً برأسه الى جانب ؛ وكان يضع على راسه قلنسوة عاليةً جدا لها شكل قالب من الفطير • وكان ظل قامته يرتسم ارتساماً واضحاً على الثلج الأبيض •

قال أحد رفاقى وهو يقلد نطق الفلاحين :

ـ انظروا الى لباس أخينا بتروفتش ما أجمله !

والغريب فى الامر أن السجناء كانوا ينظرون الى الفـلاحين نظرة استعلاء وتكبر ، رغم أن أكثرهم ، هم أنفسهم ، من الفلاحين •

ـ وانظروا الى اخرهم خاصةً ••• لكأنه يزرع فجلاً !

وقال ثالث :

ـ ما أضخم قلنسوته ••• لا شك أن عنده مالاً كثيراً •

وأخذ السجناء جميعا يضحكون ، ولكن فى رخاوة وتوانٍ ، كأنما هم يضحكون على مضض • وفى أثناء ذلك وصلت بائعة أرغفة من الخبز الابيض : انها امرأة نشيطة الحركة ، يقظة الهيئة • فاشترى منها السجناء خبزاً بالكوبكات الخمسة التى تصـــدّق عليهم بها ســـاكن المـدينة ، واقتسموها بالتساوى •

واشترى الفتى الذى يبيع أرغفة الخبز الأبيض فى السجن، اشترى من المرأة عشرين رغيفاً بعد أن أجرى بينه وبينها مناقشة حارة حادة فى سبيل أن تنقص له الثمن ؛ ولكنها لم تقبل ، فقال لها :

ـ طيب ••• ألا تعطيننى « هذا » على الأقل ؟

ـ ما هو ؟

ـ هذا الذى تعاف أكله الفئران •

قالت المرأة صامتة مقهقهة :

ـ طاعون يصيبك •

وأخيراً وصل صف الضابط المكلف بمراقبة العمل ، يحمل بيده عصا ، فقال :

ـ لماذا تقعدون ؟ هيّا أبدأوا العمل !

فأجابه أحد « المتزعمين » ، يقول وهو ينهض متثاقلاً :

ـ عيِّن لنا أعمالاً يا ايفان ماتفئتش •

ـ انما عملكم أن تخرجوا المركب ، فماذا تريدون أكثر من ذلك ؟

ونهض السجناء أخيراً ونزلوا نحو النهر بخطى بطيئة متثاقلة • وظهر « مديرون » كثر ، مديرون قولاً لا فعلاً ، على الاقل • كان ينبغى أن لا يحطم القارب كيفما اتفق ، وانما يجب الاحتفاظ بالواح الخشب سليمة لم يمسسها أذى ، ولا سيما الألواح العرضانية المثبتة فى قاع المركب على طوله ، وذلك عمل طويل مضجر •

صاح أحد السجناء يقول ، ولم يكن « مديراً » ولا « متزعماً » بل كان عاملا بسيطا :

ـ انما يجب سحب هذا اللوح قبل كل شيء ••• هيا يا شباب ! ••

ان هذا الرجل المسالم الذى كان على جانب من غباء لم يقل قبل الآن كلمة واحدة ؛ وها هو ذا ينحنى فيمسك بيديه لوحاً ثقيلاً من ألواح الخشب منتظراً أن يهب الآخرون الى مساعدته ، ولكن أحداً لم يلب نداءه •

دمدم واحد يقول من بين أسنانه :

ـ حاول ! انك لن ترفعه ! ولو جاء جدك الدب لما استطاع الى رفعه سبيلاً •

ـ هه ! ألا نبدأ يا اخوان ! انني لا أعرف كيف •••

كذلك قال الرجل الذي بادر بالعمل ، كذلك قال مرتبك الهيئة وهو يترك اللوح وينهض منتصباً •

ـ لن تقوم بالعمل كله وحدك فلماذا هذا التعجل ؟

فأجاب المسكين حائراً مضطرباً يقول معتذراً :

ـ ولكنني يا رفاق ، ما قلت قولي الا هكذا •••

صرخ صف الضابط المكلف بمراقبة العمل ، وصرخ مرة أخرى وهو ينظر الى هؤلاء الرجال العشرين الذين لا يعرفون كيف يبدأون عملهم وبماذا يبدأونه :

ـ هل يجب أن ندثركم بأغطية تستدفئون بها ؟ أم هل يجب أن ندخركم مؤونة لفصل الشتاء ؟

ـ ومن تأنى نال ما يتمنى ، والعجلة من الشيطان يا ايفان ماتفئش• ليس المتسرع بمنجز عمله •

ـ ولكنك لا تعمل شيئاً البتة يا سافليف ! ما لك تظل محملقاً بعينيك ؟ أتراك تريد أن تبيعهما ؟ ••• هيا ابدأوا •

ـ ما عساي أفعل وحدي •

ـ حدد لنا عملاً يا ايفان ماتفئش •

ـ قلت لكم انني لن أحدد لكم أعمالاً بعينها • كل ما عليكم هو آن تفكوا المركب فمتى فرغتم من ذلك انصرفتم الى المنزل • هيا ابدأوا •

أخذ السجناء يعملون ، ولكنهم يعملون على مضض ، في توان وتراخ وكسل • ان المرء ليفهم حنق الرؤساء وغيظهم حين يرى هذه الجماعة من الرجال الاشداء الاقوياء مقبلين على العمل بهذا التواني كانهم لا يعرفون كيف يبدأون • وما ان انتزعت العارضة الاولى وهي صغيرة جداً حتى انكسرت ، فأسرع السجناء يقولون للمفوض من قبيل التسويغ والتبرير : « انكسرت من تلقاء ذاتها • كان لا بد من العمل بطريقه أخرى ، كان لا بد من تدبر المهمة والاحتيال عليها على نحو اخر • ما العمل ؟ » • وأعقبت ذلك مناقشة طويلة بين السجناء استحالت شيئاً فشيئاً الى مسبات وشتائم ، وكاد الأمر أن يمضي الى أبعد من ذلك ••• وصرخ المراقب من جديد ملوحاً بعصاه • ولكن العارضة الثانية انكسرت كما انكسرت العارضة الأولى • وأدرك الجميع عندئذ أنهم في حاجة الى فؤوس وأدوات غير هذه الأدوات ، فأُرسل الى القلعة شابان يحرسهما خفر للمجيء بآلات أخرى وجلس سائر السجناء بانتظار عودتهما على المركب جلسة هادئة مريحة وسلوا غلايينهم وعادوا يدخنون •

بصق المراقب احتقاراً ثم دمدم يقول ممتعضاً متأففاً :

ـ ان العمل الذي تقومون به لن يقتلكم ••• تباً لكم من ناس ••• تباً لكم من ناس !

قال ذلك ثم حرك يده باشارة تدل على التذمر ، ومضى الى القلعة وهو يهز عصاه ويلوح بها •

وبعد ساعة من الزمان أقبل الناظر فأصغى الى كلام السجناء بهدوء ثم أعلن أنه يحدد لهم عملاً معيناً هو أن يفكوا أربع عوارض بكاملها دون

أن تنكسر وأن يقوضوا جزءاً كبيراً بعينه من المراكب حتى اذا أنجزوا هذا العمل كان في وسعهم ان يعودوا الى المنزل • ان المهمة ضخمة في الواقع • ولكن ليتك رأيت السجناء كيف اندفعوا الى العمل اندفاعا وكيف خفوا اليه سراعاً ! أين هذا مما كانوا فيه منذ هنيهة من كسل وتوان وتراخ وجهل ؟ هذه هي الفؤوس ترتفع وتهوى حتى لكأنها ترقص ، فتخرج المسامير والأوتاد ؛ والذين لا يملكون فؤوسا يدسون تحت العوارض هراوات ثخينة فاذا بالعوارض تخرج سليمة لم يمسسها سوء • ما كان أشد دهشتي حين كنت أراها تُرفع كاملة وتُنزع صحيحة لم تتقوض ولم تتكسر ! كان السجناء يسرعون في عملهم، وكأنهم قد اصبحوا على جانب عظيم من الذكاء دفعة واحدة • هم الآن لا يتحدثون ولا يتشاتمون ، وكل واحد منهم يعرف حق المعرفة ما كان عليه أن يقوله وما كان عليه أن يعمله وما كان عليه أن ينصح به ، ويعرف المكان الذى يجب أن يقف فيه والموضع الذى يجب أن يكون عنده • وفرغ السجناء من انجاز المهمة التى عهد اليهم بانجازها قبل أن يقرع طبل العودة بنصف ساعة ، فرجعوا الى المنزل متعبين مكدودين لكنهم رجعوا مسرورين مبتهجين بأنهم اختصروا نصف ساعة من الوقت الذى يفرض عليهم النظام أن يعملوا أثناءه • أما فيما يتصل بى فقد لاحظت أمراً غريباً وهو أننى حيثما اندسست لأعمل وأساعد العاملين شعرت أننى فى غير مكانى ، فلقد كانوا يضيقون بى وينزعجون مني ويطردوننى من كل جهة أمضى اليها وهم ينهروننى نهراً يوشك أن يكون اهانة أو شتماً •

وهذا واحد منهم وهو أرثهم ثياباً وأحقرهم هيئة ، واحد منهم ماكان له أن يجرؤ أن يتفوه بكلمة واحدة أمام السجناء الآخرين الذين هم أكثر منه ذكاء وحذقاً ، يشعر أن من حقه أن يزجرنى اذا أنا اقتربت منه زاعماً

أنني أضايقه في عمله . وأخيراً قال لي أحدهم وهو من أكثرهم حذقاً ومهارة ، قال لي بصراحة وفظاظة :

ـ ما مجيئك الى هنا ؟ ما عساك تستطيع أن تعمل ؟ هيا امض ! لماذا تأتي حين لا يستدعيك أحد ولا يناديك أحد ؟ .

وسرعان ما قال آخر :

ـ دع عنك هذا .

وصاح ثالث يقول :

ـ أَوْلى بك أن تحمل جرة فتمضي تحمل ماءً الى المنزل الذي يبنى هناك أو أن تذهب الى الورشة التي يفرم فيها التبغ : فلا حاجة بنا اليك هنا ولا عمل لك في هذا المكان .

اضطررت أن أتنحى . ألا ان الابتعاد جانباً حين يعمل الآخرون لأمر يشعر منه المرء بالخزي والعار . وحين مضيت الى الطرف الآخر من المركب ازدادوا شتما لي وازدراء بي وكانوا يقولون : « انظروا الى هؤلاء العمال الذين يرسلونهم الينا ! ما حاجتنا الى مثل أولئك الفتيان الأشداء ؟ .. » .

ولقد كانوا يقولون ذلك كله عامدين . كان يسعدهم أن يسخروا بنبيل من النبلاء ، فكانوا ينتهزون هذه الفرصة ليرضوا حاجتهم الى ذلك ويحققوا رغبتهم فيه . ولا شك أن القارىء يفهم الآن لماذا كانت الفكرة الأولى التي قامت في ذهني عند دخولي السجن هي أنني تساءلت كيف ينبغي أن يكون سلوكي مع هؤلاء الناس ؟ لقد كنت أحس أن حوادث كهذه الحوادث لا بد أن تتكرر كثيراً لكنني قررت أن لا أغير خطتي أيةً كانت هذه الاحتكاكات وأية كانت هذه الاصطدامات . كنت أعلم أنني

على صواب في تفكيري هذا ، فقررت أن أحيا بينهم على بساطة واستقلال دون أن أظهر أيسر رغبة في التقرب اليهم ، ولكن دون أن أصدهم أيضا اذا هم أرادوا أن يتقربوا الىّ من تلقاء أنفسهم ؛ وقررت أن لا أخشى أبدا تهديدانهم وأن لا أخاف كرههم وبغضهم وأن أتظاهر ما أمكنني التظاهر بأنني لا ألاحظ هذه التهديدات ولا ألقي بالاً الى هذا الكره وهذا البغض ، وقررت أن أنأى عنهم في بعض اللحظات وأن لا أشاطرهم بعض ما الفوه من عادات ، أي قررت أن لا أنشد مصاحبتهم وأن لا أسعى الى مرافقتهم • لقد شعرت أنهم سيحتقرونني ان لم أسلك هذا السبيل • وأيقنت فيما بعد أن محتدي النبيل يخولني في نظرهم حق الاستعلاء عليهم ويبيح لي أن أقتضيهم مداراتي ومراعاتي وأن أكون في معاملتهم صعب المراس وأن لا أعمل بيدي قط • صحيح أن مثل هذا السلوك سيحملهم على شتمي وسبي في سرهم ولكنه سيجبرهم على أن يحترموني • غير أنني كنت عاجزاً عن تمثيل هذا الدور • لم أستطع في يوم من الأيام أن أصطنع تلك المظاهر التي كانوا يعدونها لائقة بالسادة النبلاء ، ولكنني عزمت عزماً قاطعاً على أن لا أتنازل عن شيء من تربيتي وعلى أن لا أفرّط في شيء من اقتناعاتي الحميمة • ولو قد حاولت أن أنال الحظوة عندهم برفع الكلفة بيني وبينهم لعدوني جبانا ولعاملوني كما يعامل جبان • لم يكن ••• ف بالمثل الصالح الذي يجب أن أقتدي به • لقد كان يشي بهم الى الميجر فكانوا يخشونه ، ويخافون منه • ولم أكن من جهة أخرى أحرص على أن أنفر منهم وأن أبتعد عنهم مستعليا متكبرا متجبراً كما كان يفعل البولنديون • ولقد شعرت بما يحملون لي من عداوة وبغضاء ، فكنت أحاول أن أكون مفيدا نافعا بدلاً من أن أشكو حظي وأندب نفسي• ولئن كنت مقتنعا بأنهم سيغيرون رأيهم فيّ بعد حين فلقد كنت أشعر بغير قليل

من المذلة والهوان حين كنت أرى أنني أحاول أن أعمل دون أن أعرف كيف أحتال لذلك وكيف أتدبره ، وحين كنت ألاحظ أن هذا يحملهم على ازدرائي ازدراءً مشروعاً .

حين عدت في المساء الى المنزل بعد العمل متعباً مضطرباً أُستولى عليّ حزن عميق . قلت لنفسي : « لسوف أعيش على هذا النحو نفسه آلاف الأيام » . وفيما كنت أتروض وحيداً واجماً مفكراً مع هبوط الليل على طول السور وراء الثكنات رأيت بولو يهرع نحوى قُدُماً على حين فجأة. ان بولو هذا كلب السجن . ذلك أن للسجن كلبه كما كان لكتائب الفرسان وفصائل المشاة وبطاريات المدفعية كلابها . انه يعيش في هذا السجن منذ زمن طويل . وهو لا ينتمي الى أحد بعينه بل يعد كلّ واحد من السجناء مولاه . وهو يعيش من فضلات المطبخ وفتات الطعام . انه كلب كبير أسود ذو بقع بيضاء ، ليس بالمسن كثيراً ، له عينان ذكيتان وذنب كثيف لم يكن يلاعبه أحد ولم يكن ينتبه اليه أحد وقد جعلته صديقاً لي مسروراً محبورا . واذ أنه لم يرني طوال ذلك النهار أنا الذى كنت أول من خطر بباله أن يلاطفه منذ سنين فقد مضى يبحث عني في كل مكان حتى اذا لمحني أسرع يلقاني وهو ينبح . لا أدرى ما الذى شعرت به عندئذ ولكنني أخذت أقبله وضممت رأسه الى صدرى فوضع رجليه على كتفي وأخذ يلعق وجهي . قلت لنفسي هذا هو الصديق الذى ترسله اليّ الأقدار . وصرت طوال الأسابيع الأولى الشاقة التى قضيتها في السجن أمضي مع بولو كلما عدت من العمل في المساء وقبل أن أعنى بأى شيء آخر ، أمضي مع بولو مسرعاً الى ما وراء الثكنات ، فكان بولو يتواثب

أمامي فرحاً وكنت أتناول رأسه بذراعي وأقبله ثم أقبله ثم أقبله • كان شعور عذب جداً يستولى على قلبي وكان هـــذا الشـعور في الوقت نفسه ممضاً مراً • ما زلت أتذكر كم كان يسرني أن أتصور (لقد كنت أتلذذ بعذابي) أنه لم يبق في هذا العالم الا مخلوق واحد يحبني ويتعـلق بي منذ وصولي اذ نفحته قطعة من الخبز • كنت اذا لاعبته جمـــد في مكانه ساكناً وأخذ يلقي علي نظرات وديعة ويحرك ذيله في رفق وهـدوء • هو صديقي ، صديقي الوحيد ، كلبي الوفي بولو •

٧

أصحاب جدد
بتروف

ولكن الزمان كان ينقضى حتى ألفت حياتى الجديدة شيئاً فشيئاً • أصبحت المشاهد التى أراها أمام عينى كل يوم لا تحزننى كما كانت تحزننى من قبل • ويمكن أن أقول بايجاز ان السجن وسكانه وعاداته أصبحت تتركنى غير مبال ولا مكترث • صحيح أن التصالح مع هذه الحياة كان أمراً مستحيلاً ، ولكن كان علىّ أن أقبل هذه الحياة من حيث أنها لا محيد عنها ولا مناص منها • دفنت فى أعماق نفسى جميع أنواع القلق التى كانت تهزنى وتبث الاضطراب فى قلبى • • أصبحت لا أطوّف فى أرجاء السجن ضائعاً تائهاً ولا أدع للغم أن يستولى على • وقد قلّ الفضول المتوحش الذى كان يحيطنى به السجناء فأصبحوا لا ينظرون الىّ بتلك الوقاحة المتصنعة التى كانوا ينظرون الىّ بها قبل ذلك • أصبح أمرى لا يعنيهم كثيراً • وقد أرضانى هذا كل الرضى •

صرت أتجول فى الثكنة كأننى أتجول فى منزلى • حتى اذا جاء الليل عرفت مكانى الذى أوى اليه • حتى لقد ألفت أموراً كان تصورها وحده يمكن أن يبدو لى قبل ذلك أمراً لا سبيل الى قبوله • أصبحت أذهب فى

كل أسبوع الى الحلاق أسلمه رأسي ليحلقه لي • لقد كنا ندعى في كل يوم من أيام السبت الى مقر هيئة الحرس بعضاً وراء بعض ، فكان حلاقو الفوج يغسلون جماجمنا بماء الصابون البارد في غير شفقة ولا رحمة ثم يكشطونها بامواسهم المثلمة كشطا • انني ما ان آتذكر هذا العذاب،حتى تسري في جلدي رعشة • على انني لم ألبث أن وجدت دواءً ، فان آكيم آكيمتش قد دلني على سجين من القسم العسكري كان يحلق للهواة بموساه الخاصة ويتقاضى أجره على ذلك كوبكا واحدا • هذا هو مورد رزقه • كان كثير من السجناء يختلفون اليه تحاشياً للحلاقين العسكريين دون أن يكونوا مع ذلك أناساً مترفين • وكان حلاقنا يطلق عليه اسم « الميجـر » لا أدري لماذا ! ولو سألتني عن وجوه الشبه بينه وبين الميجر لارتبكت فما أعرف بماذا أجيب • انني وأنا أكتب هذه الأسطر أرى ذلك « الميجـر » ووجهه الضامر رؤية واضحة • انه شاب طويل القامة كثير الصمت بليد العقل دائم الاستغراق في مهنته • ما كان يرى قط الا وفي يده سير جلدي يسن عليه في الليل والنهار موسى حادة • لا شك أنه قد اتخذ هذا العمل غاية قصوى لحياته • ولقد كان يشعر فعلاً بسعادة عظمى حين يحسن سنّ موساه وحين يجيئه أحد يلتمس خدماته • وكانت صابونه ساخنةً دائما وكانت يده خفيفة جدا كالمخمل ليناً ورفقاً ، وكان هو يزهو بحذقه ويتباهى بمهارته حتى اذا ألقى اليه بأجره ، وهو كوبك واحد ، تناوله غير مقبل عليه ولا حافل به فكأنه كان يعمل شغفاً بالفن لا طمعاً بالأجر •

وفي ذات يوم بينما كان آ ••• ف يتكلم عن هذا الحلاق زلت لسانه فسماه بالميجـر وكان ذلك بحضور الميجـر نفسه من سوء الحظ فاستشاط الميجر غيظاً واستبد به حنق شديد فعاقب الرجل عقاباً صارماً • صاح يقول له وهو يهزه هزاً قوياً على عادته والزبد يرغى في فمه :

ـ هل تعلم يا وغد ما معنى ميجر ؟ هل تدرك يا وغد ما قيمه الميجر؟ فكيف تجرؤ ان تسمى باسم الميجر سجينا حقيرا امامى وبحضورى ؟

وكان آه•ف الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يتفاهم مع انسان كهذا الانسان •

لقد بدأت أحلم باطلاق سراحى منذ أول يوم من أيام اعتقالى • كان الشاغل الوحيد الذى أوثره على غيره هو أن أعد الايام التى سابقاها فى السجن ، اعدها الف مرة ومرة ، بالف طريقة وطريقة • كنت لاأستطيع أن افكر فى شىء آخر • ان كل سجين محروم من حريته لأجل معلوم لا يفعل غير ما افعل • ذلك أمر لا يراودنى فيه شك • لا استطيع ان أقول هل كان السجناء يعدون الايام مثلما أعدها • ولكن جموح أحلامهم وطيش آمالهم واندفاعهم فى الأمنيات كان يدهشنى كثيراً • ان الآمال التى تداعب نفس السجين تختلف اختلافا أساسياً عن الآمال التى يتغذى بها قلب انسان حر طليق • ان الانسان الحر الطليق قد يرجو تحسين أوضاعه او تحقيق مشروع من مشاريعه ، ولكنه بانتظار ذلك يحيا ويعمل • فالحياة الواقعية تجره فى اعصارها ، ولا كذلك السجين : انه يحيا اذا شئتم، ولكن ما من سجين محكوم بالأشغال الشاقة عددا من السنين يسلّم بقدره على أنه شىء حاسم ، على أنه جزء من حياته الحقيقية • تلك غريزة لديه • هو يحس أنه فى غير منزله ؟ هو يحسب أنه فى زيارة ان صح التعبير ؛ هو ينظر الى السنين العشرين التى حُكم عليه بها نظرتَه الى سنتين فى أكثر تقدير ؟ هو واثق من أنه حين يقضى مدة حكمه فى الخامسة والخمسين من عمره لن يكون أقل نضارةً ولن يكون أقل فتوة منه فى الخامسة والثلاثين ؟ هو يحدث نفسه قائلاً : « ما يزال أمامنا زمان طويل نحياه » ، وهو يطرد فى اصرار وعناد الخواطر التى تثبط العزيمة والشكوك التى تفت فى العضد • وحتى المحكوم بالسجن المؤبد يأمل أن يصل فى ذات

يوم أمر من بطرسبرج يقول : «انقلوا فلاناً الى مناجم نرتشنسك وحدّدوا موعداً للافراج عنه • ما أجمل هذا ! أولاً لأن الوصول الى نرتشنسك يستغرق ما يقرب من ستة أشهر ولأن حياة القافلة المتجهة الى مكان من الامكنة تفضل الحياة في السجن مائة مرة ؛ وثانيا لأنه سيقضي فترة الاعتقال في نرتشنسك ثم ••• »

ما أكثر الشيوخ الشيب الذين يفكرون على هذا النحو !

ورايت في توبولسك رجالاً مشدودين الى الجدران بسلاسل • ان طول السلسلة متران • وعلى مقربة منهم مضاجع يرقدون فوقهـا • أنهم يشدّون بهذه السلاسل لجريمه ارتكبوها بعد ترحيلهم الى سيبريا • وهم يلبثون على هذه الحال من التكبيل بالأغلال خمس سنين أو عشرة • جميعهم تقريبا من قطاع الطرق • لم أر بينهم الا واحداً كان يبدو عليه أنه انسان طيب المحتد • كان في الماضي موظفاً في احدى دوائر الدولة • وهو يتكلم بلهجة حلوة ، ويصفر أثناء حديثه ، ويصطنع ابتسامة محببة • لقد أظهرنا على السلسلة التي كبل بها ، وذكر لنا الطريقة المثلى للاضطجاع والرقود لا شك أنه انسان لطيف • ولقد كان جميع هـؤلاء الأشـقياء يسـلكون سلوكاً لا غبار عليه ، حتى لكأن كلاً منهم راض عما كتب له • ولكن الرغبة في انهاء مدة التكبيل تحرقه حرقاً وتأكل نفسه أكلا ، فاذا سألتموني لماذا ؟ قلت لأنه سيخرج عندئذ من زنزانته الواطئة الخانقة الرطبة التي لا تعدو أن تكون نوافذها آجرات منزوعة من أماكنها ، وسيستطيع عندئذ أن يخرج الى فناء السـجن وأن ••• بل هـذا كل شيء فلن يسمح له يوماً بالخروج من فناء السـجن • انه لا يجهل أن جمـيع الذين كبلوا بالسلاسل لن يبرحوا السجن في يوم من الأيام ، وأنه سيقضي في السجن عمره كله ، وأنه سيقضي فيـــه نحبه • انه يعلم ذلك ، لـكنه يتمنى أن يتخلص من سلسلته ؛ وهل كان يمكنه لولا هذا التمني أن يبقى مشدوداً

الى جدار خمس سنين أو ستاً دون أن يموت أو يجن ؟ هل يمكنه أن يقاوم هذا ؟

سرعان ما أدركت أن العمل وحده يستطيع أن ينقذني ، أن يقوي صحتي وجسمي ، على حين أن القلق النفسي المستمر والاهتياج العصبي الدائم ، والهواء المحبوس الموبوء في الثكنة ، سيهدمني تهديما • كنت أحدث نفسي قائلاً : « ان الهواء النقي والتعب اليومي وتعود حمل الاثقال لا بد أن يقويني ، فبفضل ذلك سأخرج من السجن سليما معافى قوى الجسم موفور الحيوية » • ولم يخطيء ظني فان العمل والحركة قد نفعاني كثيراً •

وما أشد ما كنت أشعر به من جزع حين كنت أنظر الى أحد رفاقي (وهو سيد من السادة) فأراه يذوب كما تذوب شمعة ، مع أنه حين وصل الى السجن يوم وصولي انا كان شابا وسيم المحيا قوي البنية صلب العود، حتى اذا خرج من السجن كانت صحته قد تدمرت ، وكان شعره قد ابيض ، وكانت ساقاه قد ضعفتا فما تحملانه ، وكان الربو يخنق صدره خنقا • كنت حين انظر اليه اقول لنفسي : « لا ، انني أريد ان اعيش ، ولسوف أعيش » • ولقد كان من شأن حبي للعمل أن جلب لي في أول الأمر احتقار رفاقي وازدراءهم بي وسخرياتهم اللاذعة مني ، ولكنني كنت لا ألقي بالاً الى هذا ، وكنت أمضي نشيطاً الى حيث أرسل لعمل من الأعمال ، كحرق الرخام ودقه مثلاً • ان هذا العمل كان من أول الاعمال التي عُهد الي بها ، وهو عمل سهل • ولقد كان المهندسون يحاولون جهدهم أن ييسروا العمل على السجناء الذين ينتمون الى طبقة النبلاء • والحق أن ذلك لم يكن من قبل التسامح والمحاباة ، بل كان ضربا من العدالة والانصاف • والا أفلا يكون غريبا أن يكلف بعمل واحد بعينه رجل ألف العمل بيديه ورجل آخر لا تبلغ قواه نصف قوى الأول ولا

عمل بيديه في يوم من الايام : على ان هذا « التدليل » لم يكن مستمرا • حتى لقد كان يتم خفيه لان الرقابه علينا كانت شــديدة • واذ لم تكن الاعمال المضنيه المرهقه نادرة فكثيرا ما كان يتفق ان تكون المهمــه فوق ما تطيقه قوة النبلاء • فكان هؤلاء يلقون من العناء والعذاب ضعفي ما كان يلقاه منهما رفاقهم • كان يرسل لدقّ الرخام ثلاثة رجال او اربعة في العادة ، هم في جميع الاحيان تقريباً شيوخ أو أشخاص ضعفاء ـ ونحن من هؤلاء طبعاً ، يُضم اليهم عامل خبير عارف بالمهنة • وقد ظل يصحبنا الى عملنا هذا شخص واحد خلال عدة سنين هو المازوف • انه رجــل قاسٍ ، مسن ، قد لوحته الشمس ، هزيل هزالاً شديدا ؛ وهو الى ذلك قليل الكلام صعب المراس • كان يحتقرنا احتقاراً عميقاً ، ولكنه يبلغ من قلة التعبير عن دخيلته أنه كان لا يكلف نفسه عناء شــتمنا أو اهانتنا • والسقيفة التي كنا نحرق الرخام تحتها قد بنيت على الشاطىء الوعر المنحدر المقفر من النهر • وكان منظر النهر في الشتاء حزيناً حيث يكثر الضباب • وتبدو الضفة المقابلة عنــدئذ بعيدة بعيدة • ان في هــذا المنظر المتوحش المتجهم الاجرد لشيئاً يقبض الصدر ويمزق القلب ، ولكن المرء يشــعر بمزيد من الحزن حين تشرق شمس ســاطعة فوق هذا السهل الأبيض الممتد الى غير نهاية • ان المرء يتمنى عنــدئذ لو يطير الى بعيد في هــذه السهوب التي تبدأ عند الضفة الأخرى وتمتد الى أكثر من ألف وخمسمائة فرسخ جنوباً ، منبسطة كأنها غطاء واسع • كان ألمازوف يأخذ في العمل صامتاً عابس الوجه مكفهر الأســارير ، وكنا نشعر بالخجل من أننــا لا نستطيع أن نساعده مساعدة ذات بال ، ولكنه كان ينهي عمله وحــده لا يطلب منا عوناً كأنما هو يريد أن يفهمنا ذنوبنا في حقه وأخطاءنا تجاهه وأن يجعلنا نشعر بالحسرة والأسف من أننا أناس لا خير فينا ، ولا فائدة منا • وكان هذا العمل هو اشعال الفرن لحرق الرخام الذي نكوّمه فيه •

حتى اذا احترق الرخام احتراقاً تاماً في اليوم التالى كان علينـا ان نخرجه من الفرن • فكان كل واحد منا يتناول مجرفة ثقيلة فميلا صندوقا من الرخام المحترق ويأخذ يدقه • ان هذا العمل لممتع ، فالرخام الهش سرعان ما يستحيل الى تراب ابيض ساطع • انه يتفتت بسرعة وسهولة • كنا نرفع مطارقنا الثقيلة ونهوى بها على الرخام بضربات رهيبة نعجب بها نحن انفسنا : حتى اذا تعبنا شعرنا بمزيد من الخفه والنشاط • ان خدودنا تحمر وان الدم يتدفق في عروقنا تدفقاً أسرع • وكان ارمازوف يتفضل عندئذ بالنظر الينا متواضعا مترفقاً متلطفاً كانما هو ينظر الى صبيه صغار • وكان يدخن غليونه في هده الاثناء وقد لاح في وجهه الرضى والتسامح دون أن يستطيع منع نفسه من التأفف والتذمر مع ذلك متى فتح أحـــد فمه • وكذلك كان امره مع جميع الناس على كل حال • وأظن أنه في قرارة نفسه رجل طيب شهم •

وقد كُلِّفت أيضاً بعمل آخر هو أن أدير رحى المخرطة • كانت هذه الرحى عالية ثقيلة ، وكان لا بد لى من بذل جهود كثيرة من أجل أن أديرها، لا سيما حين يكون العامل (وهو من عمال ورشات سلاح الهندسة) بصدد صنع درابزين سلم أو قائمة منضدة كبيرة مما يحتاج الى جـــذع شجرة كامل تقريباً • واذ لم يكن في وسع رجل واحد أن ينهض بهذا العمل ، فقد كانوا يرسلون سجينين هما أنا والسجين ب ••• الذي كان ينتمي الى طبقة السادة في الماضي • كان هذا العمل يقع على عاتقنا فيجميع الأحيان تقريباً خلال عدة سنين متى كان هنالك شيء يجب خراطته• وكان ب ••• ضعيف البنية هزيل الجسم ما يزال شاباً ، وكان مصابا بمرض في صدره • لقد سجن قبلي بسنة مع رفيقين آخرين هما من النبلاء أيضاً : فأما الأول فكان يصلي ليل نهار (وكان السجناء يحترمونه احتراما كبيراً بسبب ذلك) • وقد مات أثناء وجودى بالسجن • وأما الثانى فكان فتى

فى ريعان الشباب نضر الوجه زاهى اللون قوى الجسم شجاع القلب قد حمل رفيقه ب ••• * على ظهره مسافة سبعمائة فرسخ لأن رفيقه سقط فى الطريق من شدة التعب بعد نصف مرحلة من مراحل الرحلة • ولذلك كانت صداقتهما وثيقة قوية • ان ب ••• شاب كريم النشاة رفيع التهذيب نبيل الخلق طيب النفس لكن المرض قد أفسد روحه وجعله سريع الغضب شديد الحنق • كنا ندير الرحى متعاونين وكان هذا العمل يشوقنا ويلقى هوى من نفوسنا ، وكنت أعده أنا رياضة ممتازة •

وكنت أحب جرف الثلج حباً خاصاً • وذلك ما كنا نفعله بعد الاعاصير التى كانت تهب كثيرا فى فصل الشتاء ، فاذا هب اعصار من هذه الاعاصير يوما كاملاً دفن عدد من البيوت تحت الثلج حتى النوافذ ، هذا اذا لم يطمر طمرا كاملاً • حتى اذا توقفت الزوبعة وظهرت الشمس من جديد امرنا بنزع الثلج عن المبانى التى غطتها اكوامه • وكنا نرسل الى هذا العمل أفواجا كبيرة وربما أرسل اليه جميع السجناء بلا استثناء • فكان كل منا يحمل مجرفة ، وكان على كل منا أن ينجز عملاً محدداً يبدو له فى كثير من الاحيان أن من المستحيل عليه أن ينجزه الى آخره • كان السجناء يشرعون فى العمل خفافاً نشطين • والثلج لا يكون قد تلبد بعد ولا يكون قد تجلد منه الا سطحه • فكنا نجرفه جرفات كبيرة نبعثرها فيما بيننا وننثرها نثراً فاذا هى تستحيل فى الهواء ذرات ساطعة البريق • المجرفة تغوص بسهولة فى الكتلة البيضاء المتلألئة تحت أشعة الشمس • والسجناء يقومون بهذا العمل فرحين مرحين فى أكثر الأحيان • فهواء الشتاء البارد ينعشهم ، والحركة توقظ نشاطهم • كل واحد يشعر بالبهجة والحبور • وهذه ضحكات وصرخات وأمازيح تُسمع هنا وهناك • والعاملون يتراشقون كرات الثلج ولكن ذلك كان بعد مدة من الوقت يثير استياء العقلاء الرصينين الذين لا يحبون الضحك ولا يؤثرون المرح ،

فلذلك كانت هذه الحماسة التي تشمل السجناء تنتهي في أكثر الأحيان بتبادل الشتائم والمسبات •

واتسعت دائرة أصحابي شيئاً بعد شيء ، رغم انني لم يخطر ببالي قط أن يكون لي أصحاب : لقد كنت دائما قلق النفس كئيب المزاج كثير الشك والحذر • وانما قامت هذه العلاقات وانعقدت هذه الصلات من تلقاء نفسها • ان أول من جاء يزورني انما هو السجين بتروف • واذا قلت « يزورني » فانني ألح على هذه الكلمة • كان بتروف يقيم في القسم الخاص الذي هو أبعد الثكنات عن ثكنتي • والمفروض في ظاهر الأمر أن لا تقوم بيني وبينه أية صلة ، فما من رابطة كانت تجمعنا أو كان يمكن أن تقرب أحدانا من الآخر ومع ذلك فقد اعتقد بتروف خلال الفترة الأولى من اقامتي في السجن أن من واجبه أن يجيء الي كل يوم تقريباً في الثكنة التي قيم فيها او أن يستوقفني على الافل اثناء فترة الراحة التي كنت أقضيها وراء الثكنات ابعد مايمكن أن أكون عن جميع الأنظار •وقد أزعجني الحاحه هذا في أول الأمر ولكنه عرف كيف يتصرف بحيث اصبحت زياراته لي سلوى تسرّي عني رغم أنه لم يكن منفتح النفس منطلق اللسان • هو رجل قصير القامة قوي البنية نشيط الهمة خفيف الحركة حاذق • ان وجهه هو من الوجوه التي يسر مرآها : وجه شاحب اللون ناتيء الوجهتين جريءالنظرةله أسنان بيضاء صغيرة منضّدة؛ وكان يمضغ قطعه من التبغ دائما يضعها بين اللثة والشفة السفلى من فمه (ان كثيراً من السجناء قد ألفوا عادة مضغ التبغ على هذا النحو) • وكان يبدو أصغر سنا من الواقع ، فلو رآه الرئي لما ظن أنه تجاوز من عمره الثلاثين ، مع أنه كان في الأربعين • وهو يحدثني بغير كلفة ولا تحرج ، ويقف مني موقف الند للند ، مع كثير من الأدب واللطف والذوق على كل حال ؛ فاذا لاحظ مثلا أنني أبغي الوحدة والخلوة تحدث الي دقيقتين

انتين ثم لم يلبث أن يتركني وشأني • وكان في كل مرة يشكر لي حسن استقبالي له ومعاملتي اياه ، وذلك أمر ما كان يفعله مع أحد قط • يجب أن أضيف الى هذا أن تلك العلاقات التي قامت بيني وبينه لم تتغير ولم تتبدل لا أثناء الفترة الأولى من اقامتي في السجن فحسب بل أثناء عدة سنين ؛ كما أنها لم تزدد توثقاً وعمقاً في يوم من الأيام رغم أنه كان مخلصاً لي كل الاخلاص حقاً • لم أستطع أن أحدد على وجه الدقة ماكان ينشده من صحبتي ، ولا أن أعرف على وجه الدقة لماذا كان يجيئني كل يوم • ولقد اتفق أن سرقني أحياناً • ولكن ذلك كان « على غير ارادة منه » دائماً • ولم يكن يجيئني قط لاقتراض شيء من مال : معنى ذلك أن ما كان يجذبه نحوي ويشده الي ليس هو المال ولا هو أية منفعة أخرى •

لا أدري لماذا كان يتراءى لي أن هـذا الرجل لا يعيش في نفس السجن الذي أعيش أنا فيه وانما يعيش في منزل آخر ، في المدينة ، بعيدا جدا ، حتى لكأنه يزور السجن مصادفة يستطلع الأخبار ويسال عني ويرى كيف نعيش • انه مستعجل دائماً ، كأنه ترك أحدا لحظة من اللحظات ، وكأن أحدا ينتظره بفارغ صبر ، أو كأنه هجر عملاً من أعماله الى حين فهو حريص على العودة الى العمل يستأنفه بأقصى سرعة • ومع ذلك كان لا يبدو عليه التسرع • ان في نظرته ثباتاً غريباً وتحديقاً عجيباً ، على شيء يسير من جرأة وسخرية • هو ينظر الى بعيد ، من فوق الأشياء ، كأنه يحاول أن يتبين شيئاً وراء الشخص الماثل أمامه ؛ وهو يبدو دائم الذهول • كنت أتساءل في بعض الأحيان : ترى أين يذهب بتروف بعد أن يتركني ؟ وأين ينتظر بفارغ صبر ؟ والواقع أنه كان يذهب الى ثكنة من الثكنات أو الى المطبخ ، بخطى خفيفة فيجلس بجانب المتحدثين يصغي الى حديثهم بانتباه ويشارك في هذا الحديث بحرارة ثم اذا هـو



بتروف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

يسكت لائذاً بصمت مطبق على حين فجأة . ولكن سواء أتكلم أم اعتصم بالصمت ، فان المرء يقرأ في وجهه دائما أن ذهنه منصرف الى مكان آخر وأنه يُنتظر هناك ، في بعيد . وأغرب ما في الأمر أنه لم يكن يشغل نفسه بعمل من الأعمال في يوم من الأيام ، فهو فيما عدا الأشغال التي يحمل عليها في السجن حملاً ، لا يقوم بأي عمل ، بل ينفق وقته عاطلاً فارغا . وكان لا يُحسن أية مهنة ، وكان لا يملك أي مال قط ، ولكن ذلك لا يحزنه ولا يبئسه . فاذا سألتني الآن عمَّ كان يكلمني وفيم كان يحدثني قلت ان حديثه كان غريباً كشخصه . وكان متى لاحظ أنني ماضٍ وحدي الى خلف الثكنات استدار نحوي فجأة ، وتبعني مسرعاً . انه سريع المشي سريع الالتفات دائماً . وها هو ذا يصل اليَّ سائراً بخطى وئيدة ، رغم ما يظهر من أنه كان يركض ركضاً .

ـ نهارك سعيد !

ـ نهارك سعيد !

ـ هل أزعجك ؟

ـ كلا .

ـ أردت أن أسألك عن شيء يتعلق ببونابرت* . أردت أن أسألك أليس يمت بقربى الى ذلك الذي أتى الينا سنة ١٨١٢ ؟ (كان بتروف ابن جندي فهو يعرف القراءة والكتابة) .

ـ هو كذلك .

ـ يقال انه رئيس ، فأي رئيس هو ؟ ورئيس ماذا هو ؟

ان أسئلة صاحبي متعجلة متقطعة دائما ، كأنه يريد أن يعرف ما يسأل عنه بأقصى سرعة ممكنة .

شرحت له رئاسة نابليون ، وأضفت أنه قد يصبح امبراطوراً •

ـ كيف ذلك ؟

أطلعته على ما أعرفه بقدر ما أمكنني ذلك ، فكان يصغي الىّ بانتباه، وأدرك ما قلته له ادراكا تاما ،وأضاف يقول وهو يميل على بأذنه :

ـ هم ••• آ ••• أردت أن أسألك أيضاً يا ألسكندر بتروفتش ، هل هناك حقاً قرود لها أيد تتدلى حتى تصل الى القدمين ، وطولها طول انسان ؟

ـ نعم •

ـ كيف هذه هى القرود ؟

وصفتها له وذكرت له كل ما أعرفه عن هذا الموضوع ؟

ـ أين تعيش هذه القرود ؟

ـ فى البلاد الحارة • يوجد منها فى جزيرة صومطرة •

ـ أهذا فى أمريكا ؟ يقال أن الناس هناك يسيرون على رؤوسهم •

ـ طبعاً لا ••• لعلك تقصد انهم على الوجه الثانى من الكرة الأرضية •

وشرحت له ما هى أمريكا وماهما الوجهان المتقابلان من الكرة الأرضية ، فكان يصغى الىّ بانتباه شديد ، كأنه لم يجئنى الا ليسألنى عن الوجهين المتقابلين من الكرة الأرضية •

ـ آ ••• آ ••• لقد قرأت فى السنة الماضية قصة عن الكونتيسة دولا فالير • كان آريفييف قد جاء بهذا الكتاب من عند العريف • أهى حقيقة أم خيال ؟ ان الكتاب من تأليف دوما •

ـ هى قصة من اختراع الخيال طبعاً •

ـ طيب ، الوداع ، شكراً •

قال بتروف ذلك ثم مضى • والحق أننا ما كنا نتكلم يوماً على غير هذا النحو تقريباً •

لقد سألت عنه • فاعتقد م ••• أن من واجبه أن يحذرني حين علم بهذه العلاقة القائمة بيني وبين هذا الرجل ، وقال فيما قال ان كثيرا من السجناء قد أثاروا في نفسه الكره والاشمئزاز والرعب منذ وصوله الى السجن ؛ ولكن ما من أحد ، حتى جازين ، قد أثار في نفسه من الهلع مثل الذي أثاره بتروف هذا •

قال لي م ••• :

ـ انه أمضاهم عزيمة وأشدهم هولاً • انه لا يتورع عن شيء • ما من شيء يمكن أن يصده عن انقاذ نزوة من النزوات تبدو له في لحظة من اللحظات • انه قد يغتالك اذا خطر بباله أن يفعل • يكفي أن تدور في خلده هذه الفكرة حتى يقدم عليها غير متردد ولا هيَّاب ، فاذا فعل لم يشعر بشيء من الندامة ، وأحسب أنه لا يملك عقله •••

همني هذا الكلام كثيراً ، ولكن م ••• لم يستطع أن يقول لي لماذا يرى في بتروف هذا الرأي • ألا انه لشيء غريب ! لقد ظللت أرى هذا الرجل خلال عدة سنين وكنت أتحدث معه في كل يوم من الأيام تقريباً وكان صادق المودة والاخلاص لي دائماً (رغم أنني لم أدرك سبب ذلك) وفي أثناء ذلك الوقت كله كنت ازداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن م ••• على حق رغم أن الرجل قد التزم في حياته غاية الحكمة والتعقل والاعتدال ولم يصدر عنه فعل شاذ قط ؛ وكنت أزداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن هذا الرجل ربما كان أشد من في السجن بأساً وأصعبهم مراساً وأعزهم على الضبط • لماذا ؟ لا أستطيع جواباً على هذا السؤال •

ان بتروف هذا هو بعينه ذلك السجين الذى أراد أن يقتل الميجر حين نودى لنوقيع العقوبة فيه ، وقد ذكرت كيف أن المجير قد « أنقذ باعجوبة » لانه انصرف قبل توقيع العقوبة بدقيقة واحدة • فى ذات مرة حين كان بتروف جنديا ، قبل وصوله الى السجن ، ضربه كولونيله أثناء التدريب ، وأحسب أنه كان قد ضرب قبل تلك المرة كثيرا ولكنه كان فى ذلك اليوم فى حالة من المزاج لا تبيح له أن يحتمل اهانة أو أن يقبل ايذاءً • فها هو ذا يذبح الكولونيل فى وضح النهار على مرأى من جميع أفراد الكتيبة أثناء التدريب • اننى لا أعرف جميع تفاصيل هذه القصة ، لانه لم يروها لى فى يوم من الأيام • ان هذه الانفجارات لا تظهر فيه طبعاً الا حين تسيطر عليه الغرائز فينقاد لها ويندفع معها • وكانت هذه الانفجارات نادرة • أما فى الأحوال العادية فانه رجل عاقل بل وهادىء • ان أهواءه القوية المستعرة العارمة مختبئة مختفية كأنها الجمر يرقد ساكنا تحت الرماد •

لم ألاحظ فى يوم من الأيام أنه متبجح مزهو مفاخر بنفسه ككثير من السجناء الآخرين •

كان لا يتشاجر الا نادراً • ولم يكن بينه وبين أحد علاقات صداقة ، ربما باستثناء سيروتكين ، وذلك حين تكون به حاجة الى سيروتكين • ومع هذا فقد رأيته فى ذات يوم مهتاجاً اهتياجاً شديداً • كان قد طالب بشيء من الأشياء فمُنع عنه فشعر بأنه أهين ، فأخذ يتشاجر مع خصمه فى هذا الشأن • ان خصمه سجين طويل القامةقوى البنية عريض المنكبين كرياضى ، اسمه فاسيلى أنتونوف ، عُرف بشراسة طبعه وسوء سلوكه وحبه للمشاجرة وميله الى المناكدة والمناكفة • كان هذا الرجل ينتمى الى فئة المحكومين المدنيين ، ولم يكن بالرجل الجبان قط • تصايح الرجلان فقدَّرت أن هذه المشاجرة لابد أن تنتهى الى ما تنتهى اليه أمثالها من المشاجرات من

ـ طيب ، الوداع ، شكراً .

قال بتروف ذلك ثم مضى . والحق أننا ما كنا نتكلم يوماً على غير هذا النحو تقريباً .

لقد سألت عنه . فاعتقد م ... أن من واجبه أن يحذرني حين علم بهذه العلاقة القائمة بيني وبين هذا الرجل ، وقال فيما قال ان كثيرا من السجناء قد أثاروا في نفسه الكره والاشمئزاز والرعب منذ وصوله الى السجن ؛ ولكن ما من أحد ، حتى جازين ، قد أثار في نفسه من الهلع مثل الذي أثاره بتروف هذا .

قال لي م ... :

ـ انه أمضاهم عزيمة وأشدهم هولاً . انه لا يتورع عن شيء . ما من شيء يمكن أن يصده عن انقاذ نزوة من النزوات تبدو له في لحظة من اللحظات . انه قد يغتالك اذا خطر بباله أن يفعل . يكفي أن تدور في خلده هذه الفكرة حتى يقدم عليها غير متردد ولا هيّاب ، فاذا فعل لم يشعر بشيء من الندامة ، وأحسب أنه لا يملك عقله ...

همني هذا الكلام كثيراً ، ولكن م ... لم يستطع أن يقول لي لماذا يرى في بتروف هذا الرأي . ألا انه لشيء غريب ! لقد ظللت أرى هذا الرجل خلال عدة سنين وكنت أتحدث معه في كل يوم من الأيام تقريباً وكان صادق المودة والاخلاص لي دائماً (رغم أنني لم أدرك سبب ذلك) وفي أثناء ذلك الوقت كله كنت ازداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن م ... على حق رغم أن الرجل قد التزم في حياته غاية الحكمة والتعقل والاعتدال ولم يصدر عنه فعل شاذ قط ؛ وكنت أزداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن هذا الرجل ربما كان أشد من في السجن بأساً وأصعبهم مراساً وأعزهم على الضبط . لماذا ؟ لا أستطيع جواباً على هذا السؤال .

لم أفهم لماذا يبقى في السجن ، لماذا لا يهرب ؟ ويقيني أنه ما كان ليتردد عن الهرب أبدا لو أراد ذلك . ان العقل لا سلطان له على أناس مثل بتروف الا بمقدار ما تكون نفوسهم خالية من الرغبة في شيء من الأشياء . حتى اذا شبت في نفوسهم هذه الرغبة لم تحل بينهم وبين تحقيق ارادتهم أية عقبات . اني لعلى يقين انه كان في وسعه أن يفر من السجن بمهارة وحذق خادعا جميع الناس باقيا بلا طعام أسابيع برمتها مختبئا في غابة أو بين أشجار الحلفاء على ضفة نهر . غير أن هذه الفكرة لم تكن قد راودته بعد ، أو هو لا يرغب فيها رغبة تامة . لم ألاحظ فيه قدرة على الحكم الصادق أو الحس السليم . ان أمثال بتروف يولدون مع فكرة تدحرجهم طوال حياتهم ذات اليمين وذات الشمال على غير شعور منهم فيظلون يطوفون هكذا الى أن يلتقوا بشيء يوقظ الرغبة في أنفسهم ايقاظا عنيفا قويا . فاذا التقوا بهذا الشيء لم يبالوا أن يندفعوا اليه ولو كانت رؤوسهم ثمناً له . لقد كنت استغرب في بعض الأحيان كيف يتسنى لرجل كان قد قتل كولونيله لأنه ضُرب ، أن يرقد بغير احتجاج من أجل أن يجلد . لقد كان بتروف يُجلد حين يقبض عليه متلبسا بجرم تهريب الخمرة الى السجن . ذلك أن بتروف ، كسائر من ليس لهم مهنة معينة ، يقوم بتهريب الخمرة الى السجن. لقد كان بتروف يستسلم للجلد كأنه يقبل هذه العقوبة ويرضاها ، وكأنه يعترف بأنه مذنب . ولولا ذلك لكان ارقاده أصعب من قتله . وقد استغربت غير مرة أن يسرقني رغم ما يضمره لي من حب ويحمله لي من عاطفة . كان ذلك يتفق أن يصدر عنه صدور نزوات تراوده من حين الى حين . هكذا سرق في ذات يوم توراتي التي طلبت منه أن يردّها الى مكانها . ولم يكن بينه وبين ذلك المكان الا بضع خطوات ، لكنه التقى أثناء الطريق بمن يشتريها فباعه الكتاب . وسرعان ما أنفق ثمنه في شراء خمرة . لعله كان يحس في ذلك اليوم برغبة شديدة في الشراب

.. وهو انسان اذا اراد شيئا فلا بد ان تتحقق ارادته . ان امرءا مثل بتروف لا يحجم عن قتل انسان في سبيل الحصول على خمسة وعشرين كوبكا لا لشيء الا ان ينفق هذا المبلغ في شرب نصف لتر من الخمرة . وهو في غير هذه الحالة يحتقر مئات الالوف من الروبلات . وقد اعترف لي في ذلك المساء نفسه بسرقته ولكن دون ان تظهر عليه اية علامه من علامات الخجل او ايه امارة من امارات الندم . وانما ذكر الأمر بلهجة بسيطه كل البساطه ليس فيها شيء من الاكتراث او الاهتمام ، كان مافعله حادث عادي . ولقد حاولت أو اؤنبه التانيب الذي يستحقه ، لانني اسفت على توراتي أشد الأسف ، فاذا هو يصغي الى كلامي هادئا هدوءاً كبيراً لا يشعر بشيء من غيظ او حنق ، واذا هو يسلم لي بان التوراة كتاب مفيد جدا ، واذا هو ياسف صادقاً لحرماني من هذا الكتاب ولكنه لايظهر في لحظة من اللحظات اى ندم على أنه سلبني هذا الكتاب وكان ينظر الي أثناء ذلك نظرة فيها من النقه ما جعلني أكف عن تقريعه فورا . لقدتحمل تأنيبي لاعتقاده بأن هذا التانيب أمر لا بد منه ، وبأنه يستحق التقريع على مثل هذا العمل ، وأن من واجبي اذن أن أسبه وأن أشتمه لأسرى عن نفسي ولاتخفف من حزني على فقدي الكتاب ، ولكنه كان في قرارة نفسه يعد هذه الأمور كلها ترهات وسخافات لا بد أن يشعر أي انسان جاد بالخجل من الحديث فيها ؟ بل أغلب ظني أنه كان يعدني طفلاً صغيراً وصبياً غراً لايفقه من شؤون هذا العالم أبسطها . كان يجيبني اذا أنا حدثته في امور آخرى غير الكتب أو العلوم . ولكنه كان يجيبني عندئذ من قبيل التأدب وحده ، وكانت اجابته موجزة مقتضبة . فكنت أتساءل : ترى ما الذي يدفعه الى سؤالي عن الكتب بالذات ؟ وكنت أثناء الحديث أختلس النظر اليه كانما لأتأكد من آنه لا يستهزيء بي ، ولكنني لاحظت أنه كان يصغي الي جاداً كل الجد منتبهاً أشد الانتباه رغم أن هذا الانتباه لايستمر

طويلاً في كثير من الأحيان وكان ذلك يحنقني في بعض الاحوال . ان الاسئله التي يلقيها على واضحه دقيقة دائما ، وان الاجوبة التي كانت تقتضيها هذه الاسئلة لم تكن تدهشه ... اغلب الظن انه كان قد اقتنع اقتناعا حاسما انني امرؤ لا يمكن أن اخاطب كما يخاطب سائر الناس واني لا أفهم سيئا في خارج نطاق الكتب .

انني لعلى يقين أنه كان يحبني . ولقد كان هذا يدهشني كثيراً . ترى هل كان يعدني طفلا ؟ هل كان يعدني رجلاً لم يكتمل نضجه ؟ هل كان يشعر نحوي بذلك النوع من الشفقة التي يشعر بها كل انسان قوي نحو انسان آخر أضعف منه ؟ هل كان يحسبني ... لا أدري ! اني لعلى يقين من أنه كان يشعر نحوي بشفقة ، رغم ان هذه الشفقة لم تمنعه من أن يسرقني . ولا شك أنه حين كان يسرقني كان يحدث نفسه قائلا : « هيه ! يا له من رجل مضحك غريب شاذ ! انه لا يجيد حتى المحافظة على ما يملك » . وأحسب أنه كان يحبني بسبب ذلك . قال لي ذات يوم كأنما على غير ارادة منه :

ـ أنت يا الكسندر بتروفتش مسرف في الطيبة! أنت تبلغ من البساطة والسذاجة أن المرء يشفق عليك حقاً !

وأضاف يقول بعد دقيقة :

ـ لا تحمل كلامي محملاً سيئاً يا الكسندر بتروفتش ، فانما أنا أقوله بحسن نية ...

ان المرء يرى أحياناً في الحياة رجالاً مثل بتروف يظهرون ويؤكدون أنفسهم في لحظة من لحظات الاضطراب أو الثورة فهم يهتدون عندئذ الى النشاط الذي يناسبهم ويجدون العمل الذي يتفق وطبيعتهم . ليس هؤلاء الرجال رجال أقوال ، فهم لا يستطيعون أن يكونوا محرضين أو أن يكونوا

قادة ثورات ، ولكنهم هم الذين ينفـذون ويعملون ، يعملون ببسـاطة ، بغير ضوضـاء ، ينقضـون على الحواجز أول المنقضين ، ويهجمون على العقبات أول الهاجمين ، ويتقدمون الى الأمام حاسرى الصدور لا يمنعهم عن الاقدام تفكير ولا تصدهم عن الاقدام خشية ، والناس جميعاً يسيرون وراءهم ، يسيرون وراءهم سيراً أعمى ، حتى يبلغوا الأسوار، حيث يلقون مصـارعهم فى العادة • لا أظن أن بتروف قد انتهى الى خير : ان حياته مهيأة لخاتمة عنيفة • واذا لم يكن قد مات حتى اليوم فانما يكون مرد ذلك الى أن الفرصة لم تعرض بعد • من يدرى على كل حال ؟ قد يبلغ أقصى الشيخوخة ثم يموت موتاً هادئاً جدا بعد أن يكون قد طوف هنا وهنـاك دون هدف أو غاية • ولكننى أعتقد أن م ••• كان على حق ، وأن بتروف كان أشد من فى السجن بأساً وأصلبهم عوداً وأقواهم شكيمة •

٨

أولو العزم
لوقا

على أولى العزم صعب • انهم نادرون فى المعتقل وفى كل مكان ، يعرفهم المرء من الخوف الذى يوحونه الى النفوس ، ومن الحذر الذى يعاملهم به الناس • ان شعوراً لا يقاوم قد دفعنى فى أول الأمر الى النأى عن هؤلاء الرجال • ولكننى غيرت نظرتى بعد ذلك حتى الى القتلة السفاكين الرهيبين • وهناك رجال لم يقتلوا فى يوم من الأيام ، ولكنهم أشد شراسة من أولئك الذين قتل واحدهم ستة أشخاص • ان هناك جرائم يصعب على المرء أن يتصورها من شدة الغرابة فى اقترافها ؛ وانما أقول ذلك لأن الجرائم التى يرتكبها أفراد من الشعب تكون أسبابها باعثة على الدهشة فى كثير من الأحيان •

اليكم نموذج قاتل يُصادفَ كثيراً : هو رجل يعيش حياة هادئة مسالمة موادعة ، لكن قدره قاسٍ فهو يتألم ويتعذب (هو مثلا فلاح يعمل فى أرض أو قن قد اتخذ خادماً أو واحد من سكان المدن أو جندى فى الجيش) وها هو ذا يشعر فجأة بتمزق فى صدره فلا يطيق صبراً فاذا هو يغمد سكينه فى صدر الشخص الذى يضطهده ، فى صدر الشخص

الذي يناصبه العداء . ان سلوك هذا الرجل يصبح بعدئذ سلوكا شاذا عجيبا يتجاوز كل حد . لقد قتل مضطهده او عدوه ، وتلك جريمة طبعا ، لكن لها تفسيرا . لقد كان هناك سبب دفعه اليها . اما بعد ذلك فان هذا الرجل لا يقتل أعداءه وحدهم بل يقتل اى انسان ، يقتل اول قادم ، يقتل للقتل ، يقتل لكلمة ساءته أو نظرة لم تعجبه ، يقتل ليجمل عدد قتلاه شغفاً لا وتراً ، أو يقتل لا لشيء الا أن يقول : « ابعد عن طريقي » . انه يتصرف تصرف سكران يهذي ، حتى اذا تجاوز هذا الحد المرسوم وانتقل الى الجهة الأخرى لم يبق في نظره شيء يمكن أن يعد مقدساً ؛ وقد يذهل هو نفسه من ذلك و يشده له ، فهو الآن يتخطى كل شرع ويتعدى كل سلطة ويتمتع بالحرية التي خلقها لنفسه طافحة غير ذات حدود ، يجد لذة في ارتجاف قلبه ، في الرعب الذي يحسه، في الهول الذي يشعر به . وهو يعرف أن عقاباً رهيباً ينتظره . لعل احساساته أن تشبه احساسات انسان يميل من أعلى برج على الهوة السحيقة التي يراها فيتمنى أن يلقي بنفسه منكّس الرأس حتى يفرغ من الأمر بأقصى سرعة . يقع هذا لأفراد هم بين الناس أكثرهم مسالمة وموادعة . وليس بندر أن نرى هذا التناقض : ليس يندر أن نرى أناساً كانوا مضطهَدين مروّعين فاذا هم يصبحون حريصين على أن يضطهدوا غيرهم وأن يروّعوا غيرهم بمقدار ما اضطهدهم غيرهم وروّعهم غيرهم . واذا نحن أمام انسان يائس مستميت يجد لذة فيما يلقيه في نفوس الناس من جزع وهلع ويجد سعادة فيما يبعثه في نفوس الناس من اشمئزاز وتقزز ، فهو يندفع في أعمال جنونية من قبيل اليأس وهو في أكثر الأحيان ينتظر عقاباً وشيكاً ويحترق شوقاً الى أن تحل مشكلته ويحدد مصيره وينتهي أمره ، لأنه يحس أن عبء هذا اليأس أثقل من أن يستطيع ظهره وحده أن يحمله . والغريب أن هذا الهياج الشديد وهذا العدوان القوى

يظلان مستولين عليه مستبدين به الى أن ينال العقوبة ، حتى اذا نالها بدا كأن الخيط قد انقطع ، فكأن العقوبة تضع حداً لعذابه ، فاذا هو يهدأ على حين فجأة ، واذا هو ينطفىء ، واذا هو يصبح خرقة رخوة لاتماسك فيها ، بل انه لينهار منذ توقع فيه العقوبة ، فاذا هو يستغفر الناس ويطلب الصفح والعفو من البشر ، حتى اذا صار فى سجن الأشغال الشاقة انقلب شخصا آخر فما يتصور أحد حين يراه أشبه بدجاجة مبتلة أنه قد قتل خمسة رجال أو ستة .

بين هؤلاء المجرمين أناس لا يروضهم السجن بسهولة ، فهم يحتفظون بشيء من المباهاة ، وهم يظهرون كثيرا من الادعاء ، حتى لتسمع أحدهم يقول : « هيه ! اسمع ! ما أنا من تظن ! لقد بعثت الى العالم الاخر بستة ارواح ! » ولكن هؤلاء يرضخون دائماً في آخر الامر . ولقد يسلون أنفسهم من حين الى حين بتذكر ما قاموا به من أعمال جريئة وما اندفعوا فيه من أفعال طائشة ، حين كانوا أناسا يائسين مستميتين ؛ ولقد يحب أحدهم أن يقع على مستمع ساذج فيأخذ يتباهى أمامه بما فعل مختالاً على احتشام ويروى له ما أقدم عليه من أعمال وهو يحاول طبعاً اخفاء رغبته في ادهاش السامع من قصته ويختم كلامه بقوله : « ذلك ما كنت !». ألا ما أرهفه في التعبير عن غروره على حذر واستخفاء ! ألا ما أبرع هذا الاهمال المتواني الذى يظهر عليه وهو يروى قصة كهذه القصة ! ان في اللهجة نفسها وان فى كل كلمة يقولها ادعاءً يعرف كيف يغلفه بالتواضع! ترى أين تعلم هؤلاء الناس هذا كله ؟

وقد أصغيت فى احدى الأمسيات الطويلة من الأيام الأولى التى قضيتها في السجن الى حديث من هذه الأحاديث ، فتصورت بسبب قلة خبرتى ونقص تجربتى ، أن الشخص الذى كان يقص حكايته مجرم جبار ذو طبع من حديد بينما كنت فى ذلك الحين أكاد أزدرى بتروف

وأستخف به • كان الشـــخص الذى يقص حكايته وهو يســـمى لوقا كوزميتش قد أردى ضابطا برتبه ميجر لا لسبب اخر غير المتعة واللذة • ان لوقا كوزميتش هذا هو بين جميع سجناء تكنتنا اقصرهم وانحفهم وقد ولد في الجنوب وكان قنا من الاقنان الذين لا يعمـــلون في الارض بل يعملون خدما في منازل سادتهم • ان فيه حدة وتعاليا ، هو « طائر صغير لكن له منقارا ومخالب » كما يقول المثـــل • والسجناء يعـرفون حقيقة الرجال بغريزة فطروا عليها فكانوا لا يحترمون لوقا هذا الا قليلاً جداه انه سريع التاذى كثير الغرور شديد الكبرياء • كان في ذلك المساء جالساً على سريره يخيط قميصاً ، فلقد كان يعمل في الخياطة ؛ وعلى مقربة منه كان يجلس جاره السجين كوبيلين ، وهو شاب محدود الذكاء بليد الحس غبى العقل ، ولكنه طيب القلب لطيف المعشر ، الى كونه ضـــخم الجسم قوى البنية • كان لوقا يتشـــاجر مع جاره هـــذا في كثير من الأحيان ، ويعامله في استعلاء وتجبر ، ويسخر منه ويستبد به ويطغى عليه ، ولكن كوبيلين لا يلاحظ شيئاً من ذلك كله ، لمـا أوتى من طيب القلب وبراءة السريرة وحسن النية • كان كوبيلين ينسج عندئذ جوربا ، ويصغى الى لوقا بغير اهتمام ؛ وكان لوقا يتحدث بصوت عال وكلام متميز • كان يريد أن يسمعه جميع الناس رغم أنه يتظاهر بأنه لا يخاطب الا كوبيلين • قال وهو يغرز ابرته :

ـ هكذا طُردت من بلدى بتهمة التشرد يا أُخي •

سأله كوبيلين :

ـ من زمان طويل ؟

ـ حين تنضـــج الباسلاء يكون قد انقضى على ذلك عام • وصـــلنا ك •• ف وأودعت السجن • كان حولى دستة من رجال هم جميعا من

روسيا الصغرى أقوياء الجسم أصحاء الأبدان سمان كأبقار ... وهادئون هادئون ... وكان الطعام الذى يقدم الينا رديئا ... كان الميجر يفعل ما يحلو له ... وانقضى يوم ثم انقضى يوم آخر ... لاحظت أن جميع هؤلاء الرجال الأشداء جبناء ... قلت لهم : « أتخافون من حيوان كهذا ؟ ... » . قالوا : « هيا كلمه ان استطعت ! » وانفجروا ضاحكين ، هؤلاء البهائم . سكت ولم أجب .

وأضاف المتحدث يقول وهو يترك كوبيلين ويخاطب الآخرين :

ـ وكان بينهم رجل من روسيا الصغرى تافه مضحك سخيف قد أخذ يقص عليهم كيف حوكم وماذا قال للقضاة وكيف استرحمهم واستعطفهم قائلاً ان له أطفالا وامرأة . انه رجل ضخم الجسم أشيب الشعر . واستمر الرجل يقص على أصحابه حكايته ، فذكر كيف كان هنالك كلب ما ينفك يكتب ويكتب ثم يكتب ... يكتب كل ما كان يقوله المتهم ، وكيف خاطبه المتهم بقوله : « قاتلك الله ... » ... فلم يزد الآخر على أن استمر يكتب ثم يكتب ... وختم الرجل كلامه قائلاً : « فكذلك ذهب رأسى ... ! » .

ـ هات خيطاناً يا فاسيا * ان هذه الخيطان فاسدة .

أجابه فاسيا وهو يعطيه الخيطان التى طلبها :

ـ اليك خيطاناً اشتُريت من السوق .

ـ ان خيطان المصنع أفضل . لقد أرسلنا نيفاليد منذ مدة قصيرة ليشترى لنا خيطاناً من المصنع ، فلا أدرى من عند أية امرأة دنيئة اشترى هذه الخيطان ، انها خيطان رديئة .

قال لوقا ذلك وهو يدخل الخيط فى سم الابرة على ضوء المصباح .

ـ لا شك أنه اشتراها من صاحبته .

ـ من صاحبته حتماً •

قال كوبيلين الذى كان قد نُسي تماماً :

ـ هيه ! والميجر ؟

ولم يكن ينتظر لوقا غير هـــذا السؤال • ومع ذلك لم يشــأ أن يستأنف سرد حكايته فوراً كأن كوبيلين لا يستحق مثل هذا الاهتمــام ، فغرز ابرته بهدوء ، وتربع بتراخ وكسل ، وقال أخيراً :

ـ وطفقت أستفز رفاقي السخفاء وأتحداهم حتى استدعوا الميجر • وكنت فى ذلك الصباح نفسه قد استعرتُ «اللئيمة» (السكين) من جارى وأخفيتها استعداداً للطوارىء • كان الميجر هائجــاً كالمســعور • وصل الميجر • قلت لهم هامسا : « ما هذا أوان الخوف يا أهل روسيا الصغرى. ولكن لا فائدة ! كانت شــجاعتهم قد هبطت الى الأطــراف من راحات أقدامهم • أخذوا يرتجفون • لقــد هرع الميجر سكراناً كل الســكر • قال : « ماذا هنالك ؟ كيف تجرؤن أن ••• ؟ أنا قيصركم أنا ربكم » • فلما قال انه قيصرنا وانه ربنا اقتربت منه مخفياً سكينى فى كمى وقلت له وأنا قترب مزيداً من الاقتراب : « لا يا صاحب النبالة الرفيعة ••• ذلك لايمكن أن يكون ياصاحب النبالة الرفيعة ••• لايمكن أن تكون قيصرنا وأن تكون ربنا » • صرخ الميجر يقول : « ها ••• اذن أنت ••• أنت المحرض ••• » قلت وأنا ما أنفك أزداد اقتراباً منه : « لا يا صــاحب النبالة الرفيعة • كل انسان يعلم وأنت نفسك تعلم أن ربنا تبـّارك وتعالى لا شريك له ••• وأن هنالك قيصراً واحداً لنا وضعه الرب نفسه فوقنــا جميعاً فهو مولانا يا صاحب النبالة الرفيعة وما أنت يا صاحب النبالة الرفيعة حتى الآن الا ميجــر ••• ولست رئيساً لنا الآ بفضل القيصر وبفضل مؤهلاتك » • قال الميجر : « ماذا ؟ ماذا ؟؟ ماذا ؟؟؟ » • لقد أُرتج عليــه

فأصبح لا يستطيع الكلام وأصبح يفأفيء ويثأثيء من فـرط ما أصابه من دهشة • قلت له : « هو كـذلك » • وهجمت عليـه فاغمدت سكينى فى بطنه ، أغمدت السكين كلها ! وقد فعلت ذلك بسرعة ، فما هى الا أن ترنح وسقط على الارض مستديرا على عقبيه • قلت للرفاق بعد ان رميت سكينى : « فارفعوه الان يا رفاق ! » •

ساستطرد الان قليلاً مبتعدا عن قصتى فاقول ان هذه التعابير « أنا قيصركم ، أنا ربكم » وغيرها من التعابير المشابهة كانت تُستعمل كثيراً فى سالف الزمان بكل اسف • كان يستعملها كثير من الضباط • ويجب أن نعترف بان عدد الذين يستعملونها الآن قد نقص كثيرا وربما أصـبح لا يستعملها أحد قط • ولنلاحظ أن أولئك الذين كانوا يختالون هـذا الاختيال ويصطنعون أمثال هذه التعابير انما هم خاصـةً الضباط الذين ارتقوا من رتبة صف ضابط الى رتبة ضابط فاذا بالرتبـة الجديدة تقلب أدمغتهم رأساً على عقب • انهم بعد أن قاسوا عناءً كبيراً وتكبدوا مشاقَ كثيرة يرون أنفسهم على حين فجأة ضباطاً وقادة بل ونبلاء أيضاً ، فاذا هم لأنهم لم يألفـوا ذلك ، يسكرون مما نالوا من ارتقـاء سكراً شديداً ، فيبالغون فى تقدير قوتهم وسلطانهم وجبروتهم • هذا مع مرؤوسيهم أما مع رؤسائهم فانهم يخضعون خضوعاً ذليلاً لا يملك المرء الا أن يثور عليه ويشمئز منه • حتى أن المتملقين المتزلفين منهم يسـارعون الى الاعتراف لرؤسائهم بأنهم كانوا مرؤوسين وبأنهم « لا ينسـون أصلهم » • ولكن هؤلاء هم الطغاة الى غير حد المستبدون الى غير نهاية فى معاملة الخاضعين لهم من الناس • ويجب أن نذكر أنه لا شيء يحنق السـجناء ويغيظهم ويثير حفيظتهم كما يفعل ذلك مثلُ هذا الاسراف • ان الانسان مهما يكن خاضعاً مستكيناً ومهما يكن صابراً مذعناً لابد أن تستثيره وأن تفقده صبره وأن تبث الحقد فى قلبه هذه الخيلاء المتبجحة وهذه الكبرياء الصلفة •

من حسن الحظ أن هذه الأمور كلها قد مضت وانقضت وأصبحت من الماضي الذى أوشك أن ينساه الناس • ويجب أن نذكر أن السلطة العليا كانت فى ذلك الحين تعاقب أولئك المخطئين عقابا صارما • وانى لأعرف أمثلة على ذلك •

ان ما يهيج حفيظة المرؤوسين خاصه انما هو الاحتقار والاشمئزاز الذى يعاملون به • والذين يظنون انهم ليس عليهم الا ان يطعموا السجين وان يرعوه وان يتصرفوا فى كل امر وفقا للقانون ليخطئون أيضاً • فالانسان مهما يصغر شانه ومهما يهبط قدره ومهما تهن قيمته يحب بغريزته أن تحترم كرامته من حيث هو انسان • ان كل سجين يعرف حق المعرفة انه سجين ويعرف حق المعرفه انه منبوذ ممقوت مكروه، ويعرف المسافه التى تفصل بينه وبين رؤسائه • ولكن لا القضبان ولا الأغلال تنسيه أنه انسان فلا بد أن يعامل اذن معاملة انسانية • رباه ! ألا ان فى استطاعة معاملة انسانيه أن تنقذ من الهوة حتى ذلك الذى اختفت من نفسه صورة الله منذ زمن طويل • الا ان « عاثرى الحظ » هم الذين يجب أن يعاملوا معامله انسانيةً قبل غيرهم من الناس ، فذلك هو خلاصهم ، وذلك هو فرحهم • لقد اتفق لى أن صادفت آمرين ينعمون بطبع نبيل وقلب طيب فاستطعت أن أرى مدى ما يحدثون فى نفوس هؤلاء المذلين من تأثير حسن• رب كلمة طيبة يقولونها تبعث روح السجناء بعثاً جديداً فاذا السجناء يفرحون بها كما يفرح الأطفال واذا هم يمحضون رئيسهم حباً صادقاً • ملاحظة أخرى : ان السجناء لا يحلو لهم من رؤسائهم أن يرفعوا الكلفة بينهم وبينهم ، ولايحبون أن يسرف رؤساؤهم فيما يعاملونهم به من طيبة ، ولا يريدون لهؤلاء الرؤساء أن يكونوا سذجا مفرطين فى السذاجة ، ذلك أنهم يحبون أن يحترموا رؤساءهم• انهم ليشعرون بكثير من الاعتزاز مثلاً حين يكون رئيسهم كثير الأوسمة

حسن الهندام مهيب المظهر وحين يحظى رئيسهم بالتقدير والاعتبار في نظر رئيس أعلى وحين يكون قاسياً وقورا عادلاً منصفاً ، وحين يشعر بكرامته شعوراً قوياً • ان السجناء يؤثرونه عندئذ على سائر من عداه ، لأنه يعرف قيمته ، ولا يهين الاخرين أو يسيء اليهم ، لذلك تجرى أموره كأحسن ما تجرى الامور •

سأل كوبيلين بهدوء :

ــ أظن أنك عوقبت على ذلك عقاباً شديداً ؟

ــ هه ••• أما عن العقاب فلا تسل ••• لقد عوقبت عقابا شديداً والحق يقال ، يا رفاق ! ••• هات المقص يا على ! ولكن قولوا : أَلن يكون لعبٌ بالورق هذا المساء ؟

قال فاسيا :

ــ شُرب المال اللازم للعب •• شُرب خمراً فلولا أنه شرب لوجد هنا •••

قال لوقا :

ــ « لولا » ! ان « لولا » هذه تساوى مائة روبل في سوق موسكو •

وعاد كوبيلين يسأل :

ــ فكم كان عقابك يا لوقا ؟

ــ خمسمائة جلدة يا صديقي العزيز •

قال لوقا ذلك ثم أردف يخاطب الآخرين مستخفاً بجاره مرةً أخرى :

ــ حقاً يا رفاق ••• لقد أوشكوا أن يقتلوني ! وحين جلدوني هذه الجلدات الخمسمائة ، احتفلوا بي احتفالاً كبيراً • لم أكن قد جُلدت قبل ذلك اليوم • تجمعت أفواج من الناس • أسرعت المدينة كلها تشهد عقاب المجرم ، عقاب القاتل • ما كان أغبى أولئك الناس ! لا أستطيع أن

أصف لكم غباءهم ! خلع عني تيموشكا (الجلاد) ثيابي ، وأضجعني على الأرض ، وصرخ يقول لي : « استعد ••• سوف أشويك ! » انتظرت • فلما هوى عليَّ بأول سوط وددت لو أصرخ ، ولكنني لم أستطع ••• فانني مهما افتح فمي لا يخرج صوت من حلقي • لقد اختنق صوتي ••• فلما هوى عليَّ بالسوط الثاني ــ صدقوا أو لا تصدقوا ــ فانني لم أسمع صوت العداد قائلاً « اثنين » ••• حتى اذا ثاب اليَّ شعوري بعد مدة سمعتهم يعدون : « سبعة عشر » • وقد فكُّوني أربع مرات حتى يدعوا لي أن أتنفس مدة نصف ساعة ، وحتى يغرقوني بماء بارد • فكنت أنظر اليهم جميعاً وقد كادت عيناي تخرجان من رأسي ، وأقول لنفسي : « سأفطس هنا » •

سأله كوبيلين :

ــ ولم تمت ؟

فألقى عليه لوقا نظرة احتقار ، وانفجر الآخرون يضحكون مقهقهين •

ــ معتوه حقاً •

وكأن لوقا ندم على أنه تنازل فارتضى أن يكلم رجلاً أبله كهذا الرجل ، فها هو ذا يضيف قائلاً :

ــ لا شك أن في الطابق الأعلى من جسمه مرضاً •

فقال فاسيا من جهته مؤيداً :

ــ ان في عقله لوثة •

ومع أن لوقا قد قتل ستة أشخاص ، فما من أحد في السجن قد خاف منه يوماً ، لكنه كان يهوى أن يُعدَّ رجلاً مرعباً •

٩

أشعيا فومتش ـ الحمام
قصة باكلوشين

كانت أعياد الميلاد تقترب • ان السجناء ينتظرونها فى شوق عظيم واهتمام كبير • فلما رأيتهم كذلك أصبحت أنا نفسى أتوقع شيئاً خارقاً • وكان يجب أن نؤخذ الى حمام البخار قبل الأعياد بأربعة أيام فكان السجناء جميعاً سعداء بذلك وكانوا يستعدون • ان علينا أن نذهب الى الحمام بعد الغداء • يحسن أن أذكر فى هذه المناسبة أننا لانعمل بعد الظهر • ولا شك أن الشخص الذى كان بين جميع السجناء أشدهم ابتهاجا وأكثرهم حركة انما هو أشعيا فومتش بومشتاين ، اليهودى الذى تكلمت عنه فى الفصل الرابع من قصتى هذه• كان أشعيا يحب الاستحمام، ويسرف فى المكوث فى الحمام ، الى أن يقع مغشياً عليه فى بعض الأحيان• كلما نبشت كومة ذكرياتى القديمة فتذكرت حمام السجن (الذى يستحق أن لا يُنسى) فان أول وجه يتراءى لى انما هو وجه رفيقى فى السجن، أشعيا فومتش المجيد الذى لا تنسى ذكراه • ما كان أعجبه من انسان يا رب ! لقد سبق أن قلت بضع كلمات عن هذا الرجل : هو فى الخمسين من عمره ، هزيل الجسم ، مغضن الوجه ، على خديه وجبينه ندبات

رهيبة ، أعجف ، نحيل ، شديد البياض ، يشبه أن يكون جسمه جسم صوص . ان وجهه يعبر عن اكتفاء دائم وثقة راسخة لا تتزعزع ، بل لعله كان يعبر أيضا عن غبطه وحبور وسعادة . أحسب أنه لم يكن يأسف قط على أنه اودع سجن الاشغال الشاقة . واذ كان صائغا ، واذ لم يكن في المدينة صائغ غيره ، فانه لم يكن يعوزه العمل . وكان يؤجر على عمله أجراً حسنا . لم يكن في حاجة الى شيء ، حتى لقد كان يعيش حياة غنية ، فهو ينفق عن سعة ، ولكنه لا ينفق مع ذلك كل ما يجنيه من ارباح، بل يقتصد ويوفر ويدخر ، ويقرض السجناء بالربا على رهن . كان يملك سماورا وفراشا ونيرا وصاجين وغطاء . وكان يهود المدينه لا يضنون عليه بحمايتهم ورعايتهم . وكان يذهب في كل يوم من أيام السبت الى الكنيس مخفوراً (وذلك أمر يبيحه القانون) . كان يعيش اذن حياة رغدة مرفهة، ولكنه كان يحترق شوقا الى انقضاء مدة سجنه ، وهي اثنتا عشرة سنة ، من أجل أن «يتزوج» . انه مزيج عجيب مضحك من سذاجة وغباوة ومكر ووقاحة وبساطة وخجل وادعاء وزهو وشراسة . وأغرب ما في الأمر في نظرى أن السجناء كانوا لا يسخرون منه قط . فاذا ناكدوه في بعض الاحيان فانما هم يناكدونه لهوا وعبثاً وضحكاً ، فلقد كان أشعيا فومتش يسرى عنهم ويسليهم ويبهجهم . كانوا يقولون : « ليس عندنا الا أشعيا فومتش واحد ، فلا تمسوه » . وكان هو يزهو بخطورة شأنه وعلو منزلته رغم أنه يدرك حقيقة أمره ، فكان ذلك يروح عن السجناء كثيراً . كان أشعيا فومتش قد دخل السجن دخولاً أشاع بين السجناء كثيراً من الضحك (وقد دخل السجن قبل وصولى ولكن دخوله الى السجن قد وُصف لي بعد ذلك) . ففى ذات مساء ، انتشرت في السجن على حين فجأة شائعة تقول ان يهوديا قد اقتيد الى السجن ، وهو الآن في مقر الحرس ، يُحلق له شعره . ولم يكن في السجن كله يهودى

واحد ، فانتظر السجناء دخوله عليهم بفارغ صبر ، حتى اذا اجتاز الباب الكبير أحاطوا به واحتشدوا حوله • جاء به ضابط الصف الى السجن المدنى فدلّه على مكانه فوق ألواح الخشب • كان أشعيا فومتش يحمل كيساً يضم الأمتعة التى أعطيت له ، ويضم الأمتعه التى يملكها • فوضع كيسه على الأرض ، واتخذ مكانه فوق السرير ، وجلس متربعاً لايجرؤ أن يرفع بصره • أخذ السجناء يضحكون من حوله ويتندرون على أصله اليهودى • وفجاة تقدم سجين شاب فابعد الجمهور واقترب من أشعيا حاملاً بيده سروالاً صيفياً قذراً ممزقاً مهترئاً مرقعاً بخرق عتيقة ، فجلس بجانب اشعيا فومتش وربت على كتفه ، وقال له :

ـ هيه أيها الصديق العزيز ! لقد انتظرتك ست سنين طوال ! أنظر ! كم تقرضنى اذا رهنت عندك هذا السروال ؟

قال له ذلك وعرض عليه أسماله الرثة •

كان أشعيا فومتش يشعر بوجل يبلغ من الشدة أنه لم يجرؤ أن ينظر الى هذه الجمهرة الساخرة ذات الوجوه المشوهة المرعبة المتحلقة حوله دائرةً كثيفة • لم يكن قد نطق بكلمة واحدة من شدة جزعه وهلعه ، فلما رأى الرهن الذى يعرضه عليه السجين الشاب ، ارتعش وأخذ يجس السروال الخلق الرث بهمة ونشاط • حتى لقد اقترب من المصباح ليفحصه فى الضوء • كان كل واحد من السجناء ينتظر ماسيقوله أشعيا •

أردف السجين الشاب يخاطب أشعيا وهو يغمز رفاقه :

ـ هه ؟ هل تقرضنى روبلاً فضة اذا رهنت السروال لديك ؟

ـ روبلاً فضة ؟ لا ••• بل سبعة كوبيكات !

هذه هي الكلمات الأولى التي نطق بها أشعيا فومتش في السجن • فما ان سمعها الحضور حتى ضجوا ضاحكين في قهقهة صاخبة •

قال السجين الشاب :

ـ سبعة كوبيكات ؟ طيب هاتها ••• يميناً انك لمحظـــوظ ! ولكن حافظ على سروالي ، وحذار أن تفسده ، والاّ دفعتَ رأسك ثمناً له •

قال اليهودي بصوت متقطع متهدج وهو يدس يده في جيبه ليخرج منها المبلغ المتفق عليه ، وينظر الى السجناء نظرة فاحصة وجلى :

ـ والفائدة ثلاثة كوبيكات فيكون ديني عليك عشرة •••

كان اليهودي يشعر بذعر رهيب وهلع شـــديد ، ولكن رغبته في اتمام الصفقة الرابحة تغلبت على ذعره وهلعه •

قال السجين الشاب :

ـ الفائدة ثلاثة كوبيكات ••• سنويا ؟

ـ بل شهرياً •

ـ ألا انك لطماع فظيع • ما اسمك ؟

ـ أشعيا فومتش •

ـ طيب يا أشعيا فومتش ! ستفلح هنا أيما فلاح ! الى اللقاء •

عاد اليهودي يفحص مرة أخرى الأسمال التي أقرض على رهنهـا سبعة كوبيكات ، ثم طواها ودسها في كيسه بكثير من العناية • وظل السجناء يضحكون ضحكاً شديداً •

الحق أن جميع السجناء قد أحبوه ، ولم يسيء اليه أحد يوماً ، رغم أنهم أصبحوا جميعاً مدينين له بأموال اقترضوها منه بفائدة باهظة • ولقد كان على كل حال لا يحمل قلبه من الحقد والضـــغينة أكثر مما يحمل

منهما قلب دجاجة • فلما رأى جميع من حوله يلاينونه ويلاطفونه ، أخذ يتصنع الوقار وطفق يتعالى ويتكبر ، ولكن أوضاعه هذه كلها كانت مضحكة سخيفة ، فسرعان ما كان السجناء يغفرونها له فلا يؤاخذونه عليها •

وكان لوقا الذى سبق أن عرف كثيراً من اليهود قبل دخوله السجن يناكده ويناكفه ويغيظه فى كثير من الأحيان ، ولكنه لا يفعل ذلك عن سوء نية وخبث سريرة ، وانما يفعله على سبيل المزاح والتسلية والتفكه ، فهو يداعبه مداعبة كما يداعب المرء كلباً أو ببغاء أو أى حيوان من الحيوانات المدربة • وكان أشعيا فومتش يدرك ذلك فما يستاء قط بل يسرع الى الرد عليه ويكيل له الصاع صاعين •

كان لوقا يقول مثلاً :

ـ سوف ترى يا يهودى ••• لأشبعنك ضرباً •

فيجيبه أشعيا بقوله :

ـ ان ضربتنى ضربة ضربتك عشراً •

فيقول له لوقا :

ـ يا للأجرب الكريه !

فيجيبه أشعيا :

ـ فلأكن أجرب !

فيقول له لوقا :

ـ يا لليهودى المغرور !

فيجيبه أشعيا :

ـ أجرب ! مغرور ! قل ما شئت ، ولكننى غنى أملك مالاً •

ويستمر الحوار •

ـ يا بائع المسيح !

ـ قل ما شئت •

ـ مرحى صاحبنا أشعيا فومتش ! ألا انك لدماغ ! لا تمسوه يارفاق فليس لدينا منه الا واحد !

ـ هيه يا يهودى ! سوف تُجلد وترسل الى سيبيريا •

ـ أنا فى سيبيريا منذ الآن •

ـ سيرسلونك الى مكان أبعد !

ـ أليس الله تعالى موجوداً هناك أيضاً ؟

ـ طبعاً •

ـ ليكن اذن ما يكون • فحيثما يوجد الله والمال يكن كل شىء على ما يرام •

ـ ألا انه لدماغ ، صاحبنا أشعيا فومتش ! دماغ حقاً ! ذلك واضح •••

كذلك كان يصيح السجناء من حوله •

وكان اليهودى يدرك ادراكاً واضحاً أنهم يهزأون به ويتهكمون عليه ، ولكن ذلك كان لا يفقده شجاعته ، فهو ما ينفك يصطنع الجرأة ويتظاهر بالجسارة • وكان المدح الذى يكيله له السجناء يحدث له لذة كبيرة وها هو ذا يأخذ فى الغناء بصوت نحيل يصرُّ فى الثكنة كلها : لا ، لا ، لا ، لا !••• على لحن أبله مضحك ؛ تلك هى الأغنية الوحيدة التى سُمع صادحاً بها طوال مدة اقامته بالسجن • وحين تعرَّف بى حلف لى أغلظ الأيمان أن هذه الأغنية هى اللحن الذى كان يغنيه ستمائة ألف

يهودى من أصغرهم الى أكبرهم حين عبروا البحر الأحمر ، وأن على كل اسرائيلى أن يغنى هذه الأغنية بعد كل انتصار على العدو .

وكان السجناء فى عشية كل يوم من أيام السبت يجيئون الى ثكنتنا من سائر الثكنات ليروا أشعيا فومتش وهو يحتفل بعيد السبت . وكان هو من فرط امتلائه بالغرور الساذج والخيلاء البريئة أن اهتمام الناس هذا به كان يسره ويطربه . ها هو ذا يمضى الى منضدته الصغيرة القابعة فى أحد الأركان فيفرش عليها غطاءً وهو يصطنع مظاهر الوقار والتفيهق والتعالم ثم يفتح كتابا ويشعل شمعتين ويدمدم ببضع كلمات سرية ، ثم يتناول مسوحه المبرقش الذى لا أكمام له والذى كان يعنى بالمحافظة عليه فى قرارة صندوقه ؛ وها هو ذا يعلق بيديه أساور من نحاس ؛ وها هو ذا ينبت على جبينه علبة صغيرة * بواسطة عصبةفكأنها قرن يخرج من رأسه ، ثم ها هو ذا يأخذ أخيراً فى الصلاة والدعاء . انه يقرأ فى بطء ويصيح ويبصق ويتمايل بحركات عنيفة مضحكة. ذلك كله تأمر به طقوس العبادة فى ديانته . وما كان لشىء من هذا كله أن يبعث على الضحك أو أن يبدو غريباً لولا الأوضاع التى يتخذها أشعيا فومتش أمامنا ولولا الهيئات التى يصطنعها وهو يعرض هذه الطقوس على أنظارنا ! وها هو ذا يغطى رأسه بيديه على حين فجأة ويأخذ يقرأ ناشجاً منتحباً . ان بكاءه يزداد قوة ، وانه ليوشك من شدة ألمه أن يرقد على الكتاب رأسه المعصوب نائحا معولا ، ولكنه ما يلبث فى وسط هذه الانتحابات اليائسة أن ينفجر ضاحكاً مقهقهاً على حين بغتة ، ويأخذ ينشد بصوت أحن لحناً مظفراً منتصراً كأنما رققه وأضعفه فيض من سعادة ... كان السجناء فى بعض الأحيان يقولون لأنفسهم : « لا يفهم المرء من هذا شيئاً » . وقد سألت أشعيا فومتش ذات يوم عن معنى هذه الانتحابات وسألته لماذا ينتقل فجأة من مرارة اللوعة الى ظفر السعادة والغبطة . وكان أشعيا فومتش يحب هذه

الأسئلة كثيراً منى ، فسرعان ما شرح لى أن الدموع والانتحابات انما يستثيرها فقد أورشليم ، وأن الدين يأمر بالتأوه والانين ولطم الصدور لهذه الذكرى ، حتى اذا بلغ ذروة الكمد والحزن والكرب كان عليه فجأة ، هو أشعيا فومتش ، أن يتذكر بما يشبه المصادفة (والدين نفسه يأمر بهذا التذكر «الفجائى») أن نبوءة من النبوءات قد وعدت اليهود بالعودة الى أورشليم ، فعليه أن يسارع فوراً الى اظهار فرح طافح ، والى أن يغنى ويضحك ، وأن يتلو صلواته بصوت يعبر عن السعادة ، وأن يسبغ على وجهه أكبر قدر ممكن من الأبهة والنبل •

كان هذا الانتقال المفاجيء من البكاء الى الفرح يسره كثيراً ، وكان تقيده بهذا الواجب يرضى نفسه أشد الارضاء • وقد شرح لى هذه القاعدة الحكيمه من قواعد الدين بابتهاج لم يحاول أن يخفيه • وفى ذات مساء بينما كان أشعيا فومتش مندفعاً فى صلاته دخل الميجر يتبعه ضابط الحرس ويخفره عدد من الجنود ، فسرعان ما اصطف السجناء أمام مضاجعهم ، الا أشعيا فومتش ، فقد استمر يصيح ويتحرك • كان يعلم أن من حقه أن يتعبد ، فما من أحد يستطيع أن يقطع عليه صلاته ، وانه اذا ظل يعول أمام الميجر فليس يجازف بشيء ، وليس يتعرض لخطر • كان يبهجه كثيراً أن يظل يتحرك على مرأى من الرئيس • اقترب منه الميجر حتى صار على بعد خطوة • فأدار أشعيا فومتش ظهره الى المنضدة ، وانتصب واقفاً أمام الميجر ، وطفق ينشد نشيد الظفر محركاً يديه متمايلاً بجسمه ، ملحا على بعض المقاطع ؛ حتى اذا أصبح عليه أن يسبغ على وجهه معنى السعادة والنبل ، فعل ذلك فوراً وهو يغمز بعينيه ويطلق ضحكات مجلجلة ويحنى رأسه متجهاً نحو الميجر • فما كان من الميجر الا أن دُهش فى أول الأمر ، ثم انفجر مقهقهاً ، ووصف أشعيا بأنه « أبله » ، وانصرف بينما استمر اليهودى فى صراخه • وبعد ذلك بساعة،

بينما كان أشعيا يتناول عشاءه ، سألته عمّا كان يمكن أن يفعله لو بدا للميجر آن تثور ثائرته . فاذا بأشعيا يسألني :

ـ أي ميجر ؟

قلت :

ـ كيف ؟ ألم تر الميجر ؟

قال :

ـ لا ...

قلت :

ـ كان ينظر اليك وهو على مسافة قدمين منك . ولكن فوما فومتش أكد لي جاداً كل الجد أنه لم ير الميجر ، لأنه في مثل هذه اللحظة من الصلاة يبلغ من شدة الوجد في العادة انه لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا مما يجري حوله .

وما زلت أرى أشعيا فومتش يتجول أيام السبت في السجن كله محاولاً أن لا يعمل شيئاً كما تأمر الشريعة كلَّ يهودي بذلك . ألا ما أكثر ما كان يروي لي من حكايات لا تصدق ! لقد كان ، كلما عاد من كنيسة اليهود ، يحمل اليَّ أنباء عن بطرسبرج ، ويحمل اليَّ شائعات سخيفة ، مؤكداً أنه عرفها من أبناء ملته في المدينة ، وأن هؤلاء قد استقوها من ينابيعها .

ولكنني أطلت الكلام عن أشعيا فومتش .

لم يكن في المدينة كلها الا حمّامان عامان . فأما الأول ، وصاحبه يهودي ، فقد كان مقسماً الى مقصورات يبلغ أجر المقصورة منها خمسين كوبكاً ، وهو الحمام الذي كان يرتاده أبناء الطبقة الأرستقراطية بالمدينة ؛ وأما الثاني الذي يرتاده أبناء الشعب فهو عتيق وسخ ضيق ، وهو الحمام الذي كان يؤخذ اليه السجناء . كان الجو بارداً والنهار مضيئاً : ان

السجناء ليفرحهم أن يخرجوا من القلعة وان يطوفوا فى المدينة ، فها هى ذى ضحكاتهم واهازيجهم لا تنقطع لحظه اثناء الطريق . وقد صحبتنا سريه من الجند شاكية السلاح . هذا منظر يتسلى به سكان المدينة . فلما وصلنا الى الحمام قسمنا فئتين ، لان الحمام ضيق لا يستوعب جميع السجناء دفعة واحدة ، ففئه تستحم ، وفئة تنتظر دورها فى الحجرة الباردة التى سبق المبخر . ومع ذلك كانت القاعة من الضيق بحيث يصعب على المرء ان يتصور كيف يمكن ان تضم نصف السجناء . لم يبتعد عنى بتروف قيد أنملة . لقد أسرع الىّ دون أن أسأله مساعدتى ، حتى لقد عرض على ان يغسلنى . وهناك سجين اخر من القسم الخاص عرض على خدماته فى الوقت نفسه . انه باكلوشين . ما أزال أتذكر هذا السجين الذى كان يُطلق عليه اسم « الميجر » . لقد كان أكثر رفاقى مرحا وبشاشة . وقد جمعت بيننا الصداقه . ساعدنى بتروف فى خلع ملابسى، لانتى كنت أنفق وقتا طويلاً فى هذا العمل الذى لم أكن قد الفته بعد ولا تعودت عليه . ثم ان البرد فى حجرة الانتظار لم يكن أقل من البرد فى الخارج . انه لمن الصعب جدا على سجين مبتدىء أن يخلع ملابسه ، ذلك أن عليه أن يعرف كيف يحسن نزع السيور الموضوعة تحت السلاسل . ان هذه السيور من جلد طوله سبعة عشر سنتيمتراً ، وهى تُربط فوق الملابس الداخلية تحت الحلقة التى توثق الساق . ان ثمن الزوجين من هذه السيور ستون كوبكاً . ولا بد لكل سجين أن يشترى من هذه السيور زوجين ، لأنه لا يستطيع بدونها أن يمشى ، فان الحلقة لا تحيط بالساق احاطة كاملة دقيقة ، وفى وسع المرء أن يدخل اصبعه بين الحديد واللحم ، لذلك تلطم الحلقة الكاحل وتحكه ، فيكفى أن يمشى السجين يوماً واحداً بدون سيور حتى تجرح ساقه وينزف دمه . لا صعوبة فى نزع السيور ، وانما الصعوبة فى خلع الملابس الداخلية ،

ولا بد لنزع الملابس الداخلية من براعة كبيرة وحذق عظيم . ان على السجين بعد نزع فردة السروال اليسرى أن يُمرّها كلها بين الحلقة والساق ، وأن يعيد امرارها في الاتجاه المعاكس تحت الحلقة . فبذلك تتحرر الساق اليسرى تحرراً تاماً ، ويكون على السجين بعدئذ أن يمرّ فردة السروال اليسرى تحت حلقة الساق اليمنى ، وأن يعيد امرارها ثانية الى الوراء مع فردة السروال اليمنى . وهذه العملية المعقدة تتم ايضا حين تبديل الملابس الداخلية الوسخة بملابس داخلية نظيفة . ولقد كان أول من علمنا ذلك هو كورنيف ، في مدينة توبولسك ، وهو سجين كان زعيم عصابة من قطاع الطرق وحكم بالتكبيل بالسلاسل خمسة أعوام . والسجناء قد ألفوا هذه الرياضة فهم يجرونها في خفة وسرعة. أعطيت بتروف بضعة كوبكات ليشترى صابوناً وليفة . صحيح أن السجناء كانوا يُعطوْن قطعة صابون ، ولكن قطعة الصابون التى كانوا يعطونها لا يزيد حجمها على حجم قطعة النقد من فئة الكوبكين ، ولا يزيد سمكها على سمك شرائح الجبن النحيلة التى تُقدّم بدايةً لوجبة العشاء على موائد أبناء الطبقة المتوسطة في الولائم . كان الصابون يُباع في حجرة الانتظار نفسها ، كما يباع شراب « السبيتين » (المصنوع من عسل وتوابل وماء ساخن) ، وكما تباع أرغفة من خبز أبيض ، وكما يباع الماء الغالى، لأن كل سجين من السجناء لا يأخذ الا قادوساً واحداً من الماء الغالى ، وفقاً للاتفاق المبرم بين صاحب الحمام وادارة السجن ؛ فاذا أراد أحد السجناء أن ينظف جسمه مزيداً من التنظيف كان في وسعه أن يشترى بكوبكين قادوساً آخر يمده اليه صاحب الحمام من كوة مشقوقة في الجدار لهذا الغرض .

ما ان فرغت من خلع ملابسي حتى أمسك بتروف ذراعى قائلاً ان من الصعب علىّ أن أسير بأغلالى ؛ وأضاف ينصحنى وهو يسندنى من

ابطئ كأنني شيخ عجوز : « ارفعها الى فوق ، الى ربلتي الساقين • حذار هنا ! سنجتاز الآن عتبة الباب ! » • خجلت من هذه الرعاية التي يحيطني بها بتروف ، فأكدت له أنني أستطيع أن أسير وحدي ، ولكنه لم يشأ أن يصدقني • كان يرعاني كما يُرعى طفل صغير أخرق ينبغي لكل انسان أن يهب الى مساعدته • ولم يكن بتروف بالخادم قط • ولو قد أهنته لعرف كيف يتصرف معي • وأنا لم أعده بشيء مكافأةً له على خدماته ، ولا هو سألني شيئاً من ذلك ، فما الذي كان يدفعه الى هذه العناية بي وهذه الرعاية لي ؟

حين فتحنا باب المبخر خيِّل اليّ أننا ندخل الجحيم • تصوروا قاعة طولها اثنتا عشرة قدماً وعرضُها مثل ذلك ، وقد حُشر فيها مائة شخص في آن واحد ، أو ثمانون شخصاً على الأقل ، لأن عددنا كان نحواً من مائتين قسموا فئتين • أعمانا البخار • كان السخام والقذارة وضيق المكان ، كان ذلك كله يبلغ حداً لا نعرف معه أين نضع أقدامنا • ذُعرت وأردت أن أخرج • ولكن بتروف لم يلبث أن طمأنني • واستطعنا بعد لأي أن نشق طريقنا نحو المصاطب كيفما اتفق ، متطاولين بخطانا على رءوس السجناء ، راجين اياهم أن ينحنوا حتى يُتاح لنا أن نمر • ولكن جميع المصاطب كانت قد شُغلت • فأعلمني بتروف أن عليّ أن أشتري مكاناً ، وسرعان ما أخذ يساوم في هذا سجيناً كان جالساً على مصطبة قرب النافذة • فقبل السجين أن يتنازل لي عن مكانه لقاء كوبك واحد • أخذ الكوبك من بتروف الذي كان يقبض على الكوبك بيده اذ كان قد أعدَّه سلفا من باب الاحتياط • أخلى لي السجين مكانه ثم انسل من تحتي الى مكان مظلم قذر تراكمت فيه أوساخ علوُّها نصف بوصة على الأقل• حتى الأماكن التي تحت المصاطب كانت غاصةً بالسجناء يتقلبون فيها ويلغطون • أما أرض الحمام فلم يكن فيها خلاء بسعة راحة اليد الا وهو

مشغول بالسجناء الذين يصبون الماء من قواديسهم . فالواقفون يغتسلون ممسكين أوانيهم بأيديهم ، فيتساقط الماء الوسخ من أجسامهم على رءوس القاعدين الحليقة . وعلى المصطبة والدرجات المفضية اليها قد أقعى سجناء آخرون يغتسلون متجمعين على أنفسهم متكومين ، ولكنهم قلة . والسواد الأعظم من السجناء لا يحب الاغتسال بالماء والصابون ، وانما يؤثر البقاء في جو البخار زمناً طويلاً ، ثم يصب المـــاء البارد على الجسم ، فهكذا كانت تستحم العامة من السجناء . وعلى أرض الحمام يرى المرء خمسين ليفة تعلو وتهبط في آن واحد ، تحك أجسام المستحمين فيشعر المستحمون من ذلك بنشوة تشبه أن تكون سكراً . والبخار يزداد في كل لحظـة ، حتى ليصبح الشعور بالحرارة احساساً بالاحتراق . والصراخ والزعيق يرتفعان في كل جهة من الجهات ، ويختلطان بجلجلة الأغلال التي تقرع الأرض ... فاذا أراد بعض السجناء أن ينتقلوا من موضـــع الى آخر تشابكت سلاسلهم بسلاسل أخرى، وصدمت رءوس من يكونون تحتهم، فاذا هم يسقطون ، فيأخذون يشتمون ، واذا هم يجرون الى السقوطمعهم أولئك الذين تعلقوا بهم . ان السجناء جميعا في نوع من ســكر ، وفي حالة من هيجان مجنون . الصرخات والصيحات تتقاطع وتختلط . وعند الكوة التي يُعطى منها الماء الساخن ، يتكدس السجناء تكدسا حتى ليكاد يسحق بعضهم بعضا . والماء الساخن يتدفق فوق رءوس القاعدين على أرض الحمام قبل أن يصل الى حيث ينقل. وكنا نحس اننا أحرار طلقاء، غير أن وجها ذا شاربين هو وجه أحد الجنود ، كان يظهـــر وراء كوة الحجرة أو وراء الباب المشقوق ، من حين الى حين ؟ ان الجندي يحمل بندقيته حرصا على منع حدوث أية فوضى . ان رءوس السجناء الحليقة وأجسامهم التي صبغها البخار بلون كلون الدم تبدو غريبـة مزيدا من الغرابة والشذوذ . فعلى ظهورهم المحمرّة من حرارة البخار تبدو الآن،

بوضوح ظاهر ، الندبات التي خلفتها ضربات السوط القديمة وقد انتعشت الندبات حتى لكأن الجلود قد مزّقت منذ قليل . يا لها من ندبات رهيبة ! ان قشعريرة شديدة تسري في جسمي متى نظرت اليها ! وازداد البخار، فأصبحت قاعة الحمام مغطاة بسحاب كثيف محرق فيه يضطرب كل شيء ويصرخ ويزعق . ومن هـذا السحاب تخرج جلود ممـزقة ورءوس محلوقة وأذرع ملتوية وسيقان محنية . واكمالاً للوحة ، كان آشعيا فومتش يعول ملء صدره فرحاً فوق أعلى مصطبة . انه يلبث في البخـار زمناً طويلاً من شأنه أن يجعـل أي شخص آخر يسقط مغشياً عليه ، ولكن أشعيا فومتش لا يكتفي بأية درجة من درجات الحرارة . وقـد استأجر سجيناً يفرك له جسمه بالليفة لقاء كوبك واحد ، غير أن الرجل لم يطق صـبراً ، فما هي الا لحظة حتى رمى الليفة وأسرع يصب على جسمه ماءً بارداً . لم ييأس أشعيا فومتش ، فها هو ذا يستاجر سـجينا ثانياً ، فثالثاً . ان أشعيا فومتش لا يبالي النفقات في مثل هذه الأحـوال ، حتى لقد يستأجر لفرك جسمه خمسة رجال واحداً بعد آخر . وها هم أولاء السجناء يهتفون قائلين له : « يا لهذا الفتى الشجاع أشعيا فومتش ، كم يحب الاستحمام ! » . ويشعر اليهودي هو نفسه أنه تفوق على سائر السجناء ، وأنه « غلبهم » ... فما هي الا أن يشعر بهذا الانتصار حتى ينطلق صادحاً بصـوته الحاد ، مترنماً بأغنيته : لا ، لا ، لا ، لا ... ، مغطياً بغنائه كل ما في الحمام من ضجة وجلبة . قلت لنفسي : « لو حشرنا معاً في الجحيم ، لكان وجودنا في الجحيم كوجودنا في هذا المكان . » ولم أستطع أن أقاوم الرغبة في نقل هذه الفكرة الى بتروف : فنظر بتروف حواليه ولم يجب بشيء .

وددت لو أستأجر لصاحبي بتروف مكاناً الى جانبي ، ولكنه قعـد

عند قدمىّ وأعلن لى أنه مرتاح كل الارتياح • وفى أثناء ذلك اشترى لنا باكلوشين ماءً ساخناً ، فكان يحمله الينا كلما احتجنا الى ماء ساخن • وأعرب لى بتروف عن رغبته فى أن يغسلنى من القدمين الى الرأس حتى أصبح « نظيفاً كل النظافة » • وحضنى على أن ألبث فى البخار زمناً • ولكننى لم أعزم أمرى على ذلك • فأخذ يفرك جسمى كله بالصابون • فلما انتهى من ذلك قال : « والآن سأغسل قدميك الصغيرتين » ، فاردت أن أجيبه بأننى أستطيع أن أغسل نفسى بنفسى ، ولكننى لم أعاوضه بل استسلمت لارادته • لم يكن فى قوله « قدميك الصغيرتين » شىء من مذلة • ان بتروف لا يستطيع أن يسمى قدمىّ باسمهما ، لأن جميع الرجال العاديين لهم أقدام ، أما أنا فليس لى قدمان بل « قدمان صغيرتان » ! ••

فلما فرغ بتروف من غسلى مرة ثانية أعادنى الى الحجرة الخارجية وهو يسندنى من ذراعى وينبهنى عند كل خطوة ، كما لو كنت من خزف • وأعاننى على لبس ثيابى ، حتى اذا انتهى من تدليلى هذا التدليل كله ، اندفع الى الحمام ليستحم هو أيضاً •

فلما وصلنا الى الثكنة قدمت اليه فنجاناً من الشاى فلم يرفضه بل حساه وشكره لى • وخطر ببالى أن أنفق ثمن قدح من الخمرة تكريماً له • فوجدت خمرة فى ثكنتنا نفسها • فما كان أشد سروره بذلك ! أفرغ الخمرة فى جوفه ، وتنحنح رضى واغتباطاً ، وقال لى اننى رددته الى الحياة ، ثم مضى مسرعاً الى المطبخ ، كأنما لا يمكن أن يُقرَّر فى المطبخ شىء بدونه • فما ان غاب حتى جاءنى محدِّث آخر : انه باكلوشين الذى سبق أن تكلمت عنه ، وكنت قد دعوته أيضاً الى فنجان من الشاى•

لا أعرف خُلقاً أدمث من خلق باكلوشين • والحق أنه لم يكن يغفر لأحد شيئاً ، حتى لقد كان يتشاجر مع الناس كثيراً ، وكان لا يحب

أن يتدخل أحد في شئونه خاصة • الخلاصة أنه كان يعرف كيف يدافع عن نفسه • ولكن مشاجراته كانت لا تطول • وأعتقد أن جميع السجناء كانوا يحبونه • وكانت تُحسن وفادته حيثما ذهب • وحتى فى المدينة كان يعد الطف انسان • انه فتى فارع القامة ، فى الثلاثين من عمـره ، له وجه ينم عن ذكاء وحزم ، وهو بلحية ذقنه وسيم الطلعة جميل المحيّا • وكانت له موهبة فذة هي القدرة على تشـويه وجهه تشـويهاً يبلغ من الاضحاك في تقليد أول قادم أن الحلقة التي تحيط به ما تلبث أن تنفجر في قهقهة شديدة • انه ممثل هزلي بفطرته • ولكنه يرفض أن يسيء اليه اولئك الذين يصطنعون الاشمئزاز ولا يحبون أن يضحكوا • لذلك لم يكن يتهمه أحد بانه امرؤ « لا فائدة منه ولا دماغ له » • كان باكلوشين يفيض حياة وناراً • وقد تعرف اليّ منذ الأيام الاولى ، فقص عليّ سيرة حياته العسكرية جندياً في كتيبة الرواد حيث لاحظه وعني به اناس من أعلى الرتب • وسرعان ما ألقى عليّ عدة أسئلة عن بطرسبرج• حتى لقد كان يقرأ كتباً • فلما جاء فى هـذه المرة يحتسى الشاى عندى أضحك جميع من فى الثكنة اذ روى كيف أساء الليوتنان ش ••• معاملة الميجر في الصباح • وأنبأني مبتهجاً وهو يجلس الى جانبى أن من الجائز أن تقام في السجن حفلة تمثيلية • ان في نية السجناء أن يمثلوا مسرحية أثناء أعياد الميلاد ، وقد عثروا على الممثلين اللازمين ، وهم الآن بسـبيل اعداد « الديكور » شيئاً بعد شيء • وقد وعدهم بعضُ الأشخاص فى المدينـة باعارتهم ثياب نساءٍ للتمثيل ، حتى أن هناك أملاً في الحصول على بزة ضابط بواسطة خادم من خـدم الضباط ، مع ما على البزة من شـارات مذهبة ، اللهم الا أن يخطر ببال الميجر أن يمنع اقامة الحفلة كما منعهـا في السنة الماضية ! لقد كان الميجر فيالسنة الماضية معتكر المزاج لأنه خسر فيالقمار، هذا عدا أن شيئاً منالشغب كان قد حدث في السجن، فاذا هو

يمنع كل شيء في سورة من الغضب والاستياء . ولعله لن يحب أن يمنع اقامة حفلة تمثيلية في هذا العام . كن باكلوشين متحمساً ، وكان من الواضح انه أحد المحرضين الأوائل على اقامة المسرح المرتقب . ولقد قررت بيني وبين نفسي أن أحضر المسرحية . ان الفرح الشديد الذى ظهر على باكلوشين أثناء حديثه عن هذا المشروع قد أثّر في قلبي تأثيراً قوياً . وشيئاً فشيئاً أصبحنا نتصارح ونتكاشف ، فذكر لي فيما ذكر أنه لم يخدم في بطرسبرج فحسب ، وانما أُرسل أيضاً الى مدينة ر ... برتبة صف ضابط مع فصيلة من الجيش ، ثم أضاف الى ذلك قوله :

ـ ومن هناك انما أُرسلت الى هنا .

سألته :

ـ لماذا ؟

فأجاب :

ـ لماذا ؟ انك لن تحزر السبب يا ألكسندر بتروفتش ! لقد أُرسلت الى هنا لأنني عشقت ...

فقلت له ضاحكاً :

ـ دعك من هذا الكلام ، فما أحد ينفى لمثل هذا السبب .

فقال باكلوشين :

ـ الحقيقة انني بسبب ذلك الغرام قد قتلت هنـــاك ألمانيا بطلقة من مسدس . ولكن هل يستحق ألماني أن أُحكم من أجله بالأشغال الشاقه في المنفى ؟ انني أحتكم اليك ...

ـ كيف وقع هذا ؟ اقصص عليّ القصة ، فلا شك أنهـــا قصـة شائقة .

ـ هي قصة مضحكة يا ألكسندر بتروفتش !

ـ هلاّ قصصتها على ؟

ـ أتريد ذلك ؟ اصغ اذن الىّ ...

وأصغيت الى قصة القتل ؟ ما هى بالقصة « المضحكة » ، وانما هى فى الحقيقة قصة عجيبة جداً ...

بدأ باكلوشين يروى قصته :

ـ اليك القصة ... كنت قد أرسلت الى ريجا ، وهى مدينة كبيرة جميلة لا يعيبها الا شيء واحد هو كثرة الألمان فيها . كنت ما أزال شاباً، و كان رؤسائى يقدروننى ويثنون علىّ . كنت أتبختر جاعلاً قبعتى مائلةً على رأسى حتى الاذن ، وكنت اقضى وقتى فى متعة وبهجة . وكنت اغازل الفتيات الألمانيات ، فأعجبتنى احداهن اعجاباً شديداً ، وكان اسمها لويزا . انها تعمل مع عمتها فى تنظيف الملابس الراقية وكى الثياب الانيقة . فأما العمة فكان شكلها أشبه بصورة كاريكاتورية ، وكانت تملك مالاً وفيراً . لم أزد فى أول الامر على المرور تحت النوافذ ، ولكن سرعان ما انعقدت الصلة بينى وبين الفتاة . كانت لويزا تجيد الكلام بالروسية ، على لكنة يسيرة . وكانت بارعة الجمال فاتنةً لم أصادف نظيراً لها فى حياتى . استعجلتها فى أول الأمر بحرارة وقوة ، ولكنها قالت لى : « لا يا ساشا ، لا تطلب منى هذا ، فاننى أريد أن أحتفظ ببراءتى ، لأكون زوجة جديرة بك ! » . وكانت لا تنى تلاطفنى وهى تضحك ضحكاً صافياً صريحاً ... وكانت طاهرة كل الطهارة ، أؤكد لك ذلك ! ... وقد حرضتنى هى على زواجها ... فكيف لا أتزوجها ؟ هلاّ قلت لى كيف أرفض أن أتزوجها ؟ وهأنذا أتهيأ للذهاب الى الكولونيل حاملاً طلب الموافقة على ذلك . وفجأة أخلفت لويزا الموعد ، مرةً أولى ، فمرة ثانية ، فمرة ثالثة ... بعثت اليها برسالة ... فلم تجب ... قلت لنفسى: « ما العمل ؟ لو كانت تخدعنى ، لو كانت تخوننى لكان فى وسعها أن تذر

الرماد في عيني فتجيء الى الموعد » . ولكنها كانت لا تعـرف الكذب . لا شك في انها قطعت صلتي بها اذن . هـذا كل ما في الامر . حدثت نفسي قائلا : « تلك حيلة دبرتها عمتها » . لم أجرؤ أن اذهب الى العمة. فرغم انها كانت على علم بعلاقتنا ، فقد كنا نتصرف تصرف من يجهل انها على علم بهذه العلاقة ... أصبحت كمن مسّه جن ... كتبت لهـا رسالة اخـيرة قلت فيها : « اذا لم تأتي ، فساذهب الى العمة بنفسي » . فخافت وجاءت . وها هي ذي تطفق تبكي ، وتقص عليّ أن آلمانيا اسمه شولتس ، وهو يمت اليها بقربى بعيدة ، ويعمل مصلح ساعات ، كما أنه متقدم في السن ولكنه غني ، قد اظهر رغبته في تزوجها من أجـل أن يسعدها على حد تعبيره ، ومن أجل ان لا يبقى بغير زوجة اثناء شيخوخته؛ وان هذا الألماني كان يحبها منذ زمن طويل وأنه قد منّى نفسه بهـذه الفكرة سنين كثيرة ، ولكنه صـمت ولم يعزم أمره على مكاشفتها ؛ ثم ختمت كلامها بقولها : « هأنت ذا ترى يا ساشا آن سعادتي رهن بهـذا الزواج لان الرجل غني . فهل تريد ان تحرمني من سعادتي ؟ » نظرت اليها ... انها تبكي ، وتقبلني ، وتعانقني ...

قلت لنفسي : « ألا انها لعلى حق ! فأية فائدة تجنيهـا من تزوج جندي ، حتى ولو كان عريفاً ؟ » ثم قلت لها : « طيب يا لويزا ! وداعاً.. حماك الله ورعاك ! ليس من حقي أن أحرمك من سعادتك ... ولكن قولي لي كيف هو الرجل ؟ أهو جميـل ؟ » ، فاجابت : « لا ... أنه مسن ، ثم ان أنفه طويل » حتى لقد انفجرت ضاحكة . تركتها . وقلت لنفسي : « هيّا ... لم يكتب لي هذا الحظ » . وفي الغداة مررت بالقرب من دكان شولتس (كانت قد ذكرت لي الشارع الذي يقيم فيه) ، ونظرت من خلال الزجاج ، فرأيت ألمانياً يصلح ساعة . انه في نحـو الخامسة والأربعين من عمره ، له أنف أقنى ، وعينان منتفختان ، وهـو يرتدي

فراكاً ذا ياقة قائمة عالية جداً . بصقت حين رأيته احتقاراً : كنت في تلك اللحظة مستعداً لأن أحطم زجاج واجهة دكانه . ولكنني قلت لنفسي : « ما فائدة هذا ؟ لم يبـــق لى فى الأمر حيلة ! لقد انتهى كل شيء ! » . وصلت الى الثكنة مع هبوط الليـــل ، واستلقيت على مضجعي ، وطفقت انتحب وأنتحب . هل تصدق هذا يا ألكسندر بتروفتش !

وانقضى يوم فيوم ثان فيوم ثالث . أصبحت لا أرى لويزا . ومع ذلك علمت من عجوز تعمل فى تنظيف الملابس وكيها هى أيضاً ، وكانت حبيبتي تذهب اليها في بعض الأحيان ، علمت آن هذا الألماني كان يعرف حبنا وأنه لهذا السبب قد قرر أن يتزوجها بأقصى سرعة ممكنة ، ولولا ذلك لكان يمكن أن ينتظر سنتين . ولقد أجبر لويزا على أن تحلف له آن لا تلقاني أبداً . وعلمت أن الألماني يسيىء معاملة لويزا وعمتها ، وأنه قد يغير رأيه فينكص على عقبيه وينكل عن الزواج . وقالت لى العجوز أيضاً انه دعاهما الى تناول الشاى فى منزله غداة غد ، وهو يوم أحد ، وان قريباً آخر قد يأتي أيضاً وهو رجل كان فى الماضى تاجراً وأملق الآن املاقاً شديداً فأصبح يعمل مراقباً فى مستودع للخمور . فلما عرفت أنهم سيبتون فى هذا الأمر يوم الأحد بلغت من الغضب أنني لم أستطع أن أسترد هدوئي . ولم أزد فى ذلك اليوم وفى اليوم الذى يليه على أن أفكر وأفكر . لقد كان يمكن لو رأيت ذلك الألماني أن ألتهمه التهاماً فيما أظن .

فى صباح يوم الأحد لم أكن قد قررت شيئاً بعـــد ، ولكن ما ان انتهيت من سماع القداس حتى خرجت راكضاً فألقيت عليّ معطفى وذهبت الى ذلك الألماني . كنت أقدر أن أراهم جميعاً هناك . أما لماذا ذهبت الى الألماني وماذا كنت أريد أن أقول فذلك أمر لم أكن أعرف عنـه شيئاً أنا نفسى . وقد دسست فى جيبى مسدساً من باب الاحتياط ، وهو مسدس

صغير حقير له زناد على الطراز القديم ؛ لقد كنت أستخدمه فى الرمى أيام الطفولة ، وهو الآن لا يصلح لشىء ، ومع ذلك حشوته رصاصاً ، لاننى قدَّرت أنهم قد يطردوننى وأن هذا الألمانى قد يُغلظ لى القول وأننى قد أطلق رصاص مسدسى عندئذ من أجل أن أخيفهم جميعاً • وصلت • كان السلم خالياً • انهم جميعا فى الحجرة التى تقع خلف الدكان • وما من خادم • كانت الخادم الوحيدة غائبة • عبرت الدكان ، فرأيت الباب مغلقاً ، وهو باب عتيق يدعمه رتاج • أخذ قلبى يخفق • توقفت وأصغيت: انهم يتكلمون بالألمانية • رفست الباب بقدمى ، فانفتح ، ونظرت ، فرايت المائدة مبسوطة • كان عليها ابريق قهوة كبير تغلى القهوة فيه فوق سراج يشتعل بالكحول • وكان على المائدة بسكويت ؛ وعلى صينية أخرى كانت توجد قارورة خمرة وأسماك مجففة وسجق وزجاجة نبيذ • ان لويزا وعمتها ترتديان ثياب يوم الأحد ، وهما جالستان على الأريكة • وأمامهما كان الألمانى مسترخياً على كرسى وقد بدا عليه ما يبدو على خطيب ، فهو مصفف الشعر يرتدى فراكاً ويتزين بياقة عالية • وفى الجهة الأخرى كان يجلس ألمانى ثان هو شيخ منذ الآن بدين الجسم أشيب الشعر • انه صامت • اصفرت لويزا اصفرارا شديداً حين دخلت ، ونهضت العمة عن مقعدها بوثبة سريعة ثم ما لبثت أن عادت تجلس • وغضب الألمانى ، فها هو ذا يقوم ويهب الى لقائى قائلاً :

ــ ماذا تريد ؟

كان يمكن أن أرتبك لولا أن شد الغضب أزرى • قلت :

ــ ماذا أريد ؟ هلا أحسنت وفادة ضيف فسقيته قليلا من الخمرة ؟ أنا انما جئتك زائراً •••

فكَّر الألمانى لحظة ثم قال لى :

ـ اجلس •

جلست •

ـ اليك خمرة فاشرب •

ـ هلا أعطيتنى من جيد الخمرة !

وكان غضبى يزداد استعاراً ••

قال :

ـ هذه خمرة جيدة •

رأيت أنه ينظـر الىّ من أعلى الى أدنى ، فأثار هـــذا حنقى اثارة رهيبة • وكان أنكى ما فى الأمر أن لويزا ترى هـــذا المشهد • شربت وقلت له :

ـ هيه يا ألمانى ! لماذا تغلظ لى القول ؟ يجب أن نتعارف فأنا قـد جئتك صديقاً •

أجاب الألمانى قائلاً :

ـ لا يمكن أن أكون صديقك ، فما أنت الاّ جندى •

ثارت عندئذ ثائرتى فصحت أقول :

ـ أيها الحقير ! يا آكل السجق ! هل تعلم أن فى وسعى أن أصنع بك ما أشاء ؟ هل تريد أن أحطم رأسك بهذا المسدس ؟

قلت ذلك وأنا أسل مســـدسى وأنهض من مكانى وأضع فوهة المسدس على صدغه • أصبحت المرأتان أقرب الى الموت منهما الى الحياة• انهما لا تجرؤان أن تتنفسا • وأخذ الشيخ يرتجف كورقة فى مهب الريح وقد شحب لونه شحوباً شديداً •

دهش الألمانى ، ولكنه سرعان ما ثاب الى نفسه فقال :

ـ لست أخاف منك • وأنا أرجوك كرجل مهذب أن تكف فوراً عن هذا المزاح • أنا لا أخاف منك قط •

ـ كذاب • انك خائف • انظروا اليه ! انه لا يجرؤ أن يحرك رأسه من تحت المسدس •

قال :

ـ لا ••• أنت لا تجسر أن تفعل هذا !

ـ لماذا لا أجسر أن أفعله ؟

ـ لأنه ممنوع منعاً باتاً ، ولأنك ان فعلته عوقبت عقاباً قاسياً !

يا لهذا الألمانى الأحمق ما كان أغباه وما كان أشد بلاهنه ! فلولا أنه دفعنى الى قتله دفعاً لبقى الى الآن حياً •

قلت له :

ـ أنت تعتقد اذن أننى لن أجرؤ ؟

ـ لن تجرؤ •

ـ لن أجرؤ ؟

ـ لن تجرؤ أن •••

ـ طيب خذها اذن يا سجق !

قلت ذلك وأنا أطلق رصاص مسدسى فاذا هو يتهاوى على كرسيه• وصرخ الآخرون •

أعدت مسدسى الى جيبى • وحين رجعت الى القلعة رميته فى الأعشاب قرب الباب الكبير •

وصلت الثكنة واستلقيت على مضجعى وقلت لنفسى : « سيقبض علىَّ فوراً » • انقضت ساعة وانقضت ساعة أخرى ولم أعتقل • وعند

المساء استبد بي حزن شديد وغم ثقيل . فخرجت . كنت أريد أن أرى لويزا مهما كلف الأمر . مررت أمام منزل الساعاتي ، فرأيت حشدا كبيراً من الناس ورأيت شرطة ... أسرعت الى بيت المرأة العجوز وقلت لها : « نادي لويزا » . فما هي الا لحظة حتى كانت لويزا ترتمي على عنقي باكية وتقول لي : « الذنب ذنبي فقد أطعت عمتي » . وذكرت لي لويزا أن عمتها قد رجعت الى الدار رأساً بعد ذلك المشهد وأنها قد بلغت من شدة الخوف أنها مرضت ، وأنها لم تنبس بكلمة واحدة . ولم تش العجوز بأحد ، حتى أنها أمرت ابنة أخيها بأن تسكت وان تكتم كل شيء ، لأنها كانت خائفة ؛ وقالت لويزا : « فليفعلوا ما يشاءون . ما من أحد رآنا منذ وقع الحادث » . كان الساعاتي قد صرف خادمته لأنه يخافها كما يخاف النار ، فلو علمت أنه يريد أن يتزوج لفقأت عينيه . ولم يكن في الدكان أي عامل ، فان الساعاتي قد أبعد جميع العمال . لقد تولى بنفسه اعداد القهوة والوجبة . أما قريبه فهو امرؤ صامت طوال حياته . لذلك تناول قبعته دون أن يفتح فمه ، وانصرف أول المنصرفين. أضافت لويزا تقول : « أنا على يقين من أنه سيظل صامتاً » . وذلك ما حدث . انقضى أسبوعان ولم أعتقل ، ولا اشتُبه فيّ قط . وكان هذان الأسبوعان كل سعادة حياتي ! صدّق أو لا تصدق يا ألكسندر بتروفتش ! أصبحت ألقىْ لويزا كل يوم ، فما أشد ما تعلقت بي ! كانت تقول لي وهي تبكي : « اذا نفيت فلأذهبنّ معك ! لأتركنّ كل شيء في سبيل أن أتبعك » . فكان هذا يفطر قلبي شفقة . وقُبض علي بعد أسبوعين . لقد اتفق الشيخ والعمة على أن يبلغا عني ويشيا بي .

قلت مقاطعاً :

ـ ولكن اسمع يا باكلوشين ! من أجل هذا الأمر لا يحكم أحد الا بعشر سنين أو باثنتي عشرة سنة ، ذلك هو الحد الأقصى للعقوبة ؛

ويسجن الجانى فى القسم المدنى فمالى أراك فى « القسم الخاص » ؟ ما سبب ذلك ؟

قال باكلوشين :

ـ تلك قضية أخرى ، فحين اقتادونى الى المجلس الحربى ، أخذ النائب العام وهو برتبة رائد يهيننى أمام المحكمه ، ويقول لى الفاظاً نابية، فلم اطق صبراً ، فصرخت أقول له : « لماذا تشتمنى ايها الوغد ؟ الا ترى أنك امام «مراة عدالة» ؟ » * فكان أن رفعت على قضية اخرى واعيدت محاكمتى للجـــرمين كليهما فحكم على باربعة الاف جـلدة وبايداعى « القسم الخاص » . ويجب ان أذكر لك انه حين جىء بى الى الشارع لتلقى العقوبة قد جىء بذلك الضابط ايضا ، وكان قد حكم بتجريده من رتبته العسكرية وبارساله الى القـوقاز جندياً بسـيطا ، وذلك لجـــرم اقترفه . الى اللقاء يا ألكسندر بتروفتش : لا تتخلف عن حضور حفلتنا التمثيلية .

١٠

عيد الميلاد

أقبل عيد الميلاد أخيراً . ان السجناء لا يكادون يذهبون الى العمل فى اليوم السابق على العيد. الذين يعملون فى الخياطة وأمثالهم يمضون الى ورشاتهم كالعادة ؛ أما الآخرون فانهم ما ان يتجمعوا فى أماكن العمل حتى يعودوا الى الثكنة وحدانا أو جماعات. حتى اذا فرغوا من تناول غدائهم لم يعملوا بعد ذلك قط . لم يهتم القسم الأكبر من السجناء ، منذ الصباح ، الا بأعمالهم الخاصة ، أما الأعمال التى تفرضها ادارة السجن فلم يحفلوا بها : فبعضٌ يحتال لادخال خمرة الى السجن ، أو لطلب المزيد منها ، وبعض يطلب الاذن له برؤية أصدقائه من الرجال أو النساء ، وبعض يلمُّ الديون الصغيرة التى له على غيره لقاءَ أعمال سبق أن قام بها . وكان باكلوشين والسجناء الذين يشاركون فى اعداد الحفلة التمثيلية يحاولون أن يقنعوا أصحابهم من خدم الضباط باعارتهم الملابس التى هم فى حاجة اليها .

وكان بين السجناء أناس يضطربون ذاهبين آيبين لا لشىء الا لأن آخرين كانوا يضطربون ذاهبين آيبين . ما من أحد يدين لهم بمال يتوقعون أن يتقاضوه ، ومع ذلك يبدو عليهم أنهم ينتظرون أن يتقاضوا

شيئاً • الخلاصة أن جميع الناس يأملون حدوث تغير ما ، يأملون وقوع شيء خارق • وفي المساء عاد الجنود القدماء (مشوهو الحرب) يحملون للسجناء ما أوصوهم بشرائه لهم من أنواع الأطعمة : لحماً وخنازير رضيعة وأوزاً • ان كثيرا من السجناء ، وحتى أكثرهم عوزاً وأشدهم تقتيراً ، ممن ظلوا طوال السنة يكدّسون كوبكاتهم ، يعتقدون أن من واجبهم أن يبسطوا أكفهم في هذا اليوم وأن ينفقوا بسخاء وأن يحتفلوا بسهرة العيد احتفالاً يليق بها • ان الغد هو في نظر السجناء عيد حقيقي لهم فيه حق ، عيد معترف لهم به بحكم القانون • لا يمكن ارسال السجناء الى العمل في ذلك اليوم ؛ وليس في السنة كلها الا ثلاثة أيام كهذا اليوم •

وأخيراً من ذا الذي يدري ما هي الذكريات التي لا بد أن تستيقظ وأن تغلي وتفور في نفوس هؤلاء المنبوذين عند اقتراب احتفال كهذا الاحتفال ؟ ان أبناء الشعب يحفظون ذكرى الأعياد الكبرى منذ الطفولة. فلا بد لهؤلاء السجناء أن يتذكروا في كثير من الحزن والقلق والاضطراب تلك الأيام التي يرتاح فيها المرء من الأعمال المضنية في حضن الأسرة • ان احترام السجناء لهذا اليوم يفرض نفسه عليهم فرضاً ، فاذا الذين يسرفون في الشراب والسكر منهم قلة قليلة ، واذا أكثرهم جادون ، حتى لتراهم منهمكين رغم أن معظمهم ليس عليه ما يعمله • وحتى الذين يسمحون لأنفسهم بالاستهتار يحتفظون بشيء من الرزانة والرصانة والوقار ••• فكأن الضحك ممنوع محظور • لقد ران على السجن تزمت لا يتهاون ولا يتسامح ، فاذا أساء أحد الى الراحة العامة والهدوء الشامل، هب السجناء ينهرونه ويردونه الى مكانه صارخين شاتمين ، وغضبوا منه أشد الغضب ، كأنما هو أخلّ بواجب احترام العيد نفسه • تلك حالة نفسية لدى السجناء واضحة بارزة بل ومؤثرة • فانهم ، الى جانب

تقديسهم الفطرى لهذا اليوم العظيم ، يحسنون أنهم اذا هم أكبروا العيد وأعظموه كانوا يتصلون بباقى العالم ، فلم يظلوا منبوذين ضائعين محتقرين مهملين ، ما دام السجن يحتفل بالعيد كما يحتفل به من هم فى خارج السجن . ان السجناء يشعرون بهذا كله ، رأيت ذلك وأدركته بنفسى.

وقد قام آكيم آكيمتش أيضاً باستعدادات كبيرة للاحتفال بالعيد . ليس لآكيم آكيمتش ذكريات أسرة ، فقد ولد يتيماً فى بيت أناس غرباء ، ودخل الخدمة منذ السنة الخامسة عشرة من عمره . ولم يشعر يوماً بأفراح كبيرة ، لأن حياته قد جرت على نسق واحد ووتيرة واحدة فى جو الخوف من مخالفته الواجبات المفروضة عليه . لا ولا هو بالمتدين كثيراً ، لأن تقيده بالنظام قد خنق فيه جميع مواهبه الانسانية ، وجميع أهوائه ، وجميع ميوله حسنةً كانت أو سيئة . لذلك كان يتهيأ للاحتفال بعيد الميلاد دون لهفة كبيرة أو انفعال قوى أو ضيق شديد . ما من ذكرى كانت تثير حزنه وشجنه . على أن الاستعداد للاحتفال بعيد الميلاد فرصة له من أجل أن يقوم بعمله على نظام دقيق وترتيب معين يفرضهما واجب الاحتفال بعيد مقرر مفروض . ثم ان آكيم آكيمتش لا يحب التأمل كثيراً . انه حين ينفذ القواعد تنفيذاً دقيقاً لا يعنيه الموضوع وانما يعنيه الشكل ، فلو طلبت اليه فى الغداة أن ينفذ نقيض ما نفذه بالأمس، لرأيته يكب على تنفيذه مظهراً ذلك الخضوع نفسه وتلك الدقة نفسها التى أظهرها بالأمس . لقد أراد مرةً واحدة فى حياته أن يعمل بوحى اندفاعه ، فاذا هو يُرسل الى سجن الأشغال الشاقة . ذلك درس لم ينسه . فرغم أنه لم يكتب له أن يفهم ذنبه وأن يدرك جرمه فى يوم من الأيام ، فقد استخرج من مغامرته تلك قاعدة أخلاقية تضمن له السلامة، وهى أن لا يفكر يوماً ، فى أى ظرف من الظروف ، لأن فكره لايؤهله أبداً لأن يقضى برأى فى القضية التى يجب عليه أن يقضى فيها برأى.

انه مكب على القيام بواجبات الاحتفال بالعيد ، اكباباً أعمى ، حتى أنه ينظر نظرة احترام الى الخنزير الرضيع الذى حشاه جريشاً وقلاه بنفسه (لانه ملم بفن الطهو بعض الالمام) ، فكان هذا الخنزير الرضيع الذى يعده طعاما للعيد ليس خنزيرا عادياً من الخنازير التى يمكن شراؤها وقليها فى كل وقت ، وانما هو حيوان لم يولد الا لعيد الميلاد . لعل آكيم اكيمتش قد ألف منذ نعومه اظفاره أن يرى على المائدة فى مثل هـذا اليوم خنزيراً رضيعاً ، فاستنتج من ذلك أن الخروف الرضيع شىء لا بد منه ولا غنى عنه للاحتفال بالعيد كما ينبغى الاحتفال بالعيد . وانى لعلى يقين من أنه ان لم يأكل هذا النوع من اللحم فى يوم العيد لظل طـوال حياته يشعر بعذاب الضـمير من اخـلاله بالقيام بواجباته . وكان آكيم اكيمتش ، حتى يوم العيد ، يرتدى سترته العتيقة وسرواله القـديم اللذين كانا رغم ترفيعهما الدقيق المحكم يشـفان عن سـداهما منذ زمن طويل . وقد علمت أنه يحتفظ فى صندوقه بالرداء الجديد الذى أعطيه قبل أربعة أشهر ، وأنه لم يمسسه لأنه يريد أن يرتديه فى عيد الميلاد. وذلك ما فعله . فها هو ذا ، فى ليلة العيد ، يخرج الملابس الجديدة من صندوقه ، فيفضُّها ، ويفحصها وينظفها ، وينفخ عليهـا لينفض عنهـا الغبار ، حتى اذا أتم ذلك كله ، جرَّبها على جسمه . ان الرداء يناسبه تماماً . ان جميع أجزائه لائقة ، فالصدرة تعقد أزرارها حتى العنق ، والياقة مستقيمة صلبة كأنها من كرتون ، فهى تسند الذقن وترفعها الى فوق . ان تفصيلة الرداء تشبه تفصيلة الزى العسكرى . لذلك ابتسم آكيم آكميتش ابتسامة الرضى وهو يدور على نفسه ثم يدور مختالاً أمام مرآته الصغيرة التى أكبَّ على تزيينها باطار مذهب منذ زمن طويل. كان زر واحد من أزرار السترة منحرفاً عن مكانه ، فلاحظ آكيم آكيمتش ذلك فقرر أن يعدله ، فلما فرغ من عمله جرَّب الصدرة مرة أخرى ،

فلم يكن عليها في هذه المرة ماخذ • عندئذ طوى اكيم أكيمتش رداءه كما كان ، واعاده الى موضعه من الصندوق هادىء البال مرتاح النفس ، من أجل ان يرتديه في الغد • ولقد كانت جمجمته محلوقة حلقا كافيا، ولكنه ايقن بعد أن أنعم النظر فيها انها ليست ناعمة كل النعومة ، فان سعره قد عاد فنبت على غير شعور منه ، فسرعان ما مضى الى « الميجر » ليحلق شعر راسه على نحو ما يوجب النظـام ان يحلق • الحق أن أحدا لن يخطر بباله ان ينظر اليه في الغد ، ولكن اكيم اكيمتش يفعل ما يمليه عليه ضميره تبرئة للذمة وقياما بكل ما يقع عليه من واجبات في ذلك النهار • ان هذا التقديس الذي يشعر به نحو اصـغر زر وأيسر عروة وأتفه بريم على الكتف ، قد رسخ في عقله على أنه واجب صارم، ورسخ في قلبه على أنه صورة أكمل جمال يمكن ويجب أن يبلغه انسان محترم • ولما كان آكيم آكيمتش « كبير » ســـجناء الثكنة من حيث أنه أقدمهم ، فقد حرص على أن يأمر بتبن تفرش به أرض الثكنة • كان هذا يتم في جميع الثكنات • لا أدري لماذا كانوا يلقون تبنا على الأرض في عيد الميلاد دائماً • فلما فرغ آكيم آكيمتش من عمله ، تلا صلواته ، ورقد على مضجعه ونام ذلك النوم الهادىء الذي هو نوم الطفولة ، من أجل أن يستيقظ في ساعة مبكرة من صباح الغد • وهذا ما فعله سائر السجناء على كل حال • لقد رقد جميع السجناء في مضاجعهم قبل الأوان المألوف ، تاركين أعمالهم العادية في ذلك المساء • أما اللعب بالورق فما كان لأحد أن يجرؤ على الكلام عنه • ان جميع من في السجن ينتظـر صباح الغد •

وجاء صباح الغد أخيراً ! ••• قُرع الطبل في ساعة مبكرة جداً، حتى قبل أن يطلع النهار • ودخل صف الضابط الذي يعد الســـجناء فحيَّاهم وتمنى لهم عيداً سعيداً • فردَّ السجناء تحيته بتحية لطيفة ودود

وتمنوا له مثل ما تمنى لهم • وأسرع آكيم آكيمتش وغيره ممن كان لهم اوزات وخنازير رُضّع ، أسرعوا الى المطبخ بعد آن تلوا صلواتهم على عجل ، من آجل أن يروا فى اى مكان كانت ذبائحهم وكيف كانت تقلى• فمن خلال النوافذ الصغيرة التى كان يغطى الثلج والجليد نصفها ، ترى من الثكنة ، فى الظلمات ، النيران القوية التى تتلظى فى المطبخين وقد أشعلت مواقدهما الستة ؛ وها هم أولاء السجناء قد ألقوا معاطفهم على أكتافهم أو ارتدوا ثيابهم كاملةً ، وظهروا فى فناء السجن مسرعين فى اتجاه المطبخ • ان عدداً قليلاً منهم قد استطاع أثناء ذلك ان يزور بائعى الخمرة • هؤلاء هم بين السجناء أقلهم صبرا • ان السجناء يتصرفون اليوم فى حشمة وهدوء وأدب أكثر مما عهد فيهم من ذلك فى العادة• فلا مشاجرات ولا شتائم • ان كل واحد يعلم ان هذا اليوم يوم عظيم ، وأنه عيد كبير • حتى لقد كان بعضهم يذهبـــون الى الثكنات الأخرى يحيون زملاءهم ويتمنون لهم عيداً مباركاً سعيداً • لكأن نوعا من الصداقة قد قام بينهم فى هذا اليوم • كنت قد لاحظت عرضاً أن السجناء لاتكاد تنشأ بينهم فى السجن روابط ، لا عامةٌ ولا خاصـــة • كان يندر أن يرتبط سجين بسجين آخر كما يحدث ذلك فى العالم الحر • كنا ، على وجه العموم ، قساةً خشنين فى علاقات بعضنا ببعض ، باستثناء حالات قليلة نادرة • تلك قاعدة عامة يلتزمها الســـجناء ولا يحيدون عنهـا • وخرجت أنا أيضا من الثكنة • كان النهار قد بدأ يطلع• شحبت النجوم• ان ضباباً خفيفاً متجلداً يعلو فوق الأرض ، وان سحائب حلزونية من دخان المدافىء يتصاعد دائرا • لقينى عدة سجناء فهنأونى بالعيد فى كثير من اللطف والمودة ، فشكرت لهم تهنئتهم ورددتها بمثلها ، وكان بينهم أناس لم يسبق أن خاطبونى قبل ذلك بكلمة واحدة •

فلما صرت قرب المطبخ أدركنى سجين من سجناء الثكنة العسكرية.

كان ملقياً فـــروته على كتفه . لقـــد لمحني في وسط الفناء فأخـــذ يناديني صائحاً : « ألكسندر بتروفتش ! ألكسندر بتروفتش! » ، وأسرع يركض صوبَ المطبخ . وقفت أنتظره . انه شاب مدوَّر الوجه ، رقيق العينين ، قليل الكلام مع الناس ، لم يوجه اليَّ منذ دخولي الى السجن كلمةً واحدة ، ولا التفت اليَّ حتى الآن أيَّ التفات ، حتى انني كنت لا أعرف اسمه . هرع نحوي لاهثاً لهاثاً شديداً ، وتسمَّر أمامي ينظر اليَّ مبتسماً ابتسامة بلهاء وقد لاحت في وجهه معاني السعادة . ســألته بشيء من الدهشة :

ـ ماذا تريد ؟

فظل واقفاً أمامي مبتسماً ، ينظر اليَّ بكل عينيه ، دون أن يبـدأ الحديث مع ذلك . ثم جمجم يقول :

ـ كيف ؟ اليوم عيد ...

وأدرك هو نفسه أن ليس عنده ما يقوله لي غـير ذلك ، فتركني ومضى مسرعاً الى المطبخ .

ويجب أن أذكر أننا لم نكد نلتقي بعد ذلك ، وأننا لم نتخاطب حتى ساعة خروجي من السجن .

حول مواقد متأججة بالمطبخ كان الســجناء المنهمكون يضــطربون ويتزاحمون . ان كل واحد منهم يراقب رزقه . وكان الطباخون يعدون الطعام العادي الذي يقدم للسجناء ، ذلك أن الغداء يُتناول اليـــوم قبل الموعد المألوف . ولم يكن أحد قد أكل شيئاً بعد ، رغم أنهم كانوا يتمنون جميعاً لو يأكلون ، ولكنهم يراعون المواضعات أمام الآخرين . انهــم ينتظرون الكاهن ، فالصيام لا ينتهي قبل وصوله . وما ان طلع النهــار حتى سُمع صوت العريف ينادي من وراء باب السجن قائلاً : «الطهاة!»

وظلت هذه النداءات تتكرر متصلةً غير منقطعة خلال ساعتين • ان الطهاة ينادَوْن لاستلام الصدقات التي كانت تتقاطر من جميع أركان المدينة مقادير ضخمة : هي أرغفة من خبز أبيض ، وفطائر ، ومعجّنات ، وحلوى ، وأنواع أخرى من الأطعمة • أعتقد أنه ما من بائعة وما من ساكنة من ساكنات المدينة بأسرها الا وأرسلت شيئاً الى السجناء «التعساء» من قبيل المباركة بالعيد • كان بين هذه الصدقات صدقات ثمينة : عدد كبير من أرغفة الخبز المصنوع من فاخر الدقيق ؛ وكان بينها أيضاً صدقات زهيدة : رغيف من خبز أبيض ثمنه كوبكان ، أو رغيفان من خبز أسود دُهنا بقليل من القشدة • تلك هدية الفقير للفقير انفق فيها الأول آخر كوبك يملكه • وكانت هذه الصدقات تقبل بامتنان واحد ، دون تفريق بينها في القيمة أو في المصدر • وكان السجناء الذين يستلمون الهدايا يرفعون قبعاتهم عرفاناً بالجميل ، ويشكرون لأصحاب الهدايا هداياهم وهم يحيونهم ويتمنون لهم عيدا سعيداً ثم ينقون الصدقات الى المطبخ • حتى اذا اجتمعت أكداس كبيرة من الخبز نودى السجناء القدامى من كل ثكنة ، فتولوا توزيع الخبز على جميع الأقسام أنصبةً متساوية • وهذه القسمة لا تثير أية مشاجرات أو مشاتمات ، وانما هي تتم بالعدل والقسطاس • وقد تولى آكيم آكيمتش ، متعاوناً مع سجين آخر ، توزيع النصيب الذى نالته ثكنتنا ، فقسمه بين السجناء وكان يناول كل سجين ما يستحقه بيده • كان كل واحد من السجناء راضياً مغتبطاً ، فما من احتجاج يسمع ، وما من مطالبة تشب ، وما من حسد يظهر ؛ ولا خطر ببال أحد أن يغش أو يختلس • وحين فرغ آكيم آكيمتش من اعماله في المطبخ مضى يعنى بزينته عنايةً شديدة ، فارتدى ثيابه بكثير من الاحتفال والاهتمام والأبهة ، عاقداً جميع أزرار سترته لم يستثن منها واحداً ، حتى اذا انتهى من ارتداء ملابسه الجديدة ، طفق يتلو صلواته ،

ودام هذا زمنا طويلاً . ان كثيراً من السجناء كانوا يقومون بواجباتهم الدينية ، ولكن أكثر هؤلاء كانوا من المسنين ، اما الشباب فكانوا لايكادون يصلون ، وكانوا في احسن الاحوال لا يزيدون على ان يرسموا اشارة الصليب حين ينهضون من نومهم ، حتى ان هذا نفسه كانوا لا يفعلونه الا في ايام الاعياد .

حين انتهى اكيم أكيمتش من صلاته اقترب مني ليعبر لي عن التهاني المالوفة . فدعوته الى احتساء الشاي معي ، فردّ لي هذه الملاطفة بدعوتي الى تناول شيء من لحم خنزيره الرضيع . وما هي الا برهة قصيرة حتى هرع اليّ بتروف يعرب لي عن تحياته وتمنياته . أحسب أنه كان قد شرب قليلاً . ورغم انه قد وصل اليّ لاهثاً ، فانه لم يكد يحدثني بشيء ، بل لبث واقفاً أمامي بضع لحظات ، ثم أسرع يعدو الى المطبخ . كان السجناء في ثكنة القسم العسكري يستعدون في تلك الآونة لاستقبال الكاهن . ان هذه الثكنة لم تكن مبنيةً على طراز سائر الثكنات . ان المضاجع فيها مصطفة على طول الجدران لا في وسط القاعة كسائر الثكنات ، فهي بفضل ذلك الثكنة الوحيدة التي لا يزدحم وسطها. ولعلها قد بنيت بهذه الطريقة من أجل أن يتسنى جمع السجناء فيها عند الضرورة . وقد نصب السجناء مائدة في وسط الثكنة ، ووضعوا على المائدة أيقونة وأشعلوا أمام الأيقونة سراجاً . ووصل الكاهن آخر الأمر ، يحمل الصليب والماء المقدس . فصلّى ورتل أمام الأيقونة ، ثم التفت نحو السجناء فأخذوا يتوافدون بعضاً وراء بعض فيقبلون الصليب . وطاف الكاهن بعد ذلك بالثكنات الأخرى جميعها ، يرشها بالماء المقدس . فلما وصل الى المطبخ امتدح خبز السجن الذي كانت له شهرة في المدينة ، فسرعان ما أظهر السجناء رغبتهم في أن يرسلوا اليه رغيفين ما يزالان ساخنين ، وكلفوا أحد مشوهي الحرب بأن يحملهما اليه فوراً . وشيَّع

السجناء الصليب بمثل ما استقبلوه به من احترام واعظام وما هي الا برهة قصيرة حتى وصل الميجر وآمر السجن • وكان السجناء يحبـون الأمر كثيراً ، حتى لقد كانوا يحترمونه • طاف الامر بالثكنات يصحبه الميجر ، وهنا السجناء بالعيد ، ثم دخل المطبخ وذاق حساء الكرنب • كان الحساء طيباً جداً في ذلك اليوم : لقد كان لكل سجين حق في نحو نصف رطل من اللحم وقد أُعدّ بالاضافة الى ذلك جريش لم يبخل عليه بالسمن • شيع الميجر آمر السجن الى الباب ، وأصدر أمره الى السجناء بتناول طعام الغداء • كان هؤلاء يتحاشون أن يراهم الميجر ، فلقد كانوا لا يحبـون نظرته الخبيثة التى لا تنى تفتشهم وتتجسس عليهم من وراء النظارتين ، متجهةً الى اليمين والى الشمال ، كأنها تبحث عن فوضى تَقَوّم أو عن مذنب يُعاقب •

وتغدى السجناء • وكان خنزير آكيم أكيمتش رائع القـلى • لم أستطع آن أفهم كيف أمكن بعد خروج الميجـر بخمس دقائق أن يكون بين السجناء كل هذا العـدد الكبير من السكارى بينما كان الجميع أثناء حضوره هادئين وادعين • ما أكثر الوجوه الحمـراء المتألقة ! وسرعان ما ظهرت آلات البالالايكا • وهذا هو البولندى القصير يتبع سجيناً كان قد استأجره ، فيظل يعزف وراءه على الكمان طول النهار ، ويضرب له ألحان رقص مرحة • وأخـذت الأحاديث بين السـجناء تزداد صخباً وضجيجاً • ومع ذلك انتهى الغداء دون فوضى كبيرة • شبع الجميـع • وهذا عدد من الشيوخ الرضيين الوقورين يمضون يرقدون على مضاجعهم فوراً ••• وكذلك فعل آكيم آكيمتش الذى لعـله كان يؤمن بأن على المرء أن ينام بعد الغداء حتماً فى أيام الأعياد • وهـذا تقىُّ ستارودوب يصعد على المدفأة ، بعد أن غفا قليلاً ، فيفتح كتابه ويأخذ يقرأ فيه طول النهار وجزءاً من الليل ، دون أن ينقطع عن ذلك لحظة واحدة • كان

منظر هذا «العار» يثقل على نفسه ويحز فى قلبه على حد تعبيره . ومضى الشراكسة جميعاً يجلسون على العتبة . كانوا ينظرون بكثير من الفضول وبشيء من الاشمئزاز الى هؤلاء السكارى . وصادفت نورا ، فقال وهو يهزّ رأسه ممتعضاً مستاءً : « أمان ... آمان ... آمان ... لسوف يغضب الله ... » . أما أشعيا فومتش فقد أشعل فى ركنه شمعةً ، وهو يصطنع كثيراً من الكبرياء والخيلاء والعناد ، وأخذ يعمل ، حتى يبيّن للناس أن هذا اليوم ليس فى نظره عيدا . وانعقدت حلقات اللعب بالورق هنا وهناك . كان السجناء لا يخشون الان مشوهى الحرب من الجنود ، ومع ذلك وضعوا خفراء يحرسون البـــاب ، مخافة ان يداهمهم صف الضابط على حين فجأة ، ولكن صف الضابط هذا كان يحاول ان لا يرى شيئا . أما ضبط الحراسة فانه لم يقم الا بثلاث جولات : فسرعان ماكان السكارى من السجناء يختبئون ، وسرعان ما كان ورق اللعب يختفى ، فى مثل ومض البرق . وأغلب ظنى أن ضابط الحراسة كان فى قرارة نفسه يتعمد أن لا يلاحظ المخالفات التى لا يعدها ذات شأن . ان السكر ليس اثماً كبيراً فى ذلك اليوم . واستولى المرح على جميع السجناء شيئاً بعد شيء . وبدأت المشاجرات تنشب بينهم . غير أن أكثرهم كان هادئاً وديعاً مسالماً. والحق أن رؤية السكارى وحدها كانت تبعث على الضحك. كان هؤلاء السكارى يشربون بغير قصد أو اعتدال . وكانت تبـــدو على جازين أمائر الانتصار ، فهو يتجول راضياً مسروراً قرب مضجعه الذى أخفى تحته خمره ، وكان قد دفن الخمر تحت الثلج وراء الثكنات فى موضع سرى . انه يبتسم ابتسامات ماكرة وهو يرى المستهلكين يقبـلون عليه ذرافات . وكان هو صاحياً لم يشرب قطرة واحدة ، لأنه كان ينوى أن يقصف فى آخر يوم من أيام العيد ، بعد أن يكون قد أفرغ جيوب جميع السجناء . وأخــذت الأغانى تدوّى فى أرجاء الثكنات . اشتد

السكر اشـــتداداً رهيباً ، وأصبحت الأغانى تشـارف على البكاء • كان السجناء يتجولون جماعات جماعات وهم يوقعـــون على آلات البالالايكا ألحانهم الأثيرة ، وقد ظهرت فى وجوهم معنى التأثر وألقوا معاطفهم على أكتافهم فى غير اكتراث• حتى لقد تألفت فى «القسم الخاص» جوقة قوامها ثمانية أشخاص أو عشر • فكان هؤلاء يصدحون بأغانيهم صداحا عالياً ، ترافقهم آلات القيثارة والبالالايكا • كانت الأغانى الشعبية حقاً نادرة ، ولست أتذكر منها الآن الا أغنية واحدة أجدوا غناءها اجادة رائعة :

أنا الفتاة الصبية •

قد كنت فى الحفل امس •••

وفى السجن انما سمعت صورة جديدة لهذه الأغنية لم أكن أعرفها من قبل ، وقد أضيفت الى نهايتها بضعة أبيات :

فى منزلى رتبت كل شيء

ملاعقى غسلتها

حساؤنا سكبته

وبابنا نظفته

طعامنا طبخته •

ان الأغانى التى كان يغنيها السجناء خاصةً انما هى الأغانى التى تسمى « أغانى السجناء » • ان مطلع احـــداها هو : « حـــدث فى غابر الأيام •••» ، وهى أغنية هزلية تروى قصة انسان كان فيما مضى يلهو ويعبث ويعيش كما يعيش السادة الكبار ، ثم أُرسل الى سجن الأشـغال الشاقة • فبينما كان يأكل فى الماضى طيب الأطعمة ويشرب فاخر الخمرة أصبح اليوم يقول :

اشرب اليوم حساء

يملأ البطن ويمضي للأذن

وهذه أغنية أخرى معروفة جداً كان يغنيها السجناء أيضاً :

كنت فى الماضى صبيا مترفا

يعشق اللهو ويختال غنيا

ثم ضيعت ثرائى فى الصبا

وانا اليوم أسير فى السجون

الى آخر ما هنالك •••

وكان بين هذه الأغانى أغانٍ حزينة أيضاً ، منها هذه الأغنية المعروفة التى أعتقد أنها من أغانى السجناء حقاً :

طلع الفجر ، فهذا الطبل يقرع •

لنقوم •

وسمعنا الباب يفتح •

دخل الحارس يدعونا ••• نهضنا •

لا يرانا أحد خلف الجدار •

لا يرى أحد كيف نعيش •

ربنا يرحم من بالسجن يحيا فى قبور •

ربنا ينجى ، فلن نفنى هنا •••

الخ الخ •••

وهناك أغنية أخرى أبعث على الحزن والكآبة ، أغنية رائعة اللحن ولكن كلماتها تافهة ركيكة ملأى بالأخطاء اللغوية • اننى أتذكر منها بضعة أبيات :

لن ترى عينى بلادى

لن أرى مسقط راسى •

دون ذنب قد جنيته

شاءت الأقدار أن أقضى حياتى كلها

فى عذاب وشقاء •

تنعق الغربان فى بيتى بأصوات كئيبة ،

فاذا الغابات حوله

ترجع الأصوات أصداء حزينة •

فاض قلبى شجنا •

لن أرى بيتى يوما •

كان السجناء يرددون هذه الأغنية كثيراً ، ولكنهم لا يغنونها جماعة بل يصدحون بها فرادى • يفرغ أحد السجناء من عمله مثلاً ، فيخرج من الثكنة ويجلس على درجات المــــدخل ، ويسترسل فى تفكير عميق مسنداً ذقنه الى يده ، ثم اذا هــو ينطلق فى غنائها ، فيصــغى اليه رفاقه ، ويشعرون بشىء يتحطم فى قلوبهم • لقد كان بين السجناء من يملكون أصواتاً جميلة رخيمة •

هبط الغسق • ان الضجر والسأم والحزن والألم ، ان ذلك كله يعود الى الظهور الآن من خلال السكر والعربدة • ان الســجين الذى كان منذ ساعة يمسك خاصرتيه من فرط الضحك ، يجهش الآن باكياً فى ركن من الأركان وقد أخذ منه الثمل كل مأخذ • وهؤلاء ســـجناء آخرون قد وصلوا الى حد التماسك بالأيدى مراراً ، أو راحوا يطوفون فى أرجاء الثكنات مترنحين صفر الوجوه يسعون الى مشاجرة ويبحثون

عن مشاتمة • أما الذين يلقيهم السكر الى الحزن فانهم يمضون الى أصدقائهم ليتخففوا من آلام سكرهم بالبكاء • لقد كان هذا العالم البائس كله يريد أن يفرح وأن يمرح ، وأن يقضي يوم العيد العظيم في بهجة ونشوة ، ولكن ما كان أشق ذلك اليوم على السجناء جميعاً ، سبحان الله ! ••• كانوا قد أمضوا ذلك النهار آملين أن يستمتعوا بهناءة كبيرة ، ولكن الهناءة لم تتحقق لهم • ولقد هرع بتروف الىّ مرتين : كان صاحياً لأنه لم يشرب الا قليلاً ، ولكنه ظل الى آخر لحظة ينتظر شيئاً لا بد أن يحدث ، شيئاً خارقاً فرحاً مسلياً • لم يعبّر عن توقعه هذا بكلمة ، ولكن المرء يدرك ذلك في نظرته • كان يركض من ثكنة الى ثكنة بغير تعب ولا كلال ••• ولم يحدث شيء ••• لم يحدث شيء غير السكر شمل الجميع ، وغير الشتائم البلهاء يتبادلها السكارى ، وغير الطيش يذهب بهذه الرءوس المشتعلة الملتهبة • وكان سيروتكين يتجول هو أيضاً هنا وهناك ، متزيناً بقميص أحمر جديد كل الجدة ، ينتقل من ثكنة الى ثكنة ، فتى جميلاً على العهد به ، نظيفاً نظافة تخطف البصر • وكان هو أيضاً ينتظر وقوع شيء ما ، ينتظر ذلك في رفق وهدوء ، وسذاجة وبراءة • وشيئاً فشيئاً أصبح المشهد لا يُطاق ، أصبح المشهد يثير الاشمئزاز والتقزز ، ويبعث في النفس الغثيان • كان هنالك ما يحمل على الضحك مع ذلك ، ولكنني كنت حزيناً كل الحزن دون أن يكون ثمة سبب ظاهر • كنت أشعر بشفقة عميقة على جميع هؤلاء الرجال ، وكنت أشعر أنني بينهم أختنق اختناقاً • هذان سجينان يتشاجران فهذا يزعم أن على الآخر أن يسقيه ، والثاني يدعي أن الأول هو الذي يجب عليه أن يسقيه • انهما يتشاجران منذ مدة طويلة • وقد كادا أن يتماسكا بالأيدي • ان لأحدهما سناً تركب سناً أخرى ، فها هو ذا يتشكى متأثاً ويحاول أن يبرهن لصاحبه على أنه قد ظلمه حين باع في السنة الماضية

معطفاً وأخفى عنه المال ••• ذلك عدا أمور أخـرى ••• ان المشـتكى شاب فارع الطول مفتول العضلات رابط الجأش ، ليس بالغبى ، ولكنـه متى سكر أصبح يحب أن يتخذ لنفسه أصدقاء وأن يعبّر عن آلامه فى أحضانهم • فها هو ذا يشي بخصمه ويشهـّر به ويذكر عيـوبه واساءاته اليه وهو ينوى فى قرارة نفسه أن يصالحه بعد ذلك • أما الثانى فرجل بدين قصير قوى البنية مدوّر الوجه ماكر مكر ثعلب ، ولعله شرب من الخمرة أكثر مما شرب صاحبه ، ولكن لا يبدو أن السكر قد بلغ منه الا قليلاً • ان لهذا السـجين طبعاً قوياً وارادة صلبة ، وهـو يعد بين السجناء على جانب من الغنى • ولعـله كان يرى أن من مصـلحته أن لا يُخنق رفيقه ، فها هو ذا يقوده الى بائع الخمرة • ان صديقه الذى يكثر من الكلام يؤكد أنه مدين له بمال ، وأن عليه أن يسقيه « اذا كان لدى شيء من شرف » •

وهذا بائع الخمرة يتناول قدحاً فيملؤه خمراً، وهو يظهر للمشترى بعض الاحترام ، ولا يخفى شيئا من الاحتقار لرفيقه ، لأن الرفيق يشرب على حساب غيره ويقصف بمـال غيره • قال الرفيـق الذى يكثر من الكلام :

ـ لا يا ستبكا ، عليك أنت أن تدفع ثمن الشراب ، لأنك مدين لى بمال •

فأجابه صاحبه :

ـ طيب طيب ! لا أريد أن أتعب لسانى بالكلام معك !

قال الأول وهو يتناول القدح التى مدّها اليه بائع الخمرة :

ـ لا يا ستبكا ! أنت تكذب ، انك مدين لى بمال • لا بد أنك خال من الضمير ، لا شك أنك لا ذمة لك • حتى عيناك ليستا لك ، وانما أنت

استدنتهما كما تستـــدين كل شيء . اذهب يا ستبكا ! أنت وغد ... يا ستبكا ... الخلاصة أنك وغد ! ...

صاح بائع الخمرة يقول للرفيق الذى يكثر من الكلام :

ـ ما بالك تتباكى ؟ أنظر .. لقد سفحت خمرتك .. هلاّ شربت ما دام أحد يسقيك بماله ! لا يتسع وقتى لأن أنتظرك الى الغد .

ـ سأشرب ، لا تخف ... ولكن لماذا تصيح هذا الصياح ؟ لك أطيب تمنياتى بمناسبة العيد ياستيبان دوروفتش !

كذلك قال الرجـــل فى كثير من الأدب وهـو ينحنى أمام ستبكا ممسكاً الكأس بيده ، مع أنه كان يصفه منذ دقيقة بأنه وغد ، وأضـاف يقول :

ـ أسأل الله أن يمتعك بالصحة والعافية ، وأن تعيش مائة سنة عدا السنين التى عشتها حتى الآن !

ثم شرب الخمرة، وأطلق من صدره زفرة رضى وارتياح، وجفف فمـه بيده . ثم لم يلبث أن قال بلهجـة رضية وقور ، مخاطباً جميـع الحضور دون أن يتجه الى واحد منهم بعينه :

ـ ما أكثر ما شربت فى الأيام الخوالى ، ولكن قد انتهى زمانى ! شكراً يا ستيبان دوروفتش !

ـ العفو .

ـ والآن دعنى أتم كلامى . أنت فى نظرى وغـد كبير ، ولكننى سأقول لك عدا ذلك ...

ـ اليك اذن ما سأقوله لك أيها السكير الحقير ...

كذلك قاطعه ستبكا وقد نفد صبره ، وتابع كلامه يقول :

ــ اسمع وانتبه : لنقسم العالم نصفين ، فآخذ أنا نصفه وتأخذ أنت نصفه الآخر ، ثم تدعني وشأني هادىء البال .

ــ ألا تنوى اذن أن تردّ الىّ مالى ؟

ــ أى مال تريد أيضاً يا سكران ؟

ــ حين ... ستردُّه الىّ فى العالم الآخر ... فلن آخذه . ان أموالنا هى عرق جباهنا وجسأة أيدينا . لتندمنّ على فعلك فى الحياة الآخرة ، لسوف تشوى فى النادر شياً لأنك استوليت على كوبكاتى الخمسة .

ــ اذهب ... شيطان يأخذك ! ...

ــ لماذا تهمزنى ؟ ما أنا بحصان !

ــ هيّا امض ! ...

ــ وغد حقير !

ــ سجين قذر !

وأخذت الشتائم تنهمر أغزر مما كانت تنهمر قبل أن يسقى الرجل صاحبه خمراً .

وهذان صديقان قد جلسا منفصلين على مضجعين من مضاجع السجن ، أحدهما طويل القامة قوى البنية بدين الجسم كجزار : ان وجهه أحمر ، وهو يكاد يبكى ، لأنه متأثر تأثراً شديداً . والثانى ضامر نحيل مزهو بنفسه ، له أنف كبير كأنه مصاب بزكام دائم ، وله عينان صغيرتان كعينى خنزير ، مطرقتان الى الأرض : انه رجل مرهف مهذب ،

قد كان في الماضي كاتباً في قلم المحكمة ، وهو يعامل صديقه بشيء من الازدراء ، وهذا ما يسوء صديقه . كان الرجلان قد شربا معاً طوال النهار .

صاح الرجل البدين يقول وهو يهز بيده اليسرى كتف رفيقه هزاً قوياً :

ـ لقد تجرأ عليّ !

ان قوله « تجرأ عليّ » يعني أنه ضربه . وهذا السجين الذي كان في الماضي صف ضابط يحسد جاره في سرّه ، لذلك كان الرجلان يصطنعان في أحاديثهما الرقة والرشاقة .

قال السجين الذي كان كاتباً في قلم المحكمة ، قال في وقار وهو يطرق الى الأرض اطراقاً عنيداً دون أن ينظر الى محدّثه ، قال بلهجة حازمة قاطعة :

ـ انك أنت المخطىء ...

فتابع الثاني كلامه وهو يهز رأس صاحبه بمزيد من القوة :

ـ لقد ضربني ! ألا تسمع ؟ انك الانسان الوحيد الذي بقي لي في هذه الحياة الدنيا ، هل تفهم ؟ لذلك أقول لك انه تجرأ عليّ .

ـ وأنا أعود فأقول لك ان انتحال عذر كهذا العذر الواهن لايزيد على أن يشينك .

هكذا أجاب السجين الذي كان كاتباً في قلم المحكمة ، قائلاً ذلك بصوت نحيل ولهجة مهذبة ، وتابع يقول :

ـ فأعترف يا صديقي العزيز بأن هذه القصة الناشئة عن السكر انما مردّها كلها الى قلة ثباتك .

ترنح الصديق السمين وهو يتراجع الى وراء ، وألقى من عينيه النملتين على صاحبه المطمئن الراضي نظرة بلهاء ، ثم اذا هو يهوى بقبضة يده الضخمة على خده النحيل فجأة ، باذلاً في هذه اللطمه كل ما اوتي من قوة . كذلك انتهت صداقة ذلك النهار . لقد غاب الصديق العزيز تحت مضاجع السجن طائش اللب فاقد الوعي .

دخل الى ثكنتنا رجل ممن كنت أعرفهم ، وهو سجين من القسم الخاص ، طيب القلب كثير المرح ، رجل ليس بالغبي قط ، بسيط جدا ، ساخر بغير سوء نية . انه ذلك الرجل الذي كان عند وصولي السجن يبحث عن فلاح غني ، والذي أعلن أنه امرؤ ذو أنفة وكرامة ، وانتهى الى مشاركتي احتساء الشاي . انه في الأربعين من عمره ، له شفة ضخمة وأنف كبير سمين ذو بثور . كان يحمل آلة بالالايكا فهو ينقر على أوتارها في اهمال وتوان ؛ وكان يتبعه كظله سجين قصير جداً ، ضخم الرأس ، لم أكن أعرفه الا قليلاً جداً ، ولا كان ينتبه أحد اليه على كل حال . ان هذا الرجل القصير شخص غريب الأطوار ، كثير الشكوك والهواجس ، مطبق الفم الى الأبد فلا يتكلم ، مفرط في الجد فلا يهزل . كان يعمل في ورشة الخياطة ، ويحاول أن يعيش معتزلاً الناس لا يتصل بأحد . لكنه بعد أن سكر الآن قد ارتبط بصاحبنا فارلاموف حتى أصبح كظله ، فهو يتبعه حيثما يتوجه ، منفعلاً أشد الانفعال ، محركاً يديه ، لاطماً بقبضته جدار الثكنة ومضاجع السجن : انه يكاد يبكي . وكان فارلاموف لا يلاحظه ولا ينتبه اليه كأنه لا وجود له . وأغرب ما في الأمر أن هذين الرجلين لا يتشابهان أي تشابه ، فلا قرابة بين مشاغلهما ولا بين طبعيهما . وهما ينتميان الى قسمين مختلفين ويقيمان في ثكنتين منفصلتين . وكان هذا السجين القصير يسمى : بولكين .

ابتسم فالاموف حين رآني جالساً في مكاني قرب المدفأة . ووقف

على بعد بضع خطـــوات منى ، وفكر لحظةً ، وترنح ، واتجه نحوى بخطى متفـــاوتة وهو يختال ويتبختر ، ثم أخـــذ ينقر على أوتار آلته الموسيقية ، وطفق يغنى بلهجة الانشاد وهو يقرع الأرض بقدمه قرعاً هيناً خفيفاً :

حبيبتى

حبيبتى بيضاء مستديرة الوجه

تغنى بصوت كصوت الشحرور

ما أجملها فى ثوبها الحريرى المزركش

فما كان من هذه الأغنية الا أن أخرجت بولكين عن طوره ، فاذا هو يلوّح بذراعيه ، ويصرخ مخاطباً جميع الناس :

ـ انه يكذب أيها الاخوة ، انه يكذب ، ليس فى كل ما يقوله ظل من حقيقة !

ـ آيات الاحترام « للشيخ » ألكسندر بتروفتش !

كذلك قال فارلاموف ملجلجاً .

أحسب أنه أراد أن يقبلنى . لقد كان ثملاً . أما قوله « آيات الاحترام للشيخ فلان» فهو تعبير تستعمله عامة الناس فى سيبريا كلها ، حتى عند مخاطبة رجل فى العشرين من عمره . فكلمة «الشيخ» تعبر عن الاحترام أو التبجيل أو المجاملة وتقال لرجل يحظى بالتقدير والاعظام .

ـ هيه يا فارلاموف ، كيف حالك ؟

ـ بين بين ! السعيد بالعيد سكران منذ الصباح . عفوك ومعذرتك !

كذلك قال فارلاموف وهو ينظر الىّ ضاحكاً ضـحكة ماكرة ؛ بل

صاح بولكين وهو يضرب المضاجع مكروباً يائساً :

ـ انه يكذب ! انه يكذب من جديد !

كأن فارلاموف قد آلى على نفسه أن لا ينتبه الى بولكين • وذلك بعينه أبعث ما في المشهد على الضحك ، فان بولكين لم يبتعد عن فارلاموف قيد أنملة منذ الصباح ، دون أن يكون هناك أى داعٍ الى ذلك ، لا لشيء الا لأن فارلاموف « كان يكذب » فيما يتراءى له • كان يتبعه كظله ، ويشاكسه في كل كلمة ، ويعقف يديه غيظاً ، ويلطم بقبضتيه الباب والسُّرُر الى أن تدميا ، ويتألم ، يتألم ألماً واضحاً لاقتناعه بأن فارلاموف « كان يكذب » • ولو قد كان على رأسه شعر اذن لنتفه حتماً من شدة ألمه وعمق حنقه • حتى لكأنه قد تعهد بأن يكون مسئولاً عن أفعال فارلاموف ، فضميره يعانى أشد العذاب حين يرى عيوبه ونقائصه • والأمر المضحك أن فارلاموف ظل لا يبالى تمثيلية بولكين ولا يلاحظها ولا يعبأ بها •

ـ انه يكذب ! يكذب ! يكذب ! لا شيء مما يقوله حق !

كذلك كان يصيح بولكين •

سأله السجناء ضاحكين :

ـ فيم يعنيك هذا ؟

وقال فارلاموف فجأة :

ـ أؤكد لك يا ألكسندر بتروفتش أننى كنت فى أيام صباى فتى بارع الجمال ، وأن البنات كانت تحبنى كثيراً ، كثيراً •••

فقاطعه بولكين يقول متنهداً زافراً :

ـ انه يكذب ! ها هو ذا يكذب أيضاً !

وانفجر السجناء يضحكون •

ـ وكنت أنا أتزين لهن • كان لى قميص أحمر ، وسروال عريض من مخمل • وكنت أنام حين أشاء ، مثـــل الكونت دولابوتيل ، وكنت أسكر مثلما يسكر رجل من السويد ••• الخلاصة : كنت أعمل كل ما يخطر ببالى أن أعمله •

قال بولكين مصراً :

ـ انه يكذب !

ـ وكنت قد ورثت عن أبى منزلاً مبنياً بالحجارة ، منزلاً ذا طابقين، فما انقضت سنتان الا وقوضت الطابقين ، ولم يبق لى الا باب بغير عمودين ولا مصراعين ! ماذا تريد ؟ المـــال يأتى ويذهب كالحمام ، يحـط ثم يطير ! •••

قال بولكين جازماً مزيداً من الجزم :

ـ انه يكذب !

ـ وبعد وصولى الى هنا ببضعة أيام أرسلت رسالة الى أهلى أطلب اليهم فيها أن يبعثوا الىّ ببعض المـــال • يظهر أننى كنت قـد تصرفت تصرفاً يخالف ارادة أهلى ، وأننى لم أظهر لهم ما يستحقون من احترام• وها قد انقضى على ارسال الرسالة سبع سنين ! •••

سألته مبتسماً :

ـ وما من جواب حتى الآن ؟

ـ ما من جواب حتى الآن !

كذلك قال ضاحكاً هو أيضاً ، مقترباً بأنفه من وجهى مزيداً من الاقتراب ، ثم أضاف قوله :

ـ لى هنا خليلة يا ألكسندر بتروفتش !

ـ أنت ؟ لك هنا خليلة ؟

ـ قال أوفوفريف منذ زمن قصير : « لئن كانت خليلتى أنا مجدورة الوجه دميمة ، فهى تملك ثياباً كثيرة ؛ أما خليلتك فهى جميلة ولكنها متسولة تحمل على كتفها خرجاً » •

ـ أهذا صحيح ؟

ـ صحيح ! انها متسولة تستعطى الصدقات !

قال ذلك وخنق ضحكاً همّ أن يخرج من صدره ؛ وضحك سائر الحضور أيضاً • كان السجناء يعرفون أنه على صلة بشحاذة أعطاها عشر كوبكات في أكثر تقدير ، خلال ستة أشهر •

ـ طيب ! ماذا تريد منى ؟

كذلك سألته ، لأننى أردت أن أتخلص منه •

فصمت ثم قال لى بصوت رقيق وهو ينظر الىّ متوسلاً :

ـ أن تسقينى قدحاً من خمر ، فاننى لم أشرب منذ الصباح حتى الآن الا الشاى ؛ وهذا الشاى (كذلك تابع يقول بصوت عذب وهو يتناول المال الذى مددته اليه) يؤذينى كثيرا حتى لأكاد أصاب منه بداء الربو • ان بطنى تقرقر من كثرة شرب الشاى ، كما يقرقر الماء فى زجاجة !

حين تناول المال الذى مددته اليه بلغ بولكين من الكرب والكمد حداً لا يوصف ، فكان يتواثب ويتحرك كمن مسّه جن، وصاح يخاطب النكتة المبهوتة قائلا :

ـ أيها الناس الأخيار ، هـــل رأيتم الى كذبه ؟ ان كل ما يقوله كذب ، ان كل ما يقوله كذب ! ...

فصاح السجناء يسألونه وقد أدهشتهم حماسته الشديدة :

ـ فيم يعنيك هذا ؟ ألا ان أمرك لغريب !

فتابع بولكين يقول وهو يجيل عينيه بينهم ، ويضرب ألواح السر'ر' بقبضه يده بكل ما أوتي من قوة :

ـ لن أسمح له بأن يكذب ! لا أريد أن يكذب !

ضحك الجميع . وحيَّاني فارلاموف بعد أن أخذ المال ، وأسرع يمضي الى الخمار مكشراً . وفي تلك اللحظة انما لاحظ بولكين . قال له وهو يقف على عتبة الثكنة ، كأن بولكين شخص لا غنى له عنه في تنفيذ مشروع قائم في ذهنه :

ـ هيَّا بنا !

ثم أضاف يقول له باحتقار وهو يدفعه أمامه :

ـ هيَّا أيها الكرة !

وعاد يعذّب أوتار آلته الموسيقية ، البالالايكا ...

فيم استرسل في وصف هذا الجنون كله ؟ لقد انتهى ذلك النهار الخانق أخيرا . نام السجناءُ على مضاجعهم نوما ثقيلا . انهم يتكلمـــون ويهذون أثناء نومهم في تلك الليلة أكثر مما كانوا يتكلمون ويهـذون أثناء نومهم في غيرها من الليالي . وبقيت حلقات منهم تلعب بالورق . لقد انقضى العيد الذي طالما انتظروه بصبر فارغ . وغداً يُستأنف العمـــل اليومي ، غداً تُستأنف الأشغال الشاقة ...

١١

التمثيل

أقيمت حفلة التمثيل الأولى على مسرحنا فى مساء اليوم الثالث من أيام العيد . ولقد بذلت جهود كثيرة فى سبيل اقامة هذه الحفلة ، ولكن الممثلين هم الذين أخذوا كل شىء على عاتقهم ، فكان سائر السجناء لا يعرفون الى أين وصل الاستعداد لاقامة الحفلة المقبلة ، ولا كانوا يعرفون ما الذى كان يجرى ؛ حتى لقد كنا لا نعرف على وجه الدقة ما الذى سيمثله الممثلون . كان الممثلون ، أثناء هذه الأيام الثلاثة ، يتوسلون بأنواع الحيل لجمع أكبر مقدار ممكن من الملابس ، وذلك حين ذهابهم الى العمل . كان باكلوشين ، كلما التقيت به ، يطقطق أصابعه غبطةً وابتهاجاً ، ولكنه لا يذكر لى شيئاً . أعتقد أن الميجر كان طيب المزاج مشرق النفس . على اننا كنا نجهل جهلاً تاماً هل وصل الى مسامعه شىء عن الحفلة التمثيلية ، وهل أذن بها أم هو قرر أن يصمت وأن يغمض عينيه عن نزوات السجناء بعد أن تأكد من أن كل شىء سيجرى على خير ما يرام ، ولن يخل بالنظام . أظن أنه قد سمع عن الحفلة التمثيلية ، ولكنه لم يشأ أن يتدخل فى الأمر ، لأنه كان يدرك أن الأمور قد تجرى مضطربة مختلة اذا هو منع اقامة هذه الحفلة ؛ وأن السجناء قد يعمدون الى الشغب والسكر والعربدة ، فمن الأفضل اذن أن

يشغلوا أنفسهم بشيء ما • ولئن كنت أقدّر أن الميجر قد فكّر على هذا النحو ، فلان هذا هو الشيء الطبيعي ، حتى ليمكن القول ان على ادارة السجن ان تتولى بنفسها ايجاد تسلية ما اذا لم يقم السجناء حفلة تمثيلية• ولكن لما كان الميجر يتميز باراء تعارض اراء سائر افراد الجنس البشري ، فان من الواضح انني اتحمل مسئولية كبيرة حين اؤكد أنه كان على علم بمشروعنا وانه قد اذن به • ان رجلاً مثله لا بد له دائماً من ان يسحق انساناً ، أن يخنق مخلوقا ، أن ينتزع شيئا ، أن يحرم احدا من حق ؛ أي أن يفرض النظام في كل مجال • وهو معروف بهذا في المدينة كلها • كان لا يهمه قط أن تثير أعماله حفيظة السجناء وأن تحدث في السجن اضطرابات وعصيانات ، فان لمثل هذه الذنوب التي قد يرتكبها السجناء عقوبات تنزل فيمن يرتكبها (هناك أناس يفكرون على طريقة هذا الميجر) ، وما ينبغي أن تستعمل مع هؤلاء السجناء الأوغاد الا قسوة لا ترحم ، وحسب المسئولين عن تنفيذ القانون أن يطبقوا القانون بلا هوادة وكفى ! ••• ان هؤلاء العجزة المسئولين عن تطبيق القانون لا يدركون أبداً أن تطبيق نصوص القانون بغير فهم لروح القانون يؤدي الى الاضطرابات رأساً • انهم يقولون : « ذلك ما ينص عليه القانون ، فماذا تريدون زيادةً على ذلك ؟ » ، حتى لقد يدهشهم حقاً أن تطلب منهم ، عدا تنفيذ القانون ، أن يكون لهم شيء من صدق الاحساس وسلامة التفكير • وسلامة التفكير هذه هي التي تبدو لهم زائدة لا محل لها بوجه خاص ، فهي في نظرهم ترف لا لزوم له ، ترف يثير موجدتهم ويوقظ حنقهم ويعزز تعصبهم •

مهما يكن من أمر فان صف الضابط لم يعارض في اقامة الحفلة ، وذلك كل ما كان يرجوه السجناء • وأستطيع أن أقول صادقاً كل الصدق انه ان لم يكن قد حدث في السجن طوال أيام العيد أي اضطراب ذي

بال ، ان لم يكن قد حدث شيء من مشاجرات دامية أو سرقات ، فيجب أن نعزو ذلك الى أن السـجناء قد أذن لهم باقامة حفلة التمثيل . لقد رأيت بعيني رأسي كيف كان السجناء يقمعون الاضطراب الذي يحدثه رفاقهم ممن أسرفوا في الشراب ، وكيف كانوا يحولون دون نشوب الفتن والمشاحنات ، مخافة أن يؤدي ذلك الى منع اقامة الحفلة التمثيلية . لقد استقطع صف الضابط السجناء عهدا على انفسهم أن يكون سلوكهم حسنا وان يتقيدوا بالنظام وأن يجرى كل شيء هادئاً بغير اضطراب . وارتضى السجناء أن يقطعوا على أنفسهم ذلك العهد ، ثم وفوا بالعهد حق الوفاء : لقد كان يسرهم كثيرا ويرضى كرامتهم أشد الارضاء أن تُصدَّق العهود التي يقطعونها على أنفسهم . يُضاف الى هذا أن حفلة التمثيل لا تكلف ادارة السجن آية نفقة على الاطلاق . ولم يكن ثمة حاجة الى اخلاء مكان معين لنصب المسرح ، فقد جُعل المسرح قابلاً لأن ينصب وأن يُفك في أقل من ربع ساعة . وستدوم المسرحية ساعة ونصف ساعة ، فاذا صدر الأمر فجأة بوقف التمثيل كان في الامكان أن يختفي الديكور في مثل لمح البصر سرعةً . وقد خُبئت الملابس في صناديق السجناء . وسأعمد الآن ، قبل كل شيء ، الى الكلام على المسرح كيف بني ، وعلى الملابس كيف كانت ؟ وسأتكلم على البرنامج ، أي على المسرحيات التي يراد تمثيلها .

الحق أنه لم يكن هنالك برنامج مكتوب ؟ ولم يظهر برنامج مكتوب الا للحفلة الثانية أو الثالثة ، وهو برنامج كتبه باكلوشين للسادة الضباط وغيرهم من نبلاء الزوار الذين يتنازلون الى حيث يشرفون حفلة التمثيل بحضورهم ، وهم : ضابط الحرس الذي جاء مرة واحدة ، وآمر سرية الحراسة ، ثم ضابط من سلاح الهندسة. فتكريماً لهؤلاء الزوار انما كتب البرنامج .

كان السجناء يفترضون أن مسرحنا ستذيع شهرته بعيداً فى القلعة، حتى لقد تطير سمعته فى المدينة كلها ، لا سيما وأن مدينة ن ... ليس فيها مسرح واحد . كل ما هنالك أن بعض الهواة قد أقاموا حفلة تمثيلية فى المدينة ذات يوم . كان السجناء يغتبطون لأيسر نجاح يصيبونه ، كأنهم أطفال صغار ، وكانوا يباهون بأنفسهم ويمدحون أعمالهم . كانوا يقولون لأنفسهم: «لقد يعلم الرؤساء بالامر فيجيئون يشاهدون» ولسوف يعرفون عندئذ قيمة السجناء ، لان الحفلة التمثيلية التى سنقدمها ليست كحفلة يقيمها الجنود ويعرضون فيها مراكب طافية ودببة وتيوساً ، وانما هى مسرحية يقدمها ممثلون ، ممثلون حقيقيون يقدمون تمثيليات هزلية كتبت لعلية القوم . لن يكون فى المدينة كلها مسرح كمسرحنا ! يقال ان الجنرال آبرويسوف قد أقام فى منزله حفلة تمثيلية ، وان حفلة أخرى ستقام أيضاً ! طيب ... لقد يتفوقون علينا فى فخامة الملابس ... ذلك جائز ... أما « الحوار » فشأنه شأن آخر ... وسنرى من الذى يتفوق فيه ... لقد يسمع الحاكم نفسه بالحفلة التمثيلية التى سنقدمها . ومن يدرى ! قد يجيء لمشاهدتها . ليس عندهم مسرح فى المدينة » . والخلاصة أن خيال السجناء ، ولا سيما بعد النجاح الأول ، قد مضى بعيداً حتى صور لهم أن مكافآت قد توزع عليهم ، وأن أشغالهم الشاقة سينقص عدد ساعاتها ، فما هى الا لحظة حتى كانوا بعد ذلك أول الضاحكين من هذه الأخيلة التى نبتت فى رءوسهم . الحق أنهم كانوا أطفالاً رغم أن بينهم من بلغ الأربعين من العمر . اننى أعرف موضوع التمثيلية التى كانوا يريدون أن يقدموها ، أعرفه على وجه الجملة ، رغم أنه لم يكن ثمة برنامج معلن . ان عنوان المسرحية الأولى هو : «الغريمان فيلادكا وميروشكا »*» ولقد كان باكلوشين يتباهى أمامى قبل موعد الحفلة بأسبوع على الأقل بأن دور فيلادكا الذى سيتولى تمثيله سينجح نجاحاً

لم ير أحد مثله من قبل ، حتى ولا على مسارح سان بطرسبرج ! كان باكلوشين يتجول فى الثكنات فى زهو وخيلاء ، وقد بدت فى وجهه امارات الطيبة رغم كل شيء . فاذا اتفق أن ألقى بعض الاقوال التى يتضمنها دوره « على الطريقة المسرحية » انفجر الناس جميعاً ضاحكين ، سواء أكانت هذه الاقوال مضحكة أم لم تكن مضحكة ، فانما كان الناس يضحكون من هذه الأقوال لأن باكلوشين هو قائلها . يجب أن نعترف على كل حال ان السجناء كانوا يحسنون ضبط أنفسهم والمحافظه على وقارهم فالذين يتحمسون لأقوال باكلوشين انما هم الشبان الأغرار الذين لا يعرفون كيف يكظمون مشاعرهم أو هم السجناء العظماء الذين لا يخشون على سلطتهم القوية ومراكزهم الراسخة أن تتزعزع اذا هم عبروا عن احساساتهم أيةً كانت هذه الاحساسات . أما من عدا هؤلاء فقد كانوا ينصتون الى الضجات والمناقشات صامتين لا يلومون ولا يعارضون ، وانما يحاولون أن يتصرفوا تصرفاً فيه شيء من الاستخفاف والاحتقار ازاء المسرح ؛ ولم يظهر جميع السجناء اهتماماً بما سيرونه على المسرح وبما سيفعله رفاقنا الا فى آخر لحظة، أى فى يوم التمثيل نفسه. وكانوا يتساءلون : ترى ما عسى يكون رأى الميجر ؟ ترى هل تنجح الحفلة كما نجحت الحفلة التى أقيمت منذ سنتين ؟ الخ ... الخ ... وقد أكد لى باكلوشين أن جميع الممثلين « قد أحسن اختيارهم على خير وجه » وأن المسرح ستكون له ستارة وأن سيروتكين هو الذى سيمثل دور خطيبته فيلادكا . وأضاف باكلوشين يقول وهو يغمز بعينه ويصفق بلسانه سقف فمه : « لسوف ترى كم هو جميل فى ثياب امرأة ! » وذكر باكلوشين ان الجارة المحصنة سترتدى ثوباً له تخاريم وتخاريج وأنها ستحمل مظلة صغيرة وأن الجار سيرتدى بزة ضابط لها على الكتفين شارات وسيحمل بيده عصا . أما المسرحية الثانية التى ستمثل

بعد الأولى فعنوانها : «كدريل الشر»* . وقد حيرنى هذا العنوان كثيراً. ولكننى رغم جميع ما ألقيته من أسئلة لم أستطع آن أعرف عن التمثيلية شيئاً قبل تقديمها . كل ما عرفته أن هـــذه المسرحية لم تكن مطبوعة ، وانما هي نسخة مخطوطة أخذت من صف ضابط محال على المعاش فى الضاحية كان قد اشترك هو نفسه فى تمثيلها حتماً فى الماضى على مسرح عسكرى بمكان من الأمكنة . والواقع أن لدينا فى المدن البعيدة والأقاليم النائية تمثيليات كثيرة من هذا النوع لم يعرف بها أحد قط ، ولم تطبع فى يوم من الأيام ، وانما هى ظهرت من تلقاء نفسها فى الوقت المناسب لتغذى المسرح الشعبى فى بعض الأماكن الروسية .

واذا قلت « المسرح الشعبى » فانه من المفيد جداً أن يهتم الباحثون الذين يدرسون الأدب الشعبى بالقيام بدراسات دقيقة مستفيضة عن هذا المسرح الذى قد لا يكون تافها الى الحد الذى يتصــوره بعض الناس . أنا لا أستطيع أن أصدق أن كل مارأيته فى سجننا كان من عمل السجناء، فان هذا الذى رأيته لا بد له من تقاليد سابقة وقواعد مقررة ومعــارف تتناقلها الأجيال . وهى تقليد وقواعد ومعارف يجب التماسها لدى الجنود وعمال المصانع فى المدن الصناعية وحتى لدى أبناء الطبقة المتوسـطة فى بعض المدن الصغيرة الفقيرة المجهولة . هى تقــاليد حُفظت فى بعض القرى وفى عواصم الأقاليم لدى خدم بعض كبار السادة من أصــحاب الأراضى بل اننى لا أعتقد بأن نسخ كثير من المسرحيات القديمــة انمــا تعددت وتكاثرت وانتشرت بفضل هؤلاء الخدم. لقد كان لقدماء أصحاب الأراضى ولكبار السادة فى موسكو مسارح خاصة يمثل عليها أقنانهم . وذلك هو أصل مسرحنا الشعبى الذى لا سبيل الى الممــاراة فى امارات نشأته وملامح أصله . أما مسرحية « كدريل الشر » فاننى رغم فضولى الشديد لم أستطع أن أعرف عنها شيئاً ، اللهم الا أن الشياطين تظهر على

المسرح وتقود كدريل الى الجحيم . ولكن ما معنى اسم « كدريل » هذا ؟ لماذا سمي «كدريل» ولم يُسمَّ «كيريل» ؟ هل أحداث المسرحية روسية أم هي أجنبية ؟ لم أستطع أن أجلو هذا السؤال . وقد أعلنوا آن المسرحية ستنتهي بمشهد « تمثيل صامت » تصاحبه موسيقى . ذلك كله يبشر بأن الحفلة ستكون شائقة . كان عدد الممثلين خمسة عشر ممثلاً ، وكانوا جميعاً على جانب عظيم من الخفة والنشاط والعزم . كانوا جميعاً يتحركون كثيراً ، وكانوا يتمرنون على التمثيل كثيرا ، وكانت التمرينات تتم وراء الثكنات في بعض الأحيان ، والممثلون يتوارون عن الأنظار ، ويبادون الناس بمظاهر السر والتخفي . الخلاصة أنهم كانوا يريدون أن يفاجئونا بشيء خارق لا نتوقعه .

كانت الثكنات في أيام العمل تُغلق في ساعة مبكرة مع هبوط الليل ، ولكن أيام عيد الميلاد تستثنى من هذه القاعدة . ففي أيام عيد الميلاد لا توضع الأقفال الا في نحو الساعة التاسعة . وقد سُمح بهذا خاصةً من أجل الحفلة التمثيلية . ولقد ظل المشرفون على التمثيل يرسلون الرسل في كل مساء من أيام العيد ضارعين الى ضابط الحرس في كثير من المذلة أن « يأذن باقامة الحفلة التمثيلية وأن لا يغلق باب الثكنة قبل الأوان » ، مضيفين الى ذلك قولهم ان حفلةً قد أقيمت في الليلة البارحة فلم يحدث شيء يعكر صفو الأمن أو يخل باستتباب النظام. فكان ضابط الحرس يفكر في الأمر على النحو التالي : لم تقع أية فوضى، ولم تحدث أية مخالفة للنظام في يوم الحفلة ؟ وما داموا قد قطعوا على أنفسهم عهداً بأن سهرة الليلة ستجرى كما جرت سهرة البارحة ، فسوف يكونون هم أنفسهم شرطةً تحافظ على استتباب الأمن ، وهم في هذا أقوى شرطة . ثم ان ضابط الحرس كان يعلم حق العلم أنه لو منع الحفلة فان هؤلاء الرجال (ومن يدرى ما عسى أن يفعله سجناء !) قد

يرتكبون حماقات تضع ضباط الحرس في حرج هم في غنى عنه • وثمة سبب آخر كان يشجع ضابط الحرس على الاذن باقامة الحفلة التمثيليه ، هو أن الحراسة مملة جداً ، فاذا هو اذن بتمثيل المسرحية الهزلية استطاع أن يسرِّي عن نفسه بمشاهدة تمثيلية لا يمثلها جنود بل سجناء، وذلك أمر شائق ما في ذلك ريب ، وسيكون في وسعه أن يشهد الحفلة• فاذا اتفق أن وصل آمر الحرس فسأل عنه كان في الامكان أن يجاب بأن الضابط قد مضى يعد السجناء ويغلق الثكنات ، وذلك جواب صحيح وتبرير سهل • ولهذا انما سمح مراقبونا باقامة حفلة التمثيل في جميع أماسي العيد • فكانت الثكنات لا تغلق مساءً الا في موعد النوم ؛ وكان السجناء يعلمون سلفاً أن الحرس لن يعارضوا فيما عقدوا النية عليه ، وكانوا من هذه الناحية مطمئنين •

في نحو الساعة السادسة جاءني بتروف ، فذهبنا معاً الى القاعة التى سيجرى فيها التمثيل • كان جميع سجناء ثكنتنا تقريباً حاضرين ، باستثناء متعبد تشرنيجوف والبولنديين • فان هؤلاء لم يعزموا أمرهم على حضور التمثيل الا في آخر مساء ، وهو مساء اليوم الرابع من كانون الثاني (يناير) ، بل انهم لم يعزموا أمرهم على ذلك الا بعد أن اقتنعوا بأن كل شيء كان لائقاً مرحاً هادئاً لا مأخذ عليه ولا مطعن فيه • وكان ما يظهره البولنديون من تعالٍ واحتقار لا يثير سخط السجناء قط ، لذلك استقبلهم السجناء في مساء اليوم الرابع من كانون الثاني (يناير) في كثير من الأدب واللطف ، حتى لقد أجلسوهم في أحسن الأماكن• أما الشراكسة وأشعيا فومتش فقد سُروا بالتمثيل أشد السرور ، وابتهجوا له أكبر الابتهاج • وكان أشعيا فومتش يدفع في كل مرة ثلاثة كوبكات ، بل لقد أسرف في اليوم الأخير فوضع في الصحن عشر كوبكات لا ثلاثاً ، وكانت السعادة مرتسمةً على أسارير وجهه واضحةً كل الوضوح •

كان السجناء قد قرروا أن يدفع كل مشاهد من المشاهدين المبـــلغ الذى يشاء • وكان المفروض أن يغطى ريع الحفلات نفقات اقامتها، وأن يوزع الفـــائض على الممثلين • وقد أكد لى بتروف أننى سأخص بمكان من أحسن الامكنة ، مهما يكن المسرح غاصاً بالمشاهدين ، أولاً. لأننى أغنى من الآخرين ، فمن الممكن أن أتبرع بأكثر مما يتبرع به الآخرون ، وثانيا لأننى أفهم فى شئون التمثيل أكثر مما يفهم أى واحـــد • وقـد تحققت نبوءة بتروف • ولكن فلأصف القاعة وبنـاء المسرح قبل كل شيء •

ان ثكنة القسم العسكرى التى جُعلت قاعةً للمسرح ، يبلغ طولها خمس عشرة قدماً ؛ ومن فناء السجن ، يدخل المـرء اليها على درجات المدخل ماراً بحجرة تقع بعد المدخل • وهذه الثكنة الطويلة مبنية عـلى طراز خاص كما سبق أن ذكرت ذلك ، فالمضـــاجع تصطف فيها على الجدار ، تاركةً فى الوسط مكاناً خالياً • ولقد جُعل النصف الأول من الثكنة للمشاهدين ، أما النصف الثانى الذى يتصل بمبنى آخر فقد جُعل مسرحاً • والستارة هى التى أثارت دهشتى وعجبى أكثر من أى شيء آخر • انها تقسم الثكنة قسمين ، على طول عشرة أقدام ، وهى معجزة من المعجزات يحق للمرء أن يعجب بها أشد الاعجاب • لقد رسمت عليها بألوان الزيت رسوم شتى : أشـجار وأكواخ وغدران ونجوم • وهى ملفقة من أقمشة جديدة وملابس قديمة تبرع بها السجناء : قمصـــان وأعصبة مما يتخذه فلاحونا جوارب لأقدامهم ؛ وقد خيط ذلك كله بعضه ببعض خياطة محكمة فتألف منه بساط كبـــير ؛ وحيث نقص القماش استعيض عنه بورق استعطاه السجناء قطعةً قطعةً من مختلف الادارات والدواوين • وقد تولى الرسامون منا (وبينهم برولوف أى آ ••• ف) زخرفة الستارة كلها ، فكان منظرها رائعاً حقاً ، سُرَّ به السجناء سروراً

عظيماً ، حتى لقد حظى باعجاب أكثرهم كآبة وأعظمهم تشدداً وتزمتاً . على أن هؤلاء أنفسهم قد ظهروا منذ بداية التمثيل كالأطفال حقاً ، يستوون فى هذا مع المندفعين والمتحمسين ولا يختلفون عنهم . لقد كانوا جميعاً مسرورين ، حتى لقد كانوا يشعرون بغير قليل من الزهو . وكانت الاضاءة تتالف من بضع شموع قسمت قطعا صغيرة . ولقد جيء من المطبخ بمقعدين طويلين وضعا أمام الستارة ، كما استعيرت من غرفة ضباط الصف ثلاثة كراسى أو أربعة من باب الاحتياط ليجلس عليها الضباط الكبار اذا هم حضروا الحفلة . أما المقعدان الطويلان فهماالضباط الصف وجنود الهندسة ونظّار الأعمال وسائر الرؤساء الذين يشرفون على السجناء دون أن تكون لهم رتب ضباط والذين قد يجيئون لالقاء نظرة على حفلة التمثيل . والحق أن المسرح لم يعوزه الزوار . لقد كان عددهم يختلف قلة وكثرة باختلاف الايام ، ولكن المقاعد لم يبق فيها مكان واحد خالٍ فى الليلة الأخيرة . ووراء المقاعد كان يزدحم السجناء واقفين حاسرى الرءوس احتراماً للزوار ، مرتدين صدرات أو فروات قصيرة ، رغم الحر الخانق الذى يملأ جو القاعة . وكما تتوقعون، كان المكان أضيق من أن يتسع لجميع السجناء . فكانوا يتكدسون بعضهم فوق بعض ، ولا سيما فى الصفوف الأخيرة ، حتى لقد احتلوا المضاجع وشغلوا الكواليس . وكان هناك هواة حرصوا على أن يختموا وراء المسرح فى الثكنة الأخرى ، فكانوا يشاهدون التمثيلية من آخر الكواليس .

اقتادونا أنا وبتروف الى مكان قريب جداً من المقاعد ؛ فمن كان فى ذلك المكان استطاع أن يشاهد التمثيل خيراً مما يستطيع ذلك من كان فى آخر القاعة . لقد كنت فى نظرهم حكماً ممتازاً ، كنت فى نظرهم انساناً خبيراً رأي مسارح أخرى كثيرة : كان السجناء قد لاحظوا أن

باكلوشين تداول معي الرأى في أحيان كثيرة ، وانه أظهر كثــيراً من الاحترام لنصائحى ، فقدَّروا أن عليهم أن يكرِّموني وان يخصــوني بمكان من أحسن الأماكن • ان هؤلاء الرجال أناس مغرورون طائشون، ولكن ذلك هو من الأمر ظاهره • لقد كانوا يسخرون مني في العمل ، لأنني كنت عاملاً رديئاً مخفقاً • وكان من حق ألمازوف أن يحتقرنا ، نحن السادة ، وأن يتباهي بحذقه في حرق الرخام• ان هذه الاستهزاءات وهذه الاستفزازات يرجع سببها الى الأصــــل الذى ننتمى اليه ، فنحن اناس ننتمي بأصلنا الى طبقة سادته القدامى الذين لا يمكن أن يحتفظ بذكرى حسنة عنهم • ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم يخصونني هنــا ، في المسرح ، بمكان ممتاز ، لأنهم يعترفون لأنفسهم بأنني في هذا المجال أدرى منهم وأعلم • وحتى الذين كانوا يضيقون بي ويحملون لى شيئا من الكره (أعرف ذلك من مصدر موثوق) كانوا يريدون أن يسمعوني ممتدحاً مسرحهم ، وكانوا ينزلون لى عن مكانهم دون أن يكون في هذا شيء من مذلة أو خنوع • انني أقضي في هـــذا الأمر الآن على أساس ما أحسست به أيامذاك • لقد أدركت حينئذ أن هذه المعاملة العادلة لم تكن تشتمل على أى استكانة منهم • بالعكس ••• لقد كانت تحمل معنى الشعور بكرامتهم • ان السمة التى يتميز بها شعبنا انما هى احســاسه بالعدل وظمؤه اليه• ان الشعب لا يشعر بغرور كاذب ، ولا يحس بكبرياء حمقاء تدفعه الى احتلال الصف الأول دون أن يكون له في ذلك حقوق• ان الشعب لا يعاني هذه الآفة ولا يتصف بهذا العيب • انزعوا عنه قشرة الفظاظة الظاهرة وادرسوه بلا أحكام سابقة وانظروا اليه من قرب تروا فيه مزايا لم تخطر لكم يوماً على بال • ليس هنالك الاّ أشــياء قليــلة يستطيع حكماؤنا أن يعلموها للشعب بل أزيد على ذلك فأقول ان عليهم هم أن يتعلموا في مدرسة الشعب •

حين قادني بتروف الى المسرح قال لي ببساطة وسذاجة انهم سيخصونني بمكان في المقدمة ، لأنني سأعطي مالاً أكثر مما يعطي غيري. لم يكن للأماكن أسعار محددة ، بل كان كل مشاهد من المشاهدين يعطي ما يحب اعطاءه وما يستطيع اعطاءه . وقد وضعوا جميعا قطعة من النقد في الصحن حين جمعت التبرعات . وانني لأتساءل : لئن قدموني على غيري أملاً في أن أدفع من المال أكثر مما يدفع غيري ، أفليس يشتمل هذا على شعور عميق بالكرامة الشخصية ؟ لكأنهم كانوا يقولون لي : « انت أغنى منا ، فاحتل المكان الأول ! صحيح أننا هنا متساوون ، ولكنك تدفع أكثر من غيرك ، ويترتب على ذلك ان مشاهداً مثلك يسر الممثلين ، فلك أن تحتل المكان الأول ، لا لأننا نحب هنا المال ونخصه بالتعظيم والاحترام ، بل لأن علينا أن نصنّف أنفسنا ، فاذا كل واحد يحتل المكان الذي يستحقه ! » . يا لها من كبرياء نبيلة تلك التي تشتمل عليها هذه النظرة الى الأمور ، وتشتمل عليها هذه الطريقة في السلوك ! ليس المال كلَّ شيء هنا ، وانما الأمر أمر احترام للنفس في التحليل الأخير ! كان السجناء لا يسرفون في تقدير الثراء . ولست أذكر أن أحداً منا قد أذل نفسه يوماً في سبيل الحصول على مال . أستطيع أن أؤكد هذا ولو استعرضت جميع من كانوا في السجن . ولئن استعطاني بعضهم أحياناً فلقد فعل ذلك من باب المكر والدهاء والحيلة أكثر مما فعله في سبيل الربح نفسه . كان ذلك امارة من امارات مرح النفس وحسن المزاج وبراءة الطبع . لست أدري ، على كل حال ، هل وفقت الى التعبير عما أردت التعبير عنه بجلاء ووضوح ... ولكن أراني قد نسيت المسرح فلأعد اليه .

كانت القاعة قبل رفع الستارة تمثل مشهداً غريباً مليئاً بالحركة والحياة . الحشد متراص متزاحم متدافع في كل جهة من الجهات ،

ولكنه صابر ينتظر ابتداء التمثيـل مشرق الوجه متهلل الأسـارير • وفي الصفوف الاخيرة تتراكم كتلة مضطربة من السجناء : ان كثيراً منهم قد جاءوا من المطبخ بحطب أسندوه الى الجدار وتسلقوا عليه • لقد قضـوا ساعتين كاملتين وهم على هذا الوضع المتعب متكئين بأيديهم على أكتـاف رفاقهم راضين كل الرضى عن أنفسهم وعن أماكنهم • وهؤلاء آخرون قد وضعوا أقدامهم فيما يشبه القوس أو القنطـــرة على آخر درجة من درجات المدفأة ثم لبثوا على هذه الحال طوال مدة التمثيل يسندهم أولئك الذين كانوا أمامهم في آخر القاعة قرب الجدار • وعلى المضاجع ، في جانب ، تكدّس كذلك جمهور كثيف متراص ، لأن هذه الأماكن كانت خير الأماكن • وهؤلاء خمسة سجناء هم أحسنهم حظاً قد صعدوا فـوق المدفاة ورقدوا عليها وأخذوا ينظرون الى تحت : لقد كان هؤلاء يسبحون في غبطة عظيمة ونشـــوة كبيرة • وعلى الطرف الآخـــر كان يزدحم المتأخرون الذين وصلوا بعد غيرهم فلم يجدوا أماكن جيدة يسـتقرون فيها • وكان الجميع يراعون قواعد الحشمة وآداب السلوك فلا ضـجة ولا جلبة ولا ضوضاء • وكان كل واحد منهم يحرص على أن يظهـر بمظهر حسن أمام السادة الذين يزورون المسرح • ان انتظاراً ساذجاً بريئاً يرتسم على هذه الوجوه الحمراء التي خضلتها الحرارة الخانقـة بعرق غزير • ما أروع هذا الفرح الطفولي ! ما أرشق هـــذا السرور الخالص الذي لا تشوبه شائبة في تلك الوجـوه المغضـنة وعلى هـــذه الجباه والخدود الموشومة التي كانت قبل ذلك قاتمة مظلمة كالحة جهمة والتي كانت تسطع أحيـــاناً بنارٍ رهيبة ! ولقـد كانوا جميعاً حاسري الرؤوس • واذ كنت في الجهة اليمنى فقد بدا لي أن رؤوسهم محلوقة تماماً • وفجأة سُمعت على المسرح ضجة وقامت جلبة ••• سوف تُرفع الستارة ••• أخذت الأوركسترا تعـزف ••• ان هـــذه الأوركسترا

تستحق أن أتكلم عنها قليلاً • هم ثمانية موسيقيين جلسوا على المضاجع : اثنان يعزفان على الكمان (ان احدى الكمانين كانت ملكا لاحد السجناء أما الكمان الأخرى فقد استعيرت من خروج القلعة ، والفنانون جميعا من السجناء) ، وثلاثة يعزفون على آلات بالالايكا صنعها السجناء بانفسهم ، واثنان يعزفان على القيثارة ، وواحـــد يضرب على دف • فاما الكمانان فكانتا لا تزيدان على الانين والصرير ، وأما القيثارتان فلا قيمة لهما : ولا كذلك آلات البالالايكا فقد كانت رائعة ! كانت أصابع الفنانين تتحرك بخفة ورشاقة يمكن أن يعتز بهما أبرع الحـــواة • كاد الموسيقيون ان لا يعزفوا الا ألحان رقص • وكانوا في اللحظات المندفعة من عزفهـم يقرعون بالاصبع ألواح آلاتهم على حين فجأة ؛ وكان عزفهم كله اصيلاً شخصياً ، منسجم الايقـــاع ، رفيع الذوق ، محكم الضرب ، متسلسل النغم • وكان أحد العازفين على القيثارة يمـــلك ناصية آلته • انه ذلك الفتى الذي قتل أباه • أما الضارب على الدف فقد كان معجزا حقا • كان يدير الدف على أصبع من أصابعه أو يجر ابهامه فوق الجلد فاذا نحن نسمع ضربات متكررة واضحة رتيبة سرعان ما تتكسر على حين فجاة ثم اذا هي تعود تتدفق نغمات صماء صغيرة موشوشة متواثبة • وقد انضم الى هذه الأوركسترا فيآخر الأمر موسيقيان يعزفان على آلتي هارمونيكا• حقاً انني لم أكن أتصور ما يمكن استخراجه من هـــذه الآلات الشعبية الغليظة الفظة • فلما سمعت هذه الموسيقى دُهشت أشد الدهشة ! لقد استطاع هؤلاء العازفون أن يؤدوا الألحان على أحسن وجه ، فاذا هي لا تخلو من براعة الانسجام وحسن التناغم وجمال العزف ، واذا هي تمتلىء بالتعبير خاصة ، وتجيـــد ابراز النغم ابرازاً رائعاً • لقد أدركت عندئذ حق الادراك ، لأول مرة ، ما يتدفق في ألحان رقصاتنا الشـــعبية وأغانينا الرائجة من قوة هائلة واندفاع عظيم • ورُفعت الستارة أخيراً•

تحرك كل من فى القاعة • والذين كانوا فى آخر الصفوف انتصبوا على رؤوس الاقدام • وهذا واحد يسقط عن قطعة الحطب التى كان متسلقاً عليها • وفغر الجميع أفواههم وحملقوا بأعينهم : ان صمتاً كاملاً يسود القاعة كلها ••• لقد بدأ التمثيل •

كنت جالساً غير بعيد عن « على » الذى كان فى وسط الحلقة التى تتألف من اخوته ومن الشراكسة الأخر • كان هؤلاء مولعين بالمسرح ولعا شديدا ، فلم يتخلفوا عن الحضور مرة واحدة • لقد لاحظت ان جميع المسلمين ، من تتر وغيرهم ، كانوا يحبون التمثيل بجميع أنواعه حبا عظيماً • وعلى مقربة من هؤلاء كان يوجد آشعيا فومتش • انه منذ ر فعت الستارة أصبح كله عيونا تبصر وآذانا تسمع • كان وجهه يعبر عن انتظار ساذج نهم شره الى معجزات ومباهج ومسرات ومتع ، فلو قد خاب أمله لشعرت من ذلك بحسرة كبيرة ولوعة شديدة • وكان وجه على الفاتن الآخاذ يسطع بفرح يبلغ من التعبير عن براءة الطفولة وطهارتها أننى كنت سعيداً كل السعادة من مجرد النظر اليه• وكنت كلما ترجّعت أصداء ضحكة عامة لنكتة بارعة أو رد هزلى التفت نحوه على غير ارادة منى لأرى وجهه • لم يكن على يلاحظنى • ان هناك أشياء أخرى تشغله عن التفكير فىّ ! وعلى مقربة من مكانى على اليسار كان هناك سجين متقدم فى السن مظلم الوجه ساخط النفس كثير النقد • لقد لاحظ هو أيضا الفتى علياً فكان يختلس النظر اليه من حين الى حين مبتسما بعض الابتسام ، فالى هذا الحد كان الفتى الشركسى فاتنا ! ان هذا السجين كان يطلق على على دائماً اسم « على سيميونتش » لا أدرى لماذا ! بدأ التمثيل بمسرحية « فيلادكا وميروشكا » • فكان دور فيلادكا الذى مثله باكلوشين رائعا كل الروعة • لقد مثل باكلوشين هذا الدور على أكمل وجه • كان واضحا أنه يزن كل جملة يقولها وكل حركة يجريها • لقد استطاع أن

يضفي معنى على أيسر كلمة وأيسر حركة ، معنى يصوّر طبع الشخصية التي يمثلها أصدق تصوير•أضف الى هذه الدراسة الدقيقة مرحاً لاتكلف فيه ، ولا سبيل الى مغـالبته ومقاومته ، وبساطةً لا تعمل فيهـا وانطلاقا طبيعيا بغير اصـــطناع • فلو شاهدتم باكلوشين وهو يمثل هـذا الدور لاعترفتم حتما بأنه ممثل كبير خلق للتمثيل وأوتي موهبة عظيمة • لقد شهدت مسرحية فيلادكا على مســـارح موسكو وبطرســـبرج غير مرة ، ولكني أستطيع أن أؤكد جازماً انني لم أر في هاتين العاصمتين فناناً واحداً يضارع باكلوشين براعةً في تمثيل هذا الدور • كان الممثـــلون هنالك يمثلون أدوار فلاحين يمكن أن تنســـبهم الى أي بلد من البلاد ، ولا يمثلون فلاحين روسيين حقيقيين (موجيك) • كانت رغبتهم في «تمثيل» أدوار الفلاحين تمثيلاً ، واضحة مسرفة في الوضوح ، ظاهرةً مفرطة في الظهور • ولا كذلك باكلوشين • وكان التنافس يحض باكلوشـين ويثير حماسته ، ذلك أن المشاهدين كانوا يعرفون أن السجين بوتسياكين سيمثل دور كدريل في المسرحية الثانية ، وكانوا يعتقدون ــ لا أدري لماذا ــ أن بوتسياكين موهوب أكثر من باكلوشين • فكان باكلوشين يتألم من تفضيل صاحبه عليه كما يتألم طفل من الاطفال • كم من مرة جاءني في الأيام الأخيرة ليفصح لي عن عوالج نفسه ومرارة قلبه ! وقد انتابت الحمى باكلوشين قبل بدء التمثيل بساعتين • فلما كان الجمهور ينفجر ضاحكاً ويصيح قائلاً : « مرحى باكلوشين ! انك لممثـل قدير ! » كان وجهه يتألق سعادة ، وكان يسطع في عينيه الهام حقيقي • وحين ظهـر المشهد الذي يتعانق فيه ميروشكا وفيلادكا ويقبل كل منهما الآخـــر ، فيصيح فيلادكا قائلاً لصاحبه : « جففي فمك » انفجر الناس ضـاحكين ملء صدورهم من براعة الفكاهة • ان المشاهدين هم الذين شدوا انتباهي أكثر من كل شيء ، وهم الذين شاقني أمرهم أكثر من غيرهم • لقـد

استرخوا جميعا واستسلموا للمرح استسلاما صريحاً لا تحفظ فيه ، وكانت صيحات الاستحسان ما تنفك تزداد قوة . هذا سجين يلكز رفيقا بكوعه وينقل اليه مشاعره على عجل دون أن يهمه أن يعرف من ذا الذي كان الى جانبه . حتى اذا بدأ مشهد هزلى ثانٍ التفت سجين آخر الى وراء ، بقوة وعنف ، وهو يحرك يديه ويلوح بذراعيه ، كأنما ليهيب برفاقه أن اضحكوا ، ثم ما لبث أن استدار نحو المسرح . وهذا سجين ثالث يصفق سقف فمه بلسانه ولا يستطيع أن يبقى ساكناً ولا أن يستقر على حال . ولكن المكان ضيق فهو لا يملك أن يغير وضعه فلا يسعه الا أن يقرع الأرض باحدى قدميه . ولقد بلغ المرح أوجه في ختام المسرحية. الناس جميعا يضحكون مقهقهين . لست أبالغ في شيء ! تصوروا السجن، والسلاسل التي تكبل الأرجل ، والأسر الذي يحبس الرجال ، والسنين الطويلة التي تنقضي نفياً وسخرة وأشغالاً شاقة ، والحياة الرتيبة التي تجرى على وتيرة واحدة وتتساقط قطرة قطرة ان صح التعبير ، والأيام المظلمة القاتمة من أيام الخريف ، تصوروا هذا كله وتصوروا هؤلاء السجناء المكبوتين وقد أُذن لهم على حين فجأة أن يفرحوا وأن يمرحوا وأن يتنفسوا ملء صدورهم خلال ساعة ، وأن ينسوا كوابيسهم وأن ينظموا حفلة يا لها من حفلة ، حفلة تثير حسد المدينة كلها واعجاب المدينة كلها ، فاذا الناس بالمدينة يقولون : «انظروا الى هؤلاء السجناء !» لقد كان كل شيء يشوق هؤلاء السجناء ويستثير اهتمامهم شد انتباههم . الملابس مثلاً : ما كان أشد فرحهم حين يرون فاتكا أو نتسفياتايف أو باكلوشين في رداء آخر غير الرداء الذي كان يرتديه كل منهم منذ سنين طويلة . « هو سجين .. سجين حقيقي تحلحل السلاسل في قدميه حين يمشي وها هو ذا مع ذلك يدخل المسرح لابساً ردنجوتاً واضعاً على رأسه قبعة مدورة متدثراً بمعطف كواحد من المدنيين . وقد

اتخـذ لنفسه شعراً مستعاراً وشاربين مصنوعين وهو يخـرج من جيبـه منديلاً أحمر فينفضه كما يفعل سيد من السادة وشريف من الاشراف»• لذلك بلغت حمـسة المشاهدين أقصاها ووصلت الى ذروتهـا • ويظهـر « الملاك المحسن » لابساً بزة عسكرية هي بزة عتيقة خلقـة رثة والحق يقال ، لكن على كتفيها شارات مذهبة ، وفوقها قبعة ذات ريش : لقـد أحدث ظهوره اثراً لا يوصف • هل تصدقون أن اثنين من السجناء قد اختصما وتشاجرا كطفلين ، متنافسين على تمثيل هـذا الدور من فـرط حبهما لارتداء هذه البزة العسكرية ؟ لقد كانا كلاهما يحبان أن يظهـرا ببزة ضابط ذات شارات ؟ • لقد تشاجر الرجلان حقا واوشكا أن يقتتلا ولكن الممثلين الآخرين فصـلوا بينهم وحالوا دون اقتتالهما ، وقررت أكثرية أصواتهم أن يعهد بهذا الدور الى تسفياتايف ، لا لانه مؤهـل بمزاياه لتمثيل هذا الدور أكثر من صاحبه ، ولا لانه أقـرب منه شبهاً بسادة من السادة، ولكن لأنه أكَّد لهم جميعاً أنه يملك عصا منخيزران سيلوح بها أثناء التمثيل ويديرها هنا وهناك ويقرع بها الأرض كما يفعل شريف من الأشراف ، أنيقاً على آخر موضة ، وذلك أمر لا يستطيع أن أن يحاوله فانكا أو تسيباتين الذي لم يعرف أناساً من طبقة النبلاء فييوم من الأيام • وقد حدث ذلك فعلاً ، فحين دخل تسفياتايف الى المسرح مع زوجته ، طفق يرسم على الأرض دوائر سريعة بعصـاه الخفيفـة التي لا يدري أحد من أين جاء بها • لا شك أنه كان يعد ذلك علامة المحتد والنبل والتربية الراقية والأناقة الرفيعة • لعله كان في طفولته أيام لم يكن الا قناً حافي القـدمين قد افتتن بحذق سـيد من السادة في ادارة عصاه ، فرسخت هذه الذكرى في خياله الى الأبد لا تمحي ولا تزول ، ثم اذا هي الآن تستيقظ في ذاكرته وهو في الثلاثين من العمر ، فيريد أن يفتن بها هو أيضاً رفاق سجنه • لقد بلغ تسفياتايف من استغراقه في

هذه المهمة أنه كان لا ينظر الى أحد حتى لقد كان ينطق بكلامه ويلقى أجوبته دون أن يرفع عينيه ، فان طرف عصاه والدوائر التى كان يرسمها هى التى كانت تشغله وتصرفه عن كل ما عدا ذلك • وكان دور الجارة المحسنة رائعا أيضا • ظهـــرت على المسرح فى ثوب عتيق مهترىء من الموسلين ، يشبه أن يكون أســـمالا رثة باليه ، وكانت عارية الذراعين والعنق ، مثقلة الوجه بالمساحيق ، واضعةً على راسها قبعة صـغيرة من نسيج قطنى تشدها خيوط معقودة عند الذقن ، حاملةً باحدى يديها مظلة صغيرة وباليد الآخـــرى مروحة من ورق ملون ما تنفك تحركهـا أمام وجهها • لقد استقبل الجمهور ظهور هذه السيدة العظيمة بضحك مجلجل مجنون فلم تملك هى نفسها أن تكظم مرحها فانفجرت ضاحكة غير مرة• ان السجين ايفانوف هو الذى قام بهذا الدور • أما سيروتكين الذى كان يرتدى ثياب فتاة ، فقد كان جميلاً جداً ؛ وقد أحسن الممثلون تبادل الحوار والقاء الشعر• الخلاصة ان المسرحية قد انتهت على رضى الجمهور عنها وابتهاجه بها واغتباطه لها ولم يتصد أحد بكلمة نقد واحدة • وأنى لأحدٍ أن يوجه أى نقد على كل حال !

وعزفت الأوركسترا الافتتاحية مرة أخـــرى « غرفتى الصغيرة ، يا غرفتى الصغيرة » * • وأعيد رفع الستارة • سيمثلون الان مسرحيـة «كدريل الشره» • ان مسرحية كدريل تشبه مسرحيـة دون جوان • وهذا التشبيه صحيح ، لأن الشياطين تخطف السيد والخادم وتمضى بهما الى الجحيم فى آخر المسرحية • ولقد تلى نص المخطوطة كاملاً ، ولكن كان واضحاً أن النص الذى تلى لم يكن الا جزءاً من المسرحية • فأغلب الظن أن بداية المسرحية وخاتمتها قد ضاعتا ، لأن ما شهدناه لم يكن له رأس ولا ذنب • ان المشهد يجرى فى نزل يقع فى مكان ما من روسيا• وصاحب النزل يُدخل سيداً من السادة الى غرفة بالنزل ، والسيد يرتدى

معطفا ويضع على رأسه قبعة مدوّرة مشوّهة ؛ والخادم كدريل يتبع سيده ، حاملا حقيبة ودجاجة ملفوفة بورق أزرق • ان الخادم يرتدى فروة قصيرة ، ويضع على رأسه طاقية وصيف • وهذا الخادم هو الرجل الشره • ان السجين بوتسيايكين ، منافس باكلوشين ، هو الذى يمثل هذا الدور • أما شخصية السيد فقد مثلها ايفانوف الذى كان يمثل دور السيدة العظيمة فى المسرحية الأولى • ان صاحب النزل (تسفياتايف) ينبه النزيل الى أن الغرفة يسكنها جن ، ثم يمضى لشأنه • والسيد النزيل حزين مهموم ، وها هو ذا يجمجم قائلا بصوت عالٍ انه يعرف ذلك منذ زمن طويل ، وها هو ذا يأمر كدريل بفض الحزم واعداد العشاء • وكدريل شره نهم ، وجبان رعديد ، فما ان سمع كلاماً عن الجن الذين يسكنون الغرفة حتى اصفر وجهه وأخذ يرتجف كورقة فى مهب الريح ؛ وهو يتمنى لو يفر ، ولكنه يخشى مولاه ، ناهيك عن أنه جائع • انه انسان يحب الملذات ، وهو غبى ، لكنه ماكر على طريقته الخاصة ، وهو نذل لئيم ، ما ينفك يخدع مولاه فى كل لحظة ، لكنه يخشاه مع ذلك كما يخشى النار • انه نموذج فذ من نماذج الوصفاء ، فيه السمات الأساسية التى يتصف بها ليبوريلو ، لكنها مختلطة مبهمة غير متميزة • وقد أحسن بوتسيابكين أداء هذا الدور وتصوير هذا الطبع إحسانا كبيراً ، فهو امرؤ يملك موهبة عظيمة لا مراء فيها ولا يمكن جحودها ، موهبةً تتفوق فى رأيى على موهبة باكلوشين نفسه • غير أننى قد أخفيت رأيى هذا عن باكلوشين حين التقيت به فى الغداة ، لأننى لو أفصحت له عن هذا الرأى لساءه ذلك ولأحزنه حزناً شديداً قاسياً •

أما السجين الذى مثل دور السيد فان تمثيله لم يكن رديئاً جداً • ان كل ما قاله لم يكن له كبير معنى ، ولا يشبه شيئاً من الأشياء ، ولكن الالقاء كان فصيحاً واضحاً ، وكانت الاشارات والحركات مناسبة موفقة •

وبينما كان كدريل عاكفاً على الحقيبة ، كان سـيده يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ويعلن أنه سيكف عن الطواف في العالم منذ اليوم . ويصغى كدريل الى كلامه ، ويصعّر وجهه ، ويضحك المشاهدين بملاحظاته وخواطره التي يعلنها للجمهور على حدة دون أن يسمعها مولاه . انه لا يشفق على سيده ولا يرأف به ، ولكنه سمع كلاما عن الشياطين ، فهو يريد أن يعرف ما هم الشياطين وكيف يكونون ، وها هو ذا يأخـذ يسائل في ذلك مولاه ؟ فيذكر له مولاه أنه حين ألمّ به في يوم من الأيام خطر الموت ، استنجد بالجحيم ، فاذا بالشياطين تهب الى نجدته وتنقذه ، غير أن زمان حريته قد انصرم ، فاذا جاءت الشياطين في هذا المسـاء ، فانما تجيء لتقبض روحه ، كما تم الاتفاق بينه وبينها على ذلك في عهد مقطوع وميثاق مبرم . أخذ كدريل يرتجف خوفا وفرقا ، ولكن سيده لا يفقد شجاعته ولا تبارحه رباطة جأشه ، وها هو ذا يأمر كدريل باعداد طعام العشاء . فاذا سمع كدريل بالطعام ردّت اليه روحه وانبعثت فيـه حميته ، فها هو ذا يفض الورقة التي لُفّت بهـا الدجاجة ، وها هو ذا يخرج زجاجة من خمر فيأخذ يشرب ويأكل خلسـةً . ان الجمهـور يغرق في ضحك شديد . ولكن البـاب يصر ، فان الرياح قد هزّت مصراعيه ، فيرتجف كدريل ، ويُسارع ، على غير شعور منه تقـريباً ، فيخفي في فمه لقمة كبيرة من لحم الدجاجة يعجز عن بلعها . وينفجر الجمهور ضاحكا من جديد . صاح يسأله مولاه الذي كان يذرع الغرفة طولاً وعرضاً : « هل أعددت الطعام ؟ » . فيجيبه كدريل قائلا : « حالا ياسيدي .. أنا .. بسبيل اعداده لك» . يقول كدريل ذلك وهو يجلس الى المائدة ويمضي في التهام العشاء . ان الجمهور مفتون بمكر هذا الخادم الذي يضحك على سيد من السادة بمثل هذا الحذق وهـذه البراعة . ولقد عرف كيف ينطق بقوله : حالاً يا سيدي .. أنا .. بسبيل اعداده

لك » . لقد قال كدريل هذه الجملة بمهارة تبعث على أشد الاعجاب . ويمضي كدريل يزدرد الطعام . ولكنه يرتجف عند كل لقمة يتناولها ، مخافه أن ينتبه اليه مولاه ؛ فكلما التفت سيده اختبأ تحت المائدة ممسكاً الدجاجة بيده . فلما هدأ جوعه قليلاً كان عليه أن يفكر في مولاه . فلما صاح به صاحبه « هلاّ فرغت من اعداد الطعام يا كدريل » ، هتف كدريل يقول في جرأة : « الطعام جاهز » ، بعد أن لاحظ أن لم يكد يبقى من الدجاجة في الصحن شيء ، الا فخذاً واحدة . والسيد ما يزال مظلم الوجه مهموم النفس ، فها هو ذا يجلس الى المائدة دون أن يلاحظ شيئا ، وها هو ذا كدريل يقف وراءه حاملا على ذراعيه منشفة . ان كل كلمة يقولها الخادم ، وكل حركة يجريها ، وكل تكشيرة يصـــطنعها ، متجهاً الى الجمهور ، مستهزئاً بمـولاه ، تثير في هؤلاء المشـــهدين من السجناء ضحكاً شديداً لا يغالب . وما ان يبدأ السيد الشاب في تنـاول طعامه حتى يدخل الشياطين . هاهنا يصبح كل شيء غامضاً مستعصياً على الفهم . ان هؤلاء الشياطين لا يشبهون البشر في شيء ، ولا يمتون الى الأرض بصلة . لقد فتح الباب الجانبي ، فظهر شبح متلفع بالبياض من أعلى الى أدنى ، رأسُه مصباح عليه شمعة ، ووراءه شبح آخر فوق رأسه سراج وفي يده منجل. ترى لمذا تلفع الشبحان بالبياض، ولماذا يحملان منجلاً وسراجاً ؟ ما من أحد يستطيع تعليل ذلك . والحق أن الحضور لم يعنوا بهذا كثيراً ، ذلك أمر محقق . وهبَّ السيد يواجه الأشـــباح بشجاعة ، ويهتف قائلاً انه متأهب وان في وسعهم أن يأخذوه . ولـكن كدريل ، الجبان كأرنب ، يختبيء تحت المائدة ، ولا ينسى رغم جزعه وهلعه أن يأخذ معه زجاجة الخمر . ويغيب الشياطين لحظة ، فيخرج كدريل من مخبئه ، ويشرع السيد في أكل دجاجته فيـدخل الى الغرفة ثلاثة شياطين ويقبضون عليه ليقودوه الى جهنم . فيصـيح : « انقـــذني

يا كدريل ! » ولكن لكدريل هموماً غير هذه الهموم ، فقد أخذ الزجاجة والصحن وحتى الخبز في هذه المرة واندس تحت المائدة. ها هو ذا الان وحيداً ، فقد مضى الشياطين ، ومضى مولاه أيضاً . ويخرج كدريل من تحت المائدة ، ويأخذ ينظر في جميع الجهات ، فتشرق في وجهه ابتسامة، ويغمز بعينه غمزة رجل ماكر محتال ، ويجلس في مكان مولاه، ويهمس قائلاً للجمهور بصوت خافت :

ـ هيَّا ! ... أنا الآن وحدي سيد ... أنا الآن بغير سيد !

ويضحك جميع الناس من رؤيته بغير سيد . ويضيف هو بصوت خافت ولهجة تحمل معنى البوح ، يضيف قائلاً وهو يطرف بعينه فرحاً مبتهجاً :

ـ أخذته الشياطين ! ...

اشتدت حماسة المشاهدين الى غير حد ! لقد نطق كدريل بهـــذه العبارة نطقا فيه من اللؤم والخبث ، وفيه من تصعير الوجه ومعاني السخرية والانتصار ما يستحيل على المرء معه أن لا يصفق . ولكن سعادة كدريل لا تدوم طويلا . فما ان تناول زجاجة الخمر وسكب منها كأساً حملهـا الى شفتيه حتى عادت الشياطين واندست وراءه وقبضت عليه . أعـــول كدريل كمن مسَّه طائف من جنون . ولكنه لا يجرؤ أن يلتفت . انه يود لو يدافع عن نفسه ، ولكنه لا يستطيع ذلك ، فان يديه مشـــغولتان بالزجاجة والكأس ، وهو لا يريد أن ينفصل عنهما . وها هو ذا يظـل ينظر الى الجمهور محملق العينين فاغـــر الفم ، وفي وجهه هلع وجبن يبلغان من شدة الاضحاك أن هذا الوجه خليق بأن يصوره حقاً رسام . وتجره الشياطين أخيراً ، وتسير به ، وهو يحرك ذراعيه وساقيه ، وما يزال ممسكاً بالزجاجة ، وهو يصرخ ثم يصرخ ؛ ويظل عويله يُســمع من وراء الكواليس . وتُسدل الســتارة . والناس جميعا يضـحكون

مفتونين معجبين مسحورين ••• وتطفق الأوركسترا تعزف رقصة الكارامنسكايا •

بدأ العزف هادئاً رفيقاً ، ولكن اللحن لم يلبث أن اشتد ، والايقاع لم يلبث أن تسارع ؛ وأخذت ضربات على ألواح البالالايكا تدوى وتجلجل • انها أنغام رقصة الكارامنسكايا في أقوى اندفاع لها*• ألا ليت جلنكا يسمع عزف هذا اللحن في سجننا • وبدأ التمثيل الايمائي الصامت بمصاحبة الموسيقى • وكانت أنغام الكارامنسكايا هي التي تصاحب التمثيل طوال مدة التثيل • ان المشهد يمثل كوخاً في الداخل • والكوخ يضم رجلا وامرأته ، فاما الرجل فعاكف على لباس يرقعه ، وأما المرأة فتغزل خيوط كتان • كان سيروتكين هو الذى يمثل دور المرأة ، وكان تسفياتايف هو الذى يمثل دور الطحان •

كان ديكور المسرح فقيراً جداً ؛ فكان لا بد ، في هذه المسرحية الايمائية كما في المسرحيتين السابقتين ، أن يتولى الخيال اكمال ما يفتقر اليه الواقع • كان المشاهد يرى في آخر المسرح سجادة أو غطاء ، بدلاً من أن يرى جداراً • وكان في الجهة اليمنى حواجز ، أما في الجهة اليسرى فلم يكن المسرح مسدوداً فكان المشاهد يرى مضاجع السجناء • ولكن المشاهدين ليسوا متشددين في مطالبهم ، فهم يكتفون باليسير ويعملون خيالهم في اكمال النواقص وتدارك الثغرات • وذلك أمر سهل عليهم لأن السجناء أناس ألفوا أن يطلقوا العنان لخيالهم ، وتعودوا أن يحلموا كثيراً ••• فمتى قيل هذه حديقة تصوروا حديقة ، ومتى قيل هذه غرفة أو هذا كوخ تصوروا غرفة وتصوروا كوخا ••• ليس ذلك بالأمر العسير عليهم ، انهم أناس لا يحفلون كثيرا بالمظاهر ••• ولقد كان سيروتكين رائعاً في ثياب المرأة ، التي كان يرتديها ! ويفرغ الطحان من عمله في ترقيع لباسه فيتناول قبعته وسوطه ، ويدنو من المرأة، ويشير

لها بالايماء أنه سيعرف كيف يتصرف معها اذا هي استقبلت أحداً أثناء غيابه ... فعل ذلك وهو يظهرها على السوط الذي بيده . وتصغي المراة الى كلام زوجها فتهز رأسها مؤمنة عليه . لا شك أنها تعرف هذا السوط، ولا شك أنها قاست منه ، فذلك ما تدل عليه هيئة المرأة الفاجرة! ويخرج الزوج . فما ان يستدر على عقبيه حتى تشيعه بقبضة يدها وراء ظهره ! ويقرع الباب ، فتفتح المرأة الباب ، فيدخل الجار ... انه هو أيضاً طحان ، فلاح له لحية ويرتدى قفطاناً ... انه يحمل للمرأة هدية هي منديل أحمر ... تبتسم المرأة . ولكن ما ان يهمّ الرجل بتقبيلها حتى يُسمع قرع الباب من جديد . أين تراها تخبىء الرجل ؟ ها هى ذى تخفيه تحت المائدة ، وتعود الى مغزلها . ان القادم الجديد هو البيطار وقد ارتدى بزة صف ضابط . لقد جرت المسرحية الايمائية الصامتة حتى ذلك الحين مجرى حسناً جداً ، فالحركات سليمة لا مأخذ عليها ولا عيب فيها ، حتى ليمكن أن يعجب المرء لهؤلاء الممثلين الذين لم يتدربوا على التمثيل كيف يستطيعون أن يؤدوا أدوارهم هذا الأداء الصحيح الجميل ، ثم اذا هو يقول لنفسه على غير ارادة منه : « ما أكثر المواهب التي تضيع هباء في بلادنا روسيا ، ما أكثر المواهب التي تدفن بغير أن تستغل ، في غياهب السجون وأعماق المنافي ! » . أغلب ظني أن السجين الذي مثّل دور البيطار كان قد شهد تمثيلاً في مسرح من مسارح الأقاليم أو في مسرح هواة . فكان يقدّر أن جميع هؤلاء الممثلين من السجناء لا يفقهون من أمور التمثيل شيئاً ، ولا يسيرون كما يجب أن يسيروا . فها هو ذا يدخل المسرح كما كان يدخله الأبطال القدامى من ممثلي المسرح الكلاسيكي القديم ، متقدماً بخطوة عريضة، ثم هاهو ذا يرد رأسه وجسمه الى وراء حتى قبل أن يرفع ساقه الأخرى، وها هو ذا يجيل طرفه حوله في كبر واستعلاء ، ويتقدم خطوة أخرى في عظمة

وأبهة وجلال • لئن كان مشى" كهذا المشى يبدو سخيفاً لدى الأبطال الكلاسيكيين ، فهو أشد سخفاً فى مشهد هزلى يمثله عسكرى • ولكن جمهور المشاهدين رأى هذه المشية طبيعية جدا فارتضاها ، ولم يجد بأساً فى هذا المظهر المتكبر المظفَّر ، بل عده أمراً ضرورياً فلم ينتقده • وقرع الباب مرةً أخرى بعد دخول القادم بلحظة قصيرة • طاش صواب ربة المنزل • أين عساها تخبىء المعجب الجديد ؟ فلتخبئه فى الصندوق ، الذى كان لحسن الحظ مفتوحاً ! اختفى القادم الثانى فى الصندوق ، وأغلقت عليه المرأة الغطاء • ان القادم الثالث عشيق كسائر العاشقين ، ولكنه عشيق من نوع خاص • انه براهمى * يرتدى مسوح الكاهن• استقبله الجمهور دخوله بضحك شديد هائل • ولم يكن هذا الكاهن الا السجين كوشكين الذى أجاد تمثيل دوره اجادة تامة ، لأن وجهه يشبه وجه كاهن، ولأنه يعبر عن حبه لزوجة الطحان باشارات كاشارات كاهن ، رافعاً ذراعيه الى السماء ثم ضاماً يديه على صدره ••• ومرة أخرى يطرق الباب ••• انه طرق قوى عنيف فى هذه المرة • هو رب البيت من غير شك • ذعرت امرأة الطحان ذعراً رهيبا وطاش صوابها ، وأخذ الكاهن يركض طائرَ اللب فى كل جهة من الجهات، متوسلاً الى المرأة أن تخفيه • وها هى ذى المرأة تساعده على الاندساس وراء الخزانة ، وطفقت تغزل وتغزل ناسيةً أن تفتح الباب • انها ماضية فى عملها دون أن تسمع طرقات الباب التى تتكاثر وتشتد ؛ والحق أنها أصبحت لا تغزل ، وانما هى تقوم بحركات الغزل ، تعقف خيطاً وهمياً وتحرك مغزلاً لا وجود له ، لأن المغزل قد سقط من يديها فهو يرقد الآن على الأرض • لقد مثّل سيروتكين هذا الذعر تمثيلاً رائعاً • ويذهب صبر الزوج ، فيقتحم الباب ويقترب من زوجته وفى يده سوطه • لقد لاحظ كل شىء ، لأنه كان يتجسس على الزوار • وها هو ذا يُفهم

زوجته بالايماء أن لديها ثلاثة زوار مختبئين • ثم يأخذ يبحث عنهم • فيعثر أولاً على الجار ، فيطرده من الغرفة بضربات من قبضة يده • ويخاف العسكرى فيريد أن يهرب فيرفع برأسه غطاء الصندوق فيفضح نفسه ، فيهوى عليه الطحان بسوطه يجلده جلداً ، ويخرج الرجل من الصندوق بحركات ليست كالحركات التى دخل بها المسرح ، بحركات ليس فيها شيء من الخيلاء والغطرسة التى رأيناها منذ قليل • بقى الكاهن البراهمى الذى بحث عنه الزوج طويلاً دون أن يعثر له على أثر ، ولكنه وجده أخيراً فى ركنه وراء الخزانة ، فحيّاه تحية مهذبة ، وشده من لحيته الى وسط المسرح ، وأراد الكاهن أن يدافع عن نفسه فصرخ يقول : « لعنك الله ، لعنك الله ! » (وهى الكلمات الوحيدة التى قيلت طوال المسرحية الايمائية الصامتة) ، ولكن الزوج لا يسمع له ، وينتصف لعرضه منه • وأدركت الزوجة أن قد جاء دورها فرمت مغزلها وولت هاربة من الغرفة ، وفيما هى تجرى اصطدمت بأصيص فانقلب فانكسر ، وانفجر السجناء ضاحكين • تناول علىّ يدى دون أن ينظر الىّ وقال لى : « هل رأيت ؟ هل رأيت ؟ يا لهذا الكاهن البراهمى ! » • كان من فرط اغراقه فى الضحك لا يستطيع أن يستقر قائماً • وأسدلت الستارة ، وبدأ مشهد آخر •••

مُثِّل مشهدان آخران أو ثلاثة • كانت جميع المشاهد مضحكة جداً مرحة جداً • لم يؤلفها السجناء أنفسهم ، بل اقتبسوها اقتباساً ، ولكنهم أضافوا اليها من عندهم • كان كل ممثل من الممثلين يرتجل شيئاً جديدا ، فاذا المشهد الواحد لا يُمثَّل تمثيلاً واحداً فى مساءين اثنين • وكان المشهد الايمائى الأخير من نوع خيالى ملىء بالتهاويل ، وقد انتهى برقصة باليه • ان موضوع هذا المشهد هو دفن ميت • قام الكاهن البراهمى يتلو الصلوات على جثمان المتوفى•وسُمع أخيراً لحن «الشمس

الغاربة ... » فاذا بالميت يبعث الى الحياة ، واذا بجمهرة الحضور تاخذ ترقص فرحةً جذلى . ويرقص الكاهن البراهمى مع الميت ، ولكنـــه يرقص على طريقته الخاصة ، على الطريقة البراهمية . فبهذا المنظـــر تنتهى التمثيلية الايمائية .

تفرق الســجناء فرحين مسرورين يمدحــون الممثلين ويشــكرون ضف الضابط . لم تُسمع مشاجرة واحدة . كانوا جميعاً راضين ، بل أستطيع أن أقول انهم كانوا جميعا سعداء . مضوا الى مضاجعهم هادئى النفس مطمئنى البال ، وناموا نوماً لايشبه ما ألفوا من نوم . ليس ما أقوله الآن طيفاً من أطياف الخيال ، وانما هو الحقيقة ، الحقيقة خالصةً . لقد أتيح لهؤلاء البؤساء أن يعيشوا بضع لحظات كما يحبون ، أن يســتمتعوا بتســلية انسانية ، أن يتحــرروا ساعةً من ظروف الســجين . ان المرء لتتغير روحه عندئذ ولو بضع دقائق ...

اشتدت ظلمة الليل . شعرت برعدة ، واستيقظت من نومى عرضاً ومصادفة : ان المتعبد الشيخ ما يزال على المدفأة يصلى ، وقد ظل يصــلى حتى مطلع الفجر . ان علياً ينام قربى نوماً هادئاً . تذكرت أنه حين نام كان لا يزال يضحك ويتحدث مع اخوته عن المسرح . نظرت الى وجهه الوادع على غـير ارادة منى . وشيئاً فشيئاً تذكرت كل شيء ، تذكــرت اليوم الماضى ، وتذكرت أعياد الميلاد ، وتذكرت ذلك الشهر كله ... رفعت رأسى مرتاعاً ونظرت الى رفاقى الذين كانوا نائمين تحت ضـــوء مرتجف هو ضوء شمعة وضعتها فى الثكنة ادارة السجن . نظـــرت الى وجوههم الشقية ، الى سررهم الفقيرة ، الى هذا العرى وهذا البؤس .. نعم نظرت الى هذا كله ... وأقنعت نفسى بأن ذلك ليس حلماً ثقيلاً ، ليس كابوساً رهيباً ، بل هو الواقع ، الواقع نفسه . نعم انه الواقع نفسه.

وسمعت أنيناً . ان أحد السجناء يثنى ذراعه فى ثقل ، فتجلجل سلاسله. وهذا سجين آخـــر يضطرب فى حلم ويتكلم أثناء النــوم بينما الشـيخ يصلى ويدعو الله لجميع «السيحيين الأورثوذكس» . سـمعت دعاءه المتصل المطرد ، الهـــادىء العذب ، البطىء بعض البطء : « ارحمنا يا يســـوع المسيح ! » ...

قلت لنفسى : « لن أحيا هنا الى الأبد ، بل بضع سنين » ، ثم عـدت أسند رأسى الى الوسادة .

الجزء الثاني

١

المستشفى

مرضت بعد عيد الميلاد بقليل ، فاضطررت أن أذهب الى مستشفانا العسكرى الذى يقع بعيداً على مسافة نحو نصف فرسخ من قلعتنا . هو مبنى ذو طابق واحد ، طويل جداً ، مطلى بلون أصفر . ان ادارة المستشفى تنفق فى كل صيف مقداراً كبيراً من التراب الأصفر لاعادة طلائه . وفى فنائه الواسع ملحقات شتى هى مساكن للأطباء ، وفيه مبانٍ ضرورية أخرى ، أما المبنى الرئيسى فلا يضم الا القاعات المخصصة للمرضى ، وهى قاعات كثيرة . ولكن السجناء ليس لهم الا قاعتان اثنتان ، لذلك كانت هاتان القاعتان مزدحمتين فى جميع الأوقات تقريباً ولا سيما فى فصل الصيف ، ولم يكن نادراً أن تضطر ادارة المستشفى الى أن ترصّ الأسرة فيها . كانت هاتان القاعتان تغصان « بالأشقياء » من كل نوع : ففيهما أولا سجناء قلعتنا ، وفيهما موقوفون عسكريون صدرت فى حقهم أحكام ؛ وفيهما آخرون تجرى محاكمتهم، وفيهما معتقلون عابرون ، واليهما يُرسل أيضاً مرضى من المحالين الى الفرقة التأديبية وهى فرقة مسكينة تضم الجنود الذين ساء سلوكهم وفسدت أخلاقهم ، فهم يلحقون بهذه الفرقة لاصلاحهم ، ولكنهم

يخرجون منها بعد سنة أو سنتين وهم أحط من يمكن أن يحملهم ظهر الأرض من سفلة مجرمين .

كان السجناء الذين يشعرون بأنهم مرضى يبلغون صف الضابط أمر مرضهم منذ الصباح . فيسجل هذا أسماءهم على بطاقات يعطيهم اياها ، ويرسلهم الى المستشفى في حراسة جندي خفير ، حتى اذا وصلوا الى المستشفى تولى فحصهم طبيب من الأطباء ، فأذن ببقائهم في المستشفى اذا أيقن أنهم مرضى حقاً . ولقد سجل صف الضابط اسمي على بطاقة ؛ وفي نحو الساعة الواحدة ، حين مضى جميع رفاقي الى الشغل ، ذهبت الى المستشفى . كان كل سجين من السجناء يحمل معه الى المستشفى ما يستطيع حمله من مال وخبز (اذ يجب عليه أن لا يتوقع أن يتناول طعامه في المستشفى ذلك اليوم) ، ويحمل معه غليوناً صغيراً جداً وكيساً فيه تبغ وقداحة وفتيلة . وكان السجناء يخفون هذه الأشياء كلها في أحذيتهم . دخلت سور المستشفى وأنا أشعر ازاء هذا الجانب الجديد الذي لم أعرفه من حياة المعتقل ، بغير قليل من الاستطلاع .

كان اليوم حاراً متلبداً بالغيوم حزيناً كئيباً . هو يوم من تلك الأيام التي تكسو منازل كالمستشفى بمظهر خاص يبعث على النفور والسأم والاشمئزاز . دخلنا أنا وخفيري الى غرفة الانتظار . ان في الغرفة حمامين من نحاس . ووجدنا هنالك سجينين كانا ينتظران فحصهما مع خفيريهما . ودخل ممرض من المرضين فنظر الينا في غير اكتراث ، نظرةً تدل على شعوره بأنه قوام علينا ، ثم مضى يبلغ الطبيب المناوب عن وصولنا بمزيد من قلة الاكتراث أيضاً . فما هي الا لحظة حتى وصل الطبيب ، ففحصنا وهو يعاملنا معاملة لطيفة ، ثم أعطانا أوراقاً سُجِّلت عليها أسماؤنا . ان على الطبيب العادي المعهود اليه بالقاعتين المخصصتين للسجناء أن يشخِّص المرض ، وأن يعين الأدوية الواجب تجرعها ، وأن

يحدد النظام الغذائي الواجب اتباعه ، الخ . (سبق أن سمعت السجناء يكيلون المديح لأطبائهم ، حتى لقد قالوا لي عنهم حين تقرر دخولي المستشفى : « انهم لنا كالآباء ! ») . خلعنا ثيابنا لنرتدي رداءً آخر ، وأخذوا ملابسنا الداخلية التي كنا نلبسها حين وصولنا ، وأعطونا ملابس من المستشفى أضافوا اليها جوارب طويلة ونعالاً وقبعات من قطن ومعاطف منزلية مصنوعة من جوخ بني سميك ومبطنة لا بقماش بل بشيء يشبه أن يكون من اللصقات التي تضمد بها الجروح . والحق أن المعطف كان قذراً قذارة رهيبة ، ولكنني سرعان ما أدركت فائدته .

أُخذنا بعد ذلك الى قاعات السجناء التي تقع في آخر دهليز طويل عالٍ جداً نظيف جداً . ان النظافة الخارجية مرضية كل الارضاء . ان كل ما يُرى كان يلتمع التماعاً ، أو هذا على الأقل ما تراءى لي بعد القذارة التي كنت أتقلب بينها في السجن . دخل الموقوفان القاعة التي تقع من الدهليز على الشمال ، بينما دخلت أنا القاعة التي تقع على اليمين . ان ديدباناً على كتفه بندقية كان يتجول أمام الباب المقفل بقفل ؟ وغير بعيد منه كان يقف الحارس الذي ينوب عنه ويحل محله . أمر العريف (وهو من حرس المستشفى) بادخالي قاعة المرضى ، فاذا أنا أجد نفسي فجأة في غرفة طويلة ضيقة قد صُفت أمام جدرانها سُرُر عددها اثنان وعشرون ومنها ثلاثة أو أربعة ما تزال خالية . كانت هذه السرر الخشبية مطلية بلون أخضر ، ولا شك أن البق يسكنها ، كما يسكن سائر سرر المستشفيات ، وذلك أمر معروف في روسيا كلها . استقررت في ركن من الأركان قرب النوافذ .

سبق أن ذكرت أن بعض سجناء قلعتنا كانوا هنالك ، وكان بعضهم يعرفني ، أو كان قد رآني على أقل تقدير . ولكن المرضى الذين تجرى

محاكمتهم والمرضى الذين ينتمـون الى فرقة التـأديب كان عددهم أكبر كثيراً •

ولم يكن بين السجناء الا قلة قليلة مصابة بأمراض خطيرة تلزمهـا الفراش • أما أكثـرهم فكانوا ناقهـين أو كانوا متوعـكين قليلاً ، فهم راقدون على مضاجعهم أو متجولون فى القاعة طولاً وعرضاً • ان الفراغ بين صفى الأسرة يتسع لطوافهم ذاهبين آيبين • وكان جو القاعة خانقـاً تملؤه الرائحة الخاصة التى تملأ جو المستشـفيات عادة : انه جو موبوء بشتى أنواع الروائح التى تخرج من أجسام البشر ، وهى جميعاً كريهة، ذلك عدا روائح الأدوية والعقاقير ، رغم أن المدفأة تظل مشـتعلة طول النهار •

كان سريرى مغطى بغطاء مخطط • رفعت الغطاء ، فوجدت تحتـه بادة من جوخ مبطنة بقماش ، ومفارش وسخة من قطن • والى جانب السرير توجد منضدة صغيرة عليها جرة وكأس من صفيح ، وفوق الكأس منشفة صغيرة عهد بها الىّ • وللمنضدة رف كان المرضى الذين يشربون الشاى يضعون عليه غلايتهم ، والكوز الخشبى الذى يشربون به شراب الكفاس أو غيره • ولكن هـؤلاء الأثرياء قلة قليلة • وكانت الغـلايين وأكياس التبغ تخبأ تحت الفراش (ان جميـع السجناء يدخنـون حتى المصدورون منهم) • وقلما كان الطبيب أو غـيره من الرؤسـاء يقومون بالتفتيش ، فاذا فاجأوا سجيناً من السجناء والغليون فى فمه تظاهروا بأنهم لم يروا شيئاً • وكان السجناء حذرين جداً على كل حال، فهم لا يكادون يدخنون الا وراء المدفأة • انهم لا يسمحون لأنفسهم بالتدخين وهم عـلى أسرّتهم الا فى الليل ، اذ ما من أحد يقوم بجولة تفتيشية أثناء الليل ، الا ضابط الحرس ، وكان هذا لا يقوم بجولته التفتيشـية الا فى القليـل النادر •

لم يسبق لى حتى ذلك الحين أن دخلت أى مستشفى من المستشفيات مريضاً . لذلك بدا لى كل ما حولى جديداً كل الجدة . لاحظت أن دخولى قد أثار فضول بعض السجناء . كانوا قد سمعوا عنى . وها هم أولاء ينظرون الىّ بغير تحرج ، بل يظهرون شيئاً من ذلك الشعور بالتفوق الذى يحسه تلاميذ مدرسة من المدارس حين يفد اليهم تلميذ جديد ، أو يحسه موظفو دائرة من دوائر الحكومة حين يدخل عليهم مراجع من المراجعين . كان يرقد على يمينى سجين كان فى الماضى سكرتيراً ، وهو ابن غير شرعى لضابط متقاعد ، وقد اعتقل بتهمة القيام بصنع نقود مزيفة : انه يقيم فى المستشفى منذ أكثر من عام . ولم يكن مريضاً البتة ، ولكنه يؤكد للاطباء أنه مصاب بتورم فى شرايين القلب . وقد بلغ من اقناعهم بذلك أنه لم يرسل الى العمل يوماً ، ولا أُنزلت فيه العقوبة الجسدية التى حكم عليه بها . وقد أرسل بعد ذلك بسنة الى مدينة ت..ك ، حيث ألحق بمستشفى من المستشفيات . انه فتى قوى البنية فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، مفتول العضل ، شديد المكر والدهاء ، عالم بالقوانين فكأنه محام من المحامين . وهو ذكى حلو العشرة ، لكنه على جانب عظيم من الاعتداد بالنفس ، شديد الأثرة تكاد تكون أنانيته مرضاً . كان مقتنعاً بأنه ليس فى العالم كله انسان أشرف منه ولا أعدل ، فلم يعترف بذنبه ولم يقر بجريمته قط . وقد حافظ على هذه الثقة بنفسه طول حياته . ان هذا الشخص قد خاطبنى أول المخاطبين ، وأخذ يسائلنى فى شئونى مستطلعاً مستخبراً ، وراح يذكر لى ما يسود المستشفى من عادات وأخلاق . وطبيعى أنه قد ذكر لى قبل كل شىء أن أباه ضابط برتبة نقيب . كان يحرص حرصاً شديداً على أن أعده من طبقة الأشراف ، أو من طبقة النبلاء فى أقل تقدير . وبعد ذلك بقليل جاءنى مريض من الفرقة التأديبية فأكد لى أنه يعرف كثيراً من النبلاء الذين كانوا فى المنفى

حتى لقد سماهم لي بأسمائهم وأسـماء آباءهم ليزيدني اقتناعاً بصـدق ما يقول . انه ليكفيك أن ترى وجه هذا الجندي الأشيب حتى تدرك أنه يكذب كذباً كريهاً مقيتاً . ان اسمه تشيكونوف . وقد جاء يلاطفني لأنه كان يقدر أن معي مالاً . فلما لاحظ أن عندي صرة فيها شاي وسـكر أسرع يعرض عليّ خدماته قائلاً انه سيأتيني بغلاية وسيغلي لي المـاء . كان م ... كي قد وعدني بأن يرسل اليّ غلايتي في الغـداة مع أحد السجناء الذين يعملون في المستشفى ، ولكن تشيكونوف تدبر الأمر فهيأ لي كل شيء ، وجاءني بحلة من صفيح أغلي فيها الماء للشاي ؛ وبلغ من فرط حماسته في خدمتي أن ذلك سرعان ما أحنق عليه أحد المرضى فأخذ هذا يستهزيء به ويتهكم عليه ، وهـو مصـدور كان سريره يقع أمام سريري . ان اسمه أوستيانتسف ، وهو بعينه ذلك الجندي المحكوم عليه بالجلد ، الذي بلغت شدة جزعه من السوط أنه أفرغ في جوفه زجاجـة من الخمر أغلي فيها مقداراً من التبغ ، فأصابه من ذلك مرض السـل : لقد سبق أن تحدثت عن هـذا السجين . كان الى ذلك الحين صـامتاً لا يتكلم ، راقداً على سريره يتنفس بكثير من العناء ، ناظراً اليّ يتفرسني بجد واهتمام، متابعاً ببصره تشيكونوف الذي أحنقته مذلته لي . ان مايظهر في وجهه من معاني الوقار الشديد يجعل استياءه مضحكاً . وها هو ذا ينفد صبره أخيراً فيقول :

ـ انظروا الى هذا الخادم الذي عثر على سيده !

قال ذلك مباعداً بين الكلمات ، ناطقاً اياها بصـوت مخنـوق من الضعف والوهن ، لأن ذلك حدث قبل أن يلفظ أنفاسـه الأخيرة بزمن قصير .

التفت اليه تشيكونوف وسأله مستاءً مغتاظاً وهو يلقي عليه نظـرة احتقـار :

ـ من هو الخادم ؟

فأجاب أوستيانتسف :

ـ أنت الخادم ! اسمعوا أيها الناس ! انه لا يريد أن يصـــدقنى ! انظروا الى الفتى الشجاع كيف يعجب ويدهش !

ـ ما شأنك أنت ؟ ألا ترى « أنهم لا يعرفون » استعمال «أيديهم»؟ « انهم لم يتعودوا أن يعيشوا بغير خادم » ! فلماذا لا أخدمه ؟ يا لك من أحمق أزغب البوز ؟

ـ أزغب البوز ؟ من ؟

ـ أنت !

ـ أنا أزغب البوز ؟

ـ نعم أنت أزغب البوز •••

ـ أما أنت فجميل حقاً ••• طيب ••• لئن كنت أنا أزغب البوز ، ان لك وجهاً كأنه بيضة غراب ! •••

ـ يالأزغب البوز ! لقد أنصفك الله ، فخير لك أن تبقى هادئاً الى أن تفطس ! لماذا تتدخل فيما لا يعنيك ؟

ـ لماذا ؟ اننى أوثر أن أسجد لحذاء جيـــد على أن أسجد لنعـل حقير • ما سجن أبى يوماً ، ولا أمرنى أن أسجد ! ••• أنا ••• أنا ••

أراد المصدور أن يكمل كلامه ، ولكن نوبة شديدة من الســـعال هزته هزاً عنيفاً ، وأخذ يبصق دما ، وتقاطر على جبينه المكدود عرق بارد من فرط الاعياء • لولا أن السعال منعه من الكلام، اذن لظل يسب ويذم• كان ذلك واضحاً فى نظرته • ولكنه عجز عن الاستمرار فى الكلام ، فلم يزد على أن أخذ يلوّح بيده ، فلم يلتفت اليه تشيكونوف بعد ذلك •

أحسست أن حنق هذا المصدور كان ينصب عليَّ أكثر مما ينصب على تشيكونوف • فما كان لأحد أن يغضب من تشيكونوف ولا أن يحتقره بسبب الخدمات التي يقدمها لي والدريهمات التي يحاول أن يقتنصهـــا مني • كان كل مريض يدرك حق الادراك أن تشيكونوف لا يفعل ذلك كله الا في سبيل الحصول على شيء من مال • ان أبناء الشعب لا يتأذون من هذا الأمر ، فهم يعرفونه على حقيقته • كل ما هنالك أن أوستانتسف قد استاء مني ، واستاء من الشاي الذي استمتع به ؛ والشيء الذي أحنقـــه خاصة هو أنني انتمي الى طبقة السادة ، رغم السلاسل التي تقيد ساقي ، وأنني لا أستطيع الاستغناء عن خادم يخدمني • على أنني لم أرغب في أن يكون لي خادم ، ولم أسع الى أن يكون لي خادم ؛ بل كنت أحرص على أن أفعل كل شيء بنفسي ، حتى لا أظهر لأحد بمظهر رجل مدلل أبيض اليدين ، وحتى لا أمثل دور الســـيد العظيم • والحق أن قد كان في حرصي هـــذا شيء من أثرة • ذلك أنني كنت كلما أحاط بي المتملقون والمراءون ، وتعلقوا بي من تلقاء أنفسهم ليخدموني ، أُصبح في آخـــر الأمر منقادا لهم أسيراً بين أيديهم فاذا أنا الخادم واذا هم المخـــدومون (لا أدري كيف كان يتم ذلك) • مهما يكن من أمر فقد كنت في نظر الناس ، شئت أم أبيت، سيداً لا يستطيع أن يستغني عن خدمات الآخرين، ويحرص على مظاهر الأبهة والعظمة • فكان هذا يغيظني ويحنقني • كان أوستيانتسف رجلاً مصدوراً، فكان بسبب ذلك حاد الطبع شديد التأذي• أما المرضى الأخر فانهم لم يظهـــروا لي الا قلة الاكتـــراث ، مع شيء من الازدراء • ولقد كان يشغل بالهم أمر يعود الآن الى ذاكرتي : لقد عرفت وأنا أصغي الى أحاديثهم أن سجيناً سيؤتى به الى المستشفى في ذلك المساء نفسه بعد أن يكون قد تم جلده • انه يُجلد الآن ، والسجناء ينتظرون

وصوله الى المستشفى بكثير من الفضول • وقد ذكروا على كل حال أن عقوبته يسيرة : خمسمائة جلدة لا أكثر •••

نظرت حولى • كان أكثر السجناء ، المرضى حقاً ، مصابين بداء الاسقربوط وبعلل فى الأعين ، وهى أمراض مستوطنة فى تلك البلاد • وكان ثمة سجناء آخرون ، مرضى حقاً ، يعانون الحمى ويشكون من السل ويتوجعون من آلام أخرى • ولم تكن الامراض المختلفة معزولة بعضها عن بعض فى قاعات السجناء ، بل كانت مجتمعة كلها فى قاعة واحدة ، حتى الأمراض الزهرية • ولئن قلت « المرضى حقاً » ، فلأن بعض السجناء قد جاءوا الى المستشفى دون أن يكون بهم مرض ، جاءوا الى المستشفى « هكذا » من أجل أن « يرتاحوا » • وكان الأطباء يقبلونهم فى المستشفى من باب الرأفة وحدها ، لاسيما حين يكون ثمة سرر خالية• ان الحياة فى السجون تبلغ من القسوة اذا قيست بالحياة فى المستشفى أن كثيراً من السجناء يؤثرون أن يظلوا راقدين رغم الهواء الخانق الذى يتنفسونه ورغم أنهم يمنعون من الخروج منعاً باتاً • حتى لقد كان هنالك هواة لهذا النوع من المعيشة : وهؤلاء ينتمون جميعهم تقريباً الى فرقة التأديب •

أنعمت النظر الى رفاقى الجدد مستطلعاً • فخطف أحدهم بصرى على نحو خاص • انه مصاب بالسل ، وانه فى حالة نزع • كان سريره أبعد قليلاً من سرير أوستانتسف ، فى مواجهة سريرى تقريبا • ان اسمه ميخائيلوف • كنت قد رأيته فى السجن قبل ذلك بأسبوعين • وكان مرضه خطيراً منذ ذلك الحين • كان ينبغى له أن يعالج نفسه منذ زمن طويل ، ولكنه تحدى المرض وكابر وعاند ، ولم يذهب الى المستشفى الا قبيل عيد الميلاد ، ليموت بعد ثلاثة أسابيع بسل سريع اختطفه اختطافاً • لكأن هذا الانسان قد احترق احتراق شمعة • وما أدهشنى فيه خاصة

انما هو وجهه الذى تبدل تبدلاً تاماً ـ لأننى كنت قد رأيته منذ دخولى السجن ـ فخطف بصرى حين رأيته الآن . والى جانبه كان يرقد جندى من فرقة التاديب ، وهو شيخ كالح الوجه مقزز المظهر . ولكننى لا اريد أن أعدّد جميع المرضى ... ولئن تذكرت الان هذا الشيخ فما ذلك الا لأنه أحدث في نفسى عندئذ أثراً خاصاً ، ولأنه أطلعنى دفعةً واحدة على بعض الخصائص التى تتميز بها قاعة السجناء . كان هذا الشيخ مصـــابا بزكام رهيب مزمن فهـــو يعطس فى كل لحظة (ظل يعطس اســبوعاً بكامله) ، حتى أثناء نومه ، خمس مرات متتالية أو ست مرات متتالية ، حتى لكأن عطسه طلقات بندقية ؛ وكان كلما عطس يكرر قوله : « يارب! ما هذا القصاص! » . وكان يحشو أنفه بذرور التبغ ، جالساً على سريره؛ يفعل ذلك بشراهة ونهم ، من أجل أن يزداد عطســـه قوة واطراداً . وكان يعطس فى منديل قطنى ذى مربعات ، منـــديل هو ملك له ، قد حالت ألوانه من طول ما غُسل . وكان حين يعطس يتجعد أنفه الصغـير تجعداً خاصاً ، متخدداً بعدد لا نهاية له من غضـــون صـــغيرة ، وكان يكشف عندئذ عن أسنان مثلمة نخرة ســـوداء كل السواد ، وعن لثتين حمراوين يبللهما اللعاب . حتى اذا انتهى من العطس فض منديله ونظر الى مقدار المخاط الذى خرج من أنفه ، ثم سارع يمسح المنديل بمعطف المنزل الذى يرتديه ، فاذا بالمخاط كله يتعلق بالمعطف ، بينما المنديل لم يكد يبتل . ان هذه المداراة لمتاع شخصى ، على حساب المعطف الذى هو ملك المستشفى ، لا يوقظ لدى السجناء أى احتجاج ، رغم أن بعضـــهم قد يضطر الى ارتداء هذا المعطف نفسه فيما بعد . ان المرء لا يكاد يستطيع أن يصدّق أن العامة عندنا يمكن أن يبلغوا هذا المبلغ من قلة التقزز فى هذه الأمور . وقد أزعجنى هذا كثيراً ، فأخذت أفحص ، على غير ارادة منى ، بكثير من الاستطلاع والاشمئزاز ، المعطف الذى كنت قد ارتديته .

كانت تفوح منه رائحة قوية كريهة • فانه ، وقد دفأه جسمي ، أخـذت تنتشر منه روائح الأضمدة والعقاقير • لكأنه لم يبارح أكتاف المرضى منذ عهد سحيق لا أول له • لعل بطانته قد غسلت في يوم من الأيام ، ولكنني لا أستطيع أن أؤكد ذلك جازماً : ومهما يكن من أمر فانه كان حـين لبسته مبللاً بجميع أنواع السوائل والمراهم واللصقات التي يمـكن أن يتصورها الخيال • كان السجناء المحـكوم عليهم بالجـلد يجيئـون الى المستشفى بعد انزال العقوبة فيهم ، وقد دميت ظهورهم؛ واذ كانوا يعالجون بالمراهم فان المعطف الذي كانوا يلبسونه على القميص المبتل يمتص كل شيء ويحتفظ بكل شيء • انني طوال مـدة اقامتي بالسجن كنت كلمـا ذهبت الى المستشفى (وهذا ما كان يحدث كثيراً) أرتدي المُعطف الذي أُعطاه شاعراً بكثير من الاشمئزاز والتخـوف والريبة • وكان لهـذه الريبة منشأ آخر هو القمل الذي كان يتـكاثر تكاثراً عظيمـاً ••• كان السجناء يتلذذون بتعذيب هذا القمل اذ يفقسونه باظفـري الابهامين من أصابعهم ، فاذا نظرت الى وجوههم أثناء ذلك رأيت أنهم يشعرون بارتياح واضح • واذ كان السجناء لا يحبون البق أيضاً ، فقد كان يحلو لهم أن يطاردوه وأن يسحقوه أثناء سهرات الشتاء الكالحة الطويلة التي لا نهاية لطولها • ان كل شيء في قاعتنا كان يمكن ـ باستثناء الرائحة الكريهة ـ أن يبدو من الظاهر نظيفاً نظافة كافية• أما من الباطن فماكان ينبغي للمرء أن ينعم النظر ••• وكان المرضى يعدون ذلك أمراً طبيعياً لا غرابة فيه • ولم يكن النظام نفسه يحض على النظافة أو يلزم بها كثيراً على كل حال ••• ولكنني سأعود الى الكلام عن هذا •

ما ان هيأ لي تشيكونوف الشاي (يجب أن أذكر مستطرداً أن ماء قاعتنا كان يؤتى به للنهار كله ، فسرعان ما كان يفسـد بتأثير الهـواء الفاسد) حتى فتح الباب ، فاذا بالجندي الذي أنزلت فيه عقوبة الجـلد

يدخل علينا بحراسة خفيرين اثنين • تلك أول مرة أرى فيها انساناً أنزلت فيه عقوبة الجلد منذ قليل •• ولكنني رأيت هذا المنظر مراراً بعد ذلك • كان يؤتى الينا بالمجلودين حتى حين تكون عقوبتهم شـــديدة مسرفة في الشدة • وكان هذا المنظر يسلّي المرضى كثيرا في كل مرة • كان هؤلاء الأشقياء يُستقبَلون استقبالاً فيه من الوقار والجد والرصانة ما يختلف باختلاف أوضاعهم • وكان هـــذا الاستقبال يتوقف دائماً على خطـورة الجريمة التي ارتكبها المجلود ومن ثمّ على عدد الجلدات التي تلقاها • فأما السجناء الذين جلدوا أشد جلد واشتهروا بأنهم مجرمون عتاة فقـد كانوا ينعمون باحتـــرام وانتباه لا ينعم بمثلهمـا شخص لم يرتكب من الذنوب الا الفرار من الجندية ، كصاحبنا هذا الذي أُتي به الآن • ومهما يكن من أمر ، سواء في هذه الحالة أو تلك ، لا يُظهر السجناء كثـيراً من العطف على المجلود أو من المشاركة في ألمه ، لا ولا يقولون ملاحظات مثيرة أيضاً : انهم يعالجون المسكين في صمت ، ويساعدونه على الشـفاء ، ولا سيما اذا كان عاجزاً عن معالجة نفسه بنفسه • وكان المرَضـــون أنفسهم يعلمون أنهم يعهدون بهؤلاء المجلودين الى آيدٍ حاذقة متدربة • والمعالجة المعتادة هي الاكثار من وضع قميص أو قماش مبلل بالماء البـارد على ظهر المجلود • وينبغي كذلك أن تُستخرج من الجروح ، بحـــذق ومهارة ، ألياف العصى التي تكسرت على ظهره• وتلك عملية تؤلم الرجل ايلاماً شديداً • ما أشد ماأذهلتني قوة الصبر التي كان يظهرها المجلودون في احتمال آلامهم • لقد رأيت عدداً كبيراً من هؤلاء المجلودين ، وكان بينهم أناس جُلدوا جلداً قاسياً رهيباً ، أؤكد لكم ذلك •• فما أذكر أنني سمعت واحداً منهم يئن مرة • كل ما هنالك أن الرجل بعد مثل هـــذه العملية يتشوه وجهه ويصفر لونه وتلتمع عينـاه وتزيغ نظـرته وتختلج شفتاه اختلاجاً يبلغ من القوة أنه يعضهما في بعض الأحيان عضاً شديداً

حتى تنزفا دما • كان الجنـــدى الذى دخل علينا بعد جلده فى الثالثـة والعشرين من العمر : انه قوى العضلات ، وسيم الطلعة ، حسن القامة ، فارع الطول ، ملوّح اللون بسمرة : كان ظهره العارى حتى الخصر قد ضرب ضرباً مبرحاً ، وهذا جســـمه يرتجف من الحمى تحت القماش المبتل الذى غطى به ظهره • لقد ظل ما يقرب من ساعة ونصف ســاعة لا يزيد على أن يسير فى القاعة طولاً وعرضاً • نظرت الى وجهه ، كان يبدو أنه لا يفكر فى شىء • ان فى عينيه تعبيراً غريباً متوحشــاً متهرباً • لا تستقر نظراته على شىء الا فى كثير من العناء • خيّل الىّ أنه يحدّق الى الشاى الغالى الذى أعده لى تشيكونوف • ان بخاراً ساخناً يتصاعد من الفنجان الملآن : كان المسكين يرتعش وتصطك أســـنانه ، فدعــوته أن يشرب ، فالتفت نحوى كتلةً واحدة دون أن يقول شيئاً ، فتناول فنجان الشاى وأخذ يشربه واقفاً ، دون أن يضع فيه شيئاً من سكر • كان يحاول أن لا ينظر الىّ • حتى اذا فرغ من احتساء الشـــاى ردّ الفنجان الى مكانه صامتاً ، حتى دون أن يومىء لى بحركة من رأسه ، واستأنف طوافه فى القاعة طولاً وعرضاً : كان ألمه أشد من أن يخطر بباله أن يكلمنى أو يشكرنى ! أما السجناء فقد امتنعوا عن القاء أى سؤال عليه، فانهم بعد أن وضعوا له كماداته لم يزيدوا على أن ينتبهـــوا اليـه • لعلهم كانوا يقدّرون أن الأفضل أن يدعوه وشـــأنه ، وأن لا يضايقوه بأســـئلتهم و « شفقتهم » • ولاح لى أن الجندى كان مرتاحاً الى قرارهم هذا راضياً عنــه •

وكان الليل يهبط أثناء ذلك ، فأشعل المصباح • ان بعض المرضى يملكون شموعاً خاصة بهم ، غير أن هؤلاء قلة • وجاء الطبيب يقوم بزيارة المساء ، ثم جاء صف الضابط فعدّ المرضى وأغلق القاعة التى حـُملتْ اليها قبل ذلك آنية للتبول والتغوط أثناء الليل ••• وعرفت مدهوشاً أن هذه

الآنية ستظل فيالقاعة طول الليل، مع أن المرحاض يقع على مسافة خطوتين من الباب. ولكن تلك هي العادة التي جرى عليها المستشفى. ففي النهار لا يسمح للسجناء بالخروج الا دقيقة واحدة في أكثر تقدير. أما في الليل فما ينبغي لأحد أن يفكر في الخروج البتة. ان المستشفى بالنسبة الى السجناء لا يشبه مستشفى عادياً: فالسجين المريض ينال فيه عقاب السجن رغم كل شيء. لا أدري من الذي وضع هذه السنة.. ولكن الشيء الذي أعلمه حق العلم هو أن هذا الاجراء لا فائدة منه البتة، وان سخف التقيد بالشكليات لا يبدو واضحاً في أي مجال وضوحه في هذا المجال. ليس الأطباء هم الذين سنوا هذه القاعدة أو فرضوا هذه العادة. أعود فأقول ان السجناء كانوا لا يملون من كيل المديح لأطبائهم. انهم ينظرون الى أطبائهم نظرتهم الى آباء، وهم يحترمونهم أعظم الاحترام. كان هؤلاء الأطباء يعرفون دائماً كيف يقولون لهؤلاء المنبوذين كلمة طيبة تواسي قلوبهم، وكان السجناء يقدرون هذه الكلمة الطيبة تقديراً عظيماً لا سيما وأنهم يشعرون بكل ما فيها من صدق.

نعم، لقد كانت هذه الكلمات الطيبة صادقة حقاً؛ اذ ما من أحد كان يمكن أن يؤاخذ هؤلاء الأطباء اذا هم كانوا غلاظاً جفاة، واذا هم تخلوا في معاملتهم للسجناء عن الروح الانسانية: لقد كانوا يحسنون معاملة السجناء بدافع الروح الانسانية وحدها. كانوا يدركون ادراكاً تاما أن حق السجين المريض في تنفس الهواء النقي لا يقل عن حق أي مريض آخر في ذلك، ولو كان هذا المريض الآخر شخصية عظيمة. كان الناقهون في القاعات الأخرى يجوز لهم أن يتجولوا أحراراً في الممرات، وأن يتروضوا وأن يتنفسوا هواء أقل فساداً من هواء قاعتنا التي تملؤها العفونة نتيجة لاغلاقها، والتي تملؤها روائح الغازات تخرج من الأجساد.

لا يمكن أن يتصور المرء ما هو أسوأ من الرائحة المقـــززة التى تشيع فى قاعتنا متى وضعت فيها الآنية المخصصة للتبول فى الليل . وكلما تقدم الليل شعر المرء مزيداً من الشعور بعناء استنشاق الهواء ، نتيجـة لاشتداد الحرارة وكثرة الحاجة الى التبول والتغوط لدى المصابين بأمراض معينة . لئن قلت ان السجين يظل يعاقب حتى أثناء مرضه ، فاننى لا أقول ذلك لأوهم بأن القانون لا يهدف الى غير العقوبة . والا كنت متجنياً ... فما ينبغى ان يعاقب مريض . ولا بد اذن أن هناك ضرورة صارمة تفرض على الادارة اتخاذ اجراءات قاسية هـــذه القسـوة . ولكن ما هى تلك الضرورة على وجه الدقة ؟ ان الشيء المزعج هو أن المرء لا يستطيع أن يتصور تعليلاً واضحاً . فيم هذه التدابير – وغيرها من التدابير أيضا – التى تتصف بحماقة كاملة وسخف تام ؟ هل يتصـــورون أن المعتقلـين يتمارضون لا لشيء الا لتضـــليل الأطباء والتسلل ليـلاً من المستشفى ومحاولة الهرب ؟ ان هذا الافتراض لا يصـــمد للاعتراض . فمن أين يستطيع المرضى أن يهربوا وبأى ثياب يهربون ؟ انه لا يـسمح للمرضى أن يخرجوا فى النهار الى المرحاض الا واحداً واحداً ، فلماذا لا يـفعل هذا فى الليل ؟ ان أمام الباب ، قرب المراحيض ، خفيراً مسلحاً من حقه أن يتبع المريض وأن لا يدع له أن يغيب عن بصره . أضف الى ذلك أن نافذة المراحيض لها طبقتان من القضبان الحديدية المربعة ، فمن أراد من السجناء أن يهرب منها فلا بد له أن يحطّم هاتين الطبقتين من القضبان. فأى سجين يستطيع ذلك ؟ هب سجيناً من السجناء استطاع أن يقتـــل الخفير دون أن يتنبه اليه أحد : فأنى له بعـــد ذلك أن يحـطم تينك الطبقتين من القضبان الحديدية ! ولنتذكر عدا ذلك أن الحرس ينامون على مسافة قريبة جداً من قاعة السجناء ، وأن أمام القاعة الأخرى خفيراً مسلحاً آخر ، مع رديفه ، أفليس هذا العدد كله من المراقبين كافيـــاً

اذن ؟ والى أين عسى يذهب فى جو الشتاء البارد بجوربين وخفين ومبذل وطاقية من قطن ؟ فاذا كان احتمال الهرب ضعيفاً الى هذه الدرجة كما ترون فلماذا هذه القسوة كلها فى معاملة المرضى مع انهم أحوج الى الهواء النقى من الأصحاء ؟ لماذا ؟ اننى لم أستطع أن أفهم هذا الأمر يوماً .

ولكن ما دمت بصدد القاء هذا السؤال : لماذا ؟ فاننى لا أستطيع أن أمتنع عن الاشارة الى مسألة أخرى لم أجد لها حلاً فى يوم من الأيام ، ألا وهى مسألة السلاسل التى لا يعفى منها أى سجين من السجناء مهما يكن مرضه خطيراً . ان المصدورين أنفسهم قد ماتوا أمام بصرى وسيقانهم مكبلة بالأغلال . لقد ألف جميع الناس هذا الأمر فهم يعدونه أمراً طبيعياً لا جدال فيه . وأحسب أنه ما من أحد ، حتى ولا الأطباء ، قد خطر بباله أن يطالب باعفاء السجناء المصابين بأمراض خطيرة أو السجناء المصدورين على الأقل من عناء حمل السلاسل فى أقدامهم . الحق أن السلاسل لم تكن مفرطة فى الثقل ، فان وزنها يتراوح على وجه العموم بين ثمانية أرطال واثنى عشر رطلاً . وذلك ثقل يمكن أن يحتمله انسان صحيح الجسم . ومع هذا قيل لى ان سيقان السجناء تضمر وتهلك بعد حمل الأغلال عدداً من السنين ، ولست أدرى أهذه حقيقة أم لا ، ولكننى أميل الى الاعتقاد بأنها حقيقة ، فان حملاً من الأحمال ، مهما يكن صغيراً ، ولو كان لا يتعدى عشر أرطال ، لا بد له، اذا هو ثُبِّت فى الساق الى الأبد ، من أن يزيد ثقل العضو زيادة غير طبيعية ، ولا بد بعد زمن من أن يكون له تأثير ضار فى نمو هذا العضو ... ولنسلّم مع ذلك بأن هذا ليس شيئاً ذا بال بالنسبة الى سجين صحيح معافى ، فهل هو كذلك بالنسبة الى مريض ؟ ان أيسر قشة هى بالنسبة الى المصابين بأمراض خطيرة ، كالمصدورين الذين تصوّح أيديهم وأرجلهم من تلقاء نفسها ، لهى حمل لا يطاق . لذلك أعتقد أن الادارة

الطبية تحسن احسانا كبيرا اذا هي طلبت بحل القيود عن أرجل المصدورين • فان قيل ان السجناء اناس مجرمون لا يستحقون الشفقة ، قلت فهل يجب أن نضاعف العذاب لمن سبقت يد الله الى تعذيبه بالمرض ؟ ان المرء لا يستطيع أن يصدق أن الغاية من مضاعفة العذاب هي معاقبة السجين • ان المصدورين تعفيهم المحكمة من العقوبات الجسدية • لذلك فانا لا أفهم تلك الحكمة الخافية العجيبة الهامة التي تملي ابقاء الاغلال في أرجل المصدورين • أن المرء لا يصدق ولا يمكن أن يصدق أن المصدور قد يهرب من المستشفى • من ذا الذي يمكن أن تخطر بباله هذه الفكرة ، ولاسيما اذا كان المرض قد بلغ درجة معينة ؟ ومن المستحيل تضليل الأطباء وايهامهم بأن سجينا من السجناء الاصحاء رجل مصاب بالسل ، فالسل مرض يعرف من أول نظرة • ثم ـ ولنقل هذا ما دامت فرصة الهرب قد تعرض ـ هل تستطيع القيود أن تمنع السجين من الهرب ؟ أبداً ••• ان الأغلال اذلال واهانة وعار يجلل به السجين ، هي عبء جسمي وروحي ـ أو ذلك ما يقدره الناس على الأقل ـ ولكنها لا يمكن أن تعوق أحداً عن الهروب • ان أقل السجناء حذقاً وأقلهم ذكاءً يستطيع أن ينشرها بمنشار أو أن يحطم حلقاتها بصخرة في غير عناء • فالقيود اذن احتراس لا فائدة له ولا جدوى منه ، فاذا كان السجناء يكبلون بها من باب المعاقبة لهم على جرائمهم أفليس من الواجب أن يعفى من هذا العقاب انسان يحتضر ؟

ان صورة رجل محتضر تبرز الآن في ذاكرتي وأنا أكتب هذه السطور • انه رجل مصدور ، هو ميخائيلوف نفسه الذي كان يرقد أمام سريري تقريباً ، غيرَ بعيد من أوستياتسف ، والذي مات بعد وصولي الى المستشفى بأربعة أيام فيما أظن • انني حين تكلمت منذ قليل عن المصدورين لم أزد على أن صورت الاحساسات وعبَّرت عن الخواطر التي

غزت نفسي عنـــد موته • هو في الخامسة والعشرين من العمـــر على أكثر تقدير ، قصير القامة نحيل الجسم جميل الوجه جدا • لقـــد كان ينتمي الى « القسم الخاص » ، ويتميز بانه صموت لا يكاد ينطق بكلمة ، ولكنه كان عذب الطبع دمث الخلق حزين النفس : لكأنه قد « ذوى » في السجن على حد تعبير السجناء الذين حملوا له أجمل ذكرى • أذكر أنه كانت له عينان جميلتان جداً ، ولا أدري لماذا أتذكر هذا الأمر تذكراً واضحاً هذا الوضوح كله • لقد مات في الساعة الثالثة بعد الظهر ، في يوم مضيء جاف • كانت الشمس ترسل أشعتها الساطعة المواربة من خلال زجاج النوافذ الضارب لونه الى خضرة ، والمتجلد من شدة البرد : ان سيلاً من الضياء كان يغمر هذا البائس الذي غاب عنـــه شعوره وظل يحتضر عدة ساعات • لقد اضطربت عيناه منذ الصباح فأصبح لا يتعرف على من يقتربون منه • تمنى السجناء لو يخففون عنه ، لأنهم لاحظوا أنه كان يتألم كثيراً • كان تنفســـه شاقاً عميقاً مبحوحاً ، وكان صدره يعلو بقوة وعنف كأنما يعوزه الهواء • نضا عنه في أول الأمر غطـاءه وثيابه ورماها بعيدا عنه ثم أخذ يمزق قميصه كأنه حمل ثقيل لا يطاق • نـزع عنه القميص • ما كان أشد الارتياع الذي يشعر به المرء حين يرى هذا الجسم الطويل طولاً خارقاً ، وهاتين اليدين والساقين التي تشبه أن تكون عظاماً لا يكسوها لحم ، وذلك البطن الضامر وذلك الصدر الناتيء الذي تظهر أضلاعه ظهوراً واضحاً كأضلاع هيكل عظمي • لم يبق على هـــذا الهيكل العظمي الا صليب وكيس صغير ، والا السلاسل التي كان يمكن أن تتملص منها ساقاه الذاويتان بغير صعوبة • هدأت الضجة في قاعتنـا قبل موته بربع ساعة • أصبح السجناء لا يتكلمون الا همساً ، ولايسيرون الا على رءوس الأصابع في كثير من المحاذرة • انهم يتبادلون الكلام بين الفينة والفينة في مواضيع أخرى، ويختلسون النظر الى المحتضر من حين

الى حين • كان المحتضر يحشرج حشرجة ما تنفك تزداد صعوبة ومشقة، وها هو ذا أخيراً يتلمس صليبه على صدره بيد مرتعشة متعثرة ، ويحاول انتزاعه : كان الصليب يثقل هو نفسه على صدره ويخنقه خنقاً • نزعوا عن صدره الصليب • ومات الرجل بعد ذلك بعشر دقائق • وعندئذ قرع بعض السجناء الباب من أجل أن يبلغوا الخفـــير موته • فدخل أحـد الحرس وألقى على المتوفى نظرة مرتاعة ثم مضى يستدعى الممرض • ان الممرض فتى طيب القلب ، لعله مسرف في الاهتمام بمظهره ، ولكنه دمث الطبع على كل حال • وصل الممرض بعد قليل • اقترب من الجثمـــان بخطى كبيرة ، فأحدثت خطاه ضجة في القاعة الخرساء • وأخذ يجس نبض المتوفى وهو يصطنع نوعاً من قلة الاكتراث يوجبـــه الموقف فى نظره • ثم حرك يده باشارة غامضة مبهمة وخرج • أبلغ مركز الحرس وفاة السجين ، ذلك أن ميخائيلوف سجين ذو خطر (انه ينتمى الى القسم الخاص) ، لذلك كان لا بد لاثبات وفاته من التقيد بقواعد خاصة والتزام اجراءات معينة • وفيما كنا ننتظر دخول العريف قال أحد السجناء بصوت خافت ان من المستحسن اغماض عينى المتوفى • وسمع سجين آخر هذه النصيحة فاقترب من ميخائيلوف صامتاً وأغمض له عينيه ؛ فلما لمح عـلى الوسادة الصليب الذى كان قد نزع عن عنق ميخائيلوف تناوله فنظر اليه ثم أعاده الى مكانه من عنقه • وكان وجه الميت يتخشب أثناء ذلك • ان شعاعا من ضياء ساطع يتراقص الآن على هذا الوجه وينير منه صفين من أسنان بيضاء فتية تتلألأ بين الشفتين النحيلتين الملتصقتين باللثتين من الفم المشقوق • ووصل صف الضابط أخيراً شاكى السلاح واضعاً خوذته على رأسه مصطحباً جنديين • اقترب من ميخائيلوف متثاقل الخطى مضطرب المشية ، وتفرس بطرف عينيه فى هؤلاء السجناء الصامتين الذين كانوا ينظرون اليه وقد أظلمت وجوههم ؛ حتى اذا صار على بعد خطوة من

الميت وقف فجأة كأن ألماً مفاجئاً قد سمَّره في مكانه تسميراً • ان هـذا الجسد العارى اليابس المثقل بالسلاسل قد أثر في نفســـه : فها هو ذا يحمل نطاقه ويرفع خوذته (وذلك أمر لم يكن في حاجة الى فعــله البتة) ويرسم اشارة الصليب • انه رجل قاسي الوجه أشيب الشعر له رأس جندى خدم في الجيش زمناً طويلاً • أتذكر الآن أن قد كان الى جانبه تشيكونوف الذى كان هو أيضاً شيخاً أشيب الشعر• كان تشيكونوف ينظر الى العريف طول الوقت ويتابع ببصره حركاته منتبهاً اليها انتباهاً شديداً عجيباً • التقت نظرتا الرجلين ، ورأيت شفة تشيكونوف السفلى ترتجف • عض تشيكونوف على شفته السفلى، وكزّ أسنانه وقال للعريف فيما يشبه المصادفة وهو يومىء برأسه الى الميت :

ـ كان له هو أيضا أم •••

نفذت هذه الكلمات فى قلبى ••• لماذا قالها وكيف خطرت بباله هذه الفكرة ؟

أُنهض الجثمان مع الفراش • خشخش القش، وانفجرت السلاسل على الأرض ترن رنيناً واضحاً ••• فرُفعت وأخـرج ميخائيلوفتش من القاعة • وفجأة أخذ الجميـــع يتكلمون بصوت عالٍ • وسُمع صوت العريف الذى أصبح فى الممر ، سُمع صوته أيضا يأمر أحدهم صائحاً باحضار الحداد • كان يجب فلك الأغلال عن ساقى الميت •••

ولكننى استطردت خارج الموضوع •••

٢

المستشفى

تتمة

كان الأطبـــاء يزورون القـــاعات فى الصباح ، فهم يظهرون فى نحو السـاعة الحادية عشرة موكباً واحــداً يتقـــدمه رئيسهم ، وقبـــل وصولهم بساعة ونصف ساعة يكون الطبيب المولج بقاعتنا قد قام بجولته • انه شاب جم اللطف دائم المرح كان السجناء يحبونه كثيراً وكان يتقن فنه اتقـاناً عظيماً • ان السجناء لا يرون فيه الا عيباً واحـــداً هو أنه « مسرف فى الرقة » • والواقع أنه كان قليل الكلام ، حتى ليبدو عليه أنه يشعر أمامنا بشىء من الخجل والاضطراب ، ولقد يحمر وجهه أحياناً • وهو يأمر بزيادة مقدار الطعام متى طالب المرضى بذلك ، وأحسب أنه كان مستعداً لأن يصف للمرضى الأدوية التى يرغبون فيها : انه انسان رائع على كل حال • ان كثيراً من الأطباء فى روسيا ينعمون بحب الشعب لهم واحترامه اياهم ، وهم يستحقون هذا الحب وهذا الاحترام ، فى حدود ما أتيح لى أن ألاحظ ذلك • أنا أعلم أن كلامى هذا قد يبدو مفارقاً ، لا سيما اذا تذكرنا ما يشعر به هذا الشعب نفســـه من شك فى الطب وارتياب فى

العقاقير الأجنبية . فالحق أن أفراد الشعب ، حتى حين يعانون مرضاً خطيرا ، يظلون يؤثرون خلال سنين عدة أن يتجهوا الى ساحرة أو أن يستعملوا أدوية تصفها لهم امرأة عجوز (وهي أدوية ما ينبغي احتقارها على كل حال) على أن يستشيروا طبيباً أو أن يذهبوا الى المستشفى . غير أن علينا ، والحق يقال ، أن نعزو هذا التخوف الى سبب عميق لا شان له البتة بالطب ، ألا وهو شك الشعب في كل ما يتصف بطابع حكومي رسمي . وما ينبغي أن ننسى أيضاً أن الشعب يخشى ويحاذر المستشفيات بسبب ما يسمع من أقاصيص عجيبة عن الأهوال الرهيبة التي يروى أنها تجري في التسشفيات (وهذه الاقاصيص تقوم مع ذلك على أساس من صحة) . غير أن الشيء الذي يكرهه شعبنا أكثر ما يكره انما هو العادات الألمانية الشائعة في المستشفيات ، وتصوره أن أناساً أجانب هم الذين يعالجون المريض في المستشفى ، وتخيله قسوة الحمية التيستفرض عليه ، وأخيراً ما يُروى له من حكايات عن فظاظة الممرضين والأطباء ، وعن بتر الأعضاء وتشريح جثث الموتى وما الى ذلك . ثم ان الطبقة الدنيا من الشعب تقول لنفسها ان أناساً من طبقة السادة هم الذين سيعالجونهم (ذلك أن الاطباء ينتمون في نظرهم الى طبقة السادة مهما يكن من أمرهم) . حتى اذا عرفوا هؤلاء الأطباء (وهناك استثناءات طبعاً لكنها نادرة) تبددت جميع المخاوف : فالى أطبائنا انما يجب أن ننسب هذا النجاح ، والى الشباب منهم خاصة ، لأن أكثرهم يعرف كيف ينال من الشعب احترامه وحبه . واذا قلت ذلك فانما أنا أتكلم ، على الأقل ، عما رأيته وشعرت به مرات كثيرة ، في أماكن شتى ، ولست أحسب أن الأمور تجري على غير ذلك في أماكن أخرى . صحيح أن الأطباء في بعض المناطق النائية يتناولون الرشوات ويستغلون مستشفياتهم ويهملون مرضاهم ، بل كثيراً ما ينسون فنهم نسياناً تاماً . ان ذلك ما يزال يحدث ،

ولكننى انما أتحدث عن الأكثرية التي تحركها روح كريمه تحيي فن الطب في بلادنا الان • أما المارقون ، أما الذئاب الذين يرتعون في حظائر الحملان ، فانهم مهما يتعللوا بالأعذار الواهية ومهما ينسبوا الذنب الى «البيئة» التي تحيط بهم مدّعين أنها قد أفسدتهم ، فانهم لايمكن ان تغفر لهم خطاياهم ، ولا سيما اذا افتقدوا كل روح انسانية ، فان هذه الروح الانسانيه وهذا العطف الاخوى على المريض وهذه المحبة له هي خير دواء يمكن ان يغفل فيه وأن يحسن اليه • لقد آن لنا أن نكف عن الشكوى من البيئة زاعمين انها هي التي أفسدتنا • قد يكون في هذه الشكوى شيء من صدق ، ولكن الأوغاد المكرة الذين يعرفون كيف يلجون ويخرجون لا يعجزون عن اتهام البيئة التي يعيشون فيها تسويغاً لخطاياهم ، ولا سيما اذا كانوا ممن يحسنون استعمال القلم أو اللسان في فصاحة وبلاغة • هأنذا ابتعدت عن موضوعي مرة أخرى : كنت أود أن أكتفي بالقول ان عامة الشعب لا يشعرون بالشك والحذر والكره نحو الأطباء أنفسهم بل نحو الادارات الطبية ؛ حتى اذا رأوا الأطباء أثناء قيامهم بعملهم تبدد كثير من أوهامهم • ان ادارة مستشفياتنا ليست على اتفاق وانسجام مع روح شعبنا ، بل قل انها تناقض عاداته •• ولن تستطيع ما بقي الأمر كذلك أن تفوز بثقة الشعب ولا باحترامه • ذلك على الأقل ما أستطيع أن أستخلصه من مشاعري الشخصية •

كان طبيبنا يقف عادةً أمام سرير كل مريض ، فيسائله بكثير من الجد والاهتمام والانتباه ، ثم يصف له الأدوية التي يجب أن يتجرعها والحمية التي يجب أن يتبعها • وكان يلاحظ في بعض الاحيان أنه رب مدعٍ مرضاً ما هو بالمريض البتة ، وانما هو سجين جاء يرتاح من الأشغال الشاقة ، وينام على سرير في غرفة مدفأة ، سرير أفضل من المضاجع التي تتألف من ألواح خشبية عارية في ثكنة رطبة تتكدس فيها كتلة كبيرة من

سجناء صفر الوجوه محطمي الأجسام (يجب أن نذكر أن الأشــقياء المعتقلين في روسيا اعتقالاً احتياطياً يكادون يكونون دائماً صفر الوجوه محطمي الأجسام ، وذلك دليل على أن العناية الجسمية والنفسية بهم أدعى الى الرثاء وأبعث على الاشفاق من العناية بأولئك الذين صدرت في حقهم أحكام القضاء) . لذلك كان طبيبنا يسجل على بطاقة المتمارض أنهمصاب « بالتهاب في أغشية المعدة » ويأذن له أحياناً بالبقاء في المستشفى أسبوعاً . وكان الجميع يسخرون من «التهاب الأغشية» هذا ، لأنهم كانوا يعلمون حق العلم آن هذه العبارة تعني تواطؤاً مضمرا بين الطبيب والمريض على أن المرض تمارض وأنه « مغص كاذب » على حد تعبير السجناء الذين كانوا يترجمون عبارة « التهاب الأغشية » هــذه الترجمة ؛ بل كثــيراً ما كان المتمارض يستغل شــفقة الطبيب ليبقى في المستشفى الى أن يتم اخراجه عنوةً . فياليتكم ترون طبيبنا عندئذ ! كان الطبيب يخجل من عناد المريض ، فلا يعــزم آمره على أن يعلن له صراحةً آنه قد شفي ، وعلى أن ينصحه بطلب بطاقة الخروج ، رغم أن من حقه أن يخرجه بغــير تعليل البتة ، مسجلاً على ورقته باللاتينية : « عوفي » ، وانما كان يلمح له أولاً الى أنه قد آن له أن يترك قاعة المرضى ، ويرجوه ملحاً بقــوله : « عليك أن تنصرف يا صاحبي ، فقد شفيت الآن ، والسرر غــير كافية ، والقاعة في ضيق ، الخ ... » ، الى أن يشعر السجين بشيء من الخجل ، فيطلب أخيراً أن يخرج . ولم يكن هذا شأن رئيس الأطباء ، فانه رغم ما كان يمتاز به من رحمة ورأفة وشرف واستقامة (ولقد كان جميــع المرضى يحبونه أيضاً) كان أقسى كثيراً وأحزم كثيراً من طبيبنا المختص بقاعتنا ؛ حتى لقد كان في بعض الأحوال يظهر قسوةً كبيرة تجتذب له احترام السجناء . كان يصل الى قاعتنا مصطحباً جميع أطباء المستشفى بعد أن يكون الطبيب الذي يعمل برئاسته قد قام بجولته ، فيقوم بتشخيص كل

حالة على حدة • وكان يطيل الوقوف على المصابين بأمراض خطـيرة ، ويعرف كيف يقول لهم كلمة طيبه مشجعة تشـد ازرهم وتثبت جنانهم وتترك فى نفوسهم أجمل الاثر • وكان لا يطرد السجناء الذين يصلون الى المستشفى « بمغص كاذب » ، ولكن اذا أصرّ أحدهم على البقـاء فى المستشفى سجل على بطاقته أنه قادر على الخـروج ، وقال له : « هلم يا رفيق ! لقد أصبت حظاً من راحة ، فامض الان ، وليس يحسن بك ان تبالغ ! ••• » • والسجناء الذين كانوا يصرون على البقاء فى عناد ، انما هم أولئك الذين ضاقوا بالأشغال الشاقة ولا سيما أثناء الحر الشديد فى فصل الصيف ، أو أولئك الذين حكم عليهم بالجـلد فهم ينتظرون ان يجلدوا • اذكر ان الأطباء قد اضطروا الى قسوة خاصة لطرد واحد من هؤلاء • كان قد جاء الى المستشفى لمداواة مرضٍ فى عينيه اللتين كانتا محمرتين احمرارا شديدا ، وكان يقول انه يشعر بالم حادٍ كاوٍ فى أجفانه • وقد عولج الرجل بطرق شتى : استعملت فى مداواته كمادات ولبائخ وعلقات وقطرات ومحاليل وغير ذلك ، ولكن شيئا من هذا كله لم ينفعه ، فما زال العضو المريض على حاله نفسها لم يتغير • وأدرك الأطباء أخيراً أن المرض تمارض ، فان الالتهاب لم يتفاقم ولا تمـاثل للشفاء ، فالحالة اذن مشبوهة • وكان المرضى يعرفون منذ زمن طويل أن المريض كان يمثل تمثيلية هزلية ، وأنه يخادع الأطباء رغم أنه لم يشأ أن يعترف بذلك • انه شاب قوى البنية حسن الهيئة ، ولكنه أحدث فى نفوس جميع رفاقه شعوراً بعدم الارتياح • كان شديد التخفى كثير الحذر قاتم المزاج لا ينظر الا من تحت ولا يكلم أحداً ويظل مبتعداً عنا كأنه يشـك فينـا جميعاً • وانى لأذكر أن كثيراً منا كانوا يخشون أن يقوم هذا الشـاب بعمل عنيف • كان وهو جندى قد امتدت يده الى سرقة ضخمة ، فحكم عليه بأن يضرب بالعصـا ألف ضربة ، وبأن ينقـل بعد ذلك الى فـرقة

تأديبية . وقد سبق أن قلت ان السجناء يقررون أحياناً في سبيل تأخير لحظة العقاب ، أن يقوموا بأعمال رهيبة ، فاذا بأحدهم يغمد خنجراً في بطن رئيس أو رفيق ، قبل موعد تنفيذ العقوبه بيوم ، من اجل ان تعاد محاكمته ، فيتأخر تنفيذ العقوبه بذلك شهراً أو شهرين ، فيحققون غايتهم ، لا يعنيهم أن يتضاعف الحكم عليهم مثنى أو ثلاث في ختام هذين الشهرين ، فانما هم يبتغون ارجاء اللحظة الرهيبة الى حين ، مهما يكلفهم ذلك ، فالى هذه الدرجة تعوزهم الشجاعة اللازمة لمواجهة تلك اللحظة الرهيبة !

ارتأى عدد من المرضى أن يراقب القادم الجديد ، لانه قد يعمد الى قتل احدٍ اثناء الليل من فرط يأسه . ولكنهم اكتفوا مع ذلك بالاقوال ، فلم يحترس أحد أي احتراس ، حتى ولا أولئك الذين كانوا ينامون الى جانبه . غير أنهم لاحظوا أنه كان يحك عينيه ليلاً بكلس الحائط وبشيء آخر أيضاً حتى تبدوا حمراوين حين يجيء الطبيب . وأخيراً أنذره رئيس الأطباء بأنه سيستعمل في مداواته طريقة الخرم. لقد كان الأطباء حين يستعصى مرض من أمراض العينين على أي وسيلة من الوسائل العلمية ، يعمدون الى استعمال الخرم ، تماماً كما تستعمل هذه الطريقة في علاج الخيل . ولكن الفتى أصرّ على أن لا يشفى . فاما أنه كان عنيداً شديد العناد واما انه كان جباناً شديد الجبن . والخرم مهما يكن أليماً ، فشتان بينه وبين الجلد على كل حال . ويتم الخرم كما يلي : يمسك جلد المريض من مكان قرب العنق ، ويشد الى وراء ما أمكن الشد ، ويحدث فيه شق مزدوج عريض طويل ، وتدس في الشق فتيلة من قطن بثخن اصبع ، وتشد هذه الفتيلة في ساعة معينة كل يوم الى أمام والى وراء كأنما ليشق الجلد من جديد حتى يظل الجرح متقيحاً فما يلتئم قط . تحمل المسكين هذا العذاب الذي سبب له آلاماً

رهيبة خلال عدة أيام • ثم قرر أخيرا أن يطلب الخروج من المستشفى • فما هو الا يوم أو بعض يوم حتى شفيت عياه شفاء تاما ، فلما التأم جرح عنقه ارسل الى السجن ، فغادره مع الغد لتنفذ فيه عقوبه ضربه بالعصا ألف ضربة •

ما أشق تلك الدقيقة التي تسبق تنفيذ العقوبة ! لعلني كنت مخطئاً حين وصفت الخوف الذي يشعر به السجناء بانه جبن • لا بد ان يكون هذا الخوف رهيبا حتى يقرر السجناء أن يجازفوا فيضاعفوه مثنى وثلاث لا لشيء الا أن يرجئوه • وقد تحدثت مع ذلك عن سجناء كانوا يطلبون ترك المستشفى من تلقاء أنفسهم قبل ان تلتئم الجروح الناشئه عن الضربات الاولى التي نالوها، وذلك في سبيل ان يوقع فيهم باقي العقوبة وان يضربوا الضربات الأخيرة فيتخلصوا من حالة الاعتقال التي هم فيها ، ذلك أن الحياة في مقر الحرس أسوأ من أية أشغال شاقة ولا شك • ثم ان اعتياد تحمل الجلد وتلقي العقوبة يساهم أيضاً في خلق ما نراه لدى بعض السجناء من شجاعة وثبات • فالذين جُلدوا مراراً كثيرة تقسو ظهورهم ونفوسهم ، فاذا هم آخر الأمر ينظرون الى العقوبة على أنها انزعاج عابر، واذا هم لا يخشون بعد ذلك شيئاً • لقد حدثني أحد سجناء القسم الخاص ، وهو كلموكي متنصر اسمه الكسندر أو الكسندرين كما كان السجناء يسمونه في السجن (هو فتى قوي الجسم غريب الأطوار ، شديد المكر كأنه الشيطان دهاءً ، شجاع رابط الجأش ثبت الجنان ، لكنه مع ذلك طيب القلب) حدثني كيف أنزلت فيه العقوبة فتحمل أربعة آلاف جلدة • كان لا يتكلم عن هذه العقوبة الا ضاحكاً مازحاً ، ولكنه حلف لي جاداً كل الجد أنه لو لم يكن قد نشأ في قبيلته على ضربات السوط منذ نعومة أظفاره ــ ولقد كانت الندبات التي تغطي ظهره ولم يمكن أن تزول تشهد بصدق ما يقول ــ اذن لما استطاع أبداً أن يحتمل

هذه الأربعة آلاف جلدة . فهو لذلك يبارك تلك التربية التى أخذ بها منذ طفولته فعلمته تحمل فرعات السوط . قال لى ذات مساء بينما كنا جالسين على مضجعي أمام النار : « كنت أضرب لأيسر سبب يا ألكسندر بتروفتش ! ولقد ضربت بغير سبب البتة خلال خمسة عشر عاماً عدة مرات فى اليوم : كان يضربنى من شاء أن يضربنى ، فتعودت السوط وألفته تماماً . » لا أذكر الآن ما هى المصادفة التى جعلته جندياً (ولعله كان يكذب ، فلقد كان رجلا أفاقاً متشرداً ، ولكننى أذكر القصة التى رواها لنا ذات يوم عن الفزع الذى انتابه حين حكم بجلده أربعة آلاف جلدة لأنه قتل رئيسه ، قال : « كنت أقدّر طبعاً أننى سأعاقب عقاباً قاسياً ، وكنت أقول لنفسى : مهما أكن قد تعودت السوط ، فربما فطست فى مكانى ... هى أربعة آلاف جلدة ... ما ذلك بمزاح ... ثم ان جميع رؤسائى كانوا حاقدين علىّ حقداً شديدا بسبب تلك القصة ... كنت أعلم أن الأمور لن تجرى هينة لينة ... بل كنت أعتقد أننى سأموت تحت السياط ... حاولت أولاً أن أعتنق النصرانية قائلا لنفسى: قد يدفعهم ذلك الى أن يغفروا ، فلنرَ ما عسى يكون ... وكان رفاقى قد نبهونى قبل ذلك الى أن هذا لن ينفعنى فى شىء ، لكننى قلت لنفسى : « من يدرى ؟ فقد يغفرون لى ! لا بد أن رأفتهم بنصرانى أكبر من رأفتهم بغيره » . عمّدونى ، وأسمونى الكسندر ، ولكن هذا لم يعفنى من العقوبة .. ما أظن أنهم كانوا سينقصون عددها ضربة واحدة . أغاظنى ذلك . فقلت لنفسى : « انظروا ... لأعرفن كيف أخدعكم وأضحك عليكم !» فهل تصدق يا ألكسندر بتروفتش ؟ لقد خدعتهم وضحكت عليهم حقاً ! كنت أتقن التظاهر بالموت ... لا أقصد أننى أستطيع أن أظهر بمظهر من مات تماماً ، بل بمظهر من يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه حتماً ! أخذونى الى أمام الكتيبة ، فضربونى الضربات الألف الأولى . حرقنى

الضرب حرقا . أخذت أعول . ضربوني الضربات الألف الثانية . قلت لنفسي : « أزفت نهايتي » . كانوا قد أفقدوني وعيي ، وكانت ساقاى كالمنكسرتين ... كراك ... هأنذا أسقط على الأرض وعيناى كعيني ميت ، وجهي أزرق تماماً ، فمي ممتلىء زبداً . أصبحت لا أتنفس . وصل الطبيب وقال انني سأموت . حملوني الى المستشفى . صحوت فوراً.

ضربوني بعد ذلك مرتين . ما أكثر ما كانوا غاضبين ! ما أشد ما كانوا حانقين ! ومع ذلك استطعت أن أخدعهم في تينك المرتين الأخريين : ضربوني الضربات الألف الثالثة ، ففطست من جديد . ولكنني أقسم لك أن كل ضربة من الضربات الألف الثالثة كانت كثلاث ضربات ، كانت كسكين تخترق قلبي .. أوف .. ما أكثر ما ضربوني ! كانوا متحمسين في ضربي أشد الحماسة . يا لتلك الألف الأخيرة ما كان أفظعها ! انها تساوي الآلاف الثلاثة الأولى مجتمعة . فلولا أنني تظاهرت بالموت حين بقي منها مائتان ، اذن لأجهزوا عليّ فيما أعتقد . ولكنني لم أتهالك بل خدعتهم مرةً أخرى متظاهراً بالموت : ظنوا مرة أخرى أنني أوشك أن ألفظ أنفاسي الأخيرة ؟ وهل كان في وسعهم أن لا يظنوا ذلك ؟ ان الطبيب نفسه كان موقناً أنني مشرف على الهلاك . ولكن بعد ذلك ، حين أنزلوا بي المائتي ضربة الباقية لم أكترث ولم أعبأ ، رغم أنهم استعملوا كل ما أوتوا من قوة حتى لكأنها ألفان . لم أحفل اذن بضرباتهم، ولم يستطيعوا أن يقضوا عليّ . لماذا ؟ لأنني نشأت وترعرعت على ضربات السياط . هذا هو السبب في أنني ما زلت حياً ! « آه .. لطالما ضُربت في حياتي ! » . كذلك ردد ألكسندر يقول واجماً مطرقاً حين أنهى قصته . وكان يبدو في وجهه أنه يتذكر ويعد الضربات التي تلقاها ! ثم أضاف يقول بعد صمت : « لا ... انها لا تعد ... لا تكفي الأرقام لعدّها واحصائها ! » . قال ذلك ثم نظر اليّ ومضى عني وهو ينفجر في

ضحكة تبلغ من الطيبة انني لم املك الا ان اجيبه عليها بابتسامة • « هل تعلم يا الكسندر بتروفتش ؟ انا ان حلمت في الليـــل فانما احلم بانني أضرب ، ولا أحلم بغير ذلك » • كذلك قال • والواقع أن ألكسندر كان يتكلم اثناء نومه ، ويعول ملء حلقه ، فيبلغ من شدة الاعوال أنه يوقظ السجناء من نومهم ، فيصيحون قائلين له : « ما هذا الزعيق يا شيطان ؟ »• ان هذا الرجـل القوى البنية ، القصـير القامة ، البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً ، الخفيف الحركة ، المرح المزاج ، كان على تفاهم مع جميع السجناء ، رغم أنه كان يحب أن تمتد يده الى كل ما ليس له ، ورغم أنه ضُرب بسبب ذلك مراراً • ولكن من ذا الذى كان بين هـؤلاء السجناء لا يسرق ، ومن ذا الذى لم يُضرب بسبب سرقاته ؟

يجب أن أضيف الى هذه الملاحظات انني كنت أظل مذهولاً من البساطة العجيبة والطيبة الخارقة ومن فقدان الحقد لدى هؤلاء الأشقياء حين يتحدثون عن عقوباتهم وعن الرؤساء المكلفين بانزالها فيهم • ان المرء الذى يسمع ما يقصونه عن هذه العقوبات التى كان الحديث عنها كثيراً ما يجعل قلبى يخفق خفقاناً شديداً ، لا يلاحظ عند رواتها ظلاً من كره أو أثراً من حقد ؛ حتى لقد كانوا يضحكون من أعمـــاق قلوبهم حين يروونها ، كما يضحك الأطفـال • غير أن هـــذه الحالة لم تكن حالة م ••• كى * حين حدثنى عن العقوبة التى أُنزلت فيه • لقد جلد هـذا الرجل (وليس هو من طبقة النبلاء) خمسمائة جلدة • ولم يحـدثنى عن هذا الأمر يوما • فلما سألته هل صحيح أنه جلد ، أجاب موجـــزاً بأن ذلك صحيح ، دون أن ينظر الىّ ، وقد احمر وجهه وبدا أنه يعانى ألماً نفسياً شـــديداً ، حتى اذا رفع عينيـه رأيت فيهما شعلة من حقد ، وكانت شفتاه ترتعشان من فرط الاستياء • أحسست أنه لن ينسى هـذه الصفحة من حياته وأنه لن يستطيع أن ينساها فى يوم من الأيام • ولا

كذلك رفاقنا الاخر (لست أضـــمن انه ليس بينهم استثناءات) ، فانهم كانوا ينظرون الى هذه المغامرة التي مروا بها نظرة مختلفة عن هـــذه النظرة كل الاختلاف . كنت أقول لنفسي احيانا : « انه ليستحيل أن يشعروا بعداله قصاصهم ، ولا سيما حين لا يكونون قد اجرموا في حق رفاقهم بل في حق رؤسائهم » . وكان اكثرهم لا يعترفون بانهم اجرموا قط . وقد سبق ان قلت انني لم الاحظ فيهم ايه ندامه ولم ألاحظ انهم يعانون سيئا من عذاب الضمير حتى حين يكونون قد اقترفوا جريمتهم في حق اناس من طبقتهم . أما الجرائم التي ارتكبوها في حق رؤسائهم فلست أتكلم عنها . لقد بدا لي أن لهم بالنسبة الى هـــذه الجرائم رأيا خاصاً بهم ، رأياً عملياً ، فهم يعدونها حوادث طارئة وقعت قضاءً وقدرا ، دون تفكير ودون شعور ، فهي مغتفرة ، ولا جناح عليهم فيها .. كذلك هم يعتقدون ... ان السجين لا يلوم نفسه على الجرائم التي يرتكبها في حق رؤسائه ، ولا يجعل هذه القضية محلّ تساؤل ، ولا يعدها مشكلة من المشـــكلات . ولكنه مع ذلك يعترف لنفســـه عمليا بأن رؤســاءه لا يشاطرونه رأيه وأن عليه من ثمّ أن ينال عقاباً ، وأنه لا يصبح بريئا الا بعد أن ينْزل فيه العقاب .

ان الصراع بين الادارة والسجين صراع عنيف . ومما يساهم في تسويغ جريمة السجين في نظره اعتقاده بأن البيئة التي ولد فيها وعاش فيها لا تدينه ، فهو واثق من أن الطبقة الدنيا من الشعب لن تحكم عليه بأنه ضاع ضياعاً نهائياً ، اللهم الا أن تكون جريمته التي ارتكبها جريمةً في حق أناس من هذه البيئة نفسها ، في حق أناس هم اخـــوته . انه مطمئن من هذه الناحية كل الاطمئنان ؛ وما دام ضميره راضياً فلن يفقد راحة النفس ، وذلك هـــو الشيء الأساسي . انه يحس أنه واقف على أرض صلبة ، وهو لذلك لا يحقد على السياط التي تنزل على ظهره ،

وانما يعدها أمراً لا مفر منه ؛ وهو يعزى نفسه قائلاً انه ليس أول من يتلقى هذه السياط ولا آخر من يتلقاها ، وأن هـذا الصراع السلبي الأصمّ العنيد سيدوم زمناً طويلاً • هل الجندى يكره التركى الذى يقاتله ؟ أبدا ••• ومع ذلك فان هذا التركى يضربه بالسيف ويطعنه بالخنجر ويقتله •

ما ينبغى أن نظن مع ذلك أن رواة هـذه الحكايات كانوا جميعاً يروونها بهدوء وبغير اكتراث • فحين كان السجناء يتحدثون عن الملازم جيربياتيكوف ، كانوا يتحدثون عنه دائماً باستياء مكظوم • لقد عرفت هذا الملازم جيربياتيكوف فى أول اقامتى بالمستشفى ـ عرفته من الحكايات التى قصَّها علىّ السجناء طبعاً • ورأيته بعد ذلك مرةً بينما كان يقود الحرس الى السجن • انه فى الثلاثين من العمر ، طويل القامة ، شديد البدانة ، قوى الجسم ، له خدان أحمران متهدلان من السمنة ، وأسنان بيضاء ، وضحكة رهيبة تشبه ضحكة نوزدريوف*• اذا رآه الرائى أدرك أنه أقل انسان على وجه الأرض قدرةً على التفكير • كان مولعاً أشد الولع بانزال السياط على الظهور ، وكان يفرحه كثيراً أن يكلف بتنفيذ هذه العقوبة • يجب أن أسارع فأذكر أن الضباط الآخرين كانوا يعدون جيربياتيكوف انساناً شاذاً ، وأن رأى السجناء فيه كان هو هذا الرأى نفسه • لقد عرف الزمان الماضى الذى ليس موغلاً فى القـدم والذى « ما تزال ذكراه حية ولكن الناس يصعب عليهم أن يصدّقوها » ، عرف جلاّدين يعشقون القيام بهذا العمل عشقا قوياً • غير أن أكثر الذين كانوا يتولون تنفيذ عقوبة الجلد كانوا يقومون بعملهم فى غير حماسة خاصة ، وفى غير اندفاع شديد ، وانما هم يقومون به هادئين •

ولا كذلك هذا الملازم ، فقد كان يجد فيه لذة مرهفة ومتعة عظيمة ، وكان يحسن القيام به خبيراً يتقن أسراره ويعرف دقائقه • كان مولّهاً

بفنه ، يحبه لذاته . فكأنه واحد من أولئك الجـلادين المحترفين الذين عرفتهم روما الامبراطورية ، فهو ينشد في هذا الفن ملذات لطيفة ومباهج تخالف الطبيعة ، دغدغة واثارة لنفسه الغارقة في الشحم .

يقاد أحد السجناء لتنفيذ عقوبة الجلد فيه . ان جيربياتكنيوف هو الضابط الذي سيتولى الاشراف على تنفيذ العقوبة ؛ فهو الآن مشرق الوجه ملهم الروح من مجرد رؤية ذلك الصف الطويل من الجنود المسلحين بسياط ضخمة . ها هو ذا يستعرض الجنود منبسط الاسارير مهيباً بكل واحد منهم أن يعنى بالقيام بواجبه على أكمل وجه ، والا ... والسجناء يعرفون مقدماً ماذا تعني كلمة « والا » هذه ... يحضر السجين . فاذا كان لا يعرفون جيربياتيكوف بعد ، واذا كان غير مطلع على السر ، فان الملازم يمكر به عادة على النحو التالي (ذلك اختراع من اختراعات جيربياتيكوف البارع جداً في مثل هذا النوع من الاختراعات) : ان كل سجين ، حين يعرى ظهره ويربطه ضباط الصف بحمالة البندقية ليشدده بها بعد ذلك على طول « الشارع الاخضر » ، يأخذ يتوسل الى الضابط بصوت ضارع دامع أن يأمر بجعل الضرب أقل قوة ، وأن لا يضاعف العقوبة بقسوة لا داعي اليها . فهو يهتف قائلاً : « ارحمني يا صاحب النبالة ، كن أباً رءوفاً ، اجعلني أدعو لك الله طـوال حياتي ، لا تمتني ، اشفق علي » . وان جيربياتيكوف ينتظر هذا ، فها هو ذا يشرع في محاورة السجين على النحو التالي بلهجة عاطفية مؤثرة :

ــ ولكن ماذا يجب علي أن أفعل يا عزيزي ؟ لست أعاقبك أنا وانما يعاقبك القانون !

ــ يا صاحب النبالة ... في استطاعتك أن تفعل ما تشاء ، فارحمني واشفق علي ! ...

ــ أتظن أنني لا أشفق عليك حقاً ؟ أتظن أن رؤيتك وأنت تجلد

شيء يسرني ويحدث لي لذة ؟ أنا انسان على كل حال • أأنا انسان أم لا ؟

ـ لا ريب في هذا يا صاحب النبالة ! ان الناس ليعلمون حق العلم أن الضباط آباؤنا وأننا أبناؤهم • فكن لي بمثابة أب •

كذلك يصيح السجين مؤملاً أن يفلت من العقوبة • فيقول له الملازم :

ـ أنظر في الأمر بنفسك يا صديقي ، ان لك دماغاً ففي وسعك أن تفكر • انني أعلم حق العلم أن الروح الانسانية تملي عليَّ أن أكون بك رءوفاً رحيماً أنت الخاطيء •

ـ ما تقول يا صاحب النبالة الا الحقيقة •

ـ نعم •• عليَّ أن أكون بك رءوفاً رحيماً مهما تكن مذنباً • ولكن ••• ولكن لست أنا الذي يعاقبك وانما يعاقبك القانون • فكّر قليلاً : انني أخدم الله والوطن فاذا خففت العقوبة التي حدّدها القانون كنت أرتكب اذن اثماً عظيماً •

ـ صاحب النبالة ! •••

ـ ما العمل ؟ على كل حال ، لك هذه المرة ما تشاء ••• سوف أرأف بك فأعاقبك عقاباً خفيفاً رغم علمي انني بذلك اقترف اثماً ••• ولكن ألست أسيء اليك اذا أنا رأفت بك وعقبتك عقاباً خفيفاً ، فظننت انني في المرة القادمة سأرأف بك أيضاً ، فترتكب حماقات جديدة ؟ هه ؟ ان ضميري •••

ـ معاذ الله يا صاحب النبالة ! انني لاقسم لك أمام عرش رب السماء أنني •••

ـ طيب طيب ... تقسم لى أنك ستسلك سلوكاً حسناً ...

ـ ألا فليمتنى الله فوراً ، وليعذبنى فى الحياة الآخرة عذاباً مقيماً اذا أنا ...

ـ لا تحلف هكذا ... ذلك اثم ... سأصدقك اذا أنت عاهدتنى وحسب ...

ـ صاحب النبالة ! ...

ـ طيب ! اسمع ! اننى أرأف بك رحمةً بدموع اليتيم التى تذرفها. أنت يتيم ، أليس كذلك ؟

ـ يتيم من الأب والأم يا صاحب النبالة ، أنا فى هذا العالم وحيد ليس لى أَحد ...

ـ طيب ... أنا أشفق عليك رحمةً بدموع اليتيم التى تذرفها . ولكن حذار ... هذه آخر مرة . خذوه !

كذلك يضيف الملازم قائلاً بصـــوت يبلغ من الرقة والحنان أن السجين لا يعرف كيف يشــكر لله أنه أرسل اليه مثل هــذا الضابط . ويسير الموكب الرهيب ويأخذ الطبل يدق . ويهزّ أوائل الجنود سياطهم؛ ويصيح جيربياتيكوف قائلاً ملء حنجرته : « اضربوه ! ألهبـوا ظهره ! اضربوا اضربوا ! قشّروا جلده ! اسلخوا جلده ! مزيدا مزيدا ... اضربوا هــذا اليتيم بمزيد من القوة ، ناولوه ! ناولوا هذا الوغد ! مزيداً من القوة ! هشموه تهشيما ! تهشيما ! » .

ويهوى الجنود بضرباتهم على ظهر الشقى بكل ما أوتوا من قوة ، ذراعاً بعد ذراع ... فتقدح عينا الشقى شررا ، ويأخذ يعول ، بينمـا يجرى جيربياتيكوف وراءه ، أمام الصف ، ممسكا خاصرتيه من شـدة الضحك . انه يختنق ضحكا ، ويطـرب طرباً عظيماً ، ولا يسـتطيع أن

يبقى منتصب القامة ، حتى لتأخذك بهذا الانسان العزيز شفقة . انه سعيد بأن يجد الأمر مضحكاً الى أبعد حدود الاضحاك ، فهو يضحك ضحكاً رهيباً مجلجلاً مدوياً ، ويردد من حين الى حين صيحته : « اضربوه ! قشّروه! اسلخوا جلد هذا اللص قاطع الطريق، هشموا لى هذا اليتيم!».

وكان جيربياتيكوف قد ابتكر أنواعاً شتى من هذه الطريقة . فاذا جيء اليه بأحد السجناء لتنفيذ العقوبة فيه ، وأخذ السجين يتضرع الى الملازم أن يرأف به ، عدل الملازم في هذه المرة عن الموقف المخادع السابق بل قال له بلا رياء ولا تعمل :

ـ اسمع يا عزيزى ، سوف أعاقبك كما يجب أن تعاقب ، لأنك تستحق العقاب . ولكننى أستطيع أن أنعم عليك بشيء : لن أوثقك بحمالة البندقية ، بل أدعك طليقاً تتحرك كما تشاء ، فما عليك الا أن تركض أمام صف الجنود بكل ما أوتيت من قدرة على الاسراع في الركض . صحيح أن كل سوط سيصيبك ، ولكنك بذلك ستنتهى من نيل العقوبة بسرعة فما رأيك ؟ هل تريد أن تجرب هذه الطريقة ؟

ان السجين الذى أصغى الى كلامه بكثير من الشك والحذر يقول لنفسه : « من يدرى ؟ لعل هذه الطريقة خير من الأولى . فاذا ركضت بكل ما أوتيت من قوة دام ذلك مدة أقصر خمس مرات ، وقد لا تصيبنى جميع السياط » ؟ ثم يقول السجين للملازم :

ـ موافق يا صاحب النبالة !

ـ وأنا أيضاً موافق .

هكذا يقول له الملازم ثم يصيح بالجنود :

ـ هيا أنتم ، انتبهوا .

ان الملازم يعلم أن ظهر الشقى لن يفلت من سوط واحد ؛ وان كل جندى يعلم أنه اذا أخطأ سوطه ظهر الرجل فلسوف يكون له مع الملازم شان . ويحاول السجين أن يركض في « الشارع الاخضر » ، ولكنه لا يتجاوز خمسة عشر زوجاً من الجنود ، فان السياط تنهمر على ظهره المسكين كحبات البرد وفرة ، وكومض البرق سرعة ، فاذا هــو يسقط على الأرض والأنين يخرج من صدره، ثم هو لا يتحرك بعد ذلك، فكأنه سمـّر بالأرض أو قتل برصاصة .

فاذا استطاع أن ينهض بعدئذ فى كثير من المشقة أصــفر اللون مذعور السحنة قال للملازم :

ـ لا يا صاحب النبالة ! انني أوثر أن أُضرب على الطـريقة التي يوجبها النظام .

والملازم يعرف نهاية هذه المهزلة مقدما ، فهو ممسك بخاصرتيـه منفجر ضحكاً . ولكنني لا أستطيع أن أذكر جميع التسليات التي اخترعها خيال هذا الملازم ، ولا أن أروى جميع ما كان يحكى عنه .

وكان السجناء فى قعتنا يتحدثون أيضا عن ملازم اسمه سميكالوف كان يشغل منصب آمرٍ للموقع قبل وصول الميجر الحالى : ولئن كانوا يتحدثون عن جيربياتنيكوف في غير اكتراث وفى غير كره ، ولكن دون أن يمتدحوا أعماله لانهم كانوا يحتقرونه ، فلقــد كانوا مجمعــين على امتداحه والثناء عليــه والتحمس له . لم يكن ذلك الملازم من النـاس المولعين بالسياط الهائمين بالعصى، ولم يكن فيه شيء من طبع جيربياتنيكوف ولا من أخلاقه ، ولكنه مع ذلك لم يكن يحتقر السـط . فكيف كان السجناء اذن يذكرون عهده ويذكرون تنفيذه للعقوبات فى شيء من الرضا الهادىء والارتياح العذب ؟ كيف استطاع أن يفوز برضا السجناء ؟ لماذا

ذلك ؟ كيف أمكنه أن ينال مثل هذه المحبة بين رفاقنا السجناء ؟ لقد كان رفاقنا السجناء ، كسائر الشعب الروسي ، مستعدين لأن ينسوا آلامهم اذا قيلت لهم كلمة طيبة (انني أثبت هذه الواقعة دون أن أحللها ودون أن أدرسها) لذلك لا يصعب الفوز بمحبة هذا الشعب ، ولا يصعب الحصول على احترامه . لقد استطاع سميكالوف أن ينال « شعبية » خاصة ... فكان السجناء لا يجيئون على ذكر تنفيذه للعقوبات فيهم الا ويشعرون بشيء من الحنين اليه . حتى لقد كانوا في بعض الأحيان ، حين يقارنون بين رئيسهم القديم والميجر الحالي ، يقولون متنهدين : « كان طيباً كأب » . لقد كان سميكالوف رجلاً بسيطاً ، ولعله كان طيباً على طريقته . ومع ذلك فان بين الرؤساء أناسا ليسوا طيبين فحسب ، بل رحماء أيضا ، ثم هم مكروهون لا يحبهم أحد ، بل يسخر منهم الجميع . ولا كذلك سميكالوف فقد بلغ من حسن التصرف أن جميع السجناء كانوا يعدونه « رجلهم » . تلكم مزية نادرة ، تلكم صفة فطرية لا يشعر بها أصحابها الذين يتصفون بها ، في كثير من الاحيان . شيء غريب : هنالك أناس ليسوا من الطيبة في شيء ، ثم هم أوتوا موهبة الحصول على مودة البشر . انهم لا يحتقرون الشعب الذي يترأسونه . وأحسب أن هذا هو السبب الذي ترجع اليه « شعبيتهم » . الناس لا يرون فيهم سادة كبارا ، لانهم لا يحسون أنهم من طينة غير طينتهم ، وأنهم طبقة على حدة ؛ ان فيهم رائحة من الشعب ... ان فيهم هذه الرائحة بالفطرة .. وسرعان ما يشم الشعب هذه الرائحة . وهو مستعد لأن يفعل كل شيء في سبيل هؤلاء . انه يؤثر الرئيس القاسي جداً على ألطف انسان وأودع انسان ، متى كان في ذلك الرئيس شيء من رائحة الشعب . فاذا كان هذا الرئيس ، عدا ذلك ، لين الطبع دمث الخلق طيب القلب ، على طريقته الخاصة طبعاً ، أصبح في نظر السجناء انسانا لا يقدر بثمن ! لقد كان

الملازم سميكالوف ، كما ذكرت ، ينزل في السجناء عقوبات قاسيه جدا في بعض الاحيان ، ولكنه كان يبلغ من حسن التصرف حين ينزل فيهم هذه العقوبات انهم كانوا لا يحملون له اى حقد . بالعكس : لقـد كانوا يتذكرون « حكايات » سياطه ضاحكين ... على ان هذه الحديات لم تكن كثيرة والحق يقال ، ذلك أنه لم يكن على جانب كبير من سعه الخيال الفنى ... انه لم يخترع الا مزحة واحدة ، واحدة لا اكثر ، ظل يبتهج بها قرابة عامٍ كامل فى سجننا ، ربما لانها كانت واحدة ، ولم تكن تخلو من مرح وفكاهة . كان سميكالوف يشهد تنفيذ العقوبه بنفسه ، ممازحا السجين ضاحكا عليه ، فهو يلقى عليه أسـئله غريبـة . كان يسأله عن شئونه الشخصية فى السجن . انه لا يفعل ذلك لهدف معين او نية مبيته، وانما يفعله « لانه يحب أن يكون على علم بشئون هدا السجين » . كان يؤتى اليه بكرسى ، ويؤتى اليه بالسياط التى ستستعمل فى معاقبة المذنب ، فيجلس على الكرسى ويشعـل غليونه الطويل ، والســجين يتوسل اليه ضارعاً ، فيقول له الملازم : « هيه ! لا ... يا رفيق ... هلمّ ارقد .. ماذا بك ؟ » . فيتنهد الســجين ويرقد على الأرض . فيسأله الملازم : « طيب يا عزيزى ! هل تحسن تلاوة الصلوات ؟ » ، فيقـول السجين : « كيف لا يا صاحب النبالة ؟ اننى مسيحى ، وقد تعلمتها منذ طفولتى ! »، فيقول الملازم : « اتل أدعيتك اذن ! » . والسجين يعرف سلفاً ما الذى سيتلوه من أدعية ، وكيف ستنتهى هذه التلاوة ، لأن هـذه المزحة قد تكررت أكثر من ثلاثين مرة ؛ بل ان سميكالوف يعـرف هو أيضاً أن السجين على علمٍ بأمر هذا الاختراع فليست تنطلى عليه الحيلة ، وكذلك الجنود الذين أشرعوا سياطهم فوق ظهر الضحية الشقية. ويأخذ السجين بتلاوة الصلوات ، ويبقى الجنود المســلحون بالسياط وقوفاً ساكنين . وينقطع سميكالوف عن التدخين ، ويرفع يده مرتقباً وصول السجين من

أدعيته الى العبارة التى ينتظرها ؟ ويأخذ السجين فى تلاوة صلواته حتى اذا بلغ منها قوله : « ليأت ملكوت السماء » كان ذلك كل ما يريده الملازم فاذا هو يصيح بالسجين قائلاً : « كفى ! » ، وقد احمر وجهه احمراراً شديداً ، واذا هو يقول للجندى المشرع سوطه : «عليك به ! جئه بملكوت السماء ! » ، يقول ذلك وهو يحرك يده باشارة ملهمة ! ...

ثم ها هو ذا ينفجر ضاحكاً . ويبتسم الجنود الواقفون ويبتسم الجالد ، ويبتسم المجلود نفسه ! غفر الله لى ! ... يبتسم المجلود نفسه رغم أن السوط ، حين صاح الملازم قائلاً : « انشر ظهره ! » قد صفر فى الهواء صفيراً قوياً ، وهوى على ظهر المذنب الشقى يقطعه كأنه موسى ! ... ان سميكالوف سعيد جداً ، لأنه هو الذى اخترع هذه المزحة ، لأنه هو الذى ابتكر هذه النكتة . فاذا انتهى انزال العقوبة فى السجين انصرف الملازم راضياً ، وانصرف السجين نفسه راضياً عن نفسه وعن الملازم ومضى يقص على رفاقه مزحة سميكالوف للمرة الاحدى والثلاثين ، خاتماً كلامه بقوله : « ان قلبه طيب حقاً ... يحب المزاح ويعشق الدعابة ! » .

ما أكثر ما كان المرء يسمع من السجناء ثناءً عاطفياً رقيقاً على الملازم الطيب .

حدث أحد السجناء يقول وقد أشرق وجهه ابتهاجاً بذكرى ذلك الانسان الشهم :

— فى بعض الأحيان ، أثناء الذهاب الى العمل ، رأيته جالساً الى نافذته بثوب المنزل يحتسى الشاى ويدخن الغليون . فرفعت قبعتى

احتراما فسألني : « الى أين أنت ذاهب يا أكسينوف ؟ » فقلت له : « الى الشغل يا ميخائيل فاسيلتش ، ولكن يجب عليّ أن أذهب أولاً الى الورشة » ، فكان وهو يسمع كلامي يضحك ضحكا سعيداً كل السعادة. ما أطيب قلبه ! ما أطيب قلبه حقاً !

وأضاف أحد السامعين يقول :

ـ أمثال هذا الرجل لا يبقونهم مدة طويلة ! ...

٣

المستشفى

تتمة

تحدثت هنا عن العقوبات* وعن الذين يتولون تنفيذها لأن الفكرة الأولى الواضحة عن هذه الأمور قد قامت في ذهني أثناء اقامتي بالمستشفى • كنت الى ذلك الحين لا أعرف هذه الأمور الا عن طريق السماع • كان يؤتى الى قاعتنا بجميع من صدر الحكم عليهم بالجلد وجميع سجناء الأقسام العسكرية المقيمة في مدينتنا وفي المديرية التابعة لها • وكنت في الأيام الأولى أنظر الى ما يجرى حولى بشراهة تبلغ من القوة أن هذه العادات الغريبة وهؤلاء السجناء الذين جلدوا أو الذين سيجلدون قد أحدثوا في نفسي شعوراً رهيباً • كنت مضطرباً أشد الاضطراب ، مروّعا أعظم الترويع • وكنت اذا سمعت الأحاديث أو الأقاصيص التي يتبادلها السجناء الآخرون حول هذا الموضوع ، ألقى على نفسي أسئلة أحاول أن أجد لها أجوبة • كنت أحرص الحرص كله على أن أعرف جميع درجات الأحكام والعقوبات وجميع طبقاتها ، وأن أعرف رأى السجناء أنفسهم : حاولت أن أتصور الحالة النفسية التي يكون عليها المجلودون • سبق أن ذكرت أن من النادر أن يكون أحد السجناء هادئ النفس مطمئن البال قبل اللحظة الحاسمة ، ولو كان قد

ضرب قبل ذلك مراراً • ان السجين يشعر بفزع رهيب ، ولكن هذا الفزع جسمي محض ، فزع لا يعيه صاحبه لأنه يكون قد أطاش لبه وذهب بصوابه • لقد استطعت أثناء السنين التي قضيتها في السجن أن أدرس ، على مهل، السجناء الذين كانوا يطلبون خروجهم من المستشفى، بعد أن مكثوا فيه زمناً لمعالجة ظهورهم التي أصيبت بجـــراح من انزال نصف العقوبة فيهم؛ لقد أتيح لي أن أرى عدداً كبيراً منهم يطلب الخروج من المستشفى في الغداة لانزال باقي العقوبة فيه • ان التوقف عن اتمام انزال العقوبة انما يكون دائماً بأمر الطبيب الذي يشهد التنفيذ • فاذا كان عدد الضربات أكبر من أن يحتملها السجين دفعةً واحدة قسّم هذا العدد نصفين أو ثلاثة ، وفقاً للرأي الذي يبديه الطبيب أثناء التنفيذ ، فالطبيب هو الذي يقول هل يستطيع السجين أن يحتمل العقوبة كلها أم أن حياته أصبحت في خطر • فاذا كانت العقوبة خمسمائة جلدة أو حتى ألف جلدة أو ألفاً وخمسمائة جلدة ، فان السجين يتلقاها دفعةً واحدة، أما اذا كانت ألفي جلدة أو ثلاثة آلاف جلدة فانها توزع على دفعتين أو ثلاث • فالذين اندملت جراح ظهورهم وأصبح عليهم أن يتلقـــوا باقي العقوبة يكونون قبل خروجهم من المستشفى بيوم حزاني النفوس قاتمي الوجوه صامتين لا يتكلمون • ان النـــاظر اليهم يلاحظ فيهم نوعاً من الانصعاق ، وضربا من الذهـــول الغريب • انهم لا يشرعـون في أي حديث ، بل يلزمون الصمت طوال الوقت تقـــريباً • أمر عجيب : ان السجناء يتحاشون أن يخاطبوا أولئك الذين سيجلدون ، وهم خاصـةً لا يشيرون أية اشارة الى العقوبة التي سيتم انزالها فيهم • انهم لايحاولون أن يواسوهم وأن يعزوهم وأن يشجعوهم بكلمات زائدة وأقوال لا محل لها ولا داعي اليها ••• حتى أنهم لا يلتفتون اليهم ولا يظهرون شيئاً من الاكتراث بهم ، ولا شك أن السجين الذي سيُجلد يؤثر ذلك ويفضّله•

غير أن هناك استثناءات • مثال ذلك السجين أورلوف الذى سبق أن تحدثت عنه • لقد ساء أورلوف أن جراح ظهره لم تندمل بسرعة أكبر ؛ انه يستعجل طلب الخروج من المستشفى ، ويريد أن يفرغ من انزال باقي العقوبة فيه ، وأن يُرسل الى السجن ، لأنه ينوى أن يهرب أثناء الطريق • ان أورلوف جامح النفس عنيف الطبع لا يشغله الا الهدف الذى يجب عليه بلوغه ، وهو انسان على جانب عظيم من شدة المكر وسعة الحيلة • كان يبدو عند وصوله مسروراً كل السرور ، وكان فى حالة اهتياج شديد ؛ انه رغم اخفائه مشاعره ، قد ظن أثناء توقيع العقوبة فيه أنه لن ينهض من مكانه وأنه سيقضى نحبه حتى قبل استيفاء نصف العقوبة • كان قد سمع كلاماً عن الاجراءات التى ستتخذها الادارة فى حقه ، وذلك حين كان لا يزال يحاكم ؛ ولهذا كان يتوقع أن يموت• حتى اذا فرغوا من انزال نصف العقوبة فيه استرد شجاعته واستعاد أمله ورجعت اليه رباطة جأشه • لم أكن قد رأيت فى حياتى جروحاً حين وصل الى المستشفى ، ولكن الرجل كان فرحاً كل الفرح ، فهو يأمل الآن أن يبقى حياًء ان الشائعات التى بلغت مسامعه كانت اذن كاذبة، ما دام انزال باقى العقوبة فيه قد أرجىء • وأخذ أورلوف أثناء حبسه الاحتياطى الطويل يحلم بالرحلة ، بهربه المقبل ، بالحرية ، بالحقول ، بالغابة ••• وبعد يومين من خروجه من المستشفى عاد الى المستشفى ليموت على ذلك المضجع نفسه الذى شغله طوال مدة اقامته • انه لم يحتمل النصف الثانى من العقوبة • ولكن سبق أن تحدثت عن هذا الرجل •

ان جميع السجناء بغير استثناء ، حتى أشدهم جبناً وأكثرهم جزعاً، حتى أولئك الذين يضنيهم انتظار عقوبتهم ويمضهم ليلاً ونهاراً ، كانوا يتحملون العقوبة صابرين • كان نادراً أن أسمع أنيناً فى الليلة التى

تعقب تنفيذ العقوبة . ان الشعب على وجه العموم يعرف كيف يحتمل الالم . وقد سألت كثيراً من رفاقي عن هذا الألم بغية أن أحدد طبيعته على وجه الدقة ، وأن أعرف ما هو العذاب الذي يمكن أن يشبَّه به . لم يكن يدفعني الى ذلك فضول سخيف واستطلاع لاه . فلقد سبق ان قلت انني اضطربت أشد الاضطراب ورُوِّعت أشد الترويع . ولكنني رغم الاسئله الكثيرة التي القيتها على رفاقي لم اظفر من أحد منهم بجواب شاف مرض . كانوا يجيبونني اجمالا بقولهم : « ذلك يحرق الظهر كالنار » : لان هذا جوابهم جميعا . وقد حاولت في أول الأمر أن أسأل م ... كي ، فقال : « ذلك يحرق الظهر كالنار ، كجحيم . يحس المرء أن على ظهره فرناً مشتعلاً » . لقد كانوا يعبرون بهذا عن كل شيء . ولاحظت في أحد الأيام ملاحظة غريبة لا أضمن صدقها ولا أكفل صحتها ، رغم أن رأي جميع السجناء يؤيدها ، وهي أن عقوبة الجلد بالسوط أفظع أنواع التعذيب المستعملة في بلادنا . قد يبدو هذا في أول الأمر مستحيلاً غير معقول . ومع ذلك فان خمسمائة جلدة بالسوط وربما أربعمائة جلدة قد تكفي لقتل انسان . حتى اذا تجاوز العدد خمسمائة أوشك الموت أن يكون محققاً . ان أقوى الناس جسماً وأصلبهم عوداً لا يقدر أن يحتمل ألف سوط ، على حين أن المرء يستطيع أن يتلقى خمسمائة ضربة بالعصا دون أن ينهار انهياراً شديداً ، ودون أن يتعرض لخطر الموت . ان في وسع الرجل المتوسط القوة أن يحتمل ألف ضربة بالعصا دون أن يتعرض لخطر ؛ ولا يمكن لألفي ضربة بالعصا أن تقتل انساناً متوسط القوة سليم الجسم . لقد أكد جميع السجناء أن السوط أسوأ من العصي . كانوا يقولون : « ان السياط تكوى وتعذب أكثر من العصي . » . وانه لأمر بديهي أن تكون السياط أشد تعذيباً من العصي ، فهي تهيج الجهاز العصبي وتثيره اثارة قوية . لا أدري

ألا يزال يوجد في أيامنا أناس من أولئك السادة (لكنني أعرف أنه كان يوجد منهم في زمن غير بعيد) الذين يجدون لذة عظيمة ومتعة كبيرة في جلد ضحية من الضحايا . انهم يذكرون بالمركيز ساد وبالمركيزة برنفلييه*. أحسب أن مرد هذه اللذة الى اضطراب نفسي ، وأن هؤلاء السادة لا بد أن يشعروا بلذة والم في ان واحد . ان هناك اناسا هم كالنمور شراهة الى الدم، يحبون ان يلعقوه . ان الذين اوتوا سلطانا لا حدود له على اجسام البشر ودمائهم وارواحهم ؛ الذين اوتوا هذا السلطان على من هم في شريعه المسيح اخوتهم؛ الذين شعروا بهذا السلطان وامكنهم ان يذلوا ويمتهنوا ويحقروا الى اقصى الحدود انسانا اخر خلق على صورة الله...ان هؤلاء عاجزون عن كبح رغباتهم ومقاومة ظمئهم الى معاناة الاحساسات الشديدة. والطغيان والاستبداد عادة يمكن أن تستفحل وأن تتفاقم حتى تمسي مع الزمن مرضا. اني اؤكد ان خير انسان في العالم يمكن ان يقسو قلبه وان يتوحش طبعه الى درجة لا يمكن معها تمييزه عن حيوان كاسر مفترس . ان الدم والسلطة يسكران ، ويساعدان على نمو القسوة والفحش والفجور ، فاذا الروح والعقل يصابان بالشذوذ واذا هما يجدان في أغرب الأمور عن الطبيعة الانسانية السليمة لذات كبيرة . ان الانسان والمواطن يختفيان الى الابد من نفس الطاغية المستبد، فتصبح العودة الى الكرامة الانسانية وتصبح الندامة والتوبة والانبعاث الأخلاقي أموراً يكاد يستحيل تحققها . أضف الى ذلك أن هذه الاباحية يمكن أن تسري عدواها الى المجتمع بأسره : ان مثل هذه السلطة مغرية. والمجتمع الذي ينظر الى هذه الأشياء بغير اكتراث يكون قد أصيب بهذه العدوى حتى بلغت منه النخاع . وأقول بايجاز : ان منح أحد الناس حق انزال عقوبات جسمية في أقرانه هو جرح من جروح المجتمع ، وهو أضمن وسيلة الى قتل روح التعاطف مع الناس ؛ وهذا الحق يضم،

على صورة البذور ، عناصر انحلال وشيك لا مفر منه ولا معدى عنه .

والمجتمع يحتقر الجلاد المحترف لا « السيد الجلاد » . لقد أراد بعضهم فى الاونة الأخيرة أن يدعى نقيض ذلك ، ولكن بطريقه نظرية لفظية . والذين عبروا عن هذا الراى لم يكن قد اتسع وقتهم بعد لخنق غريزة السيطرة فى نفوسهم . ان كل صاحب مصنع وكل مقاول لابد أن يكون قد شعر مرارا بنوع من الرضى الشـــديد والارتياح العظيم حين أحس أن عمالاً عائلين هم رهن به وحده . أنا على يقين من أن جيلاً من الاجيال لا يستطيع ان يستأصل ما فيه من أمور موروثة ، بمثل هذه السرعة . ان الانسان لا يستطيع أن يتخلى عما يجرى فى دمه ، عما رضعه مع حليب أمه . ليس يكفى أن يعترف المـرء بذنبه ، بخطيئتـه الأصلية ... ذلك قليل ، قليل جداً ... وانما ينبغى له أن يجتث هذه الخطيئة أيضا ، وذلك لا يتم بسرعة .

لقد تكلمت عن الجلاد . واننى لأقول ان بذور غرائز الجلاد تكاد توجد فى كل فرد من افراد مجتمعنا المعاصر ، ولكن غرائز الانسـان الحيوانية لا تنمو نمواً واحداً ، فاذا خنقت هذه الغرائز جميع الملكات الأخرى أصبح الانسان مخلوقاً مشـــوهاً كريهاً . فالجـلادون نوعان : الجلادون بارادتهم ، والجلادون بحكم الواجب ، بحكم الوظيفة . فأما الجلاد بارادته فهو من جميع النواحى أحط من الجلاد الماجـور الذى يثير مع ذلك كل هذا الاشمئزاز فى نفوس الشعب ، ويوقظ فيه تقززاً شديداً وفزعاً لا شعورياً يوشك أن يكون غيبياً . فما مرد هذا الـكره الرهيب الخرافى الذى يشعر به الناس نحو الجـــلاد المحترف بينما هم يقفون من الجلاد بارادته موقف من لايحفل به ولا يكترث له بل يتسامح معه ؟ اننى أعرف أمثلة غريبة على أناس شرفاء طيبين يقدرهم مجتمعهم ثم هم يجدون أن من الضرورى أن يعول المحكوم عليه بالجلد اعوالاً

شديداً وأن يبتهل ويتضرع ويطلب الصفح والمغفرة . ذلك في نظرهم أمر مقبول ، بل امر لا بد منه . حتى اذا رفض المجلود ان يصرخ فان الجالد الذي أعده في أي ظرف آخر انساناً طيباً يرى في ذلك اهانة لشخصه . لقد كان لا يريد في اول الامر الا انزال عقوبة خفيفة ، لكنه منذ لم يسمع التوسلات والضراعات المألوفه المعتادة ، كقول المجلود : « رحماك يا صاحب النبالة ، اشفق عليّ و دن لى أبا ودع لى ان أدعو لك الله طوال حياتى » ، غلا حنقه واستشاط غيظه وامر للمسكين بخمسين جلدة زيادة ، آملاً أن يصل بذلك الى سماع الصرخات والضراعات ، وهو يصل الى سماعها فعلاً . قال لى واحد من هؤلاء ذات يوم في كثير من الجد : « مستحيل بغير ذلك . انه وقح مسرف في الوقاحه » . اما الجلاد بحكم الواجب فانه منفى من المنفيين عهد اليه ان يقوم بهـذه الوظيفة . انه يتعلم هذه المهنة من جلاد قديم ، حتى اذا اتقنها ظل طول حياته في السجن قاطناً في مكان على حدة . ان له غرفة لا يقاسمه اياها أحد ، حتى لقد يكون له في بعض الأحيان مسكن خاص ، ولكنه يظل مخفوراً طول الوقت على وجه التقريب . وليس الانسان بآلة . فهـذا الجلاد ، رغم أنه يجـلد بحكم الواجب ، يعصف به الغضب أحياناً ، ويشعر حين الجلد بشيء من اللذة . ولكنه لا يحمل لضحيته أي كره . ان رغبته في اظهار براعته وحذقه ، وابراز علمه وفنه ، تستحث غروره وتشحذ كبرياءه وتحرض حبه لنفسه ؟ انه يعمل للفن . هو يعلم حق العلم أنه انسان مكروه ، وأنه يثير في كل مكان رعباً خرافياً ، فيستحيل أن لا يكون لهذا الظرف تأثير فيه ، وأن لا توقظ هذه الظروف غرائزه البهيمية . ان الأطفال أنفسهم يعرفون أن هذا الرجل قد استغنى عن أمه وأبيه ... شيء غريب : ان جميع الجلادين الذين عرفتهم كانوا أناساً على جانب من الذكاء والفهم ، وكانوا أناساً مفرطين في كبريائهم وحبهم

لأنفسهم . ان الصلف ينمو لديهم نتيجةً للاحتقار الذي يلقونه في كل مكان ، ولعله يشتد ويقوى من شعورهم بالخوف الذي يوقظونه في نفوس ضحاياهم ، وبالسلطان الذي يملكونه على هؤلاء الأشقياء. ولعل الاخراج المسرحي لقيامهم بوظائفهم العامة هذه يسهم في نفخهم بشيء من الغرور. لقد أتيح لي خلال مدة من الزمن أن ألقى وأن ألاحظ واحدا من هؤلاء الجلادين . كان رجلاً في الأربعين من عمره متوسط القامة قوي العضلات جافاً له وجه لطيف ذكي يعلوه شعر مضفور . انه رزين وقور هادىء مسالم يشبه مظهره أن يكون مظهر شريف من الأشراف . كان يجيب عن الأسئلة التي تلقى عليه اجابات فيها فهم وتعقل وفيها وضوح وجلاء غير أن فيها نوعاً من اظهار التواضع كأنه يتنازل لمحدثه عن شيء من الأشياء . كان ضباط الحرس يخاطبونه بشيء من الاحترام ، وكان هو يلاحظ ذلك ويدركه حق الادراك ؛ ولهذا كان أمام رؤسائه يضاعف تأدبه وجفافه ورزانته . وكلما تودد اليه هؤلاء مزيداً من التودد ، ازداد هو تكبراً ، دون أن يفقد مع ذلك تأدبه المرهف . اني لعلى ثقة من أنه كان في تلك اللحظات يعد نفسه فوق مخاطبه كثيراً فلا مجال للمقارنة بينه وبينه . ذلك يُقرأ في وجهه . كان هذا الرجل يكلّف أحياناً ، في فصل الصيف ، أثناء الحر الشديد ، بقتل كلاب المدينة ، فيرسل الى المدينة مخفوراً ليقتل هذه الكلاب برمح طويل مسنون . كانت هذه الكلاب تتكاثر بسرعة هائلة وتصبح خطرة في فترة القيظ ، فكان الجلاد مكلفاً بقتلها بقرار من السلطات . ان هذه الوظيفة الحقيرة لم تشعره بشيء من الضعة قط . ليتك رأيت ذلك الوقار الذي كان يبدو في وجهه حين كان يطوف شوارع المدينة مع حارسه المتعب المكدود المرهق ، وليتك رأيت كيف كان يخيف النساء ويروّع الأطفال بنظرة واحدة ، وكيف كان يلقي على المارّة نظرات استعلاء وعظمة !

والجلادون يعيشون في بحبوحة ، فهم يملكون مالاً ، ويقومون برحلات مريحة ويشربون خمرا . وهم يستمدون مواردهم هذه من الرشوات التي يدسُّها في أيديهم أهل اليسار من المسجونين المدنيين ؛ والجلادون هم الذين يحددون مقدار الرشوة تبعاً لما يملكه السجين من غنى ، فربما طلبوا ثلاثين روبلاً وربما طلبوا أكثر من ذلك . صحيح ان الجلاد لا يملك حق الرأفة بالمجلود ، والا كان يعرّض ظهره هو للجلد ؛ ولكنه يتعهد ، لقاء رشوة مناسبة ، أن لا يسرف في القسوة أثناء الجلد . والسجناء يستجيبون لمطالبه في جميع الاحيان تقريباً ، لأنهم اذا رفضوا الاستجابة لها عمد في ضربهم الى وحشية رهيبة ، وذلك أمر يملكه . حتى لقد يتفق أن يطلب مبلغاً ضخماً من سجين فقير جدا . وعندئذ ترى جميع أقرباء السجين يتحركون ، فهم يساومون الجلاد ، ويستعطفونه ويتوسلون اليه . وويل لهم ان لم يستطيعوا أن يرضوه : ان الخوف الخرافي الذي يثيره الجلادون في النفوس يفيد الجلادين كثيراً . لقد حدثني بعض الناس ان في هؤلاء الجلادين وحشية رهيبة. حتى لقد أكد لي السجناء أن في وسع الجلاد أن يجهز على الضحية بضربة واحدة . أهذه حقيقة مستمدة من تجربة ؟ ربما ! ... من يدري ! ... ان لهجة الذين ذكروا لي ذلك كان فيها من قوة التأكيد والحزم ما يجعلني أستبعد أن لا يكون الأمر أمر حقيقة مستمدة من تجربة . وقد أكد لي الجلاد نفسه أن في وسعه أن يفعل ذلك . وذكر لي بعضهم أيضاً أن في وسع الجلاد أن يحتال فاذا هو يهوى على ظهر المجلود بضربة قوية لا تُشعر المجلود بأي ألم ولا تخلف فيه أي أذى. ولكن حتى حين يكون الجلاد قد تناول رشوة في سبيل أن لا يسرف في شدة الضرب فان الضربة الأولى التي ينزلها في المجلود تكون في العادة قوية جداً . تلك سنة لا تتخلف . وبعد تلك الضربة الأولى التي لا بد

أن تكون قوية ، ينزل الجلاد فى المجلود ضربات أقل قسوة ، لا سيما اذا كان قد تقاضى رشوة طيبة . لا أدرى لماذا يفعل الجلادون ذلك : أهم يفعلونه من أجل أن يهيئوا المجلود لاحتمال الضربات التالية التى ستظهر له أخف وطأة وأيسر ألماً متى كانت الضربة الأولى قاسية ، أم هم يفعلون ذلك لارهاب المجلود بغية أن يعرف شدة بأسهم وفرط سطوتهم ؟ أتراهم يريدون أن يبرهنوا على قوتهم وأن يستمدوا من ذلك زهواً وافتخاراً ؟ مهما يكن من أمر فان الجـــلاد يكون قبل انفاذ مهمته مهتـــاجاً بعض الاهتياج ؛ انه يشعر بقوته وسطوته : هو فى تلك اللحظة ممثـل أمام جمهور ، والجمهور يعجب به ويخاف منه . لذلك تراه يصيح بضحيته قائلاً فى غير قليل من الرضى والزهو : « استعد ... لتسلخنك الضربة سلخاً » . تلك كلمات معتادة تسبق الضربة الأولى . ألا ان من الصعب على المرء أن يتصور مدى ما يمكن أن ينحدر اليه انسان من تشوه !

كنت فى الأيام الأولى من اقامتى فى المســـتشفى أصغى بانتباه الى هذه الأقاصيص التى يرويها السجناء فيقطعون بها رتابة الأيام الطـويلة التى يقضونها راقدين على مضاجعهم ، والتى تجرى متشابهة على وتيرة واحدة . وكانت الجولة التى يقوم بها الأطباء سلوةً لنا وفرجه . وبعد جولة الأطباء يحين وقت الغـــداء . لا شك أنك تقـدر أن الطعام أمر أساسى فى حياتنا الرتيبة التى تنقضى ساعاتها مطردة رتيبة . ان وجبات الطعام التى تقدَّم للمرضى تختلف باختـــلاف طبيعة الأمراض : فبعض السجناء لا يُعطَوْن الا حساءً بقول ، وبعضهم لا يُعطَوْن الا بقولاً ؛ ومنهم من يعطى برغلاً ... وذلك طعـام له عشـــاق كثيرون . وكان السجناء يترهلون مع الزمن ويصبحون ذواقين متأنقين فى شئون الطعام . وكان الناقهون يعطَوْن قطعة من لحم مسلوق أو من « بقر » على حـد تعبـــير رفاقى . وكان خير الطعـــام ما يقدم للمرضى المصـــابين بداء

الاسقربوط : كن هؤلاء يعطون لحماً مقلياً مع البصل والفجل وربما أعطوا في بعض الأحيان شيئاً من خمر • والخبز يكون أسود أو أسمر تبعاً لنوع المرض ، ولكنه حسن النضج في جميع الأحوال • وكانت هذه الدقة التي يلتزمها المستشفى في توزيع وجبات الطعام تضحك المرضى : لقد كان بين المرضى من لا يكاد يأكل شيئا من قلة شهوته الى الطعام ، وكان بينهم أناس شرهون شراهة قوية ؛ فكان بعضهم يتبادل الوجبات الموزعة ، فاذا الطعام المخصص لأحدهم يمضي الى شخص اخر دائماً • والذين فرضت عليهم الحمية من بينهم فلا يعطو ن الا وجبة خفيفة ، كانوا يشترون من المصابين بداء الاسقربوط لحماً ، ويحصلون على شيء من شراب « الكفاس » أو من بيرة المستشفى ، من المرضى الذين كانوا يُعطون شراباً • كان بعض السجناء يأكل وجبة مضاعفة • وكانت الوجبات تباع بمال • واللحم أغلى المآكل سعرا ، حتى لقد تباع القطعة منه بخمسة كوبكات • فاذا لم يوجد في قاعتنا من يحب أن يبيع نصيبه أُرسل المراقب الى القاعة الثانية يسأل عن بائع ، فاذا لم يجد شيئاً في القاعة الثانية مضى الى قاعة الجنود أي الى قاعة « الأحرار » كما كنا نسميهم نحن • كان يوجد دائماً مرضى يسرهم أن يبيعوا نصيبهم من الطعام • وكان الفقر عاماً شاملاً ، لكن الذين يملكون بضع دريهمات كانوا يرسلون من يشتري لهم من السوق خبزاً أبيض او حلوى • وكان الحراس يشترون لهم ما يشاءون غير طامعين في أي نفع •

وكانت أقسى فترة من النهار هي الفترة التي تعقب الغداء • كان بعض السجناء ينامون اذا لم يكن ثمة ما يعملونه ، وكان بعضهم الآخر يثرثرون أو يشتجرون أو يتبادلون رواية الأقاصيص بصوت عال • فاذا لم يؤت الى القاعة بمرضى جدد أصبح الضجر ثقيلاً لا يحتمل ولا يطاق • حتى اذا جيء بمريض جديد تحركت القاعة واضطربت ، ولا

سيما اذا كان لا يعرفه أحد من السجناء الراقدين فيها ، فهم الآن يتفرسون فيه ويحاولون أن يعرفوا من هو ومن أين جاء وما الذي أتى به الى السجن. وكان المرضى العابرون هم الذين يثيرون الانتباه ويوقظون حب الاطلاع أكثر من غيرهم ، فلقد كان هؤلاء يملكون دائماً مايقصونه على السجناء . طبيعي أنهم كانوا لا يتكلمون عن شئونهم الخاصة ، واذا لم يشرعوا في حديث عن شئونهم الخاصة من تلقاء أنفسهم ، لم يسألهم أحد في ذلك ، وانما تلقى على أحدهم أسئلة من هذا القبيل : « من أين جئت ؟ مع من جئت ؟ أى طريق سلكت ؟ الى أين تذهب ؟ » الخ ... وكان رفاقنا حين يسمعون ما يقصه القادمون الجُدُد يتذكرون الأحداث التي مرت بهم ، فيأخذون يقصون هم أيضاً ما رأوا وما عملوا ، متحدثين خاصة عن القوافل والرؤساء والمراقبين والحراس وما الى ذلك . وفي تلك الفترة أيضاً ، قبيل المساء ، كان يؤتى بالسجناء الذين تم جلدهم . سبق أن قلت ان ظهور هؤلاء المجلودين كان يوقظ الانتباه ويشحذ الاهتمام ويحدث أثراً في النفوس ، ولكن كان لا يؤتى بمجلودين في كل يوم ، فكنا نشعر بضجر رهيب وسآمة قاتلة حين لا يحدث مايخرجنا من الخمول ويخلصنا من الكسل ، فاذا المرضى عندئذ كأنما يُحنق كلاً منهم أن يرى جاره ، واذا هم في بعض الأحيان يختصمون ويشتجرون. وكان يبهج سجناءنا ويفرحهم أن يؤتى الى الفحص الطبي بمجنون ؟ وكان السجناء الذين يحكم عليهم بالجلد يتظاهرون أحياناً بالجنون ، أملاً في العفو عنهم ، فكانت حيلتهم تفضح ، أو كانوا يقررون من تلقاء أنفسهم أن يعدلوا عنها ، فاذا هم بعد أن ظلوا خلال يومين أو ثلاثة يقومون بأعمال شاذة غريبة يصبحون على حين فجأة أناساً عقلاء جداً ، واذا هم يهدأون ويطلبون الخروج من المستشفى وقد أظلمت وجوههم ؟ ولم يكن أحد لا من بين السجناء ولا من بين الأطباء يعيب عليهم حيلتهم

أو يذكرهم بجنونهم وانما كانت تسجل أسماؤهم في صمت ويقادون في صمت ، فما هي الا بضعة أيام حتى يعودوا الينا وقد دميت ظهورهم • على أن الحالات التي من هذا القبيل كانت نادرة ، وفي مقابل ذلك كان وصول مجنون حقيقي كارثة تنزل على القاعة ؛ فاذا كان المجنون مرحاً فرحاً نشيط الحركة يصرخ ويرقص ويغني استقبله السجناءفي أول الأمر بحماسة قائلين وهم ينظرون الى تصعيراته وتكشيراته وتلوياته : « سيكون هذا مسلياً ••• » ولكن المنظر أليم محزن رهيب • انني لم أستطع في يوم من الأيام أن أنظر الى المجانين محافظاً على هدوئي • وها هي ذي تصعيرات المجنون المستمرة وحركاته المضطربه ما تلبث بعد يومين أو ثلاثة أن تثقل على السجناء فيضيقون بها ويتململون منها • لقد احتُفظ في قاعتنا بأحد المجانين مدة ثلاثة أسابيع فأصبحنا لا نعرف أين نختبيء • وانا لكذلك اذا بهم يجيئوننا بمجنون ثان أحدث وصوله في نفسي تأثيراً شديداً • حدث ذلك في السنة الثالثة من سجني• كنت في السنة الأولى من اقامتي بالسجن أو قل في الأشهر الأولى ـ فقد وقع ذلك في الربيع ـ قد ذهبت الى الشغل مع جماعة من السجناء صُنَّاع الآجر لأعمل معهم معاوناً ؛ ذهبت مع تلك الجماعة الى ورشة لصنع القرميد كان ينبغي لنا أن نصلح فرنها اعداداً لأشغال الصيف • وكان «••كي و «ب» قد عرّفاني في ذلك الصباح بمراقبنا العريف أوستروسكي • انه بولندي في نحو الستين من عمره ، طويل القامة نحيل الجسم حسن الهيئة بل وقور مهيب • انه يعمل جندياً في سيبريا منذ زمن طويل جداً • وكان « ••• كي و «ب» * يحبانه ويقدرانه رغم أنه ينتمي الى الطبقة الدنيا من الشعب (انه من عصاة سنة ١٨٣٠) ؛ وكان يُرى في جميع الأحيان عاكفاً على التوراة مستغرقاً في قراءتها • تحدثت اليه ، فرأيت في كلامه تعقلاً ورأيت فيه لطفاً • وكانت له في سرد القصص

طريقة شائقة ، وكان شريف النفس طيب القلب . ثم لم أره بعد ذلك خلال سنتين ، ولكنني سمعت أنه رهن التحقيق ، ثم جيء به ذات يوم الى قاعتنا : كان قد جن . دخل علينا صائحاً ضاجاً مقهقهاً ، وطفق يرقص في وسط الفرقة وهو يجرى حركات بذيئة تذكر بالرقصة التي تسمى كامارنسكايا ... ابتهج السجناء وتحمسوا ... أما أنا فشعرت بحزن شديد ، لا أدرى لماذا ! وبعد ثلاثة أيام أصبحنا لا نعرف ماذا نصنع : انه يشاجر الناس ويقتتل معهم ، ويئن ، ويغنى في وسط الليل ، ثم اصبحت أقواله المقززة تثير فينا الغثيان ... كان لا يخشى أحداً ... وقد قيّد بالأغلال عنوةً ، ولكن وضعنا لم يتحسن من ذلك ، لأنه ظل يشتجر ويقتتل مع جميع الناس. وبعد ثلاثة أسابيع أجمعت القاعة كلها على أن تضرع الى رئيس الأطباء أن ينقله الى القاعة الثانية المخصصة للسجناء . ولكن ما ان انقضى يومان حتى أعيد الى قاعتنا تلبيةً لطلب المرضى الذين كانوا في القاعة الثانية. واذ كان هناك مجنونان في آن واحد ، كلاهما يحب المشاجرة ويثير القلق ، فقد أصبحت كل قاعة من القاعتين ترسل مجنونها الى الأخرى ، ثم انتهت القاعتان الى تبادل مجنونيهما . ولكن الثاني كان أسوأ من الأول . وقد تنفس جميع المرضى الصعداء حين نقل المجنونان لا ندرى الى أين ...

وما زلت أتذكر مجنوناً ثالثاً غريباً كل الغرابة . في ذات يوم من أيام الصيف جيء الى قاعتنا برجل يظهر عليه أنه قوى البنية شجاع . انه في الخامسة والأربعين من عمــره . كان وجهه مظلماً حزيناً قد شوهته بثور الجدرى ، له عينان حمراوان محتقنتان احتقانا شديدا . جلس الرجل الى جانبي . انه وديع هادىء مسالم ، لم يخاطب أحداً ، فهــو دائم التفكير في شيء ما كان يشغل باله . فلما هبط الليل اتجه اليّ بالكلام دون تمهيد ، وأسرع يقول لي ، وقد ظهر عليه أنه يفضى اليّ

بسر كبير ، ان عليه أن يُضرب في الغداة ألفى ضربة بالعصا ، ولكنه ليس خائفاً ، لأن ابنة الكولونيل ج ... تقوم بمساعٍ في سبيله. فنظرت اليه مدهوشاً وأجبته بأن حالة كهذه الحالة لا يمكن أن تنفع فيها شفاعة ابنة كولونيل ، في رأيي ... لم أكن قد أدركت بعد أن الرجل الذي أحدثه مجنون ، ذلك أنهم قد جاءوا به الى المستشفى مريضَ جسمٍ لا مريضَ عقل . وسألته عندئذ عن مرضه ، فقال انه لا يعرف عنه شيئا ، ولكن صحته جيدة ، وان ابنة الكولونيل قد وقعت في غرامه ، ذلك أنها قد مرت بمركز الحرس منذ أسبوعين ، بينما كان هو ينظر من خلال القضبان الحديدية ، فما ان رأته حتى هامت بحبه . ومنذ تلك اللحظة جاءت الى مركز الحرس ثلاث مرات منتحلةً أعذاراً شتى : ففى المرة الأولى جاءت مع أبيها بحجة أنها تريد أن ترى أخاها الذي كان ضابطا مناوبا ، وفى المرة الثانية جاءت مع أمها بحجة توزيع صدقات على السجناء ، فلما مرت أمامه همست تقول له انها تحبه وانها ستخرجه من السجن . روى لى هذه السخافة ذاكرا تفصيل دقيقة كثيرة ، وكانت القصة كلها من اختراع عقله المختل. كان يؤمن ايمانا كاملاً بأنه سيعفى من العقوبة ؟ وكان يتكلم بكثير من الهدوء والثقة عن الحب الملتهب الذي تضمره له تلك الآنسة . ان هذا الاختراع الخيالى الغريب ، وهو أن تحب فتاة راقية رجلا فى نحو الخمسين من عمره دميما هذه الدمامة متجهما هذا التجهم مشوها هذا التشوه ، يدلنا دلالة واضحة على مدى الفزع الذي أثارته العقوبة فى نفس هذا الانسان الوجل . لعله قد رأى أحداً من بين القضبان حقا ، فاذا بالجنون الذي بذره الخوف المتعاظم فى نفسه ، يأخذ عندئذ شكله ؟ واذا بهذا الجندى الشقى الذى لعله لم يفكر يوما فى الآنسات ، يخترع روايته هذه على الفور ، ثم اذا به يتشبث بهذا الأمل تشبث الفريق بقشة . أصغيت الى كلامه صامتا ،

ثم رويت القصة للسجناء الآخرين . فلما سأله هؤلاء عن حقيقة الأمر مستطلعين مدهوشين لزم الصمت ولم يجب بشيء ؛ واستجوبه الطبيب من الغد فأكد له المجنون أنه ليس بمريض ، واذ لم يكشف الفحص عن وجود مرض فيه ، سجل الطبيب على بطاقته أنه صالح لمغادرة المستشفى. ولم نعلم بأن الطبيب قد كتب على البطاقة كلمة « معافى » الا بعد خروجه، فلم نستطع أن نقول له شيئاً . ثم اننا نحن أيضا لم نكن نعرف ما به على وجه الدقة ، فانما الذنب ذنب الادارة التي أرسلته الينا دون أن تشير الى السبب الذي أرسل من أجله الى المستشفى . لقد ارتكبت الادارة بذلك اهمالاً لا يغتفر . ان الذين أمروا بنقل المريض الى المستشفى لا بد أن يكونوا قد لاحظوا عليه شيئاً ما ، ما داموا قد أرادوا أن يوضع المسكين تحت المراقبة . مهما يكن من أمر فقد اقتيد بعد يومين للجلد . ويظهر أنه قد بُهت لهذا العقاب الذي لم يكن في حسبانه ، فقد كان الى آخر لحظة يعتقد أنه سيحظى بعفو ، فلما جُعل أمام صف الجنود طفق يصرخ مستجيراً مستنجداً . ولم يعيدوه في هذه المرة الى قاعتنا التي لم يكن فيها سرير خال ، وانما أخذوه الى القاعة الأخرى . وقد سألت عنه فعلمت انه ظل خلال ثمانية أيام لا ينطق بكلمة واحدة من شدة شعوره بالخجل والحزن ... فلما شفي ظهره أرسلوه لا أدري الى أين ، ثم لم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك قط .

فيما يتعلق بالعلاج والأدوية ، أستطيع أن أقول اذا صدق حكمي ان أولئك الذين لم يكن بهم مرض خطير كانوا لا يكادون يتبعون أبداً أوامر الأطباء ولا يتجرعون أدويتهم ، على حين أن المصابين بأمراض ذات بال كانوا يحبون أن يعالجوا أنفسهم ، فهم يتناولون أدويتهم شراباً وسفوفاً بانتظام ، مع ايثارهم المعالجات الخارجية . كانوا يصبرون على الحجامة والعلق والفصد واللبائخ ويشعرون من احتمالها بشيء من اللذة،

فالى هذا الحد يؤمن الشعب ايمانا أعمى بهذه الأنواع من المداواة • وقد لفت نظرى وأثار هتمامى أمر آخر: ان بعض الناس الذين كانوا يصبرون صبراً جميلاً على آلام العصى والسياط الكريهة كانوا يعضون على شفاههم ويئنون حين تجرى لهم حجامة بسيطة • أتراهم قد ألفــوا الدلال أم تراهم يمثلون تمثيلاً ؟ يجب أن نعترف أن الحجامة فى مستشفانا كانت تتم بطريقة خاصة ، ففى عهد لا يتذكره الآن أحد ، تلفت الآلة التى يُشق بها الجلد فوراً ـ أتلفها المــرض أو تلفت من تلقاء نفسها ـ فأصبح لا بد من الاستغناء عنها بالمبضع • ان حجامة واحدة تحتاج أن يحز الجلد اثنتى عشرة حزة • وهــذه الحزات لا تؤلم كثيرا اذا تم اجراؤها بالآلة ، فان للآلة اثنتى عشرة شفرة تشق الجلد دفعة واحدة قبل آن يتسع الوقت للشــعور بالألم • ولا كذلك المبضع الذى يشرط الجلد ببطء ويحدث ألماً كبيراً • فاذا احتاج المريض الى الحجامة عشر مرات مثلاً ، كان ينبغى أن يحز جلده مئة وعشرين حزة على التوالى ، ولا بد أن يصبح هذا شاقا أليما ؟ ولقد عانيته بنفسى ، فلاحظت أنه مزعج حقاً ، ولكنه ليس مزعجاً الى الحد الذى يســتحيل معه على المرء أن يمسك عن التوجع والأنين • لا شىء أبعث على الضحك من رؤية رجال أقوياء يتشكون ويتفجعون ويتلوون على هذا النحو • ألا ان فى وسع المرء أن يشبههم بأولئك الرجال الذين لا يهزهم انفعــال فى شان من الشئون الخطيرة ثم اذا هم فى بيوتهم أصحاب نزوات ، لا يكفون عن الشكاة والشجار لأتفه الأمور ، يرفضون ما يقــدّم اليهم من طعـام ، ويؤنبون ويقرعون وينهرون ، ويعدون كل شىء معوجاً مقلوباً ، وتغضبهم وتهينهم وتعذبهم أيسر الترهات ، فكأن فرط الشحم قد أبطرهم كمـا تقول العامة • ان أصحاب هذه الطباع كثيرون فى السجن ، بسبب الاقامة المشتركة الاجبارية • ولقد كان السجناء يأخذون فى التندر على البطر

من هؤلاء البطرين ، أو يكتفون باغراقه بسـيل من الشتائم ، فاذا هـو عندئذ يسكت ، كأنه كان لا ينتظر الا ذلك حتى يلزم الصمت . وكان أوستياتسيف خاصة يكره التصعيرات والتشكيرات ، فلا تعرض فرصة من الفرص الا وينتهزها للتهجم على أصحاب الجلد الرقيق هؤلاء ؛ ثم انه كان لا ينسى قط أن يرد الناس الى التزام النظام واتباع الأصـول . تلك حاجة لديه ولَّدها المرض كما ولَّدها الغباء . فكثيراً ما كان يتفق له أن ينظر اليك محدقاً ، ثم يأخذ يلقنك الدرس بصوت هادىء مقتنع . وكان يبلغ من اجادة التقـريع أن المـرء يمكن أن يحسب أنه مكلف بالاشراف على استتباب النظام . كان السجناء يقولون عنه ضاحكين :

ـ لا بد له أن يدس أنفه في كل شيء ! ...

ولكن السجناء كانوا يتحاشونه ويتجنبون أن يتشاجروا معـه ولا يسمحون لأنفسهم بأكثر من سخرية خفيفة ، بين الفينة والفينة .

ـ ما أكثر ما يتـوجع ! انك لتستطيع أن تمـلأ بشكاواه ثلاث عربات !

ـ ان المرء يضيع لعابه سدى مع أبله كهذا الأبله . ضربة واحدة بالمبضع تجعله يجأر ... هلاَّ صبر قليلاً ! بعد الحرِّ يأتي البرد ...

ـ ما شأنكم أنتم آخر الأمر ؟

هكذا جرى الحديث ذات مرة ، فاذا بواحد من السجناء يقـاطع الآخرين قائلاً على حين فجأة :

ـ لا يا أبنائي ! ليست الحجامة شيئاً ذا بال ... لقد جربتها ... وانما أصعب التعذيب أن تشد الأذن مدة طويلة ...

فانفجر الجميع مقهقهين .

ـ فهل شُدَّت أذناك مدة طويلة ذلك الطول كله ؟

ـ طبعاً •

ـ أفبسبب هذا تنتصبان اذن عاليتين هذا العلو ؟

ان هذا السجين ، واسمه شابكين ، كان له أذنان طويلتان منتصبتان حقاً • انه متشرد قديم ، ما يزال شاباً ، وهو ذكي هادىء ، يتكلم مازحاً ولكن مزاحه اللطيف يختفي تحت مظهر من الجـد ، فيضفي ذلك على أقاصيصه كثيراً من الفكاهة والهزل •

وهذا أوستيانتسيف ينهض واقفاً ويستأنف كلامه مستاءً فيقول :

ـ كيف أستطيع أن أعرف أن أذنك قد شدت أيها الغبي ؟

اتجه اوستيانتسيف الى شابكين رغم أن شابكين كان يخاطب الجميع• ولكن شابكين لم يرض أن يأبه له أو أن يلتفت اليه •

سأله أحدهم :

ـ من الذي شد أذنيك ؟

ـ من الذي شد أذني ؟ رئيس الشرطة يا عزيزي ، بسبب التشرد أيها الرفاق • كنا قد وصلنا الى مدينة ك ••• أنا ومتشرد آخر اسـمه افيم (هذا هو اسمه كله فانه لم يكن له اسم أسرة) • كنا قد استطعنا أثناء الطريق أن نسطو على شيء عند فلاح في قرية تولمينا ••• نعم توجد قرية تسمى هكذا ••• تولمينا ••• فلما وصلنا الى المدينة ، أخذنا ننظر حولنا عسى نستطيع أن نضرب ضربة ثم نهرب • ان الانسان في الحقول حر كالهواء ، ولا كذلك في المدينة ••• دخلنا أولاً الى خمارة ••• ألقينا نظرة ونحن نفتح الباب ••• هذا فتى يقبل علينا ••• انه يرتدي رداءً ألمانياً منقب الكمين عند الكوعين ••• تكلمنا في أمور شتى ••• قال لنا :

ـ هل عندكما أوراق ؟ *

ـ لا ... ليس عندنا أوراق .

ـ ونحن أيضاً ليس عندنا أوراق . ان معي رفيقين يعمـلان في خدمة الجنرال « وقواق » * ... لقد أنفقنا كثـيراً فلم يبق معنا فرش واحد ، فهل لي أن أسألكما أن تطلبا لنا لتراً من الخمر ؟

أجبناه :

ـ على الرحب والسعة ...

شربنا معا . دلّـونا عندئذ على مكان نستطيع أن نضرب فيه ضربة طيبة . هو بيت في آخر المـدينة ، يملكه غني من الأغنياء . في البيت أشياء كثيرة . قررنا أن نقتحم البيت في الليل ، فما ان حاولنا أن نفعـل ذلك نحن الخمسة . حتى قبضوا علينا واقتادونا الى المركز ثم الى رئيس الشرطه . قال رئيس الشرطة :

ـ سأستجوبكم بنفسي .

وأخرج غليونه وجيء له بفنجان من الشاي . انه فتى قوي الجسم على عارضيه لحيتان جميلتان . جلس رئيس الشرطة . كان هناك ، عدانا نحن الخمسة ، ثلاثة متشردين آخرون قد اقتيدوا الى مركز الشرطة منذ قليل . غريب أمر المتشرد يا رفاق ! انه ينسى كل ما يعمل ؟ ولو هويتَ على رأسه بهراوة غليظة لأجابك مع ذلك بأنه لا يعرف شيئاً وبأنه نسي كل شيء . التفت رئيس الشرطة نحوي وسألني بلهجة حازمة :

ـ من أنت ؟

فأجبته بما يجيب به جميع المتشردين . قلت له :

ـ لا أتذكر شيئاً يا صاحب النبالة .

قال :

ـ انتظر ! ان لى معك لحديثاً ! أنا أعرف هذا الوجه .

وأخذ يتفرسني محدقاً . لم أكن قد رأيته مع ذلك فى أى مكان. واتجه الى الثانى يسأله :

ـ ما اسمك ؟

ـ اسمى يا صاحب النبالة هو « اذهب من هنا » .

ـ اسمك « اذهب من هنا » ؟

ـ هكذا يسموننى يا صاحب النبالة !

ـ طيب ... انت اسمك « اذهب من هنا » وأنت ؟

كذلك سأل الثالث فأجابه :

ـ اسمى يا صاحب النبالة « معه »

ـ ولكن ما اسمك ؟

ـ اسمى يا صاحب النبالة « معه » .

ـ من سماك بهذا الاسم يا وغد ؟

ـ أناس طيبون يا صاحب النبالة . ما أكثر الناس الطيبين على هذه الأرض ! صاحب النبالة يعرف هذا حق المعرفة ...

ـ ولكن من هم هؤلاء الناس الطيبون ؟

ـ نسيت قليلاً يا صاحب النبالة ! كن كريما فاغفر لى هذا النسيان!

ـ اذن نسيتهم جميعا هؤلاء الناس الطيبين ؟

ـ جميعا يا صاحب النبالة .

ـ لقد كان لك مع ذلك أهل . كان لك أب وأم فهل تتذكرهما ؟

ـ لا بد أن قد كان لى أهل يا صاحب النبالة . ولكنني نسيت هذا أيضا ! ... ربما كان لى فى الماضى أهل يا صاحب النبالة .

ـ ولكن أين عشت حتى الآن ؟

ـ فى الغابة يا صاحب النبالة !

ـ دائما فى الغابة ؟

ـ دائماً فى الغابة .

ـ وفى الشتاء ؟

ـ ليس لى شتاء يا صاحب النبالة .

ـ طيب وأنت ما اسمك ؟

ـ اسمى « الفأس » يا صاحب النبالة .

ـ وأنت ؟

ـ « الميسَنُّ » يا صاحب النبالة .

ـ وأنت ؟

ـ اسمى يا صاحب النبالة « اخرج ولا تخف » .

ـ ونسيتم جميعا كل شيء ؟

ـ كل شيء .

ويأخذ رئيس الشرطة فى الضحك واقفاً ، ويأخذ الآخـــرون فى الضحك متى رأوه يضحك . غير أن الأمور لا تجـــرى دائماً على هذه الصورة ، فربما انهالوا عليك أحيانا بقبضات أيديهـم يضربونك ضرباً يكسر أسنانك . ما أقواهم وما أسمنهم هؤلاء الرجال ! ...

قال رئيس الشرطة :

ـ خذوهم الى السجن ••• سأهتم بهم فيما بعد •

وأضاف يقول لى :

ـ أما أنت فابق ! اجلس هناك !•••

نظرت فرأيت ورقاً وريشة وحبراً • قلت لنفسى : « ما عساه يريد أن يعمل أيضا ؟ •• »

كرر يقول لى :

ـ اجلس ! امسك الريشة واكتب !

وها هو ذا يقبض على أذنى ويشدها • نظرت اليه كما ينظر الشيطان الى كاهن ، وقلت له :

ـ لا أعرف الكتابة يا صاحب النبالة !

فقال :

ـ اكتب •

قلت :

ـ رحماك يا صاحب النبالة !

قال :

ـ اكتب كما تستطيع ! اكتب !

وظل يشد أذنى ، يشدها ويعقفها • آه يا رفاق ! لو خيرت بين شد الأذن هذا وبين تلقى ثلاثمائة جلدة لآثرت الثانية • عذاب كعذاب جهنم ! وظل يقول لى : اكتب ! •••

سأل السجناء صاحبهم شابكين :

ـ أتراه جن ؟

فأجاب شابكين :

ـ لا يا أصحابى ! ان أحد الموظفين كان قبل ذلك بزمن يسير قد ضرب ضربة فى مدينة توبولسك •• سرق صندوق الحكومة وفـــر بالمال ! كان له هو أيضاً أذنان طـويلتان • وقد أُبلغت جميـــع مراكز الشرطة النبأ فكانت أوصافى تتفق وأوصاف السارق ! ذلكم هو السبب فى أنه عذبنى ذلك التعذيب بقوله : اكتب ! أراد أن يعـــرف هل كنت أحسن الكتابة وكيف كانت كتابتى •••

صاح أحد السجناء يقول :

ـ يا للماكر ! هل أوجعك ؟

ـ لا تذكّرونى •

وانفجر الجميع يقهقهون • سأل أحدهم :

ـ وهل كتبت ؟

ـ ماذا كان فى وسعى أن أكتب ؟ لقد أجريت قلمى على الورق فما زلت أجريه حتى كف عن تعذيبى : انهال علىّ بدستةٍ من الصفعات الممتازة ثم تركنى أذهب ••• الى السجن طبعاً •

ـ وهل تحسن الكتابة حقاً ؟

ـ نعم كنت أحسن الكتابة• كيف لا ؟ ولكننى منذ استعملت الأقلام نسيت نسياناً تاماً ! •••

تلكم هى الحكايات أو قولوا الثرثرات التى كنا نقتل بها الوقت• رباه ! ياله من ضجر رهيب ! يا له من سأم مميت ! كانت الأيام طويلة خانقة رتيبة ! كانت متشابهةً تشابهاً فظيعاً ! ليتنى كنت أملك كتاباً على الأقل•! ومع ذلك كنت أذهب الى المستشفى أحياناً كثيرة ، ولا سيما فى بداية عهدى بالسجن، اما عن مرضٍ واما نشداناً للراحة وابتغاءً للخروج من السجن • كانت الحياة فى السجن أليمة ، كانت أشد ايلاماً من الحياة

في المستشفى ، ولا سيما من الناحية النفسية . في السجن كانت تقابلني دائماً تلك البغضاء وتلك العداوة وتلك الرغبة في المشاجرة والاستفزاز والتحدي التي تتأجج في نفوس السجناء حين يروننا نحن النبلاء ... كنت أرى دائماً تلك الوجوه المهدّدة المتوعدة الكارهة المبغضة . أما في المستشفى فنحن نعيش على الاقل رفاقا متساوين . وكانت الأمسيات وبدايات الليل أقسى لحظات اليوم . كنا نرقد في ساعة مبكرة ... هذا سراج أدخن تهتز أشعته في اخر القاعة قرب الباب كنقطة ساطعة ، ونحن في ركننا غارقون في ظلمة توشك أن تكون تامة . الهواء فاسد موبوء خانق . بعض المرضى لا يجدون سبيلاً الى النوم ، فهم ينهضون ويلبثون جالسين على سررهم ساعة كاملة مطرقين كانهم يفكرون في شيء . انني أنظر اليهم وأحاول أن أحزر ما يفكرون فيه بغية أن أقتل الوقت ، ثم آخذ أحلم ، أحلم بالماضي ، فيعرض لخيالي لوحات قوية عريضة ، وأتذكر تفاصيل ما كان لي أن أتذكرها في ظرف آخر وما كان لها أن تحدث في نفسي تأثيراً عميقا كالتأثير الذي تحدثه في نفسي الآن ؛ وأحلم بالمستقبل فأتساءل : « متى سأخرج من السجن ؟ أين سأمضي ؟ ما الذي سيحدث لي حينذاك ؟ هل أعود الى بلدي مسقط رأسي ؟ ... » . وأفكر ثم أفكر ويأخذ الأمل ينبت في نفسي . وفي مرة أخرى أخذت أعد : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، الخ ، بغية أن أنام أثناء العد . كنت أصل أحيانا الى ثلاثة آلاف ثم لا أستطيع أن أغفو ! هذا اوستيانسيف يسعل ذلك السعال الفاسد المتفسخ المعهود في المصدورين، ثم هذا هو يئن أنينا ضعيفا ويتمتم كل مرة قائلا: «رباه قد أثمت !» يالهذا الصوت المريض الواهي المضعضع المتكسر ما أشد الذعر الذي يثيره سماعه في النفس وسط الهدوء الشامل ! وهؤلاء مرضى في ركن من الأركان لم يستطيعوا أن يناموا بعد ، فهم يتحدثون بصوت خافت

مضطجعين على مراقدهم . ان واحداً منهم يقص ماضيه ، يروي أشياء بعيدة منقضية ، يتكلم عن تشرده ، عن أولاده ، عن امرأته ، عن عاداته القديمة . ويدرك السامع من لهجة الرجل أن لا شيء من هذا كله سيعود بعد الآن ، وأن لا شيء من هذا كله سيوجد بالنسبة اليه في يوم من الأيام ، وأنه عضو من الأعضاء بُتر ورمي . ان سجيناً آخر يصغي اليه . الحديث يجري وشوشة ضعيفة ، همساً واهناً ، كخرير الماء في مكان ما ، هناك ، بعيدا جدا ... أذكر أنني في ذات مرة ، أثناء ليلة طويلة من ليالي الشتاء لا نهاية لطولها ، سمعت قصة بدت لي في أول الأمر حلماً يتمتم به رائيه أثناء كابوس ، حلماً يراه صاحبه أثناء نوبة حمى ، أثناء هذيان ....

٤

زوج آكسولكا

قصة

كان ذلك في وقت متأخر من الليـــل ، بعد الساعة الحادية عشرة • كنت قد نمت منذ زمن فاذا أنا أستيقظ منتفضا • ان الضـــوء الكابى الضعيف الذى ينشره السراج البعيـــد لا يكاد يضىء الغرفة ••• وكان جميع الناس تقريباً قد ناموا ، حتى اوستياسيف * كنت أسمع في هدأة الليل تنفسه الشاق الصعب ، وأســـمع حشرجات حلقه عند كل شهيق • لقد ترجَّع في حجرة المدخل وقع الأقدام الثقيلة البعيدة ، أقدام دورية الحراسة التي كانت تقترب • وهذا أخمص بندقية يقرع الأرض قرعاً أصم • فُتح الباب ، وعدَّ العريف المرضى وهو يسير محاذراً ، فما هي الا دقيقة حتى عاد يغلق الباب • وحل محلَّه عسس جديد • ابتعدت الدورية وران الصمت من جديد • عندئذ فقط لاحظت على مسافة غير بعيدة مني سجينين لم يناما وكأنهما يتهامسان بشىء • انه ليتفق أحيانا لسجينين يرقد أحدهما الى جانب الآخر ، دون أن يكونا قد تبادلا كلمة واحدة خلال أسابيع بل خلال أشهر بكاملها ، أن يشرعا في حديث على حين غرة وسط الليل فاذا بأحدهما يقص على صاحبه ماضيه•

لعلهما كانا يتحدثان منـــذ مدة طويلة • اننى لم أسمع بدايه حديثهما ولا أدركت كل شيء من الوهلة الاولى • ولكننى ألفت هـــذا الهمس شيئاً فشيئاً ففهمت القصة كاملة • لم تكن بى رغبة فى النوم فما عساى افعل الا ان أصغى ؟ ••• كان أحد الرجلين يقص على صاحبـه حكايته بحرارة ، راقدا على سريره نصف رقاد ، رافعاً رأسه ، مائلاً به نحو صاحبه • كان واضحاً أن فى نفسه غلياناً شديداً واهتياجا قوياً•• كان يحب أن يتكلم • أما صاحبه فقـــد كان جالســا على سريره مظلم الوجه قليل الاكتراث باسطاً ساقيه على الفراش يجيب رفيقه من حين الى حين ببضع كلمـات من قبيل اللبـاقة ويستنشق فى كل لحظة شيئا من ســـعوط يتناوله من علبة خاصـــة • انه الجنـدى تشـــيريفين الذى ينتمى الى فئـة التـأديب ، وهـــو امرؤ متحـــدلق متجهم الوجه بارد الشعور مماحك غبى أنانى ؟ أما صاحبه الذى كان يروى قصـــته فهو سجين مدنى اسمه شيشكوف ، فى نحو الثلاثين من عمره ، لم التفت اليه قبل ذلك فى يوم من الأيام ، ولا شعرت نحوه طول مدة اقامتى فىالسجن بشىء من الاهتمام ، ذلك أنه كان رجلاً ضحل العقل طائش اللب • كان فى بعض الأحيان يلبث صامتاً أسابيع بكاملها كئيب المـــزاج فظ المعاملة شرس الطبع ثم اذا هو يتدخل فى امر من الأمور على حين فجأة فيثـير الضجة والصخب ويتحمس لأتفه الترهات ويهرف بما لا يعرف وينتقل من نكتة الى نكتة يغتاب الناس ويرسل هاجر القول ويبدو خارجاً عن طوره ، حتى اذا ضربوه عاد يلزم الصمت من جـــديد • واذ كان نذلاً جباناً فقد كان السجناء يعاملونه باحتقار • انه رجل قصير القامة نحيـل الجسم له عينان زائغتان أو قل حالمتان على غباوة وبلاهة • كان اذا حكى شيئاً من الأشياء اندفع يتكلم بحرارة وحرك ذراعيه ثم اذا هو يتوقف عن الكلام فجأة أو ينتقل الى موضوع آخر فيضيع فى تفاصيل جديدة ثم

ينسى أخـــيراً الموضوع الذى كان يتكلم فيــه • وكان شيشكوف كثير المشاجرة ، حتى اذا أخذ يعاتب خصمه تكلم بلهجة عاطفية ، وأوشــك أن يبكى • وكان يحسن العزف على البالالايكا ويحبها حباً عظيماً حتى لقد كان يرقص فى أيام الأعيـــاد فيحسن الرقص اذا دعاه الى الرقص أحد أو حضه عليه ••• (ما أسرع ما كان يستطيع غيره أن يحمله على فعل ما يشـــاء لا لأنه كان طيعـاً بل لانه يحب ان يكون له رفاق وان يرضيهم) •

لبثت زمناً لا أستطيع أن أفهم ما كان يقصه شيشكوف • وكان يبدو لى أنه لا ينفك يترك موضوعه ويمضى يتكلم فى موضوع آخر • لعـله كان قد لاحظ أن تشيريفين لا يصغى الى قصته كثيراً ولكننى أعتقد أنه كان يريد أن يتجاهل قلة الاكتراث هذه من جانب شيريفين وان لا يتأثر بها أو يستاء منها •

تابع كلامه يقول :

ـ ••• فكان اذا مضى الى الســـوق حيّاه جميع الناس وعظموه وبجلوه ••• رجل واسع الثراء عريض الغنى ! •••

ـ قلت انه كانت له تجارة ؟

ـ نعم تجارة ! الصناع عندنا فقراء : هم الفاقة بعينها • النســـاء يذهبن الى النهر فيجئن بالمـــاء من مكان بعيد جداً يســقين به حدائقهم ويضنين أجسادهن ويرهقن أنفســـهن ومع ذلك لا يملـكن حين يأتى الخريف ما يصنعن به حساءً بالكرنب • هى حالة دمار كامل • ولكن ذلك الرجل كان يملك قطعة كبيرة من الأرض يفلحها عماله الـثلاثة ، وكان يملك عمائر نحل يبيع عسلها وكان يتعاطى تجـــارة الماشية ••• الخلاصة كان الناس عندنا يحترمونه ويكبرونه • وكان طاعناً فى السن أشيب الشعر تماماً • انه فى السبعين من عمره •فعظامه الهرمة تنوء بحمل

هذه السن • كان اذا جاء الى السوق مرتدياً فروته المصنوعة من جلد الثعلب حيّاه جميع الناس قائلين :

« ــ يومك سعيد يا أنكوديم تروفيمتش •

« ــ يومك سعيد ، كيف صحتك ؟

كان لا يحتقر أحداً •

« ــ أطال الله بقاءك يا أنكوديم تروفيمتش !

« ــ كيف أحوالك ؟

« ــ حسنة بمقدار ما يكون السخام أبيض وكيف أحوالك أنت يا أنكوديم تروفيمتش ؟

« ــ نعيش لخطايانا ••• نتعب كاهل الأرض •••

« ــ أطال الله عمرك يا أنكوديم تروفيمتش •

كان لا يحتقر أحداً • كانت نصائحه ثمينة • كل كلمة من كلماته تساوى روبلاً • وكان قراءً من الطراز الأول ، لأنه كان عالماً ••• كان لا ينفك يقرأ كلام الله ••• كان ينادى امرأته العجوز فيقول لها :

« ــ اسمعى يا امرأة ! افهمى ما أقوله لك •••

ثم يمضى يشرح لها • ولم تكن العجوز ماريا ستيبانوفنا عجوزا ان شئت ، فهى امرأته الثانية تزوجها لينجب منهـا ، لأن امرأته الأولى لم تلد • كان له ابنان ما يزالان صـغيرين ، فان الثانى فاسيا قد ولد حين شارف أبوه على الستين ، وكانت ابنته آكولكا ، كبرى أولاده ، فى الثامنة عشرة من عمرها •

سأل تشيريفين صاحبه شيشكوف :

ـ هي زوجتك ، أليس كذلك ؟

ـ انتظر لحظة . أخـــذ فيلكا ماروزوف يضج ويصـــخب . قال لأنكوديم :

« ـ هلمّ نقتسم! أرجع الىّ روبلاتي الأربعمائة ! أنا لست أجيرك، ولا أحب أن أتاجر معك ، ولن أتزوج ابنتك آكولكا ! أريد أن أقصف، ولأشربنّ خمراً بمالي كله بعد أن مات أبواي ؛ ثم أؤجـر نفسي ، أي أنخرط جندياً في الجيش ، فما هي الآنّ عشرة سنين حتى أعود الى هنا ضابطا كبيرا برتبة فيلد مارشال .

رد اليه أنكوديم ماله ، رد اليه كل ما كان له عنده . ذلك انه كان في الماضي يتاجـــر مع والد فيلكا برأس مال مشـــترك . رد اليه ماله وقال له :

« ـ أنت يا بني رجل ضائع .

فأجابه الشاب :

« ـ سواء أكنتُ ضائعاً أم لم أكن ياذا اللحية الشيباء ، فانك أكبر بخيل عرفته في حياتي ! انك تريد أن تصنع فروة بأربعـــة كوبيكات ! تضم القرش الى القرش وتلتقط من الأرض كل الأوساخ التي يتصورها الخيال لتستعملها وتنتفع بها ! انني أريد أن أبصق على هذا ! انك تدخر وتكنز لا يدري الآنّ الشيطان لماذا ! أما أنا فصاحب ارادة قوية وعزيمة جبارة ! ولن أتزوج ابنتك آكولكا ! يكفيني أنني نمت معها ...

« ـ كيف تجرؤ أن تلطخ بالعار أباً شريفاً وفتاة شريفة ؟ متى نمت معها يا شحم أفعى ، يا دم كلب ؟

كذلك قال له أنكوديم وهو يرتجف غضبا (ان فيلكا هو الذي روى ذلك فيما بعد) . وأردف فيلكا يقول للشيخ :

« ـ لن يكفيني أن لا أتزوج ابنتك بل سأفعـــل كل ما يجب أن أفعله من أجل أن لا يتزوجها أحد حتى ولا ميكيتا جريجورينش ، لأن شرفها قد تلطخ ! لقد عاشرتها منذ الخريف الماضي. ولكنني لن أتزوجها بحال من الأحوال . لو أعطيتني ملك الدنيا ما تزوجتها ! ...

وأخـــذ الفتى يلهو ويقصف مســتكبراً مستعلياً مدلاً بنفسه ! وصاحت المدينة كلها متفجعة متوجعة . وأصبح للفتى رفاق يحتشدون حوله لأنه يملك مبلغا كبيراً من المـــال . وظل ثلاثة أشهر ينفق متلفاً مبذراً حتى أتى على آخر قرش في يده . كان يقول : « أريد أن أرى نهاية هذا المال ، وبعد ذلك سأبيع البيت ، وسأبيع كل شيء ، ثم أنخرط جندياً في الجيش ، أو أضرب في الارض متشرداً » . كان يســكر من الصباح الى المساء ويتنزه في عربة يجرها حصانان وتجلجل فيها أجراس وكانت الفتيات هي التي تحبه لأنه كان يجيد العزف على التوربا ...

سأل شيريفين رفيقه :

ـ هل صحيح أنه كان قد عاشر آكولكا تلك ؟

ـ انتظر ! رجعت من دفن أبي . كانت أمي حينئذ تصنع كعكاً . كنا نعمل لحساب أنكوديم فكان هذا يدر علينا ما يقيم الأود . غير أن حياتنا كانت شاقة . كن لنا أرض وراء الغابة نزرعها قمحاً . ولكن حين مات أبي رحت ألهو وأقصف فكنت أجبر أمي على أن تعطيني مالاً بضربها ضرباً مبرحاً ...

ـ أخطأت اذ ضربتها ! ذلك اثم كبير ! ...

ـ كنت في بعض الأحيان أظل ثملا طـــول النهار . وكان لنا بيت لا بأس به . صحيح أنه متداع عفن ، ولكنه ملك لنا . وكنا نتضور جوعاً

... كانت تنقضى أسابيع بكاملها ونحن لا نملك ما نسد به رمقنا . وكانت أمي ترهقني بسخافاتها وتقتلني بحماقاتها ولكنني لم أكن أبالي ... كنت لا أترك فيلــكا ماروزوف . وانما نبقى معاً في الليــل والنهار . كان يقول لى :

« ـ اعزف لى على القيثارة ، وسأظل أنا مضطجعاً وسأرمى لك مالاً لأننى رجل غنى .

كان لا ينفك يبتكر ويخترع ، ولكنه لا يمد يده الى مال مسروق ، فهو يقول :

« ـ ما أنا بسارق ! أنا رجل شريف !

وكان يهيب بنا قائلاً :

« ـ هلموا نلطخ باب آكولكا بالقطران * لأننى لا أريد أن تتزوج ميكيتا جريجوريتش ! أنا أحرص على هذا الآن أكثر مما كنت أحرص عليه في أى وقت مضى ...

وكان الشــيخ يريد منــذ زمن طويل أن يزوج ابنتــه لميكيتا جريجوريتش : هو رجل متقدم في السن ماتت عنه امرأته ، يعمل تاجراً ويضع على عينيه نظارتين ... فلما سمع ما أشيع عن سوء سلوك آكولكا قال للشيخ :

« ـ سيكون ذلك عاراً كبيراً عليّ يا أنكوديم تروفيمتش . ثم اننى لا أريد أن أتزوج الآن فقد تجاوزت سن الزواج .

لطخنا باب آكولكا بالقطران . وضربوا آكولكا في البيت بسبب ذلك حتى كادت تموت . كانت أمها ماريا ستيبانوفنا تصيح قائلة : « لســوف يقتلنى هذا العار قتلاً . » . وكان أبوها الشيخ يقول : « لو أننا في عهد

البطارقة لكان من حقى أن أقطعها تقطيعاً ولكن كل شيء فى هذا الزمان قد استحال عفونة وفساداً على هذه الأرض » • وكان الجيران فى بعض الأحيان يسمعون عويل آكولكا من أول الشارع الى آخره • كان أهلها يجلدونها من الصباح الى المساء • وكان فيلكا ينـــادى فى السوق قائلا لجميع الناس :

« ــ ما أحسن هذه البنت آكولكا رفيقة سكر ! ••• لقد صفعتهم على بوزهم ولسوف يتذكروننى ما عاشوا !

وفى ذات يوم صادفت آكولكا ذاهبة تملأ قواديسها ماء فصحت أقول لها :

ــ نعمت صباحاً يا آكولينا كوديموفنا ! تحية لطهارتك ! قولى لى مع من تعيشين ومن أين تجيئين بالمال حتى تتبخترى هذا التبختر ؟

قلت لها ذلك ولم أضف شيئاً • فنظرت الى محملقة بعينين واسعتين •• كانت قد نحلت نحولا شديداً حتى أصبحت كالعـــود هزالا • لم تزد على أن نظرت الى • ولكن أمها التى ظنت أنها كانت تمازحنى صاحت تناديها من على عتبة الباب قائلة لها :

ــ ما حديثك معه يا قليلة الحياء ؟

وعادت فى ذلك اليوم تضربها من جديد •

كانت تضربها فى بعض الأحيان ساعة كاملة وتقول : « أنا أجلدها لأنها لم تعد بنتى » •

سأله تشيريفين :

ــ كانت اذاً فاجرة ؟

ــ انتظر حتى أحكى لك يا صاحبى ! كنا لا نزيد على أن نســكر مع فيلكا • وفى ذات يوم ، بينما كنت راقداً ، جاءت أمى وقالت لى :

ـ لماذا تظل راقداً أيها الوغد ، أيها اللص ؟

شتمتني في أول الأمر ثم قالت لي :

ـ تزوج آكولكا ! لسوف يسرهم أن يزوجوكها ولسوف يدفعون لك بائنة قدرها ثلاثمائة روبل •

فأجبتها بقولي :

ـ ولكن جميع الناس يعلمون الآن أن شرفها ملطخ •

ـ حيوان ! هذا كله يزول متى وضع على رأسها اكليل الزواج ! ثم ان ذلك سيجعل حياتك معها أفضل ، فستظل ترتعد خوفاً منك طول عمرها ، وسنعيش من مالها في يسر وبحبوحة • لقد كلمت ماريا ستيبانوفنا في أمر هذا الزواج واتفقنا •

قلت لها :

ـ اذا أعطيتني عشرين روبلاً على الفور تزوجتها •

لك أن لا تصدق اذا شئت ، ولكن الحقيقة هي أنني ظللت سكراناً الى يوم الزواج • وكان فليكا ماروزوف ما ينفك يهددني ويتوعدني ويقول لي :

ـ لأحطمن أضلاعك أيها الحقير الذي ارتضى أن يكون خطيب آكولكا ، ولأضاجعنّها كل ليلة اذا شئت !

أجبته بقولي :

ـ أنت تكذب يا كلب •

لقد جللني بالعار أمام جميع الناس في الشارع • هرعت الى البيت• أصبحت لا أريد أن أتزوج ما لم أعط خمسين روبلاً على الفور •

قال تشيريفين :

ـ وهل زوجوك اياها ؟

ـ زوجوني اياها ؟ لم لا ؟ نحن أناس لم يدنس شرفنا • ان حريقاً هو الذي دمر أبي قبل موته بقليل ، حتى لقد كن أبي أغنى من أنكوديم تروفيمتش • قال لي الشيخ أنكوديم :

ـ خليق بمن كان مثلك بلا قميص أن يسعده كثيراً أن يتزوج ابنتي •

فأجبته :

ـ هل نسيت أن بابك قد لطخ بالقطران ؟

ـ ما هذا الذي تقوله ؟ برهن لي على أن شرفها قد دنس •• اليك الباب على كل حال ، فاذهب ان شئت ! ولكن ردّ الي المال الذي أعطيتك اياه •

قررنا عندئذ مع فيلكا ماروزوف أن نرسل متري بيكوف الى الأب أنكوديم ليقول له انني سأشهّر بابنته أمام جميع النـاس • وظللت حتى يوم الزواج لا أفيق من السـكر • ولم أصح الا في الكنيسة • حين أرجعونا من الكنيسة أجلسونا وقال عمها تروفان ستيبانتش :

ـ لقد تم الأمر وانتهى رغم أنه غير نظيف •

كان الشيخ أنكوديم جالسـاً يبكي والدموع تسيل على لحيتـه البيضاء • واليك أيها الرفيق ما كنت قد فعلته أنا : وضعت سوطاً في جيبي قبل الذهاب الى الكنيسة عازماً على أن أبهج قلبي باستعماله بغية أن يعلم الناس أن أحداً لم يستطع أن يغرر بي وأن يخدعني وبغية أن يعـرفوا هل أنا غبي حقاً •

قال تشيريفين :

ـ مرحى ••• وبغية أن تدرك هي ماذا ينتظرها •

ـ مهلاً يا صاحبي ! لقد جرت العادة عندنا أن يقاد الزوجان بعد حفلة الزواج رأساً الى غرفة على حدة ، بينما يبقى الآخرون يشربون منتظرين عودتهما • تركونا نختلي • كانت آكولكا ممتقعة الوجه صفراء اللون مذعورة ذعراً شديداً ليس في خديها قطرة من دم • وكان شعرها ناعم الملمس أشقر اللون وكانت عيناها واسعتين جداً • ان آكولكاتصمت في جميع الأحيان تقريباً ، لا تكاد تتكلم ، حتى لقد يُظن أنها خرساء • عجيبة آكولكا هذه ! لك أن تتصـور الموقف : كان سوطي مهيأً على السرير • فهل تعلم ما الذي اكتشفته ؟ اكتشفت أنها بريئة ••• بريئة كل البراءة ••• لا أستطيع أن آخذ عليها شيء ••• لقد كانت عذراء •••

ـ غريب !

ـ فعلاً ! كانت عذراء كأية فتاة عذراء شريفة • فلماذا أيها الأخ، لماذا تحملت ذلك العذاب كله ؟ لماذا شهَّر بها فيلكا ماروزوف مفتـرياً عليها ؟

ـ حقاً ! لماذا ؟

ـ عندئذ نزلت عن السرير ، وركعت أمامها ضاماً يديَّ احداهما الى الأخرى ، وقلت لها :

ـ غفرانك يا آكولينا كوديموفنا ! سامحيني ، فقد كنت في غاية الحماقة والغباء والبلاهة حين صدقت تلك الوشايات كلها ! عفوك عفوك ••• ان أنا الا وغد ! •••

كانت جالسة على السرير تنظر اليَّ ، فوضعت يديها على كتفي ،

وأخذت تضحك ، ومع ذلك كانت الدموع تسيل على خديها ••• كانت تتشنج وتضحك في آن واحد ••• ثم خرجتُ الى النـــاس وقلت لهم جميعاً :

ـ ويل لفيلكا ماروزوف ! لو رأيته لانتقل فوراً الى العالم الآخر !

فرح الأبوان فرحاً لا يوصف حتى أصبحا من شدةالفرح لايعرفان ماذا يقـولان • أوشـكت أم آكولكا أن ترتمى على قدمى ابنتها وكانت تنشج نشيجاً قوياً • وقال الشيخ لابنته : « لو علمنا وعرفنا هـــذا كله يا ابنتنا الحبيبة لما ارتضينا لك مثل هذا الزوج » • ليتك رأيت ملابسنا ونحن نخرج من الكنيسة في أول أحد من ايام الآحاد بعد زواجنـا • كنت أنا أرتدى قفطاناً من فاخر الجوخ وأضع على رأسى قبعة من فراء وأزين أكمامى برائع المخمل ، وكانت هى تلبس معطفا جـــديدا من فراء الأرنب وتجلل رأسها بوشاح من حرير • زوجان متكافئان • كان الناس جميعاً ينظرون الينا معجبين • كنت حسن المظهر وسيم الطلعة • وكذلك كانت آكولينوشكا • ما ينبغى للمرء أن يمتدح نفسه وأن يفاخر بها ولكن ما ينبغي له أيضاً أن يغض من قدره وأن يحط من قيمتـه •• ليس بين الأزواج دستات كثيرة منا •••

ـ طبعاً

ـ طيب ! اسمع التتمة • في غداة زواجنا هربت من ضيوفى.رغم سكرى وطفقت أركض فى الشـــارع صائحاً : « أين ذلك الوغد فليكا ماروزوف ! ائتونى بهذا الحقير ؟ ألا فليجىء الىّ هذا النذل ! كنت أعول بهذا الكلام فى السوق • يجب أن أذكر لك اننى كنت فى حالة سـكر شديد • قبضوا علىّ مع ذلك قرب منزل أسرة فلاسوف • احتاجوا الى ثلاثة رجال من أجل أن يرجعونى الى البيت عنوة • صارت القصة حديث

الناس كلهم فى المدينة • أصبحت الفتيات اذا التقى بعضهن ببعض فى السوق تقول احداهن للأخرى : « هل علمت ؟ ان آكولكا عذراء ! » • وبعد ذلك بزمن قصير صادفت فليكا ماروزوف فقال لى جهاراً على رؤوس الأشهاد أمام غرباء :

ـ ما عليك الا أن تبيع زوجتك فتشترى بثمنها خمراً • افعل مافعله الجندى ياشكا ! انه لم يتزوج الا لهذا الغرض ، حتى أنه لم يضـــاجع امرأته مرة واحدة ، ولكنه على الأقل حصل على مال وفير يسكر به مدة ثلاث سنين •••

أجبته :

ـ نذل •

فقال لى :

ـ غبى • لقد تزوجت وأنت فى حالة سكر لا تملك عقلك وشعورك ولم يكن فى وسعك أن تفهم شيئاً وأن تدرك الحقيقة •

وصلت الى البيت وصرخت أقول لهم :

ـ لقد زوجتمونى وأنا سكران •

أرادت أم أكولكا أن تتشبث بى ولكننى قلت لها :

ـ اليك عنى يا امرأة فانك لا تفهمين الا شـــؤون المال ! هاتى لى آكولكا ! وعندئذ انما أخـــذت أضربهـا ••• ظللت أضربها يا صاحبى ساعتين كاملتين الى أن تهاويت أنا نفسى على الأرض ولم تستطع هى بعد ذلك أن تبارح السرير خلال ثلاثة أسابيع •

قال تشيريفين ببرود :

ـ طبعاً اذا لم نضربهن فانهن ... هل وجدتها مع عشيقها ؟

قال شيشكوف بعد صمت وهو يتكلم فى عناء :

ـ أبدا يا صاحبى ! لم يقع شىء من ذلك فى يوم من الأيام ! ولكننى شعرت بمهانة كبيرة ومذلة شديدة لأن جميع الناس كانوا يسخرون منى. ان فيلكا هو سبب ذلك كله . كان يقول لى :

ـ انما خلقت امرأتك ليستمتع بها الآخرون .

وفى ذات يوم دعانا الى بيته وها هو ذا يبدأ فيقول :

ـ انظروا الى هذه المرأة الطيبة ما أعظم رقتها وحنانها ونبلها وأدبها وعاطفتها وكرمها مع جميع الناس ! أتراك نسيت يا صاحبى أننا لطخنا بابهم بالقطران معاً .

كنت حينئذ فى حالة سكر شديد . وها هو ذا يمسك شعرى ويشدنى شدا قويا يضطرنى الى التمدد على الأرض دفعة واحدة وها هو ذا يقول لى : هيا ارقص يا زوج آكولكا . أنا أمسك شعرك وأنت ترقص لتسلينى وتسرّى عنى .

ـ سافل

ـ سأجىء اليك مع الأصحاب أجلد امرأتك آكولكا ما شاء لى هواى ذلك .

هل تصدق يا صاحبى لقد مكثت فى البيت شهراً بكامله لا أجرؤ أن أخرج مخافة أن يجىء الينا فتقع لامرأتى جرسة . وما أكثر ما ضربتها أثناء ذلك !

ـ وعلام تضربها ؟ ان المرء يستطيع أن يوثق يدى امرأة ولكنه

لا يستطيع أن يعقل لسانها . ما ينبغي الاسراف في ضرب النســـاء ، اضربها أولاً من قبيل التأديب ثم داعبها بعـــد ذلك ، ان المرأه خلقت لهذا .

لبث شيشكوف صامتاً بضع لحظات ثم تابع يقول :

ـ كنت أشعر بمهانة كبيرة ومذلة شـــديدة . اســتأنفت عاداتي القديمة . أصبحت أضربها من الصباح الى المساء متعللاً بأتفه الأسباب ، أضربها لأنها لم تنهض كما أحب أن تنهض ، أو لأنها لم تمش كما يجب ان تمشي ... صرت اذا لم أضربها أحس بضجر شـديد وسام كبير . كانت في بعض الأحيان تمكث جالسة قرب النافذة تبكي بكاءً صامتاً فكان يحزنني أحياناً أن أراها تبكي ولكنني أظل أضربها مع ذلك . كانت أمها تقرعني وتسبني بسبب هذا فتقول لي :

ـ أيها النذل يا غراب الشؤم ...

فأجيبها :

ـ اسكتي ! لا تنطقي بكلمة واحـــدة والا أجهزت عليك ! لقـد زوجتموني بها وأنا سكران فخدعتموني وغششتموني .

أراد الشيخ أنكوديم في أول الأمر أن يتدخل في القضية . فقـال لي ذات يوم :

ـ حذار حذار ! ما أنت بمن لا يمكن رده الى الصواب ...

ولكنه لم يلبث أن انثنى عن عزمه . وأخذت ماريا ستيبانوفنا تعمد الى الرقة واللطف والدماثة . جاءتني ذات مرة باكية وقالت لي :

ـ اسمع يا ايفـــان سيميونتش ! ان قلبي محطم ألماً وحـــزناً .

ما سأطلبه منك لا قيمة له عندك ، ولكنني أحرص عليه كثيراً • اصرفها بالحسنى يا بني ، دعها تذهب •

قالت العجوز ذلك ثم جث وأضافت تضرع الىّ :

ـ هدىء روعك • اغفر لها • لقد افترى الأشرار عليها فوصموها بما ليس فيها • وأنت تعلم حق العلم أنها كانت عذراء حين تزوجتها •

وطفقت الأم تبكي وأصررت أنا على عنادى فقلت لها :

ـ لا أريد أن أسمع شيئاً وسأفعل بكم ما يحلو لى أن أفعله لأننى خارج عن طورى لا أستطيع كبح جماح نفسى • أما فيلكا ماروزوف فهو خير صديق لى ، وهو أعز انسان على نفسى •

قال تشريفين :

ـ هل استأنفتما السكر معاً ؟

ـ مستحيل ! لقد أصبح لا يمكن الاقتراب منه ! لقد أدى بهالشرب الى ما يشبه الجنون • أنفق كل ما يملك وارتضى أن يجند فى الجيش بديلاً لفتى من أغنياء المدينة • والعادة عندنا أن الشاب الذى يقبل أن ينوب عن شاب آخر فى الجندية يصبح سيد البيت ، ويصبح الآمر والناهي ، الى أن يساق الى الجندية • انه يتقاضى المبلغ المتفق عليه يوم سفره ، ولكنه بانتظار ذلك يعيش فى منزل مولاه ، وقد يقضى فى هذا المنزل ستة أشهر كاملة • وما من فظاعة من الفظاعات يتورع عن ارتكابها أمثال هؤلاء الفتيان ! ألا انه لينبغى فى مثل هذه الأحوال أنتنقل من البيت جميع الصور المقدسة • ان الفتى من هؤلاء الفتيان حتى قبل أن يكون بديلاً لابن رب البيت فى الجندية يعد نفسه صاحب فضل عظيم ونعمة كبرى ، ويعتقد أن من حقه أن يحاط بجميع أنواع

الاحترام ، والا نكل عن وعده ونكص على عقبيه • هكذا كان فلكا ماروزوف لا يتورع عن شيء في منزل ذلك الرجل ، فهو ينام مع الفتاة، ويمسك رب البيت من لحيته بعد العشاء ، ويفعل كل ما يخطر بباله أن يفعله • كان على أهل الدار أن يوقدوا له حمام البخار كل يوم ، وأن يضيفوا الى الحمام خمرا • وكان على النساء أن يأخذنه الى الحمام مسنَّدا من تحت ابطيه • وكان اذا عاد الى المنزل بعد أن قصف وشرب يتوقف في وسط الشارع ويجأر قائلا :

ـ لا أريد أن أدخل من الباب فانزعوا السياج •

فلا يملك أهل الدار عندئذ الا أن يهدوا الحاجز قرب الباب حتى يتيحوا له أن يدخل • غير أن هذا كله قد انتهى أخيرا يوم سيق فلكا الى الجندية • لقد اضطر أن يصحو من سكره في ذلك اليوم • واحتشد الجمهور في الشارع كله يقول بعضه لبعض :

ـ هذا فلكا ماروزوف يقاد الى الجندية •

فكان فلكا يحيي الناس في كل جهة من الجهات يمنة ويسرة • واتفق في تلك اللحظة ان كانت آكولكا عائدة من البستان فما أن لمحها حتى صاح يقول :

ـ قفي

ثم وثب من العربة ووقف أمامها منتحياً وخاطبها بقوله : «ياروحي! يا حياتي ! يا تفاحتي الصغيرة ! لقد أحببتك سنتين كاملتين ، وأنا الآن أقاد الى الجندية على أنغام الموسيقى ! اغفرى لى أيتها الفتاة الشريفة يا بنت الأب الشريف ، لأنني نذل حقير ، لأنني مسئول عن شقائك •• كله ، وعن عذابك كله •

قال فيلكا ذلك وانحنى أمامها مرة أخرى • جزعت آكولكا فى أول الأمر ، لكنها حيته بعد ذلك تحية كبيرة تنتها نصفين ، وقالت له :

ـ اغفر لى أنت أيضاً أيها الفتى الطيب • لست غاضبة منك قط •

رجعت أنا الى البيت وراءها وسألتها :

ـ ماذا قلت له يا كلبة •

أجابتنى بقولها وهى تنظر الىّ نظرة جريئة (لك أن تصدق أو لا تصدق)

ـ أحبه ••• أحبه أكثر مما أحب أى شىء فى هذا العالم •

قال تشيريفين :

ـ عجيب !

ـ فى ذلك اليوم لم أنطق بكلمة واحدة • غير أننى قلت لها فى المساء : « اكولكا ، سأقتلك » ولم يغمض لى جفن طوال الليل ومضيت أشرب خمر الكفاس فى حجرة المدخل حتى اذا طلع النهار رجعت الى الغرفة • قلت لها : « آكولكا استعدى للذهاب الى الحقل » كنت أنوى الذهاب الى الحقل من قبل ، وكانت زوجتى تعرف ذلك • قالت لى : « أنت على حق ! لقد آن أوان الحصاد ، وقد سمعت أن العامل مريض منذ يومين ، فهو لا يفعل شيئاً » • قرنت الحصان الى العربة دون أن أقول كلمة واحدة • ان فى آخر المدينة غابة طولها خمسة عشر فرسخاً ، وفى نهاية الغابة يقع حقلنا ، فلما قطعنا ثلاثة فراسخ تحت الأشجار أوقفت الحصان • قلت لزوجتى : « هلمى يا آكولكا • انهضى • لقد حان أجلك • نظرت الى مذعورة ذعرا شديدا ونهضت صامتة • قلت لها :

« لقد عذبتنى تعذيباً كافياً ... هيا صلى صلاتك الأخيرة » . أمسكتُ شعرها ـ كان لها ضفائر طويلة كثيفة ـ لففت الضفائر على ذراعى . قبضت على زوجتى بين ركبتى . أخرجت سكينى . قلبت رأسها الى وراء . شققت عنقها ... صرختْ ... تدفق الدم ... عندئذ رميت سكينى وضممت زوجتى بين ذراعى ومددتها على الأرض وقبلتها وأنا أعول بكل ما أوتيت من قوة ... أنا أصيح وهى تعول وتتلمس وتتخبط ودمها ما يزال يتدفق بمزيد من القوة فيصيب وجهى ويضرج يدى . عندئذ خفت ، فتركتها ، وتركت حصانى ، وأخذت أركض ، وما زلت أركض حتى وصلت الى البيت . دخلت البيت من خلف ، واختبأت فى خص كان يستعمل حماماً وأصبح الآن مهجوراً . رقدت تحت المصطبة . ولبثت مختبئاً هنالك الى أن جن الليل .

ـ وآكولكا ؟

ـ نهضت لترجع الى البيت هى أيضاً ، وعثروا عليها بعد ذلك على مسافة مائة قدم من المكان .

ـ اذن لم تجهز عليها ؟

ـ كلا .

وصمت شيشكوف لحظة . قال تشريفين :

ـ نعم هناك وريد ان لم يُقطع بطعنة واحدة فان الانسان يتخبط ولكنه لا يموت مهما يتدفق دمه .

ـ لقد ماتت مع ذلك ، وجدوها فى المساء جثة باردة . أبلغوا الشرطه فأخذت الشرطه تبحث عنى . قبضوا علىّ أثناء الليل فى ذلك الحمام المهجور .

وأردف شيشكوف يقول بعد صمت :

ـ وهأنذا هنا منذ أربع سنين !

قال تشريفين فى وقار وتفخم وهو يخرج علبة التبغ من جـــديد وينشق منها نشقات طويلة متقطعة :

ـ نعم لا بد أن نضربهن والا لم نتوصل الى شيء . ولكنك أيهـا الفتى قد تصرفت فى غباء شديد . أنا أيضاً فاجأت امرأتى مع عشيق فماذا فعلت ؟ اقتدتها الى الزريبة فتناولت لجاماً فطويته نصفين وقلت لها : «من الذى حلفت له أن تكونى وفية ؟ من الذى أقسمت له فى الكنيسة ؟ » وأخذت أضربها بلجامى ثم أضربهـا خـلال ساعة ونصف ساعة الى أن صاحت تقول وقد هدها الضرب هداً : « لسوف أغسل قدميك وأشرب ماءهما ! » . كان اسمها أفدوتيا .

٥

فصل الصيف

بدأ شهر نيسان (أبريل) . الأسبوع المقدس غير بعيد. أخذنا نقوم بأعمال الصيف. الشمس تصبح أكثر دفئاً وسطوعاً يوما بعد يوم . الهواء يحمل أشذاء الربيع فيحدث أثره في الأعصاب.

ان السجين بالأغلال يهتز هو أيضاً في أيام الصحو . ان هذه الأيام الجميلة تبعث فيه رغبات قوية وأشواقاً عنيفة وتثير في نفسه أحزان الغربة وأشجان الحنين . احسب ان الانسان يأسى لفقد حريته في نهار مشمس أكثر مما يأسى لذلك في الأيام الممطرة الحزينة من الخريف والشتاء . هنالك شيء يلاحظ لدى جميع السجناء : لئن كانوا يشعرون بشيء من الفرح في نهار جميل مضيء فانهم يصبحون في مقابل ذلك أقل صبراً وأكثر تململاً وأشد اهتياجاً . لقد لاحظت أن المشاجرات في سجننا تكثر في الربيع ، وأن الصخب يشتد ، وأن الصراخ يتفاقم ، وأن الاقتتال يزداد . وفي أثناء ساعات الشغل يتاح لك أن تلاحظ في بعض الأحيان نظرة واجمة تائهة في الفضاء الأزرق على عناد ، هناك ، في مكان ما ، على الضفة الأخرى من نهر ارتيش ، حيث يمتد السهل الفسيح مئات الفراسخ سهوبا هي سهوب الكيرخيز الواسعة الحرة . وربما سمعت عندئذ تنهدات طويلة تخرج من أعماق الصدر كأن ذلك الهواء البعيد الطلق

قد حمل السجناء على أن يتنفسوا ، وكأنه خفف عن نفوسهم الحبيسه المسحوقه • ان السجين يطلق من صدره آخر الأمر اهة طويله ثم اذا هو على حين فجأة كأنه يريد أن ينفض عنه هذه الأحلام وأن يبددها فيتناول رفشه غاضباً أو يحمل القرميد الذي يجب عليه أن ينقله من مكان الى مكان • وما هي الا لحظة بعد ذلك حتى يكون قد نسي ذلك الاحساس العابر الهارب فيعود الى ضحكه أو سببه تبعا لمزاجه • انه يكب على مهمته المفروضة بحماسة غير معهودة وهمة غير مألوفة ويعمل بكل ماأوتي من قوة كانه يريد أن يختنق بالتعب ألماً يجثم على صدره فيوشك أن يقتله • هؤلاء رجال أشداء هم جميعاً في زهرة العمر وهم جيعا يملكون قواهم كاملة ••• ألا ما أثقل الاغلال في هذا الفصل ! لست استرسل هنا مع العواطف • ان هذه الملاحظة صحيحة صادقة • في فصل الدفء، تحت الشمس الساطعة ، حين يحس المرء بالطبيعة تستيقظ من حوله بقوة لا توصف ، حين يحس المرء بذلك في نفسه كلها وفي كيانه كله ، فانه يشق عليه احتمال السجن واحتمال رقابة الحرس واحتمال تحكم ارادة أجنبية فيه أكثر مما كان يشق عليه ذلك من قبل •

وفي الربيع ، مع غناء أول قُبَّرة ، انما يبدأ التشرد في سيبيريا كلها وفي روسيا كلها : ان عباد الله يهربون عندئذ من السجون ويفرون الى الغابات ؟ فبعد الأقبية الخانقة والأحكام الصارمة والأغلال الثقيلة والسياط الموجعة يتشرد هؤلاء حيث يحلو لهم أن يتشردوا ويضربون في الأرض على غير هدى ، ويتوقفون حيث تبدو لهم الحياة أمتع وأسهل • انهم يشربون ويأكلون ما يتيسر لهم مصادفة ، وينامون الليل هادئين في الغابة أو في حقل ، لا يقلقهم همٌ ولا يرعبهم سجن فكأنهم طيور من طيور الله لا تقول الا لنجوم السماء تحت بصر الله : طاب ليلك أيتها النجوم ! على أن الحياة لا تصفو لهم كل الصفو فهم يتألمون أحياناً من

الجـوع والتعب « في خدمة الجنرال وقـوق » وكثيراً ما يقضـون أياما بأسرها دون أن يقعوا على كسرة خبز يقتاتون بها • ويجب عليهم أن يتواروا عن جميع الناس ، أن يختبئوا تحت الارض ، ويجب عليهم أن يسرقوا وأن ينهبوا بل وأن يقتلوا في بعض الأحيان • يقول الناس عن المنفيين في سيبيريا : « ان المنفى أشبه بطفـل يهجم على كل ما يرى » ألا ان هذا القول يصدق مزيداً من الصدق على المتشردين • يكاد يكون جميع المتشردين قطاع طرق ولصوصاً ، تدفعهم الى ذلك الضرورة أكثر مما يدفعهم اليه ميل في نفوسهم ، وتحضهم عليه الحاجة أكثر مما يحضهم عليه الاحتراف • وهناك متشردون كثيرون تأصل فيهم التشرد • ان بين السجناء رجالا يتشردون بعد أن قضوا مدة سجنهم وأصبحوا مستوطنين• قد يتوهم المرء أن هؤلاء الذين قضوا مدة سجنهم لا بد أن يكونوا راضين عن حياتهم الجديدة سعداء برزقهم المضـمون • ولكن الحقيقة ليست كذلك • ان هناك شيئاً مجهولاً يزهدهم في الاستقرار ويجـذبهم الى التشرد • ان هذه الحياة في الغابات ان كانت بائسة رهيبة فان فيها حرية ومغامرة وان لها في نظر من عانوها سحراً مغرياً سرياً • ولقد يدهشك أن ترى بين هؤلاء المتشردين أناساً تصفهم بحسن السلوك وهدوء الطبع، أناساً كانوا يبشرون بأن يستقروا وأن يصبحوا مزارعين ناجحين ، ثم اذا هم يتشردون • وقد يتزوج أحـد المنفيين ، وقد ينجب أطفالاً ، وقـد يعيش خمس سنين في مكان واحد ، ثم اذا هو يختفي فجأة في ذات صباح تاركا زوجته وأولاده محيِّراً أسرته والبلدة عليها• لقد دلوني ذات يوم في السجن على واحد من هؤلاء الهاربين من أسرهم • لم يكن قـد ارتكب جريمة ، أو لم تحم حوله أية شبهة على الأقل ، ولكنه هرب من منزله وتشرد وظل يتشرد طول حياته : مضى الى الحدود الجنوبية من الامبراطورية وذهب الى الضفة الأخرى من نهر الدانوب وانتقـل الى

سهوب كرخيز وتجول في سيبيريا الشرقية وطاف في أرجاء القفقاس . ما من مكان لم يذهب اليه . من يدرى ؟ لعل هذا الرجل الذي يعصف به هوى الأسفار قوياً هذه القوة ، كان يمكن أن يصبح مثل روبنسون كروزوى ، لو أحاطته ظروف أخرى ! لقد عرفت عنه هذه التفاصيل من سجناء آخرين لأنه كان لا يحب أن يتكلم ، ولا يفتح فمه الا في حالات الضرورة القصوى . انه فلاح قصير ضئيل في نحو الخمسين من عمره ، مسالم وديع ، اذا نظرت الى وجهه رأيت فيه هدوءاً بل ورأيت فيه بلاهة ... ان فيه هدوءا يشبه العته . كان يحلو له أن يظل جالساً في الشمس يدمدم بين أسنانه أغنية من الأغاني ، ولكنه يبلغ من الرفق في دمدمتها أنك لو ابتعدت عنه خمس أقدام ما سمعت شيئاً . ان قسمات وجهه متجمدة ان صح التعبير ، وهو قليل الطعام يأكل الخبز الأسود خاصة . لم يشتر في يوم من الأيام خبزاً أبيض أو خمرة ؛ بل أحسب أنه لم يملك في يوم من الأيام مالاً ، وأنه ما كان له أن يعرف كيف يعد المال . كان لا يبالى بشيء البتة . وكان يطعم كلاب السجن أحياناً بيده ، وذلك أمر لم يكن يفعله أحد قط (ان الروسى عامة لا يحب أن يطعم الكلاب) . ويقال انه كان قد تزوج مرتين ، وان له أولاداً في مكان ما ... لماذا أرسل الى السجن ؟ لا أدرى عن ذلك شيئاً . على أن رفاقنا كانوا يعتقدون دائماً أنه سيهرب لا محالة ... فلئن ارتضى البقاء حتى الآن هادئاً فذلك يرجع اما الى أن ساعته لم تحن واما الى أن تلك الساعة قد فاتت . لم تكن له أية علاقة بالبيئة الأجنبية التي يعيش فيها، انه أكثر انطواء على نفسه من أن تنعقد بينه وبين أحد صلة . وما ينبغى الركون الى هدوئه الظاهر هذا . ولكن ما هو الربح الذي يمكن أن يجنيه من الفرار ؟

يجب أن نقول مع ذلك ان حياة التشرد في الغابات اذا قورنت بحياة السجن هي سعادة فردوسية • صحيح ان حيـاة التشرد حياة شـقاء ، ولكنها حياة حرة على الأقل • ذلك هو السبب في أن كل سجين ، حيثما يكن من أرجاء روسيا ، يلم به القلق عند أولى أشعة الربيع الباسمة • صحيح أنهم لا ينتوون جميعاً أن يهربوا • ان واحـداً من مائة فحسب يقرر أن يهرب ، أما الباقون فلا يعقدون العزم على الفرار ، وذلك خوفاً من العقبات التي سيصادفونها أو من القصاص الذي سـيلقونه • على أن جميع الباقين وهم تسعة وتسعـون لا يزيدون على أن يسترسـلوا في الأحلام متسائلين متى يستطيعون أن يهربوا وكيف ؟ ان التفكير وحده في احتمال نجاح مثل هذه المغامرة يعزيهم ويخفف عنهم ••• وهم لذلك يتذكرون فراراً سبق أن حدث ••• لا أتكلم الآن الا عن السجناءالذين صدرت أحكام في حقهم ، أما الذين لم تصدر بعد في حقهم أحكام فانهم يتخذون قرار الهروب بسهولة أكبر كثيراً • والذين صدرت في حقهم أحكام ، لا يهربون الا في أول عهدهم بالسجن ؛ حتى اذا انقضت على اقامتهم في السجن سنتان أو ثلاث أذعنوا للواقع وأدركوا أن من الخير لهم أن يتموا مدة سجنهم وفقاً للقانون وأن يصبحوا مستوطنين •• فذلك أولى بهم من التعرض للضياع عند الاخفاق ، والاخفاق ممكن دائماً فليس هناك الا سجين من عشرة سجناء ينجح في محاولة « تغيير مصيره » • والذين يحاولون ذلك انما هم السجناء الذين حكم عليهم بالسجن مدداً طويلة • ان من حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً يحس أن هذه المدة أبد لا نهاية له ••• ويجب أن نذكر أخيراً أن الوسمالذي يدمغ السجناء عقبة من العقبات الكأداء في طريق الهرب • وقولنا « تغيير المصير » انما هو اصطلاح تكنيكي • فالذين يُضبطون متلبسين بجـرم محاولة الفرار يُستجوبون على أساس أنهم أرادوا أن « يغيروا مصيرهم »

.. ان هذا التعبير ، الأدبى بعض الشيء ، يصوّر الفعل الذى يدل عليه تصويراً كاملاً . ما من هرب يأمل أن يصبح حرا كل الحرية ، فهو يعلم أن ذلك مستحيل تقريباً ، ولكنه يريد أن يُرسل الى سجن آخر أو أن يوطّن فى مكانٍ ثانٍ من البلاد ؛ يريد أن يحاكم مرة أخرى بجريمة يرتكبها أثناء تشرده ؛ انه يريد أن يُرسل الى أى مكان ... شريطة أن لا يكون ذلك المكان هو هذا السجن الذى احتبس فيه فأصبح لايطيقه! ان جميع أولئك الهاربين، اذا هم لم يجدوا أثناء الصيف مأوى يستطيعون أن يقضوا فيه الشتاء ، اذا هم لم يصادفوا أحداً يجنى من اخفائهم نفعاً ما، أو اذا لم يحصلوا بالجريمة أحياناً على جواز سفر يمكنهم من أن يعيشوا آمنين فى كل مكان ، أقول ان جميع أولئك الهاربين يتكاثرون أثناء الخريف فى المدن والسجون ، يعترفون بتشردهم ويقضون الشتاء فى الحبس آملين أملاً خفياً أن يهربوا فى الصيف المقبل .

وقد أحدث الربيع أثره فى نفسى أنا أيضاً . ما أزال أتذكر كيف كنت أنظر الى الأفق البعيد من خلال شقوق السياج فى شراهة عظيمة ! كنت ألصق رأسى بأوتاد السياج فما أزال أتأمل العشب الذى يخضوضر فى خندق السور ، وأتأمل السماء الزرقاء البعيدة التى تتكاثف شيئاً بعد شيء ، دون أن أشبع من هذا المنظر ودون أن يصيبنى كلال أو ملال . وكان غمى وحزنى يزدادان يوماً بعد يوم ، وكان كرهى للسجن ونفورى منه وابتئاسى به يتفاقم مزيداً من التفاقم شيئاً بعد شيء . والبغض الذى كان يشعر به السجناء نحوى خلال السنين الأولى لأننى أنتمى الى طبقة السادة كان يسمّم حياتى كلها . فكنت أطلب الذهاب الى المستشفى فى كثير من الأحيان دون أن تكون بى حاجة الى المستشفى ، وانما أطلب ذلك حتى لا أكون فى السجن وحتى أفر من هذا البغض الحاقد العنيد . كان السجناء يقولون لنا : « ان لكم مناقير من حديد يا معشر النبلاء .. لقد

مزقتم جلودنا بمناقيركم حين كنا لكم أقناناً ... » لشد ما كنت أحسد أبناء الطبقة الدنيا من الشعب حين كانوا يصلون الى السجن ! كان هؤلاء يصبحون رفقاً وأصحاباً للسجناء على الفور ! هكذا كنت ازداد حزنا واهتياجاً عصبياً حين يحل الربيع فاستشرف الحرية وأطل على فرحة الطبيعة كلها . وفي نحو الاسبوع السادس من الصوم الكبير قمت بشعائري الدينية . كان صف الضابط قد قسم السجناء ست فئات (بعدد أسابيع الصوم تماماً) ، من أجل أن يقوموا بشعائرهم الدينية فئة بعد فئة. ان كل فئة تتألف من ثلاثين رجلاً على وجه التقريب . ما كان أعظم عزائي أثناء ذلك الأسبوع ! كنا نذهب ، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم ، الى الكنيسة التي لا تبعد كثيرا عن السجن . لم أكن قد ذهبت الى الكنيسة ، منذ زمن طويل . ان قداس الصوم الكبير ، هذا القداس الذي كنت أعرفه معرفة جيدة منذ نعومة أظفاري ، لانني سمعته كثيراً في بيتنا ، ان هذا القداس مع ما يصاحبه من صلوات وأدعية وانحناء وركوع، قد هزّ في نفسي ماضياً بعيدا ، بعيداً جدا ، وأيقظ فيها أقدم المشاعر . ما زلت أتذكر مدى سعادتي حين كنا نذهب في الصباح الى بيت الله سائرين على الأرض التي تجلدت أثناء الليل . كنا نذهب الى الكنيسة ومعنا حرس قد شحنوا بنادقهم بالرصاص . وكان الحرس لا يدخلون الكنيسة . حتى اذا صرنا في داخل الكنيسة تجمعنا عند الباب ، في الصفوف الأخيرة ، فما نكاد نسمع الا الصوت العميق الذي يخرج من صدر الكاهن صادحاً بالصلوات ؛ ومن حين الى حين نلمح من فوق المصلّين جبته السوداء أو رأسه العاري . تذكرت عندئذ كيف كنت أثناء طفولتي أنظر الى أبناء الشعب يزدحمون عند باب الكنيسة كتلة متراصة ويتقهقرون في خضوع حين يدخل ضابط كبير أو نبيل أكرس أو سيدة رائعة الثياب لكنها من شدة تدينها وتقاها مسرعة تشق طريقها

الى الصف الأول وتوشك أن تشاجر جميع الناس في سبيل أن تحظى بشرف احتلال الأماكن الأولى . لقد كان يخيل الي أثناء طفولتي أن ذلك المكان الذي يقع عند مدخل الكنيسة هو المكان الذي يمكن أن يصلي فيه الانسان خاضعاً لله ساجداً على الأرض شاعراً بحرارة الايمان وروعة الخشوع .

وهأنذا الآن أقف في ذلك المكان نفسه الذي كان يقف فيه أبناء الشعب ، لا بل ان حالي تختلف عن حال أبناء الشعب ، فأنا مكبل بالأغلال مجلل بالخزي والعار . ان الناس يتحاشوننا ويخشوننا ويتصدقون علينا . ما زلت أذكر أنني كنت أجد في ذلك احساساً مرهفاً ولذة غريبة . كنت أقول لنفسي : « لتكن مشيئة الله ! » . وكان السجناء يصلون بحرارة وحمياً . وكان كل منهم يجيء الى الكنيسة بقرشه ليشتري به شمعة أو ليضعه في صحفة الاحسان. ولعلهم كانوا يقولون لأنفسهم حين يقدمون هذه القروش : « البشر جميعاً سواسيه أمام الله ... » . وكنا نتناول القربان بعد صلاة الساعة السادسة . حتى اذا تلا الكاهن ، وهو يرفع حقة القربان ، الآية التي تقول : « ارحمني يا رب كما رحمت اللص الذي خلصته ... » ، سجد جميع السجناء تقريباً على الأرض فجلجلت من ذلك أغلالهم . أحسب أنهم كانوا يفهمون هذه الآية فهماً حرفياً ويعدونها خاصة بهم .

وأقبل الأسبوع المقدس . فوزعت علينا ادارة السجن بيضة من بيض عيد الفصح ، وقطعة من خبز معجون بالحليب . وغمرتنا المدينة بالصدقات . وكما حدث في عيد الميلاد حدث في عيد الفصح : زيارة الكاهن حاملاً الصليب ، زيارة الرؤساء ، توزيع حساء الكرنب المطبوخ بشحم الخنزير ، وكذلك السكر والتجول ، مع فرق واحد هو أننا أصبحنا نستطيع منذ الآن أن نتروض في الفناء وأن نتدفأ بأشعة الشمس.

كل شيء يبدو الآن أكثر ضياءً وأعظم اتساعاً ولكنه أشد حزناً كذلك . ثم ان النهار في الصيف ، وهو نهار طويل ، يكون في أيام الأعياد أثقل على الصدر منه في أيام العمل ، لأن التعب في أيام العمل يجعله أقصر .

وأشغال الصيف أشق كثيرا من أشغال الشتاء . ان السجناء يعملون صيفاً في الأشغال الشاقة التي يأمر بها المهندسون ، فهم يبنون أو يحفرون الأرض أو يصنعون القرميد ، أو يساقون لاصلاح الابنية الحكومية حدادةً أو نجارة أو دهاناً ؛ ومنهم من يذهب الى مصنع الاجر يشوي الآجر وذلك كان في نظرنا أشق الأعمال طرا . كان هذا المصنع يقع على بعد أربعة فراسخ تقريباً من قلعتنا . وكان تُرسل اليه ، طوال الصيف ، في الساعة السادسة من كل صباح ، جماعةٌ من السجناء عددها خمسون . وكان يُختار لهذا العمل أولئك الذين لا يجيدون أية مهنة و لاينتمون الى أية ورشة . وكان السجناء الذين يذهبون الى مصنع الآجر يحملون معهم خبز يومهم ، لأنهم بسبب بُعد المسافة لا يستطيعون أن يعودوا للغداء حين يعود غيرهم ، ولا أن يسيروا ثمانية فراسخ في غير طائل ، وانما هم يأكلون في المساء حين يرجعون الى السجن . و كان يعهد اليهم هنالك بأعمالٍ للنهار كله ، ولكن هذه الأعمال تبلغ من الضخامة أن أحداً لا يكاد يستطيع انجازها . كان عليهم في أول الأمر أن يحفروا الأرض فيخرجوا الغضار ثم ينقلوه ويجبلوه بأرجلهم في الحفرة ، وان يصنعوا منه بعد ذلك مقدارا كبيرا من القرميد ، مائتي قرميدة وربما مائتين وخمسين . لم أذهب الى مصنع الآجر الا مرتين . كان السجناء الذين يُرسلون الى هذا المصنع يعودون منه في المساء وقد تشعثت وجوههم وانهدت قواهم ، فهم لا ينفكون يأخذون على الآخرين أنهم تركوا لهم أقسى عمل . أغلب ظني أن مآخذهم هذه كانت تعزيهم وتسري عنهم وتلذ لهم . وكان منهم أناس يحبون هذا العمل ويؤثرونه على غيره من

الأعمال ، أولاً لأنه يمكنهم من الذهاب الى خارج المدينة على شاطيء نهر ارتيش في مكان رحب مريح ، فالضواحي أجمل منظرا من المباني الحكومية الكريهة ؛ وثانيا لأن في وسعهم أن يدخنوا هنالك بحرية تامة، بل وأن يلبثوا راقدين نصف ساعة فيشعروا من ذلك بأعظم رضى .

أما أنا فقد كنت أعمل في ورشة ، أو أعمل في تكسير الجص ، أو في نقل الآجر الذي يستعمل في البناء . وقد وقع على عاتقي هذا العمل الأخير شهرين كاملين . فكان عليّ أن أنقل حملي من الآجر من شواطيء نهر ارتيش على مسافة مائة وأربعين متراً ثم أقطع خندق القلعة حتى أصل الى الثكنة التي كانت بسبيل البناء . وكان هذا العمل يناسبني تماما رغم أن الحبل الذي أحمل به الآجر كان ينشر كتفي نشرا . والشيء الذي كان يعجبني خاصةً هو أن قواي كانت تنمو نموا واضحاً .. كنت في أول الأمر لا أستطيع أن أحمل ثماني أجرات دفعة واحدة، وكانت كل آجرة تزن حوالي اثني عشر رطلاً . فأصبحت أستطيع أن أحمل اثنتي عشرة آجرة ، وبل وخمس عشرة ، وابتهجت من ذلك أشد الابتهاج واغتبطت له أعظم الاغتباط . لم تكن حاجتي الى القوة الجسمية أقل من حاجتي الى القوة النفسية من أجل أن أستطيع احتمال جميع المتاعب والمكاره في تلك الحياة اللعينة .

وكنت أريد أن أحيا حين خروجي من السجن . انني أجد لذة في نقل الآجر لا لأن هذا العمل يقوي جسمي ، فحسب ، بل لأنه يمضي بي الى ضفاف نهر ارتيش . ولئن كنت أتكلم كثيراً عن هذا المكان فلأنه المكان الوحيد الذي يمكن أن أرى منه دنيا الله ، أن أرى الأفق البعيد المضيء ، أن أرى السهوب الفسيحة الحرة المقفرة الذي كان عريها يحدث في نفسي أثراً غريباً . أما ميادين العمل الأخرى فكانت كلها في القلعة أو ما حولها ، وكنت منذ الأيام الأولى قد كرهت هذه القلعة ، وكرهت

مبانيها خاصة • كان منزل الميجر مثلاً يبدو لي مكاناً كريهاً لعيناً منفّراً ، وكنت كلما مررت به أنظر اليه نظرة تفيض بغضاً ومقتاً • ولا كذلك الشاطىء • فان المرء يستطيع هنالك أن ينسى نفسه على الأقل وهو ينظر الى الفضاء الواسع المقفر ، كما ينسى السجين نفسه وهو ينظر الى العالم الحر من خلال القضبان الحديدية في سجنه • كان كل شيء في ذلك المكان حبيباً الى قلبي عزيزاً على نفسي : الشمس الساطعة في السماء الأزرق اللانهائي ، والاغاني البعيدة التي يصدح بها الكرخيزيون الآتون من الضفة الأخرى •••

ما أكثر ما كنت أطيل النظر الى كوخ فقير مسود من السخام ، يسكنه بايجوشي ما ! ••• ما أكثر ما كنت أطيل النظر الى الدخان المزرق الذي ينتشر في الهواء ، والى المرأة الكرخيزية التي تعنى بخروفيها ! •• ذلك منظر متوحش فقير ، ولكنه حر •• كنت أتابع ببصري طيراً يشق بتحليقه الهواء الشفاف الصافي ••• انه يلامس الماء ثم يختفي في السماء اللازوردية ثم يعود فيظهر صغيراً كنقطة ••• حتى الزهرة الصغيرة المسكينة التي تذوي في شق من شقوق الشاطىء ، والتي أراها في مطلع الربيع ، كانت تجذب انتباهي وتوقظ حناني ••• ان الحزن الذي يجثم على صدري في هذه السنة الأولى من سجن الأشغال الشاقة كان لا يطاق وكان يثير أعصابي • منعني هذا القلق في أول الأمر من ملاحظة الأشياء التي تحيط بي • كنت أغمض عيني ولا أريد أن أرى شيئاً • وبين الناس الفاسدين الذين كنت أعيش معهم لم أستطع أن أميّز الرجال الذين كانوا رغم القشرة الظاهرة المنفرة قادرين على أن يفكروا وأن يحسوا • لا ولا استطعت أن أسمع وأن أتبين كلمةً فيها شيء من عاطفة ، وسط السخريات المسمومة التي كانت تنهال عليّ انهيال المطر ••• مع أن هذه الكلمة كانت تقال ببساطة تامة ، دون غاية مخبأة أو هدف مبيت ، وكانت

تصدر عن الأعماق من قلب انسان تألم كثيراً واحتمل أكثر مما احتملت وقاسى أكثر مما قاسيت • ولكن علام الافاضة في هذا ؟

كان التعب الشديد مصدر رضى لى وغبطه ، لأنه يجعلنى آمل فى نوم عميق • كان النوم في فصل الصيف عذاباً ممضاً أكثر مما كان كذلك في فصل الشتاء • على أن هناك أمسيات كانت رائعة والحق يقال ••• ان الشمس التي ظلت تغرق فناء المنزل طوال النهار تغيب أخيراً ••• فاذا الهواء طرى ، واذا الليل بعد ذلك بارد بعض البرودة ••• فكذلك هى ليالى السهوب ••• كان السجناء ، بانتظار أن يُحبسوا فى الثكنات ، يتجولون فى الفناء جماعات ، ولا سيما قرب المطبخ ••• فهنالك كانت تناقش المسائل التى تهم السجناء ، وهنالك كان يعلّق على الشائعات الواردة من خارج السجن ، وهى فى كثير من الأحيان شائعات سخيفة مستحيلة ولكنها تثير دائماً انتباه هؤلاء الرجال الذين اجتثوا من المجتمع• من ذلك أن نسمع فجأة أن الميجر قد طُرد • كان السجناء كالأطفال سرعةَ تصديق • انهم يعلمون حق العلم أن النبأ ملفق ، وأن طرد الميجر ليس معقولاً ، وأن ناقل الخبر كذاب محنك هو كفاسوف ؛ ولكنهم مع ذلك يتعلقون بهذه الشائعة ويناقشونها ويغتبطون لها ، ويعزون أنفسهم بها ، ثم ما يلبثون أن يخجلوا من أنهم أتاحوا لرجل مثل كفاسوف أن يخدعهم ويضللهم • هذا سجين يصيح قائلا :

ـ ومن ذا الذى يستطيع أن يطرده ؟ لا تقلق عليه ! انه رجل يعرف كيف يحافظ على مركزه !

وهذا سجين آخر يحسن الجدال ويتحمس للنقاش ، سجين خبر الحياة ورأى العالم وطاف فى البلاد ، هذا هو يجيب قائلاً :

ـ ولكن أليس له رؤساء ؟

وهذا ثالث يقول عابسَ الوجه مكفهر السحنة كأنه يحدث نفسه :

ـ الذئاب لا يأكل بعضها بعضا •

ان هذا السجين الثالث رجل أشيب الشعر كان قابعاً في أحد الأركان يأكل حساءه المصنوع من مخلل الكرنب •

وهذا سجين رابع يقول في غير اكتراث البتة ، وهو ينقر على آلة البلالايكا التي كانت في يده :

ـ هل تظن أن الرؤساء سيسألونك رأيك ويطلبون نصحك من أجل أن يطردوه أو أن لا يطردوه ؟

فيجيب الثاني قائلاً في حماسة وغضب :

ـ ولم لا ؟ اذا سئلتم أيها الرفاق فعليكم أن تجيبوا بصراحة • ولكن لا ••• نحن هنا نظل نصيح ما شاء لنا هوانا أن نصيح حتى اذا آن أوان العمل تنصلنا ونكصنا على أعقابنا •

فيقول عازف البلالايكا :

ـ طبعاً ! ••• فمن أجل هذا انما وجد سجن الأشغال الشاقة ! •

استأنف الآخر كلامه حتى دون أن يسمع ما أجيبَ به :

ـ منذ أيام بقي قليل من دقيق ••• هو نفايات لا قيمة لها ••• جمعناها وأردنا أن نبيعها لننتفع بثمنها ••• فماذا فعل حين علم بذلك وجيء بها اليه ؟ لقد صادرها لنفسه ••• من باب التوفير طبعاً ! ••• أصحيح هذا أم لا ؟

ـ ولكن الى من عساك تشكوه ؟

ـ الى من عساى أشكوه ؟ أشكوه الى المفتش الذى سيصل قريباً •

ـ أي مفتش ؟

ـ حقاً يا رفاق ، ان مفتشاً سيصل في القريب !

كذلك قال سجين آخر هو شاب قوي الجسم قرأ كتاب « دوفه دي لافالير » أو قرأ كتاباً آخر من هذا القبيل ، وكان في الماضي عريفا في كتيبة بالجيش . انه رجل هازل مازح ، ولكن السجناء كانوا يحترمونه بعض الاحترام لسعة اطلاعه . فما ان قال جملته تلك حتى نهض دون أن ينتبه أي انتباه الى الجدال الذي كان يهز السجناء جميعا ، ومضى الى الطباخ رأساً يطلب منه شيئاً من كبد (كثيراً ما كان طباخونا يبيعون أطعمة من هذا النوع ، فهم يشتركون كبداً كاملاً فيقسمونه ويبيعونه للسجناء الآخرين قطعا) . سأله الطباخ :

ـ بكم ؟ بكوبكين أم بأربعة ؟

ـ بأربعة كوبكات . فليحسدني الآخرون . نعم يا رفاق ، ان جنرالاً ، جنرالاً حقيقياً ، سيصل من بطرسبرج للتفتيش في سيبيريا . صحيح . قيل ذلك في منزل الآمر .

أحدث هذا النبأ انفعالاً شديداً خارقاً . ظل السجناء ربع ساعه يتساءلون عن الجنرال من يكون وما لقبه وهل هو أعلى رتبة من جنرالات مدينتنا ؟ ان السجناء يعشقون الكلام على الرتب والرؤساء ، وأن يعرفوا من هو الذي يملك من هؤلاء الرؤساء منزلة أعلى ، من الذي يستطيع أن يحني ظهور الموظفين الآخرين ومن الذي يحني ظهره للموظفين الآخرين ؟ انهم في سبيل هؤلاء الجنرالات يتشاجرون ويتشاحنون حتى لقد يصلون من ذلك الى التماسك بالأيدي والتضارب . أية مصلحة يمكن أن تكون لهم في هذا ؟ انك حين تسمع السجناء يتكلمون عن الجنرالات والرؤساء تستطيع أن تقدّر درجة النمو والذكاء لدى هؤلاء الرجال كما

كانوا فى المجتمع قبل دخول السجن • ويجب أن نذكر أن الحديث عن الجنرالات والادارة العليا كان يُعدّ عندنا أهم حديث وأجمل حديث •

قال ماسوف ، وهو رجل قصير القامة ، أحمر الوجـــه ، مندفع الطبع ، محدود العقل ، كان هو الذى أشاع أن الميجـــر سيستبدل به آخر ؛ قال :

ـ هأنتم أولاء ترون أنهم يريدون طرد الميجر •

فقال الشيخ المكتئب وقد فرغ من تنـاول حسائه ، قال بصـــوت متقطع :

ـ سوف يرشوهم •

وقال آخر :

ـ سوف يرشوهم حتماً • لقد سرق هذا اللص مالاً كثيراً ، لاسيما وأنه كان ميجراً قبل أن يأتى الى هنا • ومنذ زمن غير طويل خطب ابنة الأسقف •

ـ ولكنه لم يتزوج • لقـد طرد • وهـــذا يدل على أنه فقـير • يا للخطيب الرائع ! انه لا يملك الا الثياب التى يرتديها ! فى الســـنة الماضية ، أثناء عيـد الفصح ، خسر فى القمار كل ما كان معه ! ان فدكا هو الذى قال لى ذلك •

ـ صحيح • انه ليس بالمبذر المتلاف • ولكنه لا يملك الآن قرشاً •

هنا انبرى سكوراتوف يشارك فى الحديث فقال :

ـ صدقونى يا شباب : ليس يحسن بالمرء أن يتزوج حـين يكون فقيراً • لقد عرفت هذا بنفسى • المرء يستعجل الزواج ، ولكن اللذة لا تطول •

قال الفتى المتحمس الذى كان نائب عريف فى الجيش :

ـ أتحسب أننا سنتلهى بالحديث عنك الآن ؟ وأما أنت ياكفاسوف فانك غبى كبير ! اذا كنت تظن أن الميجر يمكن أن يرشو جنرالاً مفتشاً، فأنت تخطىء خطأ فاحشاً ! وهل تتصور أن يُرسل الجنرال من بطرسبرج خصيصاً ليفتش صاحبك الميجر ؟ ألا انك ما تزال على جانب عظيم من الغباء يا فتى ! أنا أقول لك ذلك ...

قال واحد من الجمهور بلهجة الشك :

ـ هل تظن أنه لا يأخذ رشوات لأنه جنرال ؟

ـ طبعاً ... واذا أخذ رشوات فهو يأخذ رشوات ضخمة .

ـ حتماً ... الرشوة على قدر الرتبة ، فكلما كانت الرتبة أعلى كانت الرشوة أضخم !

قال كفاسوف بلهجة جازمة :

ـ ما من جنرال يرفض رشوة !

فقاطعه باكلوشين فجأة ليسأله باحتقار :

ـ هل رشوتهم أنت حتى تقول هذا الكلام جازماً ؟ بل هل رأيت فى حياتك كلها جنرالاً !

ـ نعم يا سيدى !

ـ كذاب !

ـ أنت الكذاب !

ـ طيب يا أولاد ! ما دام قد رأى جنرالاً فليقل لنا أى جنرال رأى ! هيَّا قل ! اننى أعرف جميع الجنرالات !

قال كفاسوف بلهجة مترددة :

ـ رأيت الجنرال زيبرت •

ـ زيبرت ؟ لا يوجد جنرال بهذا الاسم ! لعل هذا الجنرال قد شاهد ظهرك حين جلدوك• لعل زيبرت هذا لم يكن الا ليوتنان كولونيل، ولكنك كنت قد بلغت من شدة الفزع عندئذ أنك حسبته جنرالاً •

صرخ سكوراتوف يقول :

ـ لا ••• اصغوا الىّ يا أصحاب ، لأنني رجل متزوج • حقاً لقد كان يوجد فى موسكو جنرال باسم زيبرت • انه ألمانى أصبح روسياً • كان هذا الجنرال يعترف كل سنة للقس بالخطايا التى قارفها مع سيدات صغيرات ••• وكان يشرب كما يشرب البط • كان يشرب أربعين كأساً على الأقل من ماء نهر موسكوفا • كان يستشفى بذلك من مرض لا أدرى ما هو • ان خادمه هو الذى قال لى ذلك •

قال السجين صاحب البالالايكا :

ـ لا شك أن السمك كان يسبح فى بطنه •

وكان هناك سجين اسمه مارتينوف هو شيخ كثير الحركة دائم الانشغال كان قد خدم فى سلاح الفرسان ، فها هو ذا يتدخل فى الحديث سائلاً :

ـ هلاّ هدأتم قليلاً ؟ أنكون فى جدٍ ثم تأخذون تقولون سخافات؟ أي مفتش سيصل يا رفاق ؟

فقال واحد من المتشككين :

ـ هؤلاء أناس كذابون ! الله يعلم من أين جاءوا بهذا النبأ ! ماهذا الكلام كله الا هراء •••

قال كوليكوف بلهجة قاطعة ، وكان قد لزم حتى ذلك الحين صمتاً مهيباً وقوراً :

ـ لا ... ليس هذا الكلام هراء .

ان كوليكوف رجل ذو وزن ، في نحو الخمسين من عمره ، له وجه متناسق القسمات ، يصطنع في سلوكه آداباً فيها عظمة واحتقار ، ويستمد من ذلك غروراً وأبهة . ان في عروقه دماً غجرياً ، وهو يعمل بيطرياً ، ويجني أرباحاً من معالجة الخيول ، ويبيع في سجننا خمراً ؛ ليس هو بالغبي ، حتى ليمكن أن يعد ذكياً ، هذا الى ذاكرة زاخرة . وهو يساقط أقواله بعناية كبيرة كان كل كلمة من كلماتها تساوي روبلاً .

تابع يقول بلهجة هادئة :

ـ هذا الكلام صحيح . سمعته في الأسبوع الماضي . انه جنرال ذو شارات ضخمة ، سيفتش سيبيريا كلها . لا شك أنه يأخذ رشوات ، ولكن ميجرنا « ذا العيون الثماني » ليس هو الذي سيرشوه : انه لن يجرؤ أن يتسلل قربه ، ذلك ان هناك جنرالات وجنرالات ، يارفاق ، كما هنالك حزم وحزم من الحطب . أنتم تعرفون هذا . ليس جميع الجنرالات سواء . ولكنني أؤكد لكم أن ميجرنا سيبقى في مكانه . نحن بلا ألسن . نحن لا يحق لنا أن نتكلم . أما رؤساؤنا فليسوا من سيشي به . سوف يصل المفتش الى سجننا ، فما ان يلق عليه نظرة حتى ينصرف؛ وسيقول ان كل شيء يجري في سجننا كما يجب أن يجري .

ـ صحيح . ولكن هذا لا ينفي أن الميجر قد خاف . انه سكران منذ الصباح .

ـ وفي هذا المساء طلب عربتين ... ان فدكا هو الذي قال ذلك .

ـ لا يصير الزنجي أبيض اللون مهما تغسله • أهذه أول مرة ترونه فيها سكران ؟

اضطرب السجناء وثاروا فقال بعضهم لبعض :

ـ لسوف يكون ظلماً شديداً أن لا يُصنع بهذا الميجر شيء •

انتشر خبر وصول المفتش في السجن كله • أخذ السجناء يطوفون في الفناء ويرددون النبأ الخطير • فبعضهم يصمتون ويحافظون على هدوئهم ليظهروا بمظهر الوقار وليسبغوا على انفسهم شانا وخطرا وبعضهم لا يبالي ولا يكترث • وعلى عتبة الابواب جلس بعض السجناء ليعزفوا على البالالايكا ، بينما راح بعضهم الأخر يتابع ثرثرته • وهذه جماعات منهم تغني في استرخاء • ولكن فناء السجن مضطرب مهتاج بوجه عام •

وفي نحو الساعة التاسعة عُدِدنا وأودعنا الثكنات التي تُغلق علينا أبوابها في الليل • هو ليل قصير من ليالي الصيف • ونحن لذلك نوقظ في الساعة الخامسة من الصباح • غير ان احدا منا لا يستطيع ان ينام قبل الحادية عشرة من المساء ، لان الاحاديث لا تنقطع حتى تلك الساعة ، وكذلك الحركة والذهاب والاياب ••• حتى لقد يتحلق السجناء للمقامرة في بعض الأحيان كما يفعلون ذلك في ليالي الشتاء • الحر خانق لا يطاق • صحيح ان النافذة المفتوحة تدع لطراوة الليل أن تدخل، غير أن السجناء لا يزيدون على أن يضطربوا فوق سررهم الخشبية كأنهم في هذيان • ما أكثر الهوام والحشرات ! لقد كان عندنا منها كثير في الشتاء• غير أنها تتكاثر حين يأتي الربيع تكاثرا رهيبا ماكان لي أن أصدقه لولا أن قاسيت منه بنفسي • وكلما تقدم الصيف ازدادت الهوام والحشرات • ان المرء يستطيع أن يتعود على الحشرات فقد لاحظت ذلك، غير أنها تظل عذابا لا يطاق ، عذابا يبلغ من الهوال أنه يبعث في الجسم

حمى ! ••• ان المرء يحس أثناء النوم أنه غير نائم ، وانما هو يهذى ••• وأخيرا ، عند الصباح ، حين يتعب عـدوك ، فتنام نوماً هنيئاً فى طـراوة الفجر ، تسمع الطبل الظالم الذى لا يرحم ، يقرع على حين فجأة ••• انك تسمع ضربات العصا على الطبل وهى تزداد كثرة وقوة ••• فتلعن هذه الضربات ، ولا تملك وأنت تلطو فى معطفك الا أن تخطر ببـالك هذه الفكرة على غير ارادة منك : سوف يتكرر هـــذا غدا ، وبعد غد ، سنين متتاليـــة ، الى أن يفرج عنك وتتمتع بحريتك • متى تأتى هـــذه الحرية ؟ أين هى هذه الحرية ؟ ••• ولا بد أن تنهض ، فان السـجناء قد أخذوا يسيرون حولك ، وعاد الصخب المـألوف يعلو ••• ويرتدى السجناء ثيابهم ، ويسرعون للذهاب الى العمل • على أنك ستستطيع أن تنام ساعة بعد الظهر •

ان ما قيل عن قدوم المفتش كان هو الحقيقة بعينها • كانت الشائعات تتأكد يوماً بعد يوم ، وعلم أخيراً أن موظفاً كبيراً برتبة جنرال قد جاء من بطرسبرج ليفتش سيبيريا كلها ، وأنه وصل الى توبولسك فهو الآن هناك • كنا نطلع كل يوم على شيء جديد • كانت الشائعات توافينا من المدينة • قيل ان الجميع خائفون • وان كل واحد يقوم باستعداداته من أجل أن يظهر بأحسن مظهر • السلطات تنظم استقبالات وحفلات راقصة ومهرجانات وأعياداً من كل نوع • وأرسلت جماعات من السجناءلتمهيد شوارع القلعة ، وانتزاع نقر الأرض ، وطلاء الأسيجة والأوتاد ، وتطيين الجدران ، وصـــبغ الأبواب ، واصلاح كل ما هو ظاهر للعيان • كان السجناء يفهمون الغاية من هذا العمل فهما تاماً ، وكانت مناقشاتهم ماتنفك تزداد حرارة وحدة وشدة • أصبحت أخيلتهم لا تعرف حدوداً • حتى لقد أصبحوا يهيئون أنفسهم لتقديم بعض المطالب متى وصل الجنرال ، ولكن ذلك لا يمنعهم قط من أن يتشاتموا ويتشاجروا • وكان ميجرنا

على مثل نار الجمر قلقاً . انه يزور السجن بغير انقطاع ، يصرخ مزيداً من الصراخ ويتهجم على السجناء أكثر مما كان يتهجم عليهم من قبل ، ويرسلهم لأتفه الأسباب الى مقر الحرس من أجل انزال عقوبة من العقوبات فيهم ، ويهتم اهتماماً خاصاً بنظافة الثكنات وترتيبها وحسن مظهرها . وفي تلك الآونة وقعت قصة صغيرة لم تهز هذا الضابط ولم تؤثر فيه قط ، كما كان يمكن أن يُتوقع ذلك ، بل أرضته ارضاء كبيراً وأحدثت له بهجة عظيمة . ان واحداً من السجناء قد طعن سجيناً آخر بمخرز في صدره عند القلب تقريباً .

الجاني اسمه لوموف . أما المجني عليه فقد فكان يسمى في سجننا باسم جافريلكا : انه واحد من أولئك المتشردين العتاة الذين سبق أن تكلمت عنهم . لا أدري هل كان له اسم آخر ، ولكنني لم أعرف له في يوم من الأيام اسماً غير اسم جافريلكا .

كان لوموف فلاحاً ميسوراً من سكان تومسك باقليم ك ... هو من أسرة عدد أفرادها خمسة : أخوان وثلاثة أبناء . انهم فلاحون أغنياء كان يقال في المقاطعة كلها ان ما يلمكونه يربو على ثلاثمائة ألف روبل نقداً . كانوا يفلحون ويدبغون الجلود ، ولكن الأعمال التي كانوا يتعاطونها خاصة انما هي الاقراض بالربا ، واخفاء المتشردين والمسروقات وما الى ذلك من أمور ... وكان نصف سكان المقاطعة مديناً لهم بمال ، فهو واقع بين براثنهم . وكانوا يُعدون أذكياء ماكرين ، وكانوا يصطنعون مظاهر الأبهة والعظمة . وقد اتفق أن حلّ ضيفاً على الاب في ذات مرة موظف من كبار الموظفين فأحب الموظف فيه جسارته وبراعته ودهاءه ، فتخيل أفراد أسرة لوموف عندئذ أن في وسعهم أن يفعلوا ما يحلو لهم ، فتمادوا فيما كانوا يقومون به من أعمال يحرّمها القانون . وكان جميع الناس يدمدمون متذمرين ، ويتمنون لو يرونهم غائرين تحت الأرض

مائة قدم • غير أن أفراد أسرة لوموف ما برحوا يتمادون في استهتارهم حتى أصبحوا لا يخشون لارؤساء الشرطة ولا قضاة المحاكم في المقاطعة• وأخيرا خانهم الحظ ، فاذا هم يضيعون لا بسبب الجرائم السريه التي كانوا يرتكبونها بل بسبب تهمة ملفقة ووشاية كاذبة • كان لهم على بعد عشرة فراسخ من منزلهم مزرعة يعيش فيها أثناء فصل الخريف ستة عمال كرخيزيين كانوا قد استعبدوهم منذ زمن طويل • وفي ذات يوم ، وجد هؤلاء الكرخيزيون قتلى ، وكشف التحقيق الذي دام مدة طويلة عن أشياء فظيعة • واتهم أفراد أسرة لوموف بأنهم هم الذين قتلوا هؤلاء العمال الستة • ان لوموف وابن أخيه هما اللذان قصا هذه القصة فعرفها جميع السجناء ؛ قالا ان السلطات قد قدرت أن الكرخيزيين كانوا مدينين لأفراد أسرة لوموف بمبالغ طائلة من المال ، وأنهؤلاء بسبب شدة بخلهم وطمعهم ، ورغم ثرائهم العريض ، قد قتلوا الكرخيزيين حتى لا يدفعوا لهم دينهم عليهم • وفي أثناء التحقيق والمحاكمة ذابت ثروتهم وتبددت • ومات الأب • ونفي الأبناء • وحكم على أحدهم مع عمه بسجن الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً • الحق أن أفراد أسرة لوموف كانوا ابرياء كل البراءة من الجريمة التي نسبت اليهم• وفي ذات يوم ، اعترف جافريلكا، وهو انسان حقير وغد دنيء ، عرف بانه متشرد ايضاً ، ولكنه شديد المرح كثير النشاط ، اعترف بأنه هو القاتل • لست أدري في الواقع هل اعترف هونفسه بذلك، ولكن السجناء كانوا يعدونه هوقاتل الكرخيزيين، لقد كان لجافريلا هذا شأن مع أفراد أسرة لوموف أيام تشرده (وهو لم يجيء الى سجننا الا لقضاء فترة قصيرة جداً بتهمة الهرب من الجندية والتشرد) ؛ وقد ذبح الكرخيزيين متعاوناً مع ثلاثة متشردين آخرين أملاً في نهب المزرعة •

لم يكن السجناء يحبون لوموف وابن أخيه ، لا أدري لماذا ! ان

ابن الأخ فتى خشن الطبع ، لماح الذكاء ، يحب معاشرة الناس ، ولـكن عمه الذى طعن جافريلكا بمخرز ، فلاح غبي مندفع لا ينفك يشاجر السجناء فيضربه هؤلاء ضرباً مبرحاً • وكان جميع من فى السجن يحبون جافريلكا بسبب مرح مزاجه ولين عريكته وسهولة معشره • وكان لوموف وابن أخيه لا يجهلان انه مقترف الجريمة التى حكم عليهم بسـببها ، ولكنهم لم يشاجراه فى يوم من الايام • وكان جافريلكا لا يلتفت اليهما أى التفات ولا يهتم بهم اى اهتمام • أما المشاجرة التى أدت الى الطعن بالمخرز فقد شبت بين لوموف وجافريلكا بسبب امرأة مقززة كان جافريلكا ينافس العم لوموف عليها ، فلما تباهى جافريلكا ذات يوم بمـا ناله من حظوة لديها ، جن جنون الفلاح غيرةً ، فاذا هو يغمد مخرزه أخيراً فى صدر جافريلكا •

وكان أفـــراد أسرة لوموف ، رغم أن الحكم الذى انتزع منهـم جميع املاكهم قد أصابهم بالخراب والدمار ، كانوا يـُعدّون فى السجن أغنياء جداً • لقد كانوا يملكون مالاً ، وكان عندهم سـماور ، وكانوا يشربون شاياً • وكان الميجر لا يجهل ذلك ، وكان يكره لوموف وابن أخيه ، ويحاول ازعاجهما • وكان الرجـلان يفسران سلوكه معهما بأنه يرغب فى أن يقدما لها رشوة ، ولكنهما لم يشاءا أن يفعلا •

ولو قد أغمد لوموف مخرزه فى صدر جافريلكا بمزيد من القوة اذن لأجهز عليه حتماً ، ولكنه لم يستطع أن يحدث فى جسمه الا خدشاً • وأبلغ الميجر النبأ • فها هو ذا يصل الى الثكنة لاهثاً وقد ظهر فى وجهه الرضا والارتياح • ما زلت أراه الى الآن مقبلاً علينا • اتجه الى جافريلكا يسأله بلهجة لطيفة ودود أبوية ، كأنه يخاطب ابنه :

ــ هل تستطيع يا صديقى أن تذهب الى المستشفى وحدك ، أم أنت

فى حاجة الى نقلك اليه ؟ لا ••• أعتقد أن من الأفضل أن يؤتى لك بحصان • هيّا أسرجوا حصاناً على الفور •

قال جافريلكا :

ـ ولكننى لا أحس بشىء يا صاحب النبالة الرفيعة • انه لم يزد على أن خدشنى هنا يا صاحب النبالة الرفيعة •

ـ أنت لا تعلم يا صديقى ، أنت لا تعلم ••• سوف ترى ••• لقد أصابك فى موضع خطر ••• كل شىء متوقف على موضع الاصابة ••• لقد أصابك هذا اللص تحت القلب تماماً !

قال الميجر ذلك ثم أضاف يخاطب لوموف :

ـ انتظر ••• انتظر ••• لسوف أقتص منك ! خذوه الى مقر الحرس !

وبرّ الميجر بوعده • حوكم لوموف • ورغم أن الجرح كان طفيفاً ، فان التعمد ظاهر واضح ، لذلك زيدت مدة سجن لوموف بضع سنين ، وجلد ألف جلدة بالعصا • وسُرّ الميجر بذلك سروراً عظيماً••

وصل المفتش أخيراً •

وجاء يفتش السجن غداة وصوله • كان اليوم يوم عيد • وكان كل شىء قد أصبح منذ بضعة نظيفاً لامعاً أُحسن غسله • وكانت رءوس السجناء قد حلقت ، وكانت ملابسهم الناصعة البياض خالية من كل بقعه (ان النظام يوجب أن يلبسوا فى الصيف صدرات وسراويل من قطن ، وعلى ظهر كل واحد منهم رقعة مربعة سوداء مخيطة الى الصدرة ، قطرها ثمانية سنتيمترات) • وكان السجناء قد تلقوا درسا خلال ساعة كاملة : فتعلموا ما الذى يجب عليهم أن يجيبوا به ، وبأى ألفاظ يجب عليهم أن

يجيبوا ، اذا خطر ببال هذا الموظف الكبير أن يحييهم ؛ حتى لقد أجريت تجارب للتأكد من آن السجناء قد تلقنوا الدرس وحفظوه . وكان الميجر كمن فقد صوابه . اصطف الجنود فى أماكنهم قبل وصول الجنرال بساعة كاملة ، ووقفوا ساكنين جامدين كالتماثيل ، مسبلين أذرعهم ، جاعلين أصابعهم ملاصقة لخياطة السروال . وأخيراً ، فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، دخل المفتش . انه جنرال مهيب الطلعة ، فى هيئته أبهة تبلغ من القوة أن قلب جميع الموظفين فى سيبريا الغربية لا بد أن تخفق من الذعر خفقاناً شديداً متى رأته . دخل الجنرال بادى القسوة ظاهر العظمة ، يتبعه رهط من جنرالات وكولونيلات هم الذين كانوا يشغلون وظائف كبيرة فى مدينتنا . وكان هنالك أيضاً مدنى طويل القامة متسق القسمات يرتدى فراكاً وينتعل حذاءين . كان هذا الشخص يتصرف تصرفاً فيه حرية وطلاقة ، وكان الجنرال يتجه بالكلام اليه كلَّ لحظة فى كثير من الأدب واللطف . ان هذا المدنى آتٍ كذلك من بطرسبرج. وقد حيَّر أمره السجناء كثيراً ، بسبب ما كان يظهره له الجنرال العظيم من احترام . وقد عُرف اسمه وعُرفت وظائفه بعد ذلك ، ولكن ما أكثر الكلام الذى دار عليه قبل أن يُعرف اسمه وتعرف وظائفه ! أما صاحبنا الميجر الذى كان متأنقاً فى ملبسه أشد التأنق ، وكان يحيط عنقه بياقة برتقالية اللون ... فانه لم يحدث فى نفس الجنرال أثراً حسناً ، وذلك بسبب ما لاحظه الجنرال من احتقان فى عينيه ، وتورد فى وجهه وقسوة فى ملامحه . وكان الميجر قد نزع نظارتيه احتراماً لرئيسه ، ووقف على مسافةٍ منتصباً كوتد ، منتظراً على أحرَّ من الجمر اللحظةَ التى يؤمر فيها بشىء ليسارع الى تنفيذ رغبة صاحب السعادة . ولكن أحداً لم يشعر بالحاجة الى خدماته . طاف الجنرال بالسكنات صامتاً ، وألقى نظرة على

المطبخ ، حيث ذاق حساء الكرنب الحامز . وقد دلوه عليّ ، وذكروا له أنني نبيل سابق ، وأنني فعلت كيت كيت ... فقال الجنرال :

ـ آ ... وكيف سلوكه ؟

فقيل له :

ـ سلوكه الآن مرضٍ يا صاحب السعادة ، سلوكه الآن مرضٍ .

فأومأ الجنرال برأسه وخرج من السجن بعد دقيقتين. كان السجناء مبهورين حائرين مضطربين أشد الاضطراب . أما أن يشكوا الميجر فذلك أشد أمر ما كان يمكن أن يخطر ببال أحد منهم . ولقد كان الميجر واثقاً من ذلك كل الثقة سلفاً .

٦

حيوانات السجن

إنّ شراء جنيدكو (الحصان الكميت) ، وقد تم بعد ذلك بزمن قصير، كان للسجناء تسليةً أمتع كثيراً من زيارة الشخصية الكبيرة التي تحدثت عنها. كنا في السجن في حاجة الى حصان لنقل الماء ورمي الأوساخ وغير ذلك. وكان أحد السجناء هو الذي يهتم بالحصان ويجره، تحت الحراسة طبعاً . كان حصاننا يعمل من الصباح الى المساء تقريباً . انه حيوان جيد ، ولكنه أصبح ضعيفاً مهترئاً من طول ما عمل. وفي ذات يوم ، عشية عيد القديس بطرس ، بينما كان يحمل برميلاً من الماء ، سقط على الأرض ونفق بعد بضع لحظات . أسف السجناء عليه كثيراً . وهاهم أولاء يحتشدون حوله ، فيناقشون أمر موته ويعلقون عليه . وبرهن الذين سبق لهم العمل في سلاح الفرسان ، والغجر ، والبياطرة ، وغيرهم ، على معرفة عميقة بالخيل عامة ، واختلفت آراؤهم في الأمر واختصموا عليه . ولكن ذلك كله لم يردّ حصاننا الكميت الى الحياة ، بل ظل ممتداً على الأرض منتفخ البطن . وأحس كل سجين أن من واجبه أن يجسّه باصبعه . وأُعلم الميجر أخيراً بالحادث الذي

وقع للحصان فضاءً وقدراً • فقرر الميجر أن يأمر بشراء حصان آخر على الفور •

وفي ساعة مبكرة من صباح الغد ، يوم عيد القديس بطرس ، حين اجتمع السجناء جميعا بعد الصلاة ، جيء الى السجن بخيول لبيعها • كان امر اختيار الحصان موكلاً الى السجناء ، لان بينهم رجالا خبيرين حقاً ، ولان من الصعب خداع مائتين وخمسين رجلا كان تعاطى الخيل اختصاصهم • وصل رجال من الغجر ورجال من الكرخيز ، وسماسرة حيل ، واناس من سكان المدينة • كان السجناء ينتظرون بفارغ الصبر وصول كل حصان جديد ، ويشعرون من ذلك بفرح كفرح الاطفال • ان الشيء الذي كان يسرهم خاصةً هو انهم يستطيعون ان يشتروا دابه كما يفعل اناس احرار ، فكأنهم يشترون « لانفسهم » وكان المال من جيوبهم «هم» • جيء بثلاثة أحصنة قبل ان يستقر الراى على شراء الرابع • كان البائعون ينظرون بدهشة وبشيء من الخوف الى جنود الحراسه الذين كانوا يرافقون السجناء • وخليق بمائتى رجل محلوقى الرءوس موسومين بالحديد مكبلي الأقدام بالسلاسل أن يوحوا الى من يراهم بشيء من التهيب ، لا سيما وأنهم في منازلهم ، انهم في عرينهم الذي لا يدخله أحد يوماً • لم ينضب معين المكر والدهاء لدى السجناء• كان عليهم أن يعرفوا بالمكر والدهاء ثمن الحصان الذي جيئوا به • ها هم أولاء يفحصون الحصان ويجسونه وقد ظهر في وجوههم جد كبير واهتمام شديد ، كأن رخاء السجن رهن بشراء هذه الدابة ؛ بل ان الشراكسة قد وثبوا على صهوة الجواد ، فكانت أعينهم تسطع وكانوا يتمتمون تمتمةً سريعة بلغتهم التي لا يفهمها أحد ، كاشفين عن أسنانهم البيضاء محرّكين مناخيرهم المتسعة من أنوفهم السمراء المعقوفة • وكن هناك روس ينتبهون الى مناقشتهم انتباهاً شديدا حتى ليكادوا يلتهمونهم

بأعينهم التهاما . انهم لا يفهمون شيئاً من الكلام الذى كان يتبادله رفاقهم، ولكن كان واضحا انهم يتمنون لو يعرفون من تعبير أعينهم هل الحصان جيد ام لا . ترى لماذا يهتم سجين ، ولا سيما سجين مبهوت مقهور ما كان له أن يجرؤ يوماً على أن ينطق بكلمة أمام رفاقه ، لماذا يهتم سجين كهذا بان يتم شراء هذا الحصان أو ذاك كأنما هو يشتريه لنفسه ، وكأنما يعنيه أن يُشترى هذا الحصان أو ذاك الآخر ؟ ان السجناء الذين آ نزلوا المنزلة الاولى فى اتمام هذه الصفقة وأعطوا حق الكلام أكثر من غيرهم انما هم الشراكسة ثم الغجر ومن كانوا فى الماضى يتعاطون تجارة الخيل. وقد نشب نوع من المبارزة بين سجينين ، فأما الأول فهو كوليكوف الذى كان سمسار خيل وسارق أحصنة ، وأما الثانى فهو بيطــــرى موهوب ، فلاح سيبيرى ماكر كان قد أُرسل الى سجن الاشغال الشاقة منذ زمن قصير فنافس كوليكوف فى البيطــرة ، وأفلح فى أن ينتزع منـــه ما كان يقوم به من أعمال بالمدينة . يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن الناس كانوا يقدّرون كثيراً بياطــــرة سجننا الذين لا يملكون شـــهادة الطب البيطرى ، فكان سكان المدينة والتجار بل وكبار الموظفين يتجهون اليهم اذا مرضت خيولهم ويؤثرونهم على كثير من البياطرة أصحاب الشهادات. فكان للسجين كوليكوف ، الى أن وصل الفلاح السيبيرى يولكين ، زبائن كُثْر فى المدينة يدفعون له المال عرفاناً بفضله ، ولم يكن ينافسه فى ذلك أحد . وكان يعمل كما يعمل غجرى حق ، فهو يغش ويخدع ، لأنه لم يكن يعرف مهنته بمقدار مباهاته . وقد جعلته ايراداته أشبه بأرستقراطى بين نزلاء سجننا ، فكان السجناء يصغون اليه ويطيعونه ، ولكنه كان قليل الكلام ، فهو لا يعلن رأيه الا فى المناسبات الكبرى . انه رجل مزهـــو بنفسه ، ولكنه ينعم بنشاط عظيم وطاقة جبـــارة حقاً . وهو متقــدم فى السن ، جميل جداً ، على جانب كبير من الذكاء خاصة . كان يكلمنا ،

نحن النبلاء القدامى ، بكثير من الأدب واللطف والكياسة ، مع احتفاظه بوقاره وكرامته احتفـــاظاً كاملاً . يقيني أنه لو ألبس لباساً مناسباً ، وأخذ الى نادٍ من نوادي العاصمة ، وقدم الى الناس على أنه كونت ، لاستطاع أن يظهر بهذا المظهر وأن يرقى الى هـذه الرتبه ، وأن يلعب التويست ، وأن يتحدث حديثاً يفتن الألباب كما يفعـل رجل ذو شان خطير يعرف كيف يصمت حين يجب الصمت ، ولما استطاع أحد طوال السهرة أن يحزر أن هذا الكونت ليس الا متشرداً من المتشردين . لقـد كان يحسن التأدب بالآداب الاجتماعيـة الراقية ، فلعله رأى كثيرا ... أما ماضيه فلقد كنا نجهله جهـلاً تاما ، وكان الرجـل ينتمي الى القسم الخـاص . فما ان وصـــل يولكين ـ وهو فلاح بسيط ينتمى الى الملة المنشقة ، ملة « قدامى المؤمنين » ، ولكنه ماكر كأمكر موجيك ـ حتى أفل نجم كوليكوف من حيث هو بيطرى حاذق ؛ فاذا بالبيطرى الجديد ينتزع منه ، فى أقل من شهرين ، جميع زبائن المدينة ، لأنه أخذ يشفى ، خلال برهة قصيرة جدا، خيولاً كان كوليكوف قد أعلن أن أمراضها لا تشفى، وكان البياطرة الذين يحملون شهادات الطب البيطـــرى قد عدلوا عن علاجها وتركوا مداواتها . كان هذا الفلاح قد أودع سجن الأشـغال الشاقة لأنه صنع نقوداً مزيفة ، متعاوناً مع شركاء . ترى ما الذى أغراه باقتحام هذا الميدان وتعاطى هذه الصناعة ؟ لقد ذكر لنا هو نفسه، ساخرا، كيف أنهم احتاجوا الى ثلاث قطع ذهبية صحيحة من أجل أن يصنعوا قطعة واحدة مزيفة !

استاء كوليكوف استياءً شديداً من النجاح الذى أصابه هذا الفلاح بينما كان مجده هو يأفل أفولاً سريعاً . انه ، وهو الذى كان له خليلة فى الضاحية ؛ وكان يرتدى معطفاً من فراء رائع وينتعل حذاءين طويلين فاخرين ، قد وجد نفسه على حين فجأة مضطراً الى أن يصبح خماراً .

لذلك كان جميع السجناء يتوقعون أن تنشب بين الرجلين مشاجرة قوية عند شراء الحصـان الجـديد . ان حب الاطلاع قد تأجج فى جميع النفوس . ولكل رجل من الرجلين أنصـاره ، والمتحمسـون منهم قد أخذوا يضطربون ، بل أخذوا يتبادلون الشتائم منذ الآن . وكان وجه يولكين المعبِّر عن الدهاء والمكر قد تقبض على ابتسامة ساخرة . غير أن الأمور جرت على غـير ما كان يتوقع المتـوقعون : ان كوليكوف لا يريد أبداً أن يشاجر صـاحبه ، وقد تصرف تصرفاً بارعاً يجنبه المشاجرة . سلَّم لصاحبه فى أول الأمر بكل شيء ، وأصـغى باحترام الى الآراء النقدية التى أدلى بها خصمه ، ولكنه لم يلبث أن انتهز فرصة كلمة زلَّ بها لسان يولكين فاذا هو يقبض على هذه الكلمة فيقول لصاحبه بلهجة متواضعة جازمة انه على خطأ . وقبل أن يتسع وقت يولكين لأن يثوب الى نفسه ويعدل عن رأيه أخـذ يبرهن له على انه قـد وقع فى غلطة فاحشة ، وهكذا حوصر يولكين محاصرة بارعة لم تكن فى الحسبان ، فسُرَّ بذلك حزب كوليكوف سروراً عظيماً . قلوا :

ـ هل رأيتم يا شباب ؟ انه لا يمكن أن يخطيء ! انه يعـرف ماذا يفعل !

فقال الآخرون ، ولكن بلهجة لينة لا تحدى فيها :

ـ يولكين أعلم منه .

وكان الحزبان مستعدين للتنازل والتصالح .

قال أنصار كوليكوف :

ـ عدا أن كوليكوف لا يقل عنه علماً ، فان يده أخف ... انه فيما يتعلق بالماشية لا يخشى أحدا .

ـ وكذلك يولكين !

ـ كوليكوف لا يضارعه فى هذا مضارع !

وأخيراً اختير الحصان الجديد الذى تم شراؤه بعد ذلك . انه حصان ممتاز ، صغير السن قوى الجسم جميل المنظر : دابة لا مأخذ عليها من ناحية من النواحى . بدأت المساومة : صاحب الحصان يطلب ثلاثين روبلاً ثمناً له ، والسجناء لا يريدون أن يدفعوا الا خمسة وعشرين . وطالت المساومة وحمت ، فطرف يزيد قليلاً ، وطرف يتنازل قليلاً ، ثم اذا بالسجناء يأخذون يضحكون من تلقاء أنفسهم .

قال بعضهم :

ـ لماذا المساومة ؟ أأنت تدفع الثمن من كيسك ؟

وصاح آخرون :

ـ أأنت تريد أن تحقق للخزنة وفراً ؟

ـ هذا المال ملك مشترك !

ـ ملك مشترك ! صحيح أن أحداً لا يزرع حمقى وأغبياء ، ولكن الحمقى والأغبياء ينبتون من تلقاء أنفسهم دون أن يزرعهم أحد ! ...

وتم الاتفاق أخيراً على أن يُدفع ثمن الحصان ثمانية وعشرين روبلا . وأ بلغ الميجر نتيجة المساومة فوافق على الشراء . فسرعان ما جيء بخبز وملح ، واقتيد الحصان الجديد الى السجن فى عظمة وأبهة . أحسب أنه مامن سجين لم يربت على عنق الحصان أو لم يداعب أنفه . وقد قام الحصان بنقل الما ءالى السجن فى ذلك اليوم نفسه : فكان جميع السجناء ينظرون اليه فى كثير من الاستطلاع وهو يسحب أول برميل ؛ وكان سقاؤنا ، السجين رومان ، يتأمل دابته فى كثير من الرضى والغبطة والحبور . ان هذا السجين الذى كان فى الماضى فلاحاً ، والذى

يبلغ من العمر نحو خمسين عاماً ، كان امرءاً جاداً صموتا ، كسائر الحوذيين الروس تقريباً ، كأن استمرار معاشرة الخيل تسبغ على طبع المرء شيئاً من الوقار والجد حقاً . كان روماں هادئاً ، لطيفاً في معامله جميع الناس ، قليل الكلام . وكان يستنشق سعوطاً يتناوله من علبة خاصة للسعوط . وهو مولع بخيول السجن منذ زمن بعيد لا نعرف أوله . والحصان الذى تم شراؤه أخيراً هو ثالث حصان يعهد به اليه منذ دخوله السجن . وكان كل سجين من السجناء مقتنعاً بأن الكميت من بين الخيول هو الحصان الذى يناسب « منزلنا » . وذلك ما كان يؤكده رومان أيضاً . فما كان يمكن أن يُشترى حصان أبلق مثلاً ! ...

ان وظيفة الحوذى وقف على رومان لا يمكن أن ينازعه فيها أحد. وحين فطس « الكميت » الاول لم يخطر ببال أحد ان يتهم رومان بشيء من الاهمال أو قلة التبصر ، حتى ولا الميجر . فقد عدّوا موت الحصان قضاءً وقدرا لا أكثر . وكان رومان حوذيا ممتازا فى الواقع .

سرعان ما أصبح الكميت الجديد أثير السجن كله . فكثيرا ما كان السجناء يقبلون عليه : يداعبونه ويلاعبونه ، رغم ما قد يوصفون به من ضعف الاحساس وقلة العاطفة . وفى بعض الأحيان ، حين كان رومان، بعد عودته من النهر ، يغلق الباب الكبير الذى فتحه له صف الضابط ، كان الحصان جنيدكو يقف جامداً بانتظار سائقه ، ناظراً اليه من جانب، فيصيح به رومان قائلاً : « اذهب وحدك ! » فاذا بالحصان يمضى هادئاً حتى المطبخ فيتوقف هنالك ، منتظراً أن يأتى الطباخون والخدم فيمتحوا الماء بقواديسهم ؛ فيصيح السجناء عندئذ قائلين :

— ما أروع حصاننا جنيدكو ! لقد جاء بالبرميل وحده ! انه مطيع ! ما أسعدنا به ! ...

ـ حقاً ... هو حيوان ولكنه يفهم ما يقال له ! ...

ـ ما أذكى جنيدكو !

فيهز الحصان عندئذ رأسه ويصهل ، كأنه فهم الأماديح وقدَّرها . ويجيئه أحدهم بخبز وملح ، فاذا فرغ الحصان من التهام الخبز والملح هزَّ رأسه مرة أخرى كأنه يريد أن يقول : « أنا أعرفك ، أنا أعرفك ، أنا حصان جيد وأنت رجل طيب شهم ! » .

وكنت أحب أنا أيضاً أن أدلّل جنيدكو باطعامه خبزاً . كنت أجد لذة في أن أنظر الى بوزه الجميـــل ، وأن أحس في راحة يدي شفتيه الدافئتين الطريتين اللتين تتلقفان أعطيتي بشراهة . كان نزلاء سـجننا يحبون الحيـــوانات ، فلو قد سمح لهم ، اذن لملئوا الثكنات بالطيـــور والحيوانات الأهلية .

أي شاغل يمكن أن يرتقي بالطبـــاع المتوحشة التي يتصف بهـا السجناء ، وأن يلطفها ويلينها ، أكثر من هذا الشاغل ؟ ولكن ذلك لم يكن مباحاً . فلا النظام يأذن به ، ولا المكان يتسع له .

ومع هذا كان قد استقر في سجننا عدد من الحيوانات ابان اقامتي فيه . كان لدينا ، عدا جنيدكو ، كلاب وأوز وجدي (هو فادكا) ونسر لم يعش طويلاً .

أحسب أنني سبق أن ذكـــرت أن كلبنا كان يسمى « شاريك » (السمين) . وأضيف الآن أنه كان حيواناً ذكياً ، وأنني كنت على صداقة معه . ولكن لما كان الشعب يعد الكلب حيواناً نجساً ما ينبغي الالتفـات اليه ، فان أحداً لم يكن يهتم به . كان هذا الكلب لا يفارق الســجن ، ينام في الفناء ، ويأكل فضلات المطبخ ؛ ولم يجتذب اليه شيئاً من عاطفة السجناء الذين كان يعرفهم جميعاً مع ذلك وينظر الى كل منهم على أنه

صاحبه • فاذا عاد السجناء من عملهم ، وسمعهم يصيحون « ياعريف ! » هرع نحو الباب الكبير واستقبل القادمين فرحاً ، يهز ذيله ، وينظر في عيني كل واحد ، كأنه ينتظر شيئا من مداعبة وملاطفه • ولكن جميع ما بذله من جهود للتودد اليهم والتقرب منهم خلال عدة سنين لم يجده نفعا • فما من أحد رضي أن يلاطفه وان يداعبه غيري • لذلك كان يؤثرني على جميع السجناء • اما الكلب الثاني ، واسمه «بايلكا» (التلج) فانني لا أذكر الان كيف جاء الينا • وأما الكلب الثالث ، كوليتابكا ، فقد أتيت به أنا السجن صغيراً •

ان كلبنا « بايلكا » مخلوق عجيب غريب • كانت عربة من العربات قد داسته فاحنت عموده الفقري من داخل ، فمن راه يركض من بعيد، خيل اليه أنه يرى كلبين توأمين ولدا ملتصقين • وكان عدا ذلك أجرب اعمص العينين له ذيل زال عنه شعره وتهدل متدليا بين قائمتيه•

لقد ظلمه القدر فقرر أن يبقى في كل مناسبه هادئا ساكنا لايهتز ولا يهتاج ؛ فهو لا ينبح على أحد كأنه يخشى ان يهشم من جديد • وكان يبقى خلف الثكنات في جميع الاحيان تقريبا ، فاذا اقترب منه أحد ، سارع ينقلب على ظهره كانه يقول : « اصنع بي ما تشاء فلست أفكر في مقاومتك قط ! » • وكان كل سجين لا يفوته حين ينقلب الكلب على ظهره أن يركله برجله كانه يقوم بواجب من الواجبات قائلاً له : « يا للكلب قذر ! » ولكن الكلب لا يجرؤ حتى ان يئن ، فاذا تألم ألماً شديدا لم يزد على أن يصدر صوتا أصم مختنقا • وكان ينقلب على ظهره أيضاً أمام الكلب السمين (شاريك) أو أمام أي كلب آخر يجيء الى المطبخ طلباً للرزق • وكان ينبطح متى هجم عليه كلب من الكلاب الشرسة نابحاً • ان الكلاب تحب من أقرانها الذل والخضوع • لذلك ترى الكلب المهتاج سرعان ما يهدأ متى رأى استكانة قرينه ، فيتوقف

ساهماً أمام الكلب الذليل المنبطح على الأرض ضارعاً متوسلاً ، ثم يأخذ يشم جميع اجزاء جسمه في استطلاع • ترى فيم يفكر بايلكا في مثل هذه اللحظة وهو يرتعد خوفا ؟ أغلب الظن أنه يقول لنفسه : «هل سوف يعضني هذا الوغد ؟ » • ومتى فرغ الكلب الشرس من تشممه تركه ومضى في سبيله ، لانه لم يكتشف فيه شيئا يثير اهتمامه • فسرعان ماكان بايلكا ينهض ثم ياخذ يجـــرى وراء جماعة من اقـرانه تلاحق كلبه لعوباً ما •

ان بايلكا يعلم حق العلم أن الكلبة اللعوب لن ترضى أن تنزل الى مستواه ، فهى اكبر شمما واعظم انفةً من ان تنزل الى هـــذا المستوى الوضيع ، غير أن جريه وراءها من بعيد «رجاً كان يسرّى عنه ويخفف بلواه ويعزيه عن أنواع الشقاء التي يعانيها»اما الكرامه فقد فقد الاحساس بها حتى اصبح لا يعرفها • واذ ضيّع كل أمل في المستقبل ، فقد اصبح لا يطمع في اكثر من أن يملأ بطنه ، وكان يملأ بطنه فعلاً في كثير من الاستهتار • حاولت مرة أن أداعبه ، فكان ذلك أمراً جديدا لا عهد له به من قبل ، فاذا هو يتكور على الأرض مستلقياً على قوائمه الأربع ، واذا هو يأخذ يرتعش ويحشرج من فرط اللذة ؛ ولما كنت أشفق عليه فقد كنت أداعبه أحياناً كثيرة • ولذلك صار كلما رآني يقبل عليّ ويئن أنينا شاكياً وتكاد عيناه تدمعان • وفي ذات يوم ، وُجد ميتاً وراء السجن في الخندق ، قد مزقته كلاب أخرى شرّ ممزق •

أما كوليتابكا فقـــد كان له طبع آخر مختلف عن طبع بايلكا كل الاختلاف • لا أدرى لماذا جئت به من أحد المواضع التي كنا نعمل فيها ، وهناك وُلد • كنت أجد لذةً في اطعامه وفي تتبع نمـــوه • وسرعان ما تولى شاريك حمايته ورعايته ، فأصبح ينام معه ، حتى اذا كبر الكلب الصغير ظل صاحبه الكبير يشعر نحوه بعطف خاص ، فهو يسمح له بأن

يعضه من أذنيه ، وأن يشد شعره ، وهو يلعب معه كما تلعب الـكلاب الكبيرة مع الجراء الصغيرة • والشيء الغريب أن كوليتابكا كان لا يكبر علوا ، وانما يكبر عرضا وطولاً فحسب • وكان كوليتابكا غزير الشعر، وكان شعره بلون شعر الفار • وكانت احدى اذنيه متدلية متهدلة بينما كانت الأذن الاخرى قائمة منتصبة • وكان شديد الحميا كثير الحماسة كسائر الكلاب الفتية التي تتواثب فرحة وتنبح مسرورة حين ترى مولاها حتى لتقفز الى وجه لتلعقه • انه لا يخفي عواطفه وكأنه يقول لنفسه : « حسبي أن يلاحظ فرحي ، فأما المواضعات فلا قيمة لها ولا شأن ! » • كان يكفي أن أناديه بقولي كوليتـابكا حتى أراه يخـرج من ركن من الاركان ، كانه انبجس من تحت الارض ، وحتى يسرع نحوي راكضا صاخبا متحمسا ، وحتى يتدحرج بين قدمي كما تتدحرج كرة أو ينقلب على ظهره منبطحا • كنت احب هذا الشيطان الصغير حباً جماً • كان يبدو أن القدر لم يخبيء له في هذه الحياة الدنيا الا المسرة والفـرح ، ولكن السجين نوسترويف الذي يصنع احذية للنساء ويحضّر جلودا ، قد لاحظه ذات يوم ، لان شيئا قد لفت نظره فيه حتما ، فاذا هو ينـادي كوليتابكا ويجس شعره ، ويقلبـه على الارض في تحبب وتودد ، واذا الكلب ، الذي لم يراوده شيء من شك ولا خطر بباله سوء ، ياخذ ينبح فرحاً وسروراً ، فما ان جاء الغد حتى كان الكلب قد اختفى • بحثت عن الكلب زمناً طويلاً دون أن أعثر له على أثر ، ولكن كل شيء قد اتضح بعد أسبوعين • ان فراء كوليتابكا قد أغرى نوسترويف ، فعمد الى سلخه ليبطن به حذاءين كانت زوجة أحد الموظفين قد طلبت منه أن يصنعهما لها • لقد أراني نوسترويف الحـــذاءين حين فرغ من صنعهما ، فكان فراؤهما الداخلي رائعا • مسكين كوليتابكا ! •••

لقد كان كثير من السجناء يعملون في دباغة الجلود ، فكثيراً ما كانوا يجيئون الى السجن بكلاب جميلة الفراء سرعان ما تختفي . كان السجناء يشترون هذه الكلاب أو يسرقونها . أذكر أنني رأيت في ذات يوم وراء المطبخ سجينين يتشاوران ويتناقشان . كان احدهما يمسك مقود كلب أسود جميل جداً ينتمي الى جنس رائع من أجناس الكلاب . ان خادماً من الخدم كان قد سرق الكلب من سيده وباعه لحذاءينا هذين بثلاثين كوبكاً . وكان الرجلان يستعدان لخنق الكلب ، وذلك عمل سهل يعمدان بعده الى سلخ الجلد ، ثم يرميان الجثة في الحفرة التي أعدت لرمي الاقذار والتي كانت تنشر روائح كريهه فظيعة في ايام الحر الشديد من الصيف ، لانها لم تكن تنظف الا نادرا . احسب ان الحيوان المسكين قد أدرك المصير الذي ينتظره ، فكان ينظر الينا نظرة قلقة فاحصة ، بعضا بعد بعض ؛ وكان لا يجرؤ الا من حين الى حين آن يهز ذيله الكثيف المتدلى بين قائمتيه كأنما ليرقق قلوبنا بما يظهره لنا من ثقة بنا واطمئنان الينا . أسرعت أبتعد عن هذين السجينين اللذين أنجزا عملهما بغير حرج .

أما أوز سجننا فقد استقر فيه عرضاً ومصادفة . لا أدري من كان يعتني به ومن كان صاحبه ، ولكنني أعلم أنه كان لسجنائنا سلوةً وبهجةً ، وانه نال شهرة في المدينة . لقد ولدت أوزاتنا في السجن واتخذت المطبخ مقرا لها تخرج منه جماعات متى ذهب السجناء الى الشغل ، فما أن يقرع الطبل فيتجمهر السجناء عند الباب الكبير حتى تجري الأوزات وراءهم مصوّتةً صافقةً جناحيها، ثم اذا هي تثب واحدة بعد أخرى ، فتجتاز دكة الباب المرتفع ، فاذا أخذ السجناء يعملون طفقت ترعى على مسافة قصيرة منهم ، حتى اذا انتهوا من عملهم وقفلوا راجعين الى السجن انضمت الى موكبهم من جديد فكان المارة يقولون : « انظروا

الى السجناء يمـــرون مع أوزاتهم » • وقـد سألنا أحدهم يوماً قائلاً : « كيف علمتموها أن تتبعكم ؟ » • وقال رجل آحر وهو يضع يده فى جيبه : « خذوا هذا المال لاوزاتكم » • وقد ذبح السجناء هذه الأوزات رغم اخلاصها لهم ، احتفالاً بالعـــيد الكبير بعد الصـــوم فى ســنة من السنين •

أما الجدى فاسكا فما كان لأحد أن يقرر ذبحه لولا مناسبة خاصة• لا أدرى كيف وُجد هذا الجدى فى سجننا ولا أعرف من الذى أتى به: انه جدى أبيض جميل جداً لم تمض على وصوله ايام جنى أحبه جميع السجناء ، وأصبح لهم تسليةً وعزاءً • واذ كان لا بد لهم من عـــذر ينعللون به للاحتفاظ بالجـدى فى الســجن ، فقد أكدوا انه لا بد من تيس فى الاصطبل * • ومع ذلك لم يسكن الجدى الاصطبل بل سكن المطبخ وانتهى آخيراً الى آن يكون السجن كله مسكنَه يطوف فيه على ما يشاء له هواه • كان هذا الحيوان الرشيق مرحاً لعوبا يثب على الموائد ويصارع السجناء ويركض اذا نودى ويحتفظ دائماً بمـــزاجه الفـــرح وطبعه الفكه • فى ذات مســاء كان اللزخينى باباى جالسا على درجات مدخل الثكنة وسط جماعة من السجناء الآخرين فخطر بباله ان يصارع فاسكا الذى كان قرناه طويلين بعض الطول • أخـــذ الرجل والجدى يتضـــاربان بجبهتيهما ، وكان هـــذا اللعب أحبَّ التسليات الى قلوب السجناء • وها هو ذا فاسكا يثب الى الدرجة العليا من درجات المدخل ، فما أن تنحى باباى قليلاً حتى انتصب الجدى فجأة على قدميه الخلفيتين، وقرَّب حافريه من جسمه ثم لبط اللزخينى على قذاله بكل ما أوتى من قوة ، فاذا بالرجل ينقلب متدحرجاً على الدرجات ، فيشيع الفرح فى جميع الشهود وفى باباى نفسه • الخلاصة أننا أحببنا جدينا فاسكا حباً عظيماً، فلما أدرك سن البلوغ ، أجرى له البيطريون من نزلاء سجننا ، بعـــد

مؤتمر عام هام ، عمليةً كانوا يحسنون اجـراءها على أتم وجه ، أعني عملية الخصي . وقال السجناء عندئذ معلقين : « فبذلك لن يسـعرنا بانه تيس على الاقل . » . اخذ فاسكا منذ ذلك الحين يسمن سمنة مدهلة . يجب أن نذكر على كل حال أن السـجناء كانوا يسرفون في اطعامه . أصبح فاسكا تيساً جميلاً جداً له قرنان رائعان وأصبح مفرطا في السمنة، حتى صار يتفق له في بعض الأحيان أن يتدحرج على الأرض ثقيـلاً أثناء المشي. وكان يرافقنا هو أيضاً الى العمل ، وكان ذلك يسر السجناء ويسر المارة الذين كانوا يعرفون جميعا تيس السجن فاسكا ؛ فاذا كان السجناء يعملون على شاطيء النهر قطعوا أغصاناً من أشجار الصـفصاف وقطفوا أوراقاً وجنوا أزهاراً يزينون بها فاسكا ، فهم يضعـون على قرنيه غصونا وازهارا ، ويضعون على صدره الأكاليل ، فكان فاسكا يعود الى السجن على رأس القافلة متبرجاً متزينا ، وكان السجناء يسيرون وراءه معتزين بجماله فخورين بحسنه ؛ وقد بلغ بعض السجناء من حبهم تيسنا أنهم قدموا هذا الاقتراح الطفـولي : وهو أن يطلى قرنا فاسكا بالذهب ولكن اقتراحهم بقي مشروعا في الهواء ولم يكتب له أن يوضـع موضع التنفيذ . سألت آكيم آكيمتش وهو خير مذهِّبٍ في سجننا بعـد انسميا فومتش هل يمكن حقاً تذهيب قرني تيس ، فأخذ يفحص قرني فاسكا باتنباه شديد ، وفكَّر برهةً ثم أجابني بان تذهيبهما ممكن ولكن الطلاء الذهبي لن يبقى مدة طويلة ، ولا داعي اليه على كل حال . ووقف الامر عند هذا الحد .

كان يمكن أن يعيش فاسكا في سـجننا سنين طويلة ، ولعله كان سيموت مصاباً بضيق التنفس لولا أنه في ذات يوم أثناء عودته من العمل على رأس قافلة السجناء ، قد صادف الميجر جالساً في عربته . كان التيس مزدانا بالأزهار . زأر الميجـر قائلا : « قف ! لمن هـذا التيس ؟ » .

فأوضحوا له الأمر فقال غاضباً : « كيف هذا ؟ أيوجد تيس فى السجن ويكون ذلك بدون اذنى ؟ يا عريف ! » . وأصـدر الميجر أمره الى العريف بذبح التيس فوراً وسلخه وبيع جلده فى السوق وايداع ثمنه صندوق السجن ، أما لحمه فيطبخ مع حساء الكرنب الحامز الذى يأكله السجناء . تكلم السجناء كثيراً عن هـذا الحادث ، وأسفوا كثيرا على التيس ، ولكن ما كان لاحد ان يعصى امر الميجر . ذبح فاسكا قرب حفرة القاذورات واشترى أحد السجناء لحمه كله ، ودفع ثمنه روبلا وخمسين كوبيكاً . واشتُرى بهذا المال خبز أبيض للجميع . والسجين الذى اشتراه قام ببيعه بعد ذلك شرائح مقلية . كان لحمه لذيذ الطعم صيب المذاق !

كان فى سجننا أيضا خلال فترة من الوقت نسر من نسور السهوب (كاراجوش) التى تنتمى الى فصيلة تتصف بانها صغيرة الحجم . لقد جاء به أحد السجناء جريحاً يشبه أن يكون ميتاً . أحاط به جميع السجناء . كان النسر عاجزاً عن الطيران ، فجناحه اليمنى متهدلة معطلة، واحدى قائمتيه مخلوعة . كان ينظر الى الجمهور المستطلع المحتشد حوله نظرة غاضبة ، ويفتح منقاره المعقوف مستعداً لأن يدفع ثمن حياته غالياً . فلما انصرف عنه السجناء بعد أن تأملوه طويلاً ، مضى الطائر الأعرج متواثباً على قائمته السليمة ، صافقاً جناحه ، مضى يختبىء فى أقصى مكان من الفناء ، فقبع فى ركن من الأركان ملتصقاً بأوتاد السياج، ثم لم يبارح ركنه ذاك خلال الأشهر الثلاثة التى قضاها فى فناء سجننا . كان السجناء فى البداية يجيئونه من حين الى حين فينظرون اليه ويهيجون عليه الكلب شاريك الذى كان يهجم نحوه مستعر الحنق ، ولكنه يخشى أن يقترب منه كثيراً ، فكان ذلك يسلّى السجناء ويضحكهم ، فيقول بعضهم لبعض : « حيوان كاسر ، هه ! لا يسمح لأحد أن يغيظه ! » .

ولكن الكلب شاريك أصبح بعد ذلك لا يهابه وأخذ يتحرش به ويناوشه ، فاذا حرضه السجناء عليه أمسك الجناح المريض من جناحي النسر فكان النسر يدافع عن نفسه بمنقاره ومخالبه ، ويلطو في ركنه متعاليا متغطرسا كملك جريح ، ويحدق الى من حوله مستطلعا . ومل السجناء أخيراً من هذا المنظر ، فسرعان ما نسوا النسر نسيانا تاما . ومع ذلك كان يجيئه في كل يوم واحد منهم ، فيضع قربه قطعة من لحم طري واناء مكسورا فيه ماء . ظل النسر في الايام الاولى يرفض ان يأكل شيئاً من يد أحد ، أو أن يأكل على مرأى من الناس . استطعت ان اراقبه مراراً من بعيد . كان اذا لم يرا أحداً ، وحسب انه وحيد ، جازف فترك الركن الذي يقبع فيه وأخذ يسير عارجا على طول السياج ، مسافه اثنتي عشرة خطوة تقريبا ، ثم قفل راجعا ، ثم استدار فمشى هذه المسافه نفسها مرة أخرى ، ثم عاد ، وهكذا دواليك ، تماما كما لو ان طبيبا قد أمره بالقيام بهذه الرياضة الصحية ! ولكنه ما يكاد يلمحني حتى يركض نحو ركنه عارجاً متواثباً بأقصى سرعة يستطيعها . وكان عندئذ يرد راسه الى وراء ، ويفغر منقاره ، ويشعث ريشه ، كانما هو يتهيا لمعركة . حاولت أن أداعبه ، ولكن جهودي كلها لم تفلح في ان نؤنسه : كان يعض ويتخبط متى لُمس . ولم يقبل مرة واحدة أن يتناول اللحم الذي أحاول أن أقدمه اليه ؛ وكان يحدق الي بنظرة شريرة ثاقبة ما بقيت قريبا منه . كان النسر الشقي يحب العزلة ويمتلىء قلبه حقدا ، فهو ينتظر الموت مستمراً على تحدي جميع الناس ، مصراً على أن لا يصالح أحداً . وتذكره السجناء أخيراً بعد شهرين من نسيان ، فأظهروا نحوه عطفاً لم يكن في الحسبان ، واتفق رأيهم على أن ينقلوه من السجن . قال بعضهم : « فليفطس ، ولكن فليفطس حراً طليقاً على الأقل » . وأضاف آخرون :

ـ حتماً ... فان طائراً حراً مستقلاً مثله لن يتعود السجن فى يوم من الأيام .

وقال أحدهم :

ـ انه لا يشبهنا ! ...

فأجاب ثان :

ـ طبعاً ، هو طائر ونحن بشر ! ...

وانبرى سكوراتوف يقول :

ـ النسر ، يا رفاق ، ملك الغابات ...

ولكن أحداً لم يستمع اليه يومئذ .

وبعد الظهر من أحد الأيام ، حين قُرع الطبل مؤذناً بالذهاب الى العمل ، جاء بعض السجناء الى النسر ، فأوثقوا منقاره ، لانه كان يدافع عن نفسه بضراوة ، ونقلوه الى خارج السجن فوق السور . ان السجناء الذين تولوا هذا العمل ، وكان عددهم اثنى عشر سجيناً ، كانوا فى أشد الشوق الى معرفة الجهة التى سيمضى فيها الطائر . شىء غريب : لقد كانوا جميعاً مسرورين ، كأنهم هم الذين يفرج عنهم ، كأنهم هم الذين يفوزون بالحرية !

قال السجين الذى كان ممسكاً به ، قال وهو ينظر الى النسر فيما يشبه المحبة والحنان :

ـ يا للحيوان الشرير .. تريد له الخير ثم هو يمزق يدك ليشكر لك صنيعك !

ـ دعه يطير يا ميكيتكا !

ـ الأسر لا يناسبه • هب له الحرية ، هب له الحرية الجميلة !

رُمي النسر من على السور الى الفلاة • كان ذلك في يوم اشهب بارد من آخر الخريف • كانت ريح السهوب العارية تصفر وتئن فى العشب الاصفر المصوّح • مضى النسر قدماً لا يلوى على شيء ، صافقا بجناحه المريضة ، كأنه يستعجل أن يتركنا وأن يختبىء عن أنظارنا • وجعل السجناء يتابعون بأبصارهم رأسه الذى يبرز من العشب •

قال أحدهم ساهماً :

ـ هل ترون ؟

وأضاف آخر :

ـ انه لا ينظر الى وراء ! لم ينظر مرة واحدة الى وراء !

فأجاب ثالث :

ـ وهل تظن أنه سيعود ليعبر لنا عن شكره وامتنانه ؟

ـ هو الآن حر • لقد ذاق طعم الحرية !

ـ نعم الحرية !

ـ لن نراه بعد اليوم يا رفاق !

ـ ما توقفكم هنا ؟ هيَّا امشوا ! •••

كذلك صاح الحرس من الجنود ، فسار السجناء يذهبون الىالعمل بخطى بطيئة •

٧

الظلامة

في مطلع هذا الفصل يشعر ناشر « ذكريات منزل الأموات» التى كتبها المرحوم ألكسندر بتروفتش جوريانتشيكوف ، ان من واجبه أن ينقل الى القراء ما يلي :

« لقد تحدث كاتب ذكريات منزل الأموات ، فى الفصل الأول من كتابه ، عن جريمة ابن قتل أباه (وهو نبيل الاصل) * ، واتخذ الكاتب من هذه الجريمة مثالاً على ما يلاحظ فى السجناء من فقدان الاحساس حين يجيئون على ذكر الجرائم التى ارتكبوها . وقد ذكر كاتب المذكرات أيضاً أن الابن لم يشأ أن يعترف أمام المحكمة بشيء ، غير أن ما رواه للكاتب أشخاص يعرفون جميع تفاصيل القصة قد جعل ارتكاب الابن جريمة قتل أبيه أمراً لا يتطرق اليه الشك . ولقد روى هؤلاء الأشخاص لكاتب « ذكريات منزل الأموات » أن الابن المجرم كان شاباً فاسقاً مثقلاً بالديون ، وأنه قد قتل أباه استعجالاً للحصول على ميراثه منه ؛ ثم ان المدينة كلها التى كان يخدم فيها قاتل أبيه قد روت القصة على هذا النحو نفسه ، وهكذا حصل كاتب الذكريات على معلومات مستفيضة . وذكر الكاتب أيضاً أن هذا القاتل كان حتى فى السجن مرح الطبع فرح المزاج،

طائش السلوك أهوج التصرف ، رغم أنه ذكي ، وأن كاتب الذكريات لم يلاحظ في يوم من الأيام أنه يتصف بقسوة خاصة ، وأضاف الكاتب يقول : « لذلك لم أصدّق يوماً أن يكون مجرماً » .

« وقد تلقى ناشر هذا الكتاب « ذكريات من منزل الأموات » ، تلقى من سيبيريا نبأً يقول ان هذا الشاب الذى اتهم بقتل أبيه كان بريئاً من هذه الجريمة كل البراءة ، وأنه قضى في سجن الاشغال الشاقة عشرة سنين بغير حق ، وأن براءته قد ثبتت رسمياً ، وأن المجرمين الحقيقيين قد عُرفوا واعترفوا ، وأن الشاب المسكين قد أفرج عنه . ولا يملك ناشر هذا الكتاب أن يشك في صدق هذه الأنباء ...

« لا جدوى من اضافة شيء الى هذا . علام الافاضة في الكلام على ما في هذه الواقعة من عنصر المأساة ؟ ما فائدة التحدث عن هذه الحياة التي حطمتها ودمرتها تهمة كتلك التهمة ؟ ان الواقعة تتحدث من تلقاء جهاراً ...

« وفي تقديرنا أن أمثال هذه الأخطاء يمكن أن تقع ، وأن امكان وقوعها يضيف الى قصتنا سمةً بارزة جديدة ، ويساعد على اكمال المشاهد التي يعرضها كتاب « ذكريات من منزل الأموات » ، ويعين على توضيح هذه المشاهد مزيدا من التوضيح ... » .

ولنعد الآن الى حيث كنا من « الذكريات » التي كتبها المرحوم ألكسندر بتروفتش جوريانتشيكوف :

سبق أن قلت انني تعودت هذه الظروف أخيراً ، غير أن « أخيراً » هذه لم تحن الا بعد عناء كبير وزمن طويل . لقد احتجت الى ما يقرب من السنة حتى أتعود السجن ، وسأظل أنظر الى تلك السنة الأولى على

أنها أفظع سني حياتي • ولذلك انحفرت في ذاكرتي كاملة حتى فى أدق تفاصيلها : بل انني لاعتقد انني اتذكر كل ساعة من ساعاتها واحدة بعد أخرى • سبق ان قلت ايضا ان السجناء الاخرين لم يستطيعوا ان « يتعودوا » هذه الحياة اكثر مني • لقد ظللت أتساءل طوال تلك السنه الاولى هل كانوا هادئين حقا كما كان يبدو عليهم ؟ وكانت هذه الاسئلة تشغل بالى كثيرا وتلح علىّ الحاحاً شديدا • كان جميع السجناء ، كما ذكرت من قبل ، يحسون في السجن أنهم غرباء • كانوا لا يشعرون في السجن انهم في منزلهم ، بل في فندق نزلوه عابرين في مرحله من مراحل الطريق • ان هؤلاء الرجال ، المنفيين الى الابد ، كان يبدو بعضهم مضطربا وبعضهم مصعوقا ، ولكن كل واحد منهم كان يحلم بتحقيق مستحيلٍ ما • فان هذا القلق الدائم الذى لا يكادون يظهرونه ولكن العين البصيرة لا تخطئه ، وان كانوا يعبرون عنه على غير ارادة منهم من الحماسة ونفاد الصبر في آمالهم وأحلامهم وأمانيهم التى لا سبيل الى تحقيقها والتى تشبه أن تكون هذيانا ، ان ذلك كله كان يسبغ على هذا المكان هيئة خارقة ويطبعه بطابع عجيب ، حتى يمكن القول ان كل ما يميزه من أصالة انما يرتد الى هاتين السمتين • ان المرء ليحس حين يدخل الى السجن أن ليس في خارج السجن شيء يشبهه • جميع الناس هنا يستسلمون لأحلام اليقظة ويهيمون في تهاويل الخيال • ذلك شيء يخطف البصر ويثب الى العين وثوباً • وهذا احساس يثير النفس ويهز الأعصاب ، لأن هذه الاحلام التى يسترسل فيها السجناء تسبغ على وجوه أكثرهم مظهراً قاتماً كئيباً ، متجهماً مكفهراً ، مظهراً يشبه أن يكون مرضاً • كان جميعهم على وجه التقريب صامتاً لا يتكلم ، مهتاجاً يوشك أن ينفجر في كل لحظة • وكانوا لا يحبون أن يظهروا ما يقبع في قرارة قلوبهم من آمال مستسرة•لذلك كانوا يحتقرون البساطة والصراحة.

وكلما كانت الأماني أقرب الى الاستحالة ، وكلما كان السجين يعترف لنفسه باستحالتها اعترافاً أوضح ، كان يحرص على دفنها في أعماق نفسه مزيداً من الحرص ، دون أن يستطيع التنازل عنها والزهد فيها . ترى هل كانوا يستحيون من هذه الأماني التي تراود اخيلتهم ؟ ان الروسي واقعي في نظرته الى الأمور ، لا يتهيب أن يسخر من عيوبه وأن يتهكم على نقائصه ! ...

ولعل هذا الاستياء من النفس هو سبب ما يلاحظ في العلاقات اليومية بين السجناء من فقدان التسامح وشدة التعصب ، ولعله سبب ما يلاحظ لديهم من قسوة السلوك وكثرة السخر . فاذا إتفق لواحد منهم ، هو أكثر سذاجة وتململاً ، أن عبَّر بكلام مسموع عمّا يفكر فيه كل واحد صامتاً ، واذا اتفق له أن استرسل في الأحلام ، وفي بناء قصور باسبانيا ، أسرع رفاقه يصدونه بفظاظة وغلظة ، وراحوا يطاردونه بالسخر والتهكم . واغلب ظني أن أعتى هؤلاء الساخرين انما هم أولئك الذين كانوا اكثر من صاحبهم استرسالاً في الأحلام الطائشة والاماني المجنونة . سبق أن ذكرت أن نزلاء سجننا كانوا ينظرون الى البسطاء والى السذج نظرتهم الى أناس حمقى أغبياء ، وكانوا لا يحملون لهم الا الازدراء والاحتقار . لقد كان السجناء يبلغون من شدة المرارة وسرعة التأذي أنهم كانوا يبغضون من كان مشرق المزاج قليل الكبرياء . والى جانب فئة المهذارين البسطاء هؤلاء ، يمكن أن نقسم السجناء الى اخيار وأشرار ، الى مرحين وعابسين . والعابسون هم السواد الاعظم ، فاذا اتفق أن كان بينهم ثرثارون ، كان هؤلاء الثرثارون أناساً نمامين وشاةً حسودين يتدخلون في جميع شئون الآخرين ، رغم أنهم يحاذرون أن يكشفوا عن أنفسهم وأن يعلنوا ما خفي من أفكارهم ، لأن ذلك أمر غير مقبول ، ولأنه يخالف ما جرى به العرف . أما الأخيار ــ وهم قلة ــ فهم

هادئون موادعون مسالمون يخفون آمالهم صامتين ، ويصدّقون أحلامهم وأوهامهم أكثر من العابسين المتجهمين. ويخيَّل الى أنه قد كان في سجننا مع ذلك فئة اخرى من المنفيين هى فئةالياسين من أمثال شيخ ستارودوب، ولكن هؤلاء قلة قليلة جداً .

كان هذا الشيخ هادئا في الظاهر ، ولكن كان من حقى استناداً الى بعض العلائم ان افترض ان حالته النفسية كانت رهيبة لا تطاق . ان له ملجأً يلوذ به ، وسلوى يفزع اليها ، ألا وهى الصلاة وقناعته بأنه شهيد . ولعل السجين الذى كان دائم الاستغراق فى قراءة التوراة ، والذى سبق أن تكلمت عنه ، أعنى السجين الذى أصبح مجنونا وهجم على الميجر بآجرة في يده ، لعله كان هو أيضا واحدا من اولئك الذين هجرهم كل امل ؛ فلما كان يستحيل على الانسان تماما أن يعيش بلا امال ، فقد سعى الى الموت سعياً باستشهاد مقصود متعمد . لقد صرح هذا الرجل بانه هجم على الميجر لا لاذى لحقه منه ولا لحقد يضمره له وانما هجم عليه في سبيل ان يتالم لا أكثر . من ذا الذى يعرف ما هى العملية النفسية التى تمت فى أعماق روحه حينذاك ؟ ما من انسان يحيا بدون هدف يسعى اليه ، وبدون جهد يبذله في سبيل الوصول الى ذلك الهدف؟ فمتى غاب الهدف وزال الأمل ، فان القلق كثيراً ما يجعل من الانسان عندئذ مخلوقاً شاذاً غريباً ... ولقد كانت غايتنا نحن جميعاً هى أن ننال الحرية ، هى أن نخرج من السجن .

اننى أحاول أن أصنف سجناءنا فى زمر شتى ، فى فئات مختلفة : هل هذا ممكن ؟ ان الواقع يبلغ من كثرة التنوع أنه يُفلت من جميع استنتاجات التفكير المجرد مهما تكن بارعه . ان الواقع لايحتمل التصنيفات الواضحة الدقيقة . ان الواقع يميل دائماً الى التبعثر فى تنوع لا نهاية له ، و لايمكن حصره . لقد كان لكل منا حياته الخاصة ، الداخلية ،

الشخصية ، فى خارج كل حياة رسمية ، في خارج كل حياة توجيهـا الأنظمة وتفرضها القوانين .

ولكنني ، كما سبق أن قلت ، لم أستطع النفاذ الى أعماق هذه الحياة الداخلية فى بداية عهدى بالسجن ، لان جميع المظاهر الخارجيه كانت تصدمني وتجرحني وتملؤني حزنا لا سبيل الى مغالبتـه . كان يتفق لى فى بعض الأحيان ان ابغض هؤلاء الشهداء الذين كانوا يتألمون مثلما كنت آتألم . وكنت أحسدهم لانهم يحيون بين اقرانهم ويقهم بعضهم عن بعض . الحق أن هذه الصلة التى تجمع السجناء فتجعلهم رفاقا ، أعنى صلة السوط والعصا ، وهذه الحياة المشتركة الاجباريه ، كانت تثير فى نفوسهم من الكره والبغض مثل الذى كانت تثيره فى نفسى؛ فكان كل واحد منهم يحاول أن يعيش منتحيا . ولكن ذلك الحسد الذى كان يستبد بى فى لحظات الاهتياج والحنق قد كانت له أسباب مشروعه وبواعث مقبولة . ان الذين يدعون أن السيد الذى نال قسطاً من ثقافة لا يتألم فى سجن الاشغال الشاقة أكثر مما يتألم فلاح بسيط ، هم على خطأ كامل . لقد قرأت وسمعت دعوى كهذه الدعوى . والفكرة عادله وكريمة من حيث المبدأ : فالسجناء جميعاً بشر . ولكنها مجردة مسرفة فى التجريد : هنالك تعقيدات عملية يجب أن لا تغيب عن بالنا ، وهى تعقيدات عملية لا نستطيع أن نفهمها ما لم يتح لنا أن نعانيها بأنفسنا فى الحياة الواقعية . لست أريد أن ادعى بذلك ان السيد المثقف ارهف شعوراً وألطف احساساً، لأنه أكثر تطوراً وأعلى تحضراً. ولكن المساواة بين النفوس أمر مستحيل . وحتى الثقافة نفسها لا يمكن اتخاذها معياراً لتنويع العقوبات . اننى أول من يشهد بأننى رأيت بين هؤلاء الأشقياء المعذبين الذين يعيشون فى أحط بيئة بعيدة عن الثقافة ، آثار نمو روحى مرهف . لقد كان فى سجننا أناس عرفتهم عدة سنين ، وكنت أظنهم

حيوانات كاسرة مفترسة وكنت لذلك أحتقرهم احتقاراً شديداً ، ثم اذا بنفوسهم تتكشف فجأة ، في لحظة ليست في الحسبان ، وعلى غير ارادة منهم ، عن غنى عاطفي ومودة انسانية وفهم قوى لالام الاخرين وامالهم، واذا هم يبلغون من ذلك كله أنك تراهم رؤية جديدة كأن غشاوة سقطت عن عينيك . ويبلغ بك الذهول في بعض الاحيان انك تتردد عن تصديق ما رأيت وما سمعت . وقد يحدث عكس هذا أيضاً : فرب انسان مثقف يبرهن في بعضَ الأحيان على وحشية رهيبة واستهتار فظيـع يثيران في نفسك الاشمئزاز ويبعثان في جسمك الغثيان ، فاذا أنت لا تستطيع مهما أحسنت الظن أن تجد له أي عذر أو أن تنتحل له أي مبرر .

لن أقول شيئاً عن تغير العادات وطراز الحياة ونوع الطعام وما الى ذلك ، وهو تغير يشق على رجل من الطبقة الراقية أكثر مما يشق على فلاح سبق له ان جاع حين كان حرا طليقا فاذا هو في السجن يا كل حتى يشبع . لا ، لن أناقش هذا الامر ! لنسلم بان الانسان الذي يملك ارادة قوية لا يعبأ بهذه الترهات ولا يأبه لهذه السفاسف التي ليست شـيئا مذكورا اذا قيست بأنواع الحرمان الاخرى . ولكن لابد لنا من الاعتراف بأن تغيير العادات المادية ليس أمراً سهلاً لا قيمة له . على أن في حياة السجين فظاعات يهون بالنسبة اليها كل شيء ، ويتضاءل بالقياس اليها كل أمر ، حتى الهوان الذي يحيط به ، والغربة التي يشعر بها والطعام القذر الذي يأكله ، والأغلال القاسية التي تخنقه وتسحقه . ان أكثر الرجال رقة وتخنثا وأكثرهم بياض يدين ونعومة جلد لا تطرف عيناه حين يعود الى السجن بعد أن ظل يعمل طول النهار ، فيأكل خبزه الأسود ويزدرد طعامه الذي تسبح فيه الهوام . تلك أمور يتعودها المرء كلها ويألفها كلها، كما تذكّر بذلك أغنية ساخرة يغنيها السجناء عن « سيد » مدلل آل أمره الى السجن :

طعامي حساء الكرنب مطبوخاً بالماء
ألتهمه وأتلمظ

وانما الأمر المهم أن كل قادم جديد الى السجن يصبح بعد ساعتين اثنين قريناً لسائر السجناء : فهو في منزله ، بين أهله وذويه ، يتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها رفاقه . انه يفهمهم وانهم يفهمونه ، وهم جميعا يعدونه واحدا منهم ، وذلك ما لا ينعم بمثله نبيل من النبلاء حين يودع السجن . ان السجين الذي ينتمي الى طبقه النبلاء ، مهما يكن طيب القلب ذكياً ، لا بد أن يكرهه وأن يحتقره جميع السجناء سنين طويلة ؛ انهم لن يفهموه ، وانهم لن يصدقوه خاصة . لن يكون صديقهم ولا رفيقهم ، واذا استطاع أن يحملهم على أن لا يهينوه وأن لا يسيئوا اليه ، فسيظل مع ذلك غريبا ، وسيظل يعترف لنفسه متالماً بأنه وحيد وبانه بعيد عنهم جميعاً . وهذا الفراغ الذي يخلقه السجناء حوله ، انما يخلقونه بدون سوء نية ، بل يخلقونه على غير شعور منهم بما يفعلون . كل ما في الأمر أن هذا السجين الذي ينتمي الى طبقة النبلاء ليس منهم ، ليس ينتمي اليهم ، ليس عضوا في جماعتهم ... ان أفظع شيء هو أن لا يعيش المرء في بيئته . فالفلاح الذي ينقل من تاجانروج* الى ميناء بتروبافلوفسك يجد هنالك فلاحين روسيين فماهي الا ساعتان حتى يرتبط بهم ويرتبطوا به ، فاذا هم يعيشون معاً في سلام وهدوء في عربة واحدة أو خص واحد . ولا كذلك النبلاء . فان هوة سحيقة لا قرار لها تفصل بينهم وبين عامة الشعب . وهذا لا يلاحظ واضحاً الا حين يفقد نبيل من النبلاء حقوقه الأولى ويصبح هو نفسه فردا من أفراد الشعب . وهبك ظللت طول حياتك على علاقات يومية بالفلاح ، وهبك ظللت على صلة دائمة به كل يوم بخدمتك في الوظائف الادارية مثلاً ، وهبك كنت لهذا الشعب انسانا محسنا وأباً رحيما ، فانك لن تفهم فهماً عميقاً في يوم من

الايام • وكل ما ستظن أنك عرفته لن يكون الا وهما وضـلالاً • ان الذين سيقراون هذا الكلام سيقولون عني حتما انني أبالغ وأغالى ، ولكنني على يقين من ان ملاحظتي هذه صحيحة صادقة • وهذا اليقين ليس يقينا نظريا رسخ في نفسي من قراءة هذا الرأى في موضع ما ، بل هو يقـين ناشيء عن الحياة الواقعية التي اتاحت لى كل الوقت اللازم لامتحان ارائي ومراقبة قناعاتي • ولعل جميع الناس سيعرفون مدى صدق ما أقول •••

لقد جاءت الاحداث تصدّق ملاحظاتي منذ الايام الاولى ، وتؤثر في جسمي تاثيرا مرضـــيا • كنت في الصيف الاول اطوف في ارجاء السجن وحيدا منعزلاً • وقد سبق أن قلت انني كنت عندئذ في حالة نفسية لا تتيح لى ان أحكم على السجناء ولا أن أتبين بينهم أولئك الذين كان يمكن ان يحبوني دون أن يقفوا مني مع ذلك موقف الند من الند • لقد كان لى رفاق هم اناس كانوا في الماضي من طبقه الســـادة ، ولكن صحبتهم لم تلق هوىً في نفسي • حتى لقد تمنيت ان لا ارى أحداً • ولكن الى اين المفر ؟ اليكم حادثا من الحوادث التي افهمتني منذ اللحظة الاولى انني في السجن وحيـــد غريب . في ذات يوم من شـــهر اب (أغسطس) ، يومٍ شديد الحر ، في نحو الساعه الواحدة بعد الظهر ، وتلك لحظة يـقيل فيها جميع السجناء قبل استئناف العمل ، قام السجناء قومة رجل واحد واحتشدوا في فناء السجن • كنت حتى تلك اللحظة لا أعرف شيئاً • ومن شدة استغراقي في أفكاري ، لم أكد ألاحظ ماكان يجرى حولى • وكان السجناء مع ذلك يضطربون ويتحركون منذ ثلاثة أيام • ولعل هذا الاضطراب كان قد بدأ قبل ذلك بزمن طويل ، كمـا افترضت ذلك من بعد ، حين تذكرت شذرات من أحاديث سمعتها، وحين تذكرت خاصة ما كان يظهر على السجناء من مزيد من اعتكار المـزاج واهتياج النفس وشدة الحنق واستمرار السخط منذ زمن • لقـد كنت

أعزو ذلك الى قسوة الأشغال الشاقة في فصل الصيف ، والى طول النهار المرهق في هذا الفصل ، والى ما يسترسل فيه السجناء من احلام تحملهم الى الغابات والحـــرية على غير ارادة منهم ، والى قصر الليـــالى التى لا يصيبون فيها حظاً كافياً من النوم • ولعل ذلك كله قد انصهر بعضه فى بعض فتألفت منه كتلة كبيرة من السخط كانت تحاول أن تنفجر ، متخذة من الطعام عذراً وتعلة • ان السجناء يشكون من سوء الطعام جهارا منذ عدة أيام ، فيأخذون يتذمرون حين يكونون فى الثكنات ، ولا سيما حين يجتمعون فى المطبخ للغداء أو العشاء • وقد حاولوا ان يستبدلوا باحد الطباخين طباخاً آخر ، ولكنهم لم يلبثوا أن طردوا الطباخ الثـانى بعـد يومين وأعادوا الطباخ الاول• الخلاصة أن جميع السجناء كانوا فى حاله قلق شديد وتململ كبير •

كان أحدهم يدمدم قائلاً :

ـ نهلك من كثرة العمل ، ثم لا يطعموننا الا أسوأ الطعام !•••

فيجيبه سجين آخر :

ـ اذا لم يعجبك هذا الطعام فأمر لنفسك بطعام فاخر !

فيصيح ثالث قائلاً :

ـ حساء مطبوخ بأمعاء البقر ، ذلك طعام طيب جـــداً ، أحب أنا مذاقه حباً عظيماً !

ـ واذا لم يطعموك الا أمعاء ، فهل تظل تجـد هـذا الطعام طيب المذاق !

قال رابع :

ـ حقاً ! يجب أن يطعمونا لحماً ••• اننا نضنى أنفسنا بالعمل فى

مصنع الآجر ••• والمرء يشتد جوعه بعد أن ينجز عمله ••• ولا يمكن أن تقيم الأمعاء أوده وأن تسد رمقه •

ـ واذا لم يطعمونا أمعاء أطعمونا كروشاً •

ـ حقاً ••• انه لطعام رديء •

ـ لا شك أنه يملأ جيوبه !

ـ ليس هذا شأنك !

ـ اذا لم يكن شأني أنا ، فشأن من هو ؟ ان بطني ملكي • واذا أجمعنا على الشكوى ، فسترون •••

ـ الشكوى ؟

ـ نعم •••

ـ يظهر أنك لم تصب حظاً كافياً من الضرب بسبب مثل هذه الشكاوى ! يا لك من غبي أحمق ! •••

قال سجين آخر متأففاً معتكر المزاج :

ـ صحيح ! في العجلة الندامة ••• قل لنا يا صاح : ممَّ ستشكو ؟ ما هي ظلامتك ؟ يجب أن نعرف هذا قبل كل شيء •

ـ سأقول : اذا ذهب الجميع يعرضون ظلامتهم ، فسأذهب أنا أيضاً ، لأنني أكاد أفطس جوعاً • ان الذين يأكلون على حدة ، من حقهم أن يبقوا قاعدين ، وأن لا يحركوا ساكناً ••• أما الذين يأكلون طعام السجن •••

ـ يا للحسود ! ان عينيه تسطعان متى وقع بصره على ما لا يملك !

ـ طيب يا رفاق ! لماذا لا نعزم أمرنا ؟ أما كفانا عذاباً ؟ ان هؤلاء اللصوص يسلخون جلدنا سلخاً ! هلموا نقدم شكوانا ! هيا نحتج !

ـ فيم الاحتجاج ؟ أتظن أن عليهم أن يمضغوا اللقم نيابةً عنك وأن يدسوها في فمك بعد ذلك ؟ هه ؟ يا للفتى النشيط ، انه لا يريد أن يأكل الا ما يُمضغ له ! نحن في سجن الأشغال الشاقة يا رجل ... ذلك سبب كل شيء .

ـ الشعب يموت جوعاً والرؤساء يملئون بطونهم ، بهذا جرت العادة !

ـ صحيح ، لقد سمن صاحبنا « ذو العيون الثماني » ، وقد اشترى لنفسه مؤخرا حصانين أشهبين .

قال أحد السجناء بلهجة ساخرة :

ـ وهو لا يحب أن يشرب الخمر ! ...

ـ لقد غُلب في القمار منذ زمن حين لعب بالورق مع البيطرى ، فظل يلعب ساعتين دون أن يكون في جيبه قرش واحد .

ـ هذا هو السبب في أننا نُطعم حساءً بالكرنب والأمعاء !

ـ أنتم جميعاً أغبياء ! ما شأننا نحن وهذا ؟

ـ اذا قدمنا الشكوى مجتمعين فكيف يستطيع أن يسوغ سلوكه ؟ يجب أن نعزم أمرنا .

ـ كيف يستطيع أن يسوّغ سلوكه ؟ الأمر سهل : يهوى على وجهك بصفعة قوية ... ذلك كل ما سيفعله !

ـ وسيحيلك الى المحاكمة أيضاً ...

كان السجناء مضطربين اضطراباً شديداً • والحق أن طعامنا كان رديئاً جدا • ومما زاد حدة هذا الاستياء العام والحنق الشامل أن السجناء كانوا في حالة من قلق متأجج وألم مستمر وانتظار متصل • ان السجين مشاجر متمرد بطبعه ، ولكن من النادر جداً أن يثور السجناء جماعة ، لانهم لا يتفقون يوما في راى ولا يجمعون على أمر • وكل واحد منا يشعر بذلك شعوراً قوياً ، لذلك فان السجناء يتبادلون الشتائم أكثر مما يعملون فعلاً • ومع ذلك لم ينقض الاضطراب في هذه المرة دون نتائج • تشكلت في الثكنات جماعات تناقش وتلوم وتقرع وتشتم وتعدد عيوب ادارة السجن حانقة كارهة ساخطة ، وتحاول أن تسبر خفاياها وأن تفضح أسرارها • والمعروف أن كل قضية كهذه القضية تخلق زعماء ومحرضين • والزعماء في مثل هذه الظروف رجال يمتازون بصفات خاصة بارزة ، لا في السجون فحسب ، بل في جميع فئات العاملين ، وفي فصائل الجيش ، وغير ذلك • ان نموذج الزعيم واحد في كل زمان ومكان : هم أناس متأججو الحماسة ، ظمأى الى العدل ، شديدو السذاجة ، مقتنعون اقتناعاً صادقاً شريفاً بالقدرة المطلقة على تحقيق رغباتهم • ليسوا أغبى من الآخرين ، بل ان بينهم أناساً ينعمون بذكاء متفوق ، ولكنهم أعظم حماسة وأشد تأججاً من أن يكونوا دهاة مكرة ، ومن أن يكونوا حذرين مترددين • واذا صادفنا أناساً يعرفون كيف يوجهون الجماهير وكيف يقوودونها ، وكيف يحققون ما يريدون ، فيجب أن نعلم أن هؤلاء ينتمون بهذا وحده الى نموذج آخر من الزعماء الشعبيين يندر وجودهم كثيراً في بلادنا • والذين أتحدث عنهم الآن ، وهم زعماء العصيان والمحرضون على التمرد ، هم أناس يخسرون قضيتهم في جميع الأحيان تقريباً ، ناهيك عن أنهم يملئون السجون • ان العيب الذي يضيعهم انما هو الاندفاع ، ولكن هذا الاندفاع هو الذي يمكنهم

من التأثير في الجماهير : فالناس تتبعهم ، لأن النار التي تتأجج في نفوسهم والاستياء الصادق الشريف الذي يشب في قلوبهم يفعل فعله في جميع البشر ، فاذا أكثر الملأ ترددا يتحمس ويندفع • ان ثقتهم العمياء في النجاح والنصر تغرى حتى الشكاكين الرياببين ، رغم أن هذه الثقة التي تفرض نفسها قد تكون في كثير من الأحيان قائمه على أسس تبلغ من الضعف والوهن والسذاجة الطفولية أن المرء يدهشه ان يرى الناس قد صدّقوها • ان سر تأثيرهم في الناس هو أنهم يسيرون اول السائرون لا يهابون ولا يخافون شيئا • انهم يندفعون الىالأمام خافضين رءوسهم الى تحت ، مقدمين قرونهم الى أمام ، كالثيران ، دون ان يعرفوا في كثير من الأحيان ما يشرعون فيه من عمل ، ودون أن يساورهم شيء من تلك الروح اليسوعية العملية الماكرة التي بفضلها يستطيع انسان دنيء سافل في أحيان كثيرة أن يربح قضية وأن يبلغ هدفه وأن يخرج ناصع البياض من برميل حبر • ان عليهم أن يحطموا قرونهم • انهؤلاء الأفراد هم في الحياة العادية أناس شديدو الاندفاع سريعو الاهتياج قليلو التسامح كثيرو الاحتقار ، وهم في كثير من الأحيان محدودون ، وذلك عامل من عوامل قوتهم على كل حال • والمؤلم في الأمر أنهم لا يهجمون أبدا على الشيء الاساسي ، على الشيء الهام ، وانما يتلبثون دائما عند تفاصيل ، بدلا من المضي قدما الى الهدف ، وذلك ما يضيعهم • ولكن الجمهور يستمع لهم ويفهم عنهم ، وهم بذلك رهيبون •

يجب أن أقول الآن بضع كلمات عمّا قصدته بكلمة « الظلامة » أو الشكوى •

ان بعض السجناء كانوا قد نفوا الى سيبريا وأودعوا السجن لا لشيء الا لأنهم قدموا شكوى أو رفعوا ظلامه• ان هؤلاء هم أكثر السجناء حركة واضطراباً • أذكر بينهم رجلاً اسمه مارتينوف كان قد خدم في سلاح

الفرسان ، وهو على شــدة اندفاعه وقلقه وغضبه انسان شريف صادق • وأذكر منهم أيضا فاسيلي آنتونوف، وهو رجل شديد الاهتياج وقح النظرة ساخر الابتسامة ولكنه شريف صادق أيضاً ، كما أنه ذكي يقظ • وحسبي ذكر هذين الاسمين ، لأن عدد هؤلاء الرجال كبير • وكان بتروف يذهب ويجيء من جماعة الى أخرى ، يتكلم قليــلاً ولكنه مهتاج من غير شــك ، لأنه وثب أول الواثبين الى خارج الثكنة حين تجمهر الآخرون في الفناء • سرعان ما وصل صف الضابط الذي كان برتبة وكيل ، مروّعاً مذعوراً••• فما أن اصطف السجناء حتى رجوه في لطف وأدب أن يبلغ الميجر أنهم يرغبون في أن يتحدثوا اليه وأن يسألوه عن بعض الأمور • ووراء صف الضابط وصــل جميع الجنــود المشوّهين فاصطفوا في الجهة الأخرى أمام السجناء • ان الرسالة التي عهد السجناء الى صف الضابط بنقلها الى الميجر أمر خارق لا عهد له بمثله من قبل ، فامتلأ الرجل جزعا وهلعاً ، ولكنه لا يجرؤ أن لا يقدم تقريره الى الميجــر ، فلو تمرد الســـجناء وقاموا بعصيان ، لكان يمكن أن تحدث أمور لا يعلمها الا الله ••• لقد كان جميع رؤسائنا جبناء غاية الجبن في علاقتهم بالسجناء • وهبْ لم يحدث شيء أسوأ مما حدث ، هب السجناء عدلوا عن رأيهم وتفرقوا فسوف يكون على صف الضابط أن يبلغ الادارة جميع ما وقع • وها هو ذا يسرع الى الميجر ، ممتقع اللون مرتعد الجسم من الفزع ، حتى دون أن يحاول رد السجناء الى الصواب واقناعهم بالتزام جانب الحكمة والرشاد • لقد أدرك حق الادراك أن السجناء لن يتسلوا بمناقشته هو •

وكنت أجهل ما يجرى كل الجهل ، فاصطففت مع المصطفين (انني لم أعرف تفاصيل هذه القصة الا فيما بعد) • كنت أظن أن الهدف هو تفقدنا وعدُّنا ، فلما لم أر حرساً يراقبون التعـــداد ، ألمت بي دهشـــة وأخذت أنظر فيما حولي • كانت الوجوه تعبر عن انفعال شديد وحنق

مستعر • وكان بينها وجـوه شاحبة صـــفراء • ان السجناء مهمومون صامتون ، يفكرون فيما يجب عليهم أن يقولوه للميجر • ولاحظت أن كثيراً منهم كانوا مدهـــوشين من رؤيتى الى جانبهم ، ولـكنهم سرعان ما تحولوا عنى • لقد استغربوا أن أصطف معهم ، وأن أريد أنا أيضـاً أن أشارك فى شكواهم، فلم يصدقوا ذلك • وما هى الا لحظة حتى التفتوا الىّ من جديد وقد بدت فى وجوههم علامات السؤال •

قال لى فاسيلى آنتونوف بلهجة فظة وصوت عال ، وكان الى جانبى بعيداً عن سائرهم ، وكن يخاطبنى قبـــل ذلك دائماً بصيغة الجمع فى كثير من اللطف والتـــأدب ، قال يسألنى فى هذه المرة بصـــيغة المفرد (أنت) :

ـ ما مجيئك أنت الى هنا ؟

فنظرت اليه مرتبكاً أشد الارتباك متحيراً أشد التحيُّر ، محاولاً أن أفهم ماذا يعنى • كنت قد حزرت منذ تلك اللحظة أن شيئاً خارقاً ما كان يجرى فى سجننا •

قال لى سجين عسكرى شاب لم أكن أعرفه حتى ذلك الحين وهو فتى طيب مسالم موادع :

ـ نعم ! ما بقاؤك هنا ؟ اذهب الى الثكنة ، فالأمر لا يعنيك !

أجبته قائلاً :

ـ رأيتكم تصطفون فاصطففت ، أليس تفتيشنا هو الغرض ؟

صاح أحد المنفيين يقول :

ـ جاء يحشر نفسه !

وقال آخر :

ـ يا للأنف الحديدى !

وأضاف ثالث يقول باحتقار لا يوصف :

ـ قتلة ذباب !

فما كان من هذا اللقب الذى لقبنى به الرجل الا أن جعل الجميع ينفجرون ضاحكين •

وأضاف آخر :

ـ ما أحلى منظرهم فى المطبخ ، هؤلاء الناس !

ـ هم فى كل مكان مترفون ! ألسنا فى السجن ؟ ومع ذلك يشترون خبزا أبيض وخنازير رضّعا كما يفعل سادة عظام ! ألست تأكل على حدة ؟ فما مجيئك هنا ؟

وقال لى كوليكوف بغير تحرج ، وهو يمسك يدى ويخرجنى من الصف ، ويخاطبنى بصيغة الجمع :

ـ ليس مكانكم هنا •

لقد كان شاحباً كل الشحوب ، وكانت عيناه السوداوان تسطعان ، وكان يعض شفته السفلى حتى ليكاد يدميها • انه ليس من أولئك الذين كانوا ينتظرون وصول الميجر هادئى النفس ثابتى الجنان •

كنت أحب كثيراً أن أنظر الى كوليكوف وهو على مثل هذه الحال أى حين يضطر أن يكشف عن نفسه كاملاً بحسناته وسيئاته ، بمزاياه وعيوبه • لئن كان كوليكوف يصطنع أوضاعا ومظاهر ، فلقد كان أيضاً يفعل • وأحسب أنه لو اقتيد يوماً الى الموت لمشى اليه رشيقاً أنيقاً ،

كسيد صغير . لقد ضاعف تأدبه معي وملاطفته لي بينما كان الآخـرون جميعاً يخاطبونني بصيغة المفرد ، ويكيلون لي الاهانات ، ولكنه كلمني بلهجة قاطعة جازمة لا تسمح بمقاطعة أو رد أو جواب . تابع يقول :

ـ نحن هنا لشأن خاص بنا يا ألكسندر بتروفتش ، فليس عليك أن تتدخل في هذا الشأن . اذهب حيث شئت ... انتظر حيث أردت.. اسمع : ان جماعتك في المطبخ فامض اليهم ...

وقال آخر :

ـ هم هنالك على خير حال !

نظرت الى داخل المطبخ من خـلال النافذة ، فلمحت البولنديين فعلاً ، كما لمحت كثيراً من السجناء أيضاً . ومضيت أدخل المطبخ مرتبكاً أشد الارتباك ، ترافقني قهقهات وشتائم ، وتشيعني صيحة خاصة كانت تقوم في سجننا مقام صفير الاستهزاء والسخر :

ـ لم تعجبه الحل ! .. تيو ـ تيو ـ تيو ! .. هاتوه ! أمسكوه !..

لم تلحق بي اهانة كهذه الاهانة خطورةً منذ دخولي السـجن . كانت تلك اللحظة أليمة جداً ، ولكن كان في وسعي أن أتوقعها ، فلقد كانت النفوس مهتاجة مفرطة في الاهتياج . وفيما أنا ألج حجرة المدخل التفيت بالفتى ت ... سكي ، وهو شاب من طبقة النبلاء ليس على حظ كبير من الثقافة ، ولكنه صلب الارادة كريم النفس كان السجناء يستثنونه ولا يضمرون له ما كانوا يضـمرونه لسائر السـجناء النبلاء من بغض وكره حتى ليكادون يحبونه . ان كل حركة من حركاته تدل على أنه انسان شهم شجاع قوي .

صاح يقول لي :

ـ ماذا تفعل يا جوريانشيكوف ؟ تعال الى هنا ! ...

سألته :

ـ ولكن ما الذى يجرى ؟

ـ يريدون تقديم شكوى ، ألا تعلم ذلك ؟ وان يظفروا بطائل طبعاً ، فمن ذا الذى يصدق سجناء؟ وسوف تبحث الادارة عن المحرضين ، فاذا كنا معهم ، ألقت التبعة علينا وعدتنا مسئولين عما وقع. تذكر لماذا نفينا الى هذا المكان ! ان الادارة اذا أرادت معاقبتهم لم تزد على أن تأمر بجلدهم ، أما نحن فسوف تحيلنا الى المحاكمة . ان الميجر يكرهنا جميعاً ، ولسوف يسعده جداً أن يضيعنا . سوف يتخذنا عذرا لتسويغ أعماله وتبرئة نفسه !

فلما دخلنا المطبخ ، أضاف م ... كى يقول :

ـ أما السجناء فسوف يبيعوننا موثقى الأيدى والأرجل ! ...

فقال ت ... سكى * :

ـ لن تأخذهم بنا شفقة .

وكان فى المطبخ ، عدا السجناء الذين ينتمون الى طبقة النبلاء ، نحو من ثلاثين سجيناً آخر كانوا لا يريدون الاشتراك فى تقديم الشكاوى ، فبعضهم عن جبن ، وبعضهم عن اقتناع مطلق بأن هذه الشكوى لا جدوى منها . وكان آكيم آكيمتش ـ وهو عدو طبيعى لجميع الشكاوى ولكل ما يمكن أن يخل بالنظام ويعرقل الخدمة ـ ينتظر نهاية هذه القضية هادئاً دون أن يعبأ بها أو يكترث لها أو يقلق منها . لقد كان مقتنعاً اقتناعاً كاملاً بأن النظام والسلطة ستتم لهما الغلبة فوراً . أما أشعيا فومتش ، فكان خافضاً أنفه مضطرباً أشد الاضطراب ، يصغى الى ما كنا نقوله ، باستطلاع مذعور. انه قلق أشد القلق. وقد انضم الى البولنديين

النبلاء سجناء من العامة ينتمون الى الجنسية البولندية ، وانضم اليهم كذلك روسيون من ذوى الطبائع الخائفة الوجلة وهم أناس مبهوتون صامتون دائماً ، لم يجسروا أن يعتصبوا مع الآخرين فهم ينتظرون خاتمة هذه القضية حزانى مبتئسين • وكان هنالك أيضاً عدد من السجناء المتجهمين المستائين لبثوا في المطبخ لا عن خوف بل لاعتقادهم بأن هذا التمرد سخيف لا طائل تحته ولا أمل فى نجاحه • وأحسب أننى لاحظت أنهم كانوا فى تلك اللحظة محرجين متضايقين ، وأن نظراتهم كانت مضطربة قلقة • كانوا يحسون احساساً قوياً بأنهم على حق ، وبأن نتيجة الشكوى ستكون هي النتيجة التى تنبأوا بها، ولكنهم كانوا يعدون أنفسهم متنكرين لمبادئهم حتى لكأنهم خانوا جماعتهم وباعوا رفاقهم للميجر •

وكان في المطبخ أيضاً ذلك الفلاح السيبيرى الداهية يولكين الذى أودع سجن الأشغال الشاقة لأنه اشترك فى صنع نقود مزيفة ، والذى انتزع من كوليكوف ما كان ينعم به كوليكوف من زبائن فى المدينة يلجئون اليه لتطبيب بهائمهم • وكان فى المطبخ أيضاً ذلك الشيخ الوافد من ستارودوب • ولم يترك أحد من الطباخين مكانه ، ربما لأنهم كانوا يعدون أنفسهم جزءاً من الادارة ، فلا يجمل بهم أن يشاركوا فى تمرد عليها •

قلت أخاطب مـ ••• كى بلهجة مترددة :

ــ ولكن جميع السجناء قد خرجوا ما عدا هؤلاء •

فجمجم ب يقول :

ــ ما شأننا وهذا ؟

ــ لو شاركناهم لتعرضنا لمخاطر أشد كثيراً من المخاطر التى يتعرضون هم لها • اننى أكره هؤلاء اللصوص • وهل تظن أنهم

سيعرفون كيف يشتكون ؟ ألا انني لا أرى ما هي اللذة التي يجدونها في توريط أنفسهم بأنفسهم .

قال شيخ عنيد شرس :

ـ لن يظفروا بطائل .

وأسرع ألمازوف ، الذي كان معنا أيضاً ، يقول كلاماً كهذا الكلام .

ـ سيُجلد منهم خمسون ... تلك هي الفائدة التي سيجنونها .

صاح واحد يقول :

ـ وصل الميجر .

فأسرع الجميع الى النوافذ .

كان الميجر قد وصل واضعاً نظارتيه على عينيه ، منقلب السحنة ، حانق النفس ، محمر الوجه ؛ واتجه نحو صف السجناء رأساً بقدم ثابتة دون أن يقول كلمة واحدة . انه في ظرف كهذا الظرف يكون جسوراً جريئاً في الواقع ، لا يفقد حضور بديهته . يجب أن نذكر أن المجير ثمل في جميع الأحيان تقريباً . وفي تلك اللحظة كان لقبعته المتسخة ذات الشريط البرتقالي اللون ، وكان لشاراته الفضية الصدئة منظر يوحي بشيء من الشؤم . ووراءه وصل الموظف دياتلوف ، وهو شخصية هامة جداً في السجن ، لأنه هو الذي كان يحكم السجن ويدير شئونه في حقيقة الأمر . لقد كان لهذا الفتى الكفء القدير الداهية سلطان كبير على الميجر . ولم يكن شريراً ، فكان السجناء راضين عنه على وجه العموم . وكان يتبعه الوكيل وثلاثة جنود أو أربعة ، لا أكثر من ذلك . وكان الوكيل قد نال نصيبا كبيرا من التقريع والتأنيب ولا شك

أنه يتوقع أن ينال المزيد أضعافاً مضاعفة • كان السجناء قد حسروا رءوسهم منذ أرسلوا يستدعون الميجر ، فهاهم أولاء الآن يتقاربون ويتراصون ، ويثبت كل منهم جسمه على الساق الاخرى • انهم ساكنون لا يتحركون ، ينتظرون أول كلمة سينطق بها رئيسهم الأعلى أو قل أول صرخة ستصدر عنه •

ولم يطل انتظارهم ، فما ان قال الميجر كلمته الثانية حتى أخذ يصرخ مسعوراً بأعلى صوته • لقد كان خارجاً عن طوره • ورأيناه من نوافذنا يركض من أول الصف الى آخره ويهجم على السجناء يلقى عليهم الأسئلة تلو الأسئلة • واذ كنا بعيدين ، فاننا لم نسمع أسئلته ولا سمعنا أجوبة السجناء ، وانما كنا نسمعه يصيح صياحاً شديداً يصاحبه نوع من الأنين •

ـ عصاة ! متمردون ! ••• ستجلدون ! هناك محرضون !

ثم صرخ يقول وهو يهجم على سجين من السجناء :

ـ أنت واحد من المحرِّضين ! أنت أحد المحرِّضين !

لم نسمع جواب السجين ، ولكننا رأينا هذا السجين يخرج من الصف بعد دقيقة ويتجه نحو مقر الحرس ••• وتبعه سجين ثان ، فسجين ثالث !

ـ ستحاكمون جميعاً ! لسوف ••• من هنالك فى المطبخ ؟

كذلك قطع كلامه حين لمحنا فى النوافذ المفتوحة ••

وتابع يصرخ :

ـ تعالوا جميعاً هنا ! جيئونى بهم جميعا !

اتجه ديالتوف نحو المطبخ •فلما قلنا له اننا لا نشكو من شيء ولا نعرض أية ظلامة عاد يبلغ الميجر ذلك على الفور •

قال الميجر وهو يخفض صوته طبقتين ، فرحاً كل الفرح :

ـ آه ••• أولئك لا يشتكون • لا بأس ••• جيئوني بهم جميعاً !

خرجنا من المطبخ • كنت أشعر بنوع من الخزى والعار • ثم ان الجميع يسيرون خافضين رؤوسهم •

ـ آ ••• بروكوفيف ! يولكين أيضاً ! وأنت كذلك يا آلمازوف ! هنا ! تعالوا هنا دفعة واحدة !

كذلك قال لنا الميجر بصوت لاهث لكنه ملطف ، حتى لقد كان في نظرته شيء من تودد •

وتابع الميجر يقول :

ـ وأنت بينهم أيضاً يا م ••• ـكي ••• سجلوا أسماءهم ! يا ديالتوف ، سجل جميع الأسماء ، أسماء الراضين على حدة ، وأسماء الساخطين على حدة ••• سجل جميع الأسماء بغير استثناء • ستقدم الى كشفا بالأسماء •• ستمثلون أمام المجلس ••• سوف أفعل كل مايحسن أن أفعله أيها الأوباش !

أحدث الأمر باعداد الكشف أثره • فهذا واحد من الساخطين يصيح قائلابصوت أجش متردد :

ـ نحن راضون •

ـ آ ••• راضون ••• من هو الراضى ؟ فليخرج الراضون من الصف !

هتفت أصوات أخرى تقول :

ـ نحن ! نحن !

ـ أأنتم راضون عن الطعام ؟ لقد حرّضوكم اذن ؟ كان هناك اذن محرّضون ! ويل للمحرّضين !

قال صوت من بين الجمهور :

ـ ما معنى هذا يا مولانا ؟

فزأر الميجر يسأل وهو يهجم نحو الجهة التي صدر منها الصوت :

ـ من ذا الذي صاح بهذا السؤال ؟ من ؟ أأنت الذي صرخت ، يا راستوجويف ؟ هلم الى مقر الحرس !

خرج راستوجويف من الصف وسار متجهاً نحو مقر الحرس بخطى بطيئة . انه شاب ممتلىء الوجه طويل القامة . ليس هو الذي صرخ . ولكنه لم يحاول أن يعترض حين سمّاه الميجر .

زأر الميجر يقول :

ـ ان السمنة هي التي تجعلكم غاضبين مسعورين ! انتظر أيها البوز الضخم ! هي ثلاثة أيام ثم لا تستطيع أن ! ... انتظروا ! لسوف أكشف عنكم وأقبض عليكم جميعاً . فليخرج الذين لا يشتكون !

قال بعض السجناء وقد أظلمت وجوههم :

ـ نحن لا شكوى لنا يا صاحب النبالة الرفيعة !

وصمت الآخرون . ان الميجر لا يتمنى أكثر من ذلك . كان يرى أن من مصلحته أن ينهي هذه القضية بأقصى سرعة ممكنة ، وباجماع السجناء . قال متمتماً :

ـ آ ... الآن لا يشكو أحد شيئاً . رأيت ذلك . وكنت أعرفه المعرفة . ولكن هنالك محرّضين ! نعم ، لا شك أن هنالك محرضين !

وتابع يقول مخاطباً ديالتوف :

ـ يجب أن يُعرف جميع المحرّضين . أما الآن فقد حان موعد الذهاب الى العمل . اقرعوا الطبل !

وشهد الميجر بنفسه تشكيل فرق العمـــل . تفرق السجناء في حزن ، دون كلام ، وقد أسـعدهم أن يغيبوا . فما ان فرغ الميجـر من توزيع فرق العمل حتى مضى الى مقر الحرس ، حيث اتخذ اجراءات فى حق المحرّضين . ولكن لم يسرف في القسوة . كان واضحا انه يريد أن يحل المشكلة بأقصى سرعة . وقد حدثنا أحد الذين ذهبوا الى مقـر الحرس ، حدثنا بعد ذلك فقال انه استغفر الضابط ، فسرعان ما أفرج عنه . لا شك في أن الميجر لم يكن مرتاح البال . لعله كان خائفاً . ان العصيان أمر شائك دائماً ، رغم أن تمرد السجناء لم يكن فى حقيقـــة الأمر تمردا (وهو لم ينقل خبره الا الى الميجر ، أما الآمر فقد كتم عنه)، فانه قضية مزعجة على كل حال . والشيء الذي أقلق الميجر خاصةً انما هو اجماع السجناء على العصيان . فكان لا بد اذن من قمع مطالبهم باى ثمن ، مهما كلف الأمر . وما لبث الميجر أن « أخلى سبيل » المحرّضين . وفى الغد تحسن الطعام بعض التحسن ، ولكن هـــذا التحسن لم يدم طويلاً . وأصبح الميجر فى الأيام التالية يزيد زياراته للسجن ، ويفرض عقوبات على من يخالفون النظام . وأصبح الوكيل يذهب ويجيء مضطرباً قلقاً مهموماً ، كأنه لم يستطع أن يثـوب الى رشـــده وأن يتخلص من ذهوله . أما الســـجناء فانهم لم يهدأوا الا بعـد زمن طويل ، غـير أن اضطرابهم يختلف الآن عن اضطرابهم فى الأيام الأولى . هم الآن قلقون

محتارون مرتبكون . بعضهم يخفضون رءوسهم ويصمتون ، وبعضهم يتكلمون عن هذه المجازفة مدمدمين كأنما على غير ارادة منهم ، وكثير منهم يسخرون من أنفسهم بمرارة كأنما ليعاقبوا أنفسهم على هذا العصيان الذى لم يكن فى محله .

يقول أحدهم :

ـ خذ يا رفيق ، خذ وكل ! ...

ـ أين الفأرة التى تريد أن تعلّق جرساً فى ذنب الهرّة ؟

ـ نحن أناس لا يمكن اقناعنا الا بالعصا ... ذلك مؤكد . ألا فلنغبط أنفسنا على أنه لم يأمر بجلدنا جميعاً !

ـ فكّر أكثر ، وثرثر أقل ! ذلك خير وأبقى !

ـ ما بالك تلقننى درساً ؟ أتراك معلمَ مدرسة ؟

ـ طبعاً يجب تلقينك درسا !

ـ من أنت حتى تلقننى درساً ؟

ـ أنا رجل ، أما أنت فماذا أنت !

ـ ما أنت الا عظمة كلب . ذلك أنت !

ـ هيا ! كفى ! ما هذا العياط والزياط ؟

كذلك كانت تتعالى الصيحات من كل جانب تحاول أن تسكت المتشاجرين .

وقد التقيت فى مساء اليوم الذى حدث فيه التمرد ، التقيت بصاحبى بتروف بعد عمل النهار . كان بتروف يبحث عنى . وسمعته يجمجم

بهتافات غير مفهومة وهو يقترب مني ، فما ان وصـــل الىّ حتى صمت وسار يتنزه معي بخطى آليــة • كنت ما أزال مثقل النفس من هـــذه القضية كلها ، واعتقدت أن في وسع بتروف أن يفسِّرها لي •

سألته :

ـ قل لي يا بتروف : هل أصحابك غاضبون منا حانقون علينا ؟

فأجاب كمن ثاب الى نفسه على حين فجأة :

ـ غاضبون ؟ من ؟

ـ السجناء ••• هل هم غاضبون من النبلاء ؟

ـ فيم يغضبون ؟

ـ لأننا لم نؤيدهم ، لأننا لم نشاركم اعتصامهم !

قال بتروف محاولاً أن يفهم ما أقوله له :

ـ ولكن علام تعتصبون أنتم ؟ انكم تأكلون على حدة •

ـ ولكن بين أصـحابك من لا يأكلون طعام السـجن المعتاد ، ثم شاركوكم الاعتصاب مع ذلك ••• لقد كان علينا أن نؤيدكم وندعمكم ونشد أزركم ••• ألسنا رفاقاً لكم ؟

ـ أأنتم رفاق لنا ؟

كذلك سألني بتروف مدهوشاً •

نظرت اليه • انه لم يستطع أن يفهم أو أن يدرك ما قلته له أبداً • أما أنا فقد فهمته حق الفهم • ان فكرةً كانت تتحرك في رأسي غامضةً وكانت تحاصرني منذ زمن طـــويل قد تبلورت الآن نهـائياً • أدركت ادراكاً واضحاً ما كنت أحزره قبل ذلك حزراً مبهماً • أدركت أنني لن أصبح في يوم من الأيام رفيقاً للسجناء ، ولو حكم عليَّ بالسجن المؤبد،

ولو أصبحت انتمى الى سجناء « القسم الخاص » . وانحفرت هيئة تروف في ذهني في تلك اللحظة ، وظلت ماثلة في ذاكرتي الى الأبد . لقد كان في قوله : « أأنتم رفاق لنا ؟ » ، كان في قوله هذا من السذاجة الصريحة والدهشة البريئة ما جعلني أتساءل ألا يخفى كلامه شيئاً من سخرية ، ألا يخفى كلامه شيئاً من خبث مستهزىء متهكم ؟ أبداً . أنا لست رفيقهم ... هذا كل شيء ... اذهب أنت يسرةً ، ونذهب نحن يمنة ... لك شأنك ولنا شأننا ...

واعتقدت حقاً أنهم بعد هذا العصيان سيمزقوننا تمزيقاً ، وأن حياتنا ستصبح جحيماً لا يطاق . غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث ! لم نسمع أي لوم ، لم نسمع أي غمز خبيث ! ظلوا يناكدوننا كما كانوا يناكدوننا من قبل ، اذا عرضت فرصة أو طرأت مناسبة ... ذلك كل شيء . لم يضمر أحد حقداً على الذين لم يشاءوا أن يعتصبوا وظلوا في المطبخ ، لا ولا حمل أحد حقداً على الذين صاحوا أول الصائحين بأنهم لايشتكون من شيء ! لم ينطق أحد بكلمة واحدة في هذا الأمر . وأذهلني ذلك ثم لم تنقض دهشتي منه يوماً !

٨

رفاقي

إنّ الذين اجتذبونى أكثر من غيرهم، كما تقدرون، انما هم المنتمون الى طبقة النبلاء ، ولا سيما فى الآونة الأولى . ولكن ، من بين النبلاء الروس الثلاثة ، وهم آكيم آكيمتش ، والجاسوس آ ... ف ، والشاب الذى كان يُظن أنه قاتل أبيه ، لم تتصل أسبابى الا بأسباب آكيم آكيمتش ، فكنت لا أكلم غيره . والحق أننى كنت لا ألتجىء اليه وأخاطبه الا فى حالة اليأس والقنوط ، فى لحظات الحزن التى لا تطاق ، حين يتراءى لى أننى لن أقترب من أحد غيره فى يوم من الأيام . لقد حاولت فى الفصل السابق أن أصنف نزلاء سجننا فى فئات شتى . ولكننى اذ أتذكر الآن آكيم آكيمتش أحسب أن علىّ أن أضيف الى تصنيفى فئة ثالثة ، وهذه الفئة لا تضم أحداً سواه . ان هذه الفئة هى فئة السجناء الذين لا يبالون بشىء قط ، ويستوى عندهم أن يعيشوا أحرارا وأن يعيشوا فى سجن الأشغال الشاقة وذلك أمر لا يمكن أن يكون عندنا استثناء من القاعدة . لقد استقر آكيم آكيمتش فى سجن الأشغال الشاقة استقرار امرىء سيقضى فيه حياته كلها : ان كل مايخصه، من فراشه الى وسائده الى أوانيه ، كان مرتباً ترتيباً ثابتاً وطيداً نهائياً. كان على آكيم آكيمتش أن يمكث فى سجن الأشغال الشاقة عدة سنين

أخرى، ولكنني أشك أن يكون قد فكّر في الافراج عنه واطلاق سراحه. لقد تلاءم مع الواقع، وتصالح مع الظروف التي يعيش فيها، ولم يكن ذلك من باب الخضوع والاذعان والاستسلام ، وانما كان صدرا عن نفسه نابعاً من قلبه ، وسيان عنده الأمران على كل حال . ان آكيم آكيمتش انسان طيب السريرة شهم ، وقد ساعدني في الآونة الأولى بنصائحه وخدماته ، ولكن يجب أن أعترف أنه كان في بعض الاحيان يوقظ في نفسي حزناً عميقاً لا شبيه له ، حزناً يزيد ويفاقم ما اتصف به من ميل الى القلق والهم والغم . وكنت اذا انحدرت الى حضيض الكمد والكرب واليأس أتحدث اليه متمنياً أن أسمع منه كلاماً فيه حرارة ومرارة ، فان كلاماً كهذا الكلام كفيل بأن يجعلنا نسخط معاً على مصيرنا المشترك في أقل تقدير ، فيكون لي من ذلك بعض العزاء . ولكن آكيم آكيمتش كان يصمت ويمضي يعمل هادئاً في الصاق مصابيحه ، ويقص علي أثناء ذلك أنهم قاموا باستعراضٍ سنةَ كذا ، وأن آمر الفرقة كان اسمه فلاناً ، وان اشارات جنود المدفعية كانت قد غُيِّرت ، وهلم جرا ... يقول ذلك كله بصوت رصين متساوٍ ، كأنه الماء يتساقط قطرة قطرة . كان لا يتحمس حتى حين كان يروي لي كيف أنه في قضية من القضايا التي وقعت في القفقاس (لا أذكر الآن ماذا كانت تلك القضية) قد منح وسام «القديسة حنة » ، وأن سيفه قد ازدان بشريط هذا الوسام. كل ما هنالك أن صوته يصير عندئذ أشد رصانة ووقاراً ، فهو اذا نطق اسم « القديسة حنة » خفض صوته طبقةً ، وأسبغ على نبرة كلامه طابع السر ، ثم ظل بعد ذلك صامتاً جاداً خلال ثلاث دقائق على الأقل ... وكانت تنتابني أثناء تلك السنة الأولى كلها حالات فظيعة أكاد أكره فيها آكيم آكيمتش دون أن أعرف لماذا ، وكانت تعتريني سورات يأس شديد ألعن في ابانها

القدر الذى رمانى الى سرير فى السجن يلاصق سريره حتى ليتلامس رأسانا • على أن هذه النوبات لم تصبنى الا خلال السنة الأولى من اقامتى بالسجن • ثم تعودت على طبع آكيم آكيمتش وألفت أخلاقه ، وصرت أشعر بالخجل حين أتذكر اندفاعاتى السابقة • ولست أذكر أننا اختصمنا صراحةً فى يوم من الأيام •

عدا هؤلاء الروس الثلاثة الذين كانوا ينتمون قبل دخولى السجن الى طبقة النبلاء ، كان لى ثمانية* رفاق آخرين، انعقدت بينى وبين بعضهم صداقة قوية • كان خيرهم أناسا يشبهون أن يكونوا مرضى من فرط تفردهم وتعصبهم ، حتى أن بينهم اثنين كففت آخر الأمر عن مخاطبتهم وقطعت صلتى بهم • ولم يكن بينهم الا ثلاثة مثقفون هم : ••• سكى* و م ••• كى و الشيخ ز ••• سكى * الذى كان فى الماضى أستاذا للرياضيات ، وهو رجل طيب القلب شاذ الطبع محدود الفكر رغم علمه • ولا كذلك م •• كى و ز ••• سكى • لقد تفاهمت مع م ••• كى من أول وهلة ، ولم أختصم معه مرةً واحدة ، وقد قدرته واحترمته كثيراً ، ولكن دون أن أحبه ودون أن أرتبط به ، ولم أستطع فى يوم من الأيام أن أصل الى ذلك • لقد كانت نفسه تفيض مرارة وشكاً وارتياباً وحذراً ، وكان شديد السيطرة على نفسه والتحكم بسلوكه ، وذلك بعينه هو مالم يعجبنى فيه ، فان المرء يشعر أن هذا الرجل لن يفتح نفسه يوماً لأحد • على أننى قد أكون مخطئاً • وانما المهم أن الرجل كان على جانب عظيم من الرفعة • أما شدة ارتيابه فكانت تتجلى براعةً خارقة وحذراً كبيراً فى تعامله مع من يحيطون به • والحق ان نفسه كانت مزدوجة ، فلقد كان يجمع بين الشك الشديد والايمان العميق • لقد كان يؤمن ببعض الآمال وبعض القناعات ايماناً لا يتزعزع • وكان

رغم كل براعته العملية ، فى حرب سافرة مع : ••• سكى وصـــديقه : ••• سكى •

أما : ••• كى فقد كان رجلاً مريضاً ، وكان فيه استعداد للاصابة بالسل ، وكان شرس الطبع ضيق الصدر عصبى المـزاج ، ولكنه طيب القلب كريم • وكان اهتيـاجه العصـبى يجعله ذا نزوات كأنه طفل • ولقد كنت لا أستطيع أن أحتمل طبعاً كهذا الطبع ، لذلك انقطعت عن رؤية : ••• كى ، دون أن أكف عن حبه مع ذلك ، تمـاماً على عكس م ••• كى الذى لم أشتجر معه يوماً ، ولكننى لم أحبَّه • وحين قطعت جميع علاقاتى بصاحبنا : ••• سكى اضطررت أن أقطع جميع علاقاتى أيضاً بصديقه : ••• كى الذى تحدثت عنه فى الفصل السابق ، وذلك ما أسفت له أشـــد الأسف ، لأنه كان رجلاً ممتازا يتصف بشـجاعة عظيمة ، ولكنه يبلغ من حبه واحترامه وتقديسه لصديقه : ••• كى أن كل من يقطعون علاقاتهم بصديقه يصبحون أعداءه • وهكذا ساءت صلته مع م ••• كى بسبب : ••• سكى ، رغم أنه قاوم ذلك مدة طـويلة • ومهما يكن من أمر فلقد كان هؤلاء الرجال جميعاً يتصفون بأنهم شديدو الغضب سريعو التأذى كثيرو الشك مفرطو الحساسية • وذلك أمر له ما يفسِّـره • لقد كان وضعهم أليماً شاقاً ، وكان أقسى من وضعنا نحن ، لأنهم أُبعدوا من بلادهم ونفوا عشر سنين أو اثنتى عشرة سنة ؛ والشىء الذى كان يجعل اقامتهم بالسجن شاقة مشقة خاصة انما هو ما وقع فى وهمهم ورسخ فى اعتقادهم من أحكام سابقة فى حق السجناء ، وما سيطر عليهم من نظرة خاصـــة جاهـزة ينظـرونها اليهم • كانوا لا يرون فى السجناء الا حيوانات كاسرة مفترسة ، وكانوا يأبون أن يسلموا بأى شىء انسانى فيهم • ولقد تورطوا فى هـــذه النظرة بحكم الظروف وبحكم مصيرهم • لقد كانت حياتهم فى السجن عذاباً لا يطاق • كانوا لطافاً مع

الشراكسة والتتر وأشعيا فومتش • ولكنهم كانوا لا يحملون لسائر السجناء الا الاحتقار • والشخص الوحيد الذى فوز باحترامهم كله انما هو الشيخ الذى ينتمى الى الملة المنشقة • ومع ذلك فما من سجين ، طوال المدة التى أقمتها فى السجن، قد عاب عليهم اصلهم أو عاب عليهم عقيدتهم الدينية ، أو عاب عليهم مبادئهم ، أو غير ذلك مما نعرفه لدى الطبقة الدنيا من الشعب فى علاقاتها بالأجانب ، ولا سيما الألمان ، والحقيقة أن الشعب انما يسخر من الرجل الألمانى لأنه يعده دجالاً فظاً • لقد كان سجناؤنا يحترمون النبلاء البولنديين أكثر كثيراً مما يحترموننا نحن النبلاء الروس • كانوا لا « يمسُّون » أولئك ، ولا يتعرضون لهم بسوء • ولكننى أعتقد أن البولنديين لم يشاءوا أن يلاحظوا هذه الواقعة وأن ينظروا اليها بعين الاعتبار • لقد تكلمت عن ت ••• سكى ، فلأعد اليه • انه، حين بارح مع صديقه أول محطة على طريق المنفى لينتقل الى سجننا، قد حمل صديقة ب طول الوقت تقريباً ، لأن ب كان ضعيف البنية سقيم الصحة ، فأصبح منهوك القوى مرهقا بعد نصف مرحلة من مراحل السفر • لقد نُفيا فى أول الأمر الى آو — جورسك * ، فكانا هنالك مرتاحين• ان الحياة هنالك أقل قسوة من الحياة فى قلعتنا• ولكن السلطات ارتأت على أثر مراسلات بريئة قامت بينهما وبين المنفيين فى مدينة أخرى، أن يُنقلا الى سجننا حتى يكونا تحت المراقبة المباشرة للسلطة العليا • ولقد ظل م ••• كى اذن وحيدا حتى وصلا ، فلك أن تتصور مدى ما كان يشعر به من تعاسة أثناء السنة الأولى من منفاه !

ان ز ••• سكى هو ذلك الشيخ الذى كان يكب دائماً على الصلاة والدعاء ، والذى سبق أن تحدثت عنه• لقد كان جميع السجناء السياسيين شبابا ، بل كانوا فى ريعان الشباب ، على حين أن ز ••• سكى كان فى الخمسين من عمره على الأقل •

لا شك في أنه كان انساناً شريفا جداً ، ولكنه كان غريب الأطوار. حتى لقد كان رفيقه ت ••• سكي و ب ••• سكي يكرهانه ولا يكلمانه قط ؛ وكانا يصفانه بأنه عنيد مشاكس ، واني لأشهد بأنهما كانا على حق. أعتقد أن الناس حين يكونون في معتقل ـ أو في أي مكان آخر اجتمعوا فيه عنوةً بغير ارادة منهم ـ يختصمون ويشتجرون ويكره بعضهم بعضاً أكثر مما يفعلون ذلك حين يكونون أحراراً طلقاء . هنالك أسباب كثيرة تسهم في خلق هذه المشاحنات بينهم . ولقد كان ز ••• سكي انساناً مزعجاً محدوداً في الواقع . فما من أحد من رفاقه كان على علاقة حسنة به . ولئن لم تسؤ صلتي به يوماً ، فاننا لم تنشأ بيننا صداقة في لحظة من اللحظات . أحسب أنه كان قديراً في الرياضيات . لقد شرح لي في ذات يوم ، بلغته الركيكة التي نصفها روسي ونصفها بولندي ، نظريةً فلكية كان قد أوجدها ، وقيل لي انه ألّف في هذا الموضوع كتاباً متعالماً سخر منه جميع الناس . أعتقد أن حكمه على الأمور قد فسد قليلاً . ولقد كان يعكف على الصلاة راكعاً على كوعيه أياماً بكاملها ، وذلك أمر جلب له احترام السجناء ، وظل السجناء يحترمونه الى أن مات ، ذلك أنه مات في السجن تحت سمعي وبصري على أثر مرض أليم شاق . ولقد فاز بتقدير السجناء منذ وصوله ، وذلك في أعقاب قصة حدثت له مع الميجر. فحين جيء بهؤلاء السجناء من أوجورسك الى قلعتنا ، على مراحل ، كان شعر رؤوسهم ولحاهم طويلاً جداً ، لأنه لم يحلق لهم ، فلما مثلوا أمام الميجر ثارت ثائرة الميجر وغضب غضباً شديداً من هذه المخالفة للنظام التي لم يكن الذنب فيها ذنبهم مع ذلك . زأر الميجر يقول :

ـ ما هذه الهيئة ! هؤلاء متشردون ، هؤلاء قطاع طرق ! •••

واذ كان ز•••سكي لايحسن فهم الروسية فقد ظن أنهم يُسألون هل هم قطاع طرق أو متشردون ، فما كان منه الا أن أجاب بقوله :

ـ بل نحن سجناء سياسيون لا متشردون •

فزأر الميجر يقول :

ـ كيف ؟ ماذا ؟ أتتواقح ؟ خذوه الى مركز الحرس •• واجلدوه مائة جلدة •• فوراً ••

وعوقب الشيخ • رقد على الأرض تحت السياط دون أن يبدي آية مقاومة ، واضعاً يده بين أسنانه ، وتحمل القصاص بلا شكاة ، بلا انين، ساكناً جامداً لا يتحرك بينما تهوى على ظهره الضربات • وقد وصل ز ••• سكي و ب ••• كي في تلك اللحظة الى السجن ، حيث كان م ••• كي ينتظرهما عند باب الدخول ، فما ان رآهما حتى ارتمى على عنقيهما رغم انه لم يرهما قبل ذلك قط ، وجرى الحديث بين هؤلاء الرجال عن المشهد القاسي الذي وقع ، فكانوا ثائرين حانقين من استقبال الميجر • وقد ذكر لي م ••• كي فيما بعد أنه خرج عن طوره حين علم بالأمر • قال : « أصبحت من شدة حنقي لا أشعر بنفسي ، وأخذت أرتعد من الحمى • انتظرت ز ••• سكي عند الباب الكبير ، لأنه كان سيعود من مركز الحرس بعد نيل العقاب رأساً • فتح الباب ، فرأيت ز ••سكي يمر أمامي وقد ابيضت شفتاه تماماً وأخذتا ترتعشان ، كما شحب لونه وامتقع وجهه • كان لا ينظر الى أحد ، واجتاز جماعات السجناء المحتشدين في وسط الفناء ـ وكانوا يعلمون أن نبيلاً قد عوقب ـ ودخل الثكنة ، ومضى قُدُماً الى مكانه لا يلوى على شيء ولا ينطق بكلمة ، ثم ركع وطفق يصلي • دُهش السجناء بل تأثروا تأثراً شديداً • فلما رأيت هذا الشيخ الأشيب الذي ترك في وطنه زوجته وأولاده ، لما رأيته بعد ذلك العقاب المزري راكعاً يصلي ، أصبحت كالمجنون ، وأصبحت كالسكران • » • منذ ذلك الحين أصبح السجناء يحترمون ز •• سكي• والشيء الذي أعجبهم فيه خاصةً هو أنه لم يصرخ تحت ضربات السياط •

يجب عليّ مع ذلك أن أكون منصفاً وأن أقول الحقيقة : اننا لا نستطيع أن نحكم على علاقات الادارة بالمنفيين النبلاء ، سـواء أكانوا روسيين ام كانوا بولنديين ، على أساس هذا المثال . ان القصة التي رويتها تدل على أن من الممكن أن نقع على انسان شرير ، فاذا كان هذا الانسـان الشرير حاكماً بأمره لسجن من السجون ، فكره أحد المنفيين عرضا ، فان حاله هذا المنفي تصبح حالةَ سيئة لا يحسد عليها . أما الادارة العليا لسـجون الأشغال الشاقة في سيبريا ، وهي التي تزود الآمرين التابعين لها بتعليمات عامة ، فانها تميّز السجناء النبلاء ، حتى انها في بعض الاحيـان تتسامح في معاملتهم أكثر مما تتسامح مع غيرهم . واسباب ذلك واضحة : اولها أن هؤلاء الرؤساء أنفسهم ينتمون الى طبقة السادة ؛ ثم انه يروى ان هناك نبلاء رفضوا أن يرقدوا تحت ضربات السياط وهجموا على من ينفـذون فيهم عقوبة الجلد ، وكانت عواقب هذه العصيانات سيئة دائما ؛ والسبب الاخير ـ وهو السبب الاساسي في رأيي ـ أنه قد حدث منذ زمن بعيد ، منذ خمسة وثلاثين عاما على وجه التقـريب ، أن سـجن عدد كبير من المنفيين النبلاء دفعة واحدة* ، فأظهر هؤلاء المنفيون من الرصانة والوقار وحسن السلوك ما جعل رؤساء سجون الأشغال الشاقه ينظرون ، بحكم العادة ، الى النبلاء من المجرمين نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم الى السجناء العاديين . واقتفى الآمرون المرءوسون اثر رؤساؤهم فأخذوا ينظرون هذه النظرة نفسها خاضعين خضوعا أعمى . ولئن كان كثير منهم ينتقدون هذه الاجراءات التي يتخذها رؤساؤهم ، ويأسفون لها ويُسرّن حين يُسمح لهم بأن يتصرفوا على مايشاء لهم هواهم ، فان حرية التصرف التي تتاح لهم لم تكن واسعة . ان هناك ما يسمح لي أن أعتقد بذلك . واليكم الأسباب . ان « الفئة الثانية » من سجناء الأشغال الشاقة ، وهي الفئة التي انتمى اليها والتي تتألف من سجناء خاضعين للسلطة العسكرية،

كانت ظروفها أقسى كثيراً من ظروف سجناء « الفئة الأولى » (المناجم) و « الفئة الثالثة » (المصانع) ؟ كانت ظروفها أقسى لا بالنسبة الى النبلاء فحسب ، بل بالنسبة الى سائر السجناء أيضاً ، لأن الادارة والتنظيم عسكريان تماماً ، وهما يشبهان الادارة والتنظيم في معتقلات روسيا . ان الرؤساء أكثر قسوة والعادات أشد صرامة في هذه الفئة الثانية مما هي في الفئتين الأخريين : السجناء هنا مكبلون بالأغلال دائما ، مخفورون دائماً ، محبوسون دائماً ، وذلك ما لا وجود له في غيرها، فيما كان يقوله السجناء على الأقل ، وبينهم أناس مطلعون . ان سجناء هذه الفئة ليتمنون أن يذهبوا الى العمل في المناجم ، وهو العمل الذي يعده القانون أقصى عقوبة . انهم يحلمون بأن يذهبوا الى العمل في المناجم. ان جميع الذين كانوا في المعتقلات الروسية يتحدثون عنها جزعين ، ويؤكدون أنها جحيم لا يشبهه جحيم ، وأن سيبريا جنة اذا قيست بالاعتقال في قلاع روسيا . واذن فاذا كنا نحن النبلاء نحظى بشيء من المداراة أكثر مما يحظى بمثل ذلك سائر السجناء في سجننا الذي كان يخضع لاشراف الجنرال الحاكم والذي كانت ادارته عسكرية تماماً ، فلا بد أن يكون سجناء الفئة الأولى وسجناء الفئة الثالثة يتمتعون بمزيد من هذه المداراة. انني أستطيع أن أتحدث حديث علم ودراية عما كان يجرى في سيبريا كلها في هذا المجال : ان الأقاصيص التي سمعتها من منفيين ينتمون الى الفئة الأولى والى الفئة الثالثة تأتي مصدقة للنتيجة التي خلصت اليها . لقد كنا نراقب هنا مراقبة أشد من المراقبة التي تتم في أي مكان آخر : لم يكن لنا أية حصانة لا فيما يتعلق بالأشغال ولا فيما يتعلق بالحبس . كنا نقوم بنفس الأعمال التي يقوم بها المعتقلون الآخرون ، وكنا نحمل نفس الأغلال التي يحملون ، وكنا نخضع لنفس أنواع التوقيف والمصادرة التي لها يخضعون . وكان يستحيل استحالة تامة أن نُحمى ، ذلك أن

الوشايات والمكائد والسعايات، التي تريد الايقاع ببعض الموظفين كانت في عهد قريب جداً قد بلغت من التكاثر أن الادارة كانت تخشى أن تقع ضحيةً لتلك الوشايات ... والتسامح مع طبقة من طبقات السجناء كانت تعد في ذلك الزمان جريمة لا تغتفر ... لذلك كان كل موظف من الموظفين يخاف على نفسه ... وهكذا أنزلنا الى مستوى سائر السجناء ، باستثناء أمر واحد هو العقاب الجسدي ... ومع ذلك كان يمكن أن نُجلد لو ارتكبنا ذنباً من الذنوب ، لأن الخدمة العسكرية توجب أن نكون سواسية أمام العقاب ، ولكننا لا نجلد عن خفة وطيش بغير سبب من الأسباب كما يجلد سائر المسجونين . وحين علم آمر السجن بالعقوبة التي أُنزلت في ز ... سكي ، غضب من الميجر غضباً صادقاً وأمره بأن يكون أكثر انتباهاً وحذراً بعد الآن . وقد علم الجميع بذلك . وعلموا أيضاً أن الجنرال الحاكم الذي كان يثق ثقة كبيرة بالميجر والذي كان يحبه لشدة تقيده بالقانون ولما يتصف به من مزايا الموظف المطيع ، قد أنَّبه تأنيباً شديداً حين علم بالنبأ . وقد اتعظ الميجر بهذه الحادثة . فلقد كان يتمنى ، مثلاً ، أن يمتع نفسه بجلد م .. كي الذي كان يكرهه الميجر كرهاً بالغاً ، على أساس وشايات آ .. ف ، ولكنه لم يستطع أن يحقق هذه الأمنية ، ولم يستطع أن يحظى بهذه اللذة رغم كل ما سعى اليه من انتحال عذر يتعلل به ، ورغم اضطهاده له وتجسسه عليه . وانتشر نبأ قضية ز .. سكي في المدينة ، واستاء الرأي العام من الميجر، فبعض الناس لاموه وبعضهم أنَّبوه وقرَّعوه .

انني أتذكر الآن أول لقاء لي بالميجر . كانوا قد روَّعونا — أنا وسجين نبيل آخر — منذ وصلنا الى توبولسك ، بأقاصيص كثيرة عن سوء طبع هذا الرجل . ان منفيين قدامى (سبق الحكم عليهم بخمس وعشرين سنة في سجن الأشغال الشاقة) * ، وهم نبلاء مثلنا ، قد زارونا زيارة

كريمة أثناء اقامتنا في سجن توبولسك عابرين ، وحذرونا من هذا الانسان الذي سيكون رئيسنا في السجن ؟ ووعدونا أيضاً بأن يفعلوا كل ما في وسعهم أن يفعلوه في سبيلنا لدى الأشخاص الذين يعرفونهم حتى يوقفوا اضطهاداته • وبالفعل كتبوا رسائل الى بنات الجنرال الحاكم الثلاث اللواتي تشفعن لنا فيما أعتقد • ولكن ماذا كن في وسع الجنرال الحاكم أن يفعل ؟ لقد اقتصر على أن قال للميجر ان عليه أن يكون عادلاً في تطبيق القانون • وصلنا الى المدينة في الساعة الثالثة بعد الغداء ، أنا ورفيقي ، فمضى بنا الخفير الى عند الميجر رأساً • لبثنا في حجرة المدخل ننتظر وصول صف الضابط الذي يعمل في السجن والذي أرسلوا يستدعونه • فما ان وصل صف الضابط حتى دخل علينا الميجر • ان وجهه المصطبغ بحمرة قانية ، المعبّر عن الشر والخبث ، قد أحدث في نفسنا أثراً أليماً • لكأنه عنكبوت يهم أن يهجم على ذبابة مسكينة وقعت في نسيجه وأخذت تضطرب فيه •

اتجه الميجر الى رفيقي يسأله :

ــ ما اسمك ؟

ان صوته خشن متقطع ، وهو يريد أن يؤثر فينا ويسيطر علينا

ثم اتجه نحوي ، وحدّق الىّ من تحت نظارتيه وسألني :

ــ وأنت ؟

ذكرت له اسمي • فقال يخاطب صف الضابط :

ــ يا وكيل ••• فليؤخذا الى السجن ، وليحلق شعرهما في مركز الحرس كما يحلق للمدنيين ••• أي نصف الجمجمة ••• وليكبلا بالأغلال غداً ! ما هذان المعطفان اللذان ترتديان ؟ من أين جئتما بهما ؟

كذلك سألنا فجأة اذ لمح المعطفين الرماديين المرقعين بدوائر صفراء في الظهر ، وهما المعطفان اللذان أعطيناهما في توبولسك . وتابع يقول:

ـ هذا زى موحد جديد ... لا شك أنه زى موحد جديد ... انهم ما يزالون ينوون أن ... هذا آتٍ من بطرسبرج ...

هكذا قال وهو يفحصنا واحداً بعد آخر . ثم قال يسأل الخفير فجأة :

ـ أليس معهما شيء ؟

فأجابه الخفير وهو يضع سلاحه على كتفه احتراماً ، ويرتجف بعض الارتجاف خوفاً ، فقد كان جميع الناس يعرفون الميجر ويخشونه ، اجابه الخفير يقول :

ـ معهما ثيابهم الخاصة يا صاحب النبالة الرفيعة !

ـ انتزع منهما كل هذا، ماينبغي أن يحتفظا بغير الملابس الداخلية، البيضاء ... أما الملابس الداخلية الملونة فبعها بالمزاد اذا كان معهما منها شيء .

ثم أضاف يقول لنا وهو يلقى علينا نظرة قاسية :

ـ لا يحق لسجين الأشغال الشاقة أن يملك شيئاً . ولتكونا على حذر ! ليكن سلوككما حسناً ! لا أحب أن أسمع شكاوى ! والا ... فالعقاب الجسدى ينتظركما ! ما ان ترتكبا أيسر ذنب حتى امر بجلدكما !

كدت أمرض في ذلك المساء من ذلك الاستقبال الذى لا عهد لى بمثله من قبل ، وتفاقم شعورى وازداد ألمى حين دخلت الى ذلك الجحيم! ولكن سبق أن تحدثت عن هذا كله ، فلا داعى الى تكراره الآن .

قلت اننا لم يكن لنا شيء من حصانة ، ولم يكن يخفّف عنا العمل أي تخفيف بحضور السجناء الآخرين . غير أنهم حاولوا أن يساعدونا فأرسلونا ثلاثة أشهر ، أنا ورفيقي ب .. سكى ، الى مكاتب المهندسين كناسخين ، ولكن ذلك تم سراً لا علانية ؛ وجميع الذين كان يجب ان يعلموا به قد علموا به ولكنهم تظاهروا بأنهم لا يرون شيئاً . ان الرؤساء المهندسين هم الذين تفضلوا علينا بهذه المنة ، أثناء الوقت القصير الذى كان فيه الليوتنان كولونيل ج ... كوف آمراً لنا . ان هـذا الرئيس (الذي لم يبق أكثر من ستة أشهر ، لأنه لم يلبث أن عاد الى روسيا) قد بدا لنا نعمةً كبرى هبطت علينا من السماء ، وقد خلف فى نفوس جميع السجناء أثراً طيباً . كان السجناء لا يحبونه حباً بل يعبدونه عبادة ان صح هذا التعبير . لا أدرى كثيراً ما الذى صنعه ، ولكنه فاز بمحبتهم منذ الوهلة الأولى . « هو أب حقاً » كذلك كان السجناء يقولون فى كل لحظة من اللحظات طوال المدة التى ظل فيها مديراً لأشغال الهندسة. كان انساناً فرحاً مرحاً مقبلاً على الحياة محباً لمباهجها ومسراتها . هو رجل قصير القامة ، جريء النظرة ، قوى الثقة بنفسه ، لطيف السلوك مع جميع السجناء ، وكان يحب السجناء حباً أبوياً حقا ! لا أدرى على وجه الدقة لماذا أحبوه ذلك الحب كله ، ولكننى أستطيع أن أقول انه كان لا يستطيع أن يرى سجيناً دون أن يقول له كلمة تودد ، ودون أن يضحك له وأن يمازحه . ولم يكن فى أمازيحه شيء من تعال وتسلط ، لم يكن فى أمازيحه شيء يُشعر بأنه سيد ، بأنه رئيس . لقد كان للسجناء رفيقاً ، كان لهم نداً . ورغم هذه الملاطفة كلها ، لا أذكر أن السجناء قد استباحوا لأنفسهم يوماً أن يقللوا احترامهم له أو أن يرفعوا الكلفة بينهم وبينه . بالعكس . كل ما هنالك أن السجين كان يشرق وجهه فجأة حين يصادف هذا الرئيس؛ ان السجين يبتسم ابتسامة عريضة

ويمسك طاقيته بيده متى رآه يقترب • فاذا وجه له الرئيس كلمة عدّ ذلك شرفاً عظيماً له • هنالك اناس من هذا النوع يفوزون « بشعبية » كبيرة ! لقـــد كان ج •• كوف مهيب الطلعة ، واسـع الخطى ، منتصب القامة • « انه نسر » كذلك كان يقول السجناء • ولم يكن في وسعه أن يساعدهم لأن القيـــام باعمال الهندسة كان يتم في عهد جميـع الرؤساء السابقين وفقاً لأصول قانونية مرسومة لا يملك هو أن يبدلها • ولكنه اذا التقى بجماعة من السجناء انهوا عملهم ، كان يسمح لهم بالعودة قبل قرع الطبل • كان السجناء يحبـــونه لانه يوليهم ثقته ، ولانه يكره التنكيد والتنغيص الذي يثير اعصاب السجين في علاقته بالرؤساء • انني لعلى يقين من أن اكبر لص بين السجناء لو عثر على ألف روبل ضاعت من هـــذا الرجل ، لردّها اليه كاملةً غير منقوصة • نعم ، أنا من ذلك على يقين• وما كان أشد تعلق السجناء به وتعاطفهم معه حين علمـــوا بأنه اشتجر اشتجارا عنيفاً مع الميجر الكريه المقيت ! حدث هذا بعد وصولنا بشهر • وقد بلغ فرح السجناء عندئذ أوجه ! كان الميجر في الماضي رفيقاً له في السلاح • فلما التقيا بعد طول فراق ، عاشا في أول الأمر حيـاة فرحة معاً ، ولكنهما لم يلبثا أن فقـــدا ما انعقد بينهما من علاقه صميمة ؛ ثم تخاصما وأصبح ج •• كوف عدواً لدوداً للميجر • حتى لقد قيل انهما تضاربا ، فلم يثر ذلك شيئاً من الاستغراب لدى من كانوا يعرفون الميجر• لقد كان الميجر يحب الاقتتال والتضارب • فلما علم السجناء بأمر هـذه المشاجرة طفح فرحهم ، فكان يقولون : « لا يصلح لهذا الميجر الا مثـل هذا الكومندان ••• ان الكومندان نسر ، أما الميجر فهو ••• » انني أستحي أن أذكر الكلمة البذيئة التي كانوا يصفون بها الميجر • وكانوا في أشد الشوق الى أن يعرفوا من الذي كانت له الغلبة في هذا الصراع الذي قام بين الرجلين ، وأيهما أشبع الآخر ضرباً ! ولو قد كُذّبت هذه

الشائعة اذن لشعر السجناء بكثير من الاسف والحسرة ! كانوا يقولون : « مؤكد أن الكومندان هو الذى بطحه . فلئن كان قصيرا انه لشجاع باسل مقدام ! ولا شك ان الثاني قد اختبا تحت السرير من شدة خوفه وجزعه ! » . ولكن ج .. كوف لم يلبث ان عاد تاركا في السجن اسفا شديدا وحسرة كبيرة ! ولقد كان جميع المهندسين اناسا طيبين ا بدلوا خلال اقامتي في السجن ثلاث مرات او اربعا . كان السجناء يقولون : « لن نرى مثله أبدا . لقـــد كان نسرا ... كان نسرا وحاميـا في ان واحد ... » .

ان ج .. كوف هذا هو الذى ارسلنا انا و ب ... سكى للعمل في مكتبه ، لانه كان يحب المنفيين النبلاء . فلما سافر ظل وضعنا مقبـولاً محتملاً بعض الشيء ، لان هنـــاك مهندسا كان يشعر نحـونا بكثير من المودة . وكنا بسبيل نسخ تقارير منذ مدة ، وذلك حسن خطنا ، حين صدر امر عالٍ يقضي بعودتنا الى اشغالنا السابقة . والحق اننا لم نستأ من ذلك كثيرا ، لاننا كنا قد سئمنا عمل النسخ هـــذا ومللناه . وظللت سنتين كاملتين أعمل بغير انقطاع مع ب .. سكى ، دائما في الورشات على وجه التقريب . فكنا نثرثر كثيرا ، نتحدث عن آمالنا ونتناقش في ارائنا. وكانت اراء صاحبي الممتاز ب ... سكى غريبة شاذة متفردة . ان هناك أناسا أوتوا حظاً كبيراً من الذكاء ، ثم تكون آراؤهم في بعض الاحيان عجيبة مفارقة ، ولكنهم يكونون قد بلغوا من فرط احتمال الالم والعذاب في سبيلها ، ومن فرط التمسك بها والتضحية من اجلها ، أن انتزاعهـا من عقولهم يصبح أمرا مستحيلاً وقاسيا . لقد كان ب ... سكى يتالم من كل اعتراض أواجهه به ، فيرد على هذا الاعتراض بأجوبة عنيفة . لعله كان على حق ، ولعـله كان على حق أكثر مني في بعض النقاط . ولكننا اضطررنا أخيراً أن نفترق ، فشعرت من ذلك بأسف شديد ، كنا

قد اتفقنا في كثير من الأمور ، وكانت لنا آراء مشتركة كثيرة .

وأصبح م .. كي ، بمضي السنين ، ينحدر الى مزيد من الحـزن والتجهم . لقد أرهقه اليأس . كان في الأوقات الاولى من دخولي السجن أكثر تواصلاً وأكثر افصاحاً عما يدور في فكره . كان حين وصلت أنا الى السجن قد أنهى السنة الثانية من اقامته فيـه . فاهتم في أول الأمر كثيراً بالأنباء التي حملتها اليه ، لأنه كان لا يعرف شيئاً عما يجري خارج السجن : أخذ يلقي عليّ أسئلة كثيرة ، ويصغي الى أجوبتي بانتباه شديد، وينفعل انفعالاً قوياً ، ولكنه عاد ينطوي على نفسه شيئاً بعد شيء ، ولا يفصح عمّا يدور بخاطره ويجول في فكره . وكان أثنـاء ذلك يزداد نزقا وحدة . كان ماينفك يكرر لي ، وهو يتحدث عن السجناء الذين كنت قد أخذت أحسن معرفتهم : « انني أكره هؤلاء اللصوص قطـاع الطرق ! » فاذا حاولت أن أدافع عنهم لم تؤثر فيه حججي وآرائي أي تأثير . كان لا يفهم ما أقوله له ، فاذا اتفق أن وافقني على رأيي مرةً كان يفعل ذلك ذاهلاً غير منتبه ، ثم اذا هو يعود يكرر في اليوم التالي قوله : « انني أكره هؤلاء اللصوص قطاع الطرق » (يقول ذلك باللغة الفرنسية، فلقد كنا نكلمه بالفرنسية في كثير من الأحيان ، ولهذا كان درانشنيكوف، وهو أحد جنود سلاح الهندسة ، يسمينا دائماً « مساعدي الجراحين » ، لا يعلم الا الله لماذا !) . وكان م .. كي لا ينتعش ولا يتحمس الا حين يتكلم عن أمه . كان يقول لي : « انها عجوز ومقعدة ، وهي تحبني أكثر مما تحب أي شيء في هـــذا العالم ، ولست أدري أهي الآن حيـة ! آه لو علمت أنهم جلدوني ! ... » . لم يكن م .. كي من طبقة النبلاء ، وقد جُلد قبل نفيه ، فكان اذا وافته هذه الذكرى يكز أسنانه ويشـيح وجهه . وصار في آخر عهده بالسجن لا يكاد يتنزه الا وحيداً . وفي

ذات يوم ، عند الظهر ، دعى الى مقابلة الكومندان ، فاستقبله هذا بابتسامة عريضة على شفتيه ، وسأله :

ـ قل لى يا م٠٠٠كى : بماذا حلمت هذه الليلة ؟

وقد حدثنى م ٠٠ كى عن هـذه المقابلة فيما بعد فقال لى : « حين سألنى الكومندان هذا السؤال ارتعشت ، وخيـّـل الىّ أن قلبى يُشق شقاً » ٠

قال م ٠٠ كى يجيب الكومندان :

ـ حلمت بأننى تلقيت رسالةً من أمى ٠

فقال له الكومندان :

ـ بل هناك ما هو خير من ذلك ! هناك ما هو خير من ذلك ٠ أنت منذ اليوم حر طليق ٠٠٠ لقد توسلت أمك الى الامبراطور ٠٠٠ فاستجاب الامبراطور لتوسلها ٠ خذ ٠٠٠ اقرأ هذه الرسالة ٠٠٠ انها أمر بالافراج عنك ٠ سوف تبارح السجن فى هذه اللحظة نفسها ٠

عاد الينا أصفر الوجه ممتقع اللون لا يكاد يصدق السـعادة التى هبطت عليه ٠

هنأناه ٠ صافحنا بيديه الباردتين المرتعشتين ٠ هنأه كثير من السجناء أيضاً ٠ لقد سعدوا لسعادته ٠

أصبح مستوطناً واستقر فى مدينتنا، وعُيـّن موظفاً بعد ذلك بقليل، فكان يأتى الى السجن زائراً فى كثير من الأحيان ، ينقل الينا أنباء شتى متى استطاع الى ذلك سبيلاً ، وكانت الأنباء السياسية هى التى تعنيـه خاصة ٠

عدا البولنديين الأربعة الذين تكلمت عنهم ، وهم سجناء سياسيون، كان هنالك اثنان آخران في ميعة الشباب نُفيا فترةً قصيرة جداً . لم يكن لهما حظ من ثقافة ، ولكنهما شريفان بسيطان صريحان . وكان هنالك ثالث اسمه آ .. كزوكوفسكي، وهو شاب مسرف في البساطة لا يمتاز بشيء يلفت النظر . ولا كذلك ب .. م ، وهو رجل متقدم في السن قليلاً ، فقد أحدث في أنفسنا أسوأ انطباع . لا أدري لماذا نفي الى سيبريا ، رغم أنه قد روى من تلقاء نفسه سبب نفيه . انه انسان صغير النفس ، بورجوازي الطبع ، له من الآراء والعادات ما لصاحب دكان أصاب ثراءً وأصبح غنياً . ليس على شيء من ثقافة البتة ، فهو لا يهتم اى اهتمام بكل ما لا يتعلق بمهنته كدهان رسّام . يجب أن نعترف أنه كان دهاناً ممتازاً . وسرعان ما سمع رؤساؤنا عن مواهبه في هذا الفن، فاذا المدينة كلها تستخدمه في تزيين الجدران والسقوف . فما انقضت سنتان حتى كان قد دهن جميع مساكن الموظفين تقريباً ، وكان الموظفون يدفعون له أجراً حسناً ، فكان لا يعيش حياة مسرفةً في البؤس . وكان يرسل للعمل مع ثلاثة من رفاقه أتقنوا تعلم مهنته ، حتى أصبح أحدهما، وهو ت ... ريزيفشكي لا يقل مهارة عنه . وكان الميجر يقيم في مسكن تملكه الدولة ، فاستدعى ب .. م وأمره بدهن الجدران والسقوف ، فبذل صاحبنا من العناية بهذا العمل وأنفق فيه من الجهد ما جعل مسكن الجنرال الحاكم لا يعد شيئاً مذكوراً اذا قيس بمسكن الميجر . كان المسكن قديماً هرماً مؤلفاً من طابق واحد ، وكان مظهره من الخارج وسخاً جداً، فاذا هو يصبح من الداخل رائع الزينة كقصر من القصور. فرح الميجر أشد الفرح ... فكان يفرك يديه ويقول لجميع الناس انه سيتزوج . « كيف لا يتزوج من كان يقيم في مسكن كهذا المسكن ؟».. كذلك كان يقول جاداً كل الجد . وكان سروره أشد من سرور ب .. م

ومساعديه • لقد دام العمل في دهان مسكن الميجر شهراً • وفي أثناء ذلك الشهر كله غيَّر الميجر رأيه فينا ، حتى لقد أخذ يحمينا ويرعانا نحن السجناء السياسيين • وها هو يستدعي ز ••• سكي في يوم من الأيام فيقول :

ـ اسمع يا ز ••• سكي ! لقد أسأت أنا اليك وأهنتك بغير سبب• انني نادم على ذلك • هل فهمت ؟ أنا ، أنا نادم !

أجابه ز ••• سكي بأنه فهم •

فعاد الميجر يقول له :

ـ هل فهمت أنني أنا ، أنا ، أنا رئيسك ، قد استدعيتك لأطلب منك الصفح والمغفرة ؟ هل تتخيل هذا ؟ ما أنت بالنسبة اليَّ ؟ أنت بالنسبة اليَّ دودة من دود الأرض ، بل أنت بالنسبة اليَّ أقل شأناً من دودة ! أنت سجين ، أما أنا فبحمد الله ميجر * ••• ميجر ، هل فهمت ؟

أجابه ز ••• سكي بأنه فهم أيضاً •

فقال له الميجر :

ـ طيب ••• أريد أن أصالحك • ولكن أأنت تدرك حق الادراك ما أفعله ؟ أأنت تدرك كل ما يتصف به عملي هذا من نبل وعظمة ورفعة ؟ أأنت قادر على أن تشعر بهذا وعلى أن تقدِّره ؟ تصور ••• انني ، أنا الميجر ، أنا الميجر ، أصالحك ••• الخ الخ •••

لقد قصَّ عليَّ ز ••• سكي هذا المشهد • اذن كان هذا الانسان الفظ الغليظ الذي لا ينقطع عن السكر ولا يكف عن الازعاج ولا تعرف حياته الا الفوضى ، كان اذن لا يخلو من عاطفة انسانية • يجب أن نعترف ، اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى آرائه والى نموه العقلي ، بأن

هذا الفعل الذي صدر عنه كان فيه شيء من الكرم حقاً • ولعل السكر الدائم الذي كان لا يفارقه قد ساهم في اقدامه على هذا الفعل الكريم •

لم يتحقق حلم الميجر • انه لم يتزوج رغم أنه عقد النية على أن يتزوج متى تم تزيين مسكنه • وبدلاً من ان يتزوج ، فقد أحيل على المحاكمة ، وأجبر على الاستقالة • وعرفت عندئذ أثام قديمة سبق أن ارتكبها حين كان مديراً للشرطة بالمدينة فيما أظن • صعقته هذه الضربة التي لم تكن في حسبانه • وفرح السجناء أشد المرح حين علموا بالنبأ الجديد • كان ذلك اليوم عيدا لهم • قيل ان الميجر أخذ يبكي كامرأة عجوز ويعول اعوالاً شديداً • ولكن ما حيلته ؟ لقد اضطر أن يقدم استقالته ، وباع خيوله الشهباء الجميلة ، وباع كل ما كان يملك، وانحدر الى هوة البؤس والفقر والشقاء • أصبحنا نلتقي به أحياناً فيما بعد ، فكنا نراه في رداء مدني مرقع وطاقية متسخة ، وكان يلقي على السجناء نظرة شزراء • ولكن الهالة التي كانت تحيط به في الماضي والمهابة التي كان يتمتع بها قد زالتا منذ خلعت عنه بزة الميجر • كان أثناء ارتدائه بزة الميجر أشبه باله ، حتى اذا ارتدى الرداء المدني فقد كل شيء ، وأصبح أشبه بخادم •

ان البزة العسكرية هي التي تصنع قيمة أمثال هذا الرجل ! •••

٩

الفـــرار

بعد استقالة الميجر بزمن قصير ، أعيد تنظيم سجننا تنظيماً جديداً كل الجدة . أُلغيت الأشـــغال الشـاقة واستعيض عنها باعتقال عسكرى على طراز المعتقلات فى روسيا . وبعد ذلك أصبح لا يُرسَل اليـه المنفيون الذين ينتمـون الى الفئة الثانية ، وأصـبح من الواجب أن لا يضم الا المعتقلين العسكريين أى سجناء يحتفظون بحقوقهم المدنية . هم جنود كسـائر الجنود ، وانما صـدرت فى حقهم أحكام . وهم لا يسجنون الا مدداً قصـيرة جداً (أقصاها ست سنين) ، حتى اذا قضوا مدة سـجنهم عادوا الى قطعاتهم جنوداً كما كانوا من قبـل . أما أصحاب السوابق فيحكمون بالسجن عشرين سنة . لقد كان فى سجننا حتى ذلك الحين قسم عسكرى ، ولكن ذلك يرجع الى عدم توفر أمكنة أخرى . أما الآن فان ما كان استثناءً قد أصبح هو القاعدة . فالسجناء المدنيون ، المحرومون من جميع الحقوق ، والموسومون بالحديد الحامى ، والمحلوقة رءوسهم ، أصبح عليهم أن يبقوا فى السـجن الى أن تنصرم المدة المحكوم عليهم بها . واذ أصبح لا يصل الى هذا السجن سجناء جدد من هذا النوع ، واذ أن القدماء منهم قد أصبح يُفرج عنهم بعضاً بعـد

بعض ، فان السجن لن يضم سجيناً واحداً من هـــذا النوع بعـد عشر سنين . وقد أُبقى على القسم الخاص . فمن حين الى حين كان يصل الينا مجرمون عسكريون خطيرون يودعون سجننا بانتظار انشاء سجون الأشغال الشاقة في سيبيريا الشرقية . ولم يتغير طراز حياتنا . فالعمل والنظام ظلا كما كانا من قبل . كل ما هنالك ان الادارة قد تجددت وتعقدت : عُيِّن ضابط كبير برتبة كومندان رئيساً للسجن ، وجعل تحت امرته أربعـة ضباط مرءوسين يتناوبون العمل . وصرف الجنود مشـوهو الحرب ، وأحل محلَّهم اثنا عشر رجلاً من ضباط الصـف ومراقب ترسانة . ووزِّع السجناء زمراً تضم كل منها عشرة أشخاص ، واختير من بينهم عرفاء لا يملكون في حقيقة الأمر الا سلطة اسمية على رفاقهم ، وأصبح آكيم آكيمتش بذلك عريفاً . وظل هـــذا التنظيم الجـديد كله خاضعاً لاشراف الحاكم . ولم تمض التغييرات الى أبعد من هذا الحد .

اضطرب السجناء في أول الأمر كثيراً ، فكانوا يناقشون ، وكانوا يحاولون أن ينفذوا الى أعماق رؤسائهم الجدد . ولكنهم حين رأوا أن كل شيء قد بقي في حقيقة الأمر على ما كان عليه من قبل ، لم يلبثوا أن هدأوا وعادت حياتنا تجري في مجراها العادي المألوف . لقد تحررنا من الميجر على الأقل . فتنفس كل منا الصعداء ، واسترد كل منا شجاعته . زال عنا الذعر . وأصبح كل واحد يعلم أن من حقه عنـــد الحاجة أن يشكو أمره الى رئيسه ، وأن لا يعـــاقَب اذا كان على حق ، اللهم الا خطأً .

ظلت الخمرة تهرب الى السجن كما كانت تهرَّب اليه من قبل ، رغم أن المشرفين أصـــبحوا الآن ضباط صف لا جنـــودا من مشوهي الحرب . انهم أناس شرفاء على جانب من حصـــافة الرأي ، مدركون وضعهم . ولئن أراد بعضهم أن يمارس شيئاً من التسلط والتحكم وأن

يعاملونا كما يعامَل الجنود ، في أول الأمر ، فانهم سرعان ما انساقوا مع التيار العام • والذين طال عليهم الأمد حتى يتعلموا عادات سجننا ، تولى السجناء أنفسهم تعليمهم هذه العادات • حتى لقد وقعت حوادث ظريفة • من ذلك أن يغري السجناء أحد ضباط الصف بشرب الخمرة، فاذا هو يسكر ، حتى اذا أفاق من سكره شرح له السجناء بطريقة مقنعة أنه ما دام قد سكر هو نفسه فليس له بعد الآن ان يعترض ••• وانتهى ضباط الصف الى غض أبصارهم عن تجارة الخمرة • واصبحوا يذهبون الى السوق ، كما كان يذهب الجنود من مشوهي الحرب ، فيشترون للسجناء خبزاً أبيض ولحماً وكل ما كان يمكن ادخاله الى السجن دون التعرض لخطر من الاخطار • لذلك لم استطع ان افهم لماذا تم ذلك التغيير كله ، ولماذا أصبح السجن سجناً عسكريا • وقد حدث ذلك قبل خروجي بسنتين • فكان عليّ أن أعيش في ظل هذا النظام سنتين أخريين ••

هل يجب عليّ أن أصف في هذه المذكرات كل الوقت الذي قضيته في المعتقل ؟ لا ••• فلو اردت أن أقص بالترتيب كل ما رأيت اذن لضاعفت عدد الفصول مثنى وثلاث ، ولجاء الوصف رتيباً متشابها ، لأن كل ما قد أرويه عندئذ سيكون قد ورد حتماً في الفصول السابقة التي استمد القارىء من تصفحها فكرةً كافية عن حياة السجناء الذين ينتمون الى الفئة الثانية • لقد أردت أن أصف سجننا وأن أعرض حياتي فيه عرضاً دقيقاً واضحاً ، فلا أدري هل وفّقت الى تحقيق هذا الهدف • انني لا أستطيع أن أحكم بنفسي على هذا العمل الذي قمت به • ولكنني أحسب أن في وسعي أن أختمه هنا • انني حين أهزّ هذه الذكريات القديمة أشعر بالعذاب القديم يستيقظ في نفسي ويخنق صدري • أنا واثق من أنني نسيت أشياء كثيرة • ان ما أتذكره مثلاً هو أن هذه السنين

قد انقضت بطيئة حزينة وأن الأيام كانت طويلة مضـــجرة مملة تمضي قطرةً قطرة • وأتذكر أيضا أن رغبةً عنيفة قـــوية في أن أبعث بعثاً جديدا وان احيا حياة جديدة قد وهبت لى القدرة على ان اصمد وان أنتظر وأن آمل ؟ وان نفسي قد قست أخيرا ، فأنا أنتظر صابرا ، واعد الأيام يوما يوما ، ويـفرحني ، حتى حين يكون قد بقي عليّ أن امكث فى السجن ألف يوم آخرى ، أننى سأستطيع أن أقول لنفسى فى الغداة انه لم يبق الا تسعمائة وتسعة وتسعين يوماً ، لا ألف يوم • وأتذكـــر أيضاً أننى كنت ، وأنا محاط بمئات من الرفاق ، أشعر بوحدة هائلة وعزلة رهيبة ، وأننى وصلت من ذلك الى أن أحب هذه الوحدة وهذه العزلة • كنت وأنا معتزل في وسط جمهرة السجناء أستعرض حياتى السابقة، واحلل أدق تفاصيلها ، وأطيل التفكير فيها ، وأحكم على نفسى بغـير رحمة ولا شفقة • حتى لقد كنت فى بعض الاحيان اشكر للقدر أنه فرض على هذه العزلة التى لولاها لما استطعت أن أحكم على نفسي ولا أن أنفذ الى قرارة حياتى الماضية • وما أكثر الآمال التى كانت تنبت فى قلبى حينذاك! كنت أفكر ، وأقرر ، وأحلف أن لا أقارف فى المســتقبل ما قارفت فى الماضى من أخطاء ، وأن أتجنب الســـقطات التى حطمتنى • ووضـعت برنامجاً لمستقبلى ، وآليت على نفسى أن ألتزم هذا البرنامج فلا أخـــرج عنه بل أبقى وفياً له• وكنت أؤمن ايماناً أعمى بأننى سأنفذ كل ما أردت، وبأننى أستطيع أن أنفذ كل ما أردت • كنت أنتظر حريتى ، وأناديها فى حرارة وحماسة • كنت أريد أن أجرّب قواى مرة خرى فى كفـاح جديد • وكان يلم بى فى بعض الاحيان شوق محموم ينفد له صبرى ويخنقنى خنقاً • اننى أتألم الآن من مجرد ايقاظ هذه الذكريات • ذلك لا يهم أحداً غيرى بطبيعة الحال • وانما أنا أكتب ذلك لاعتقادى بأن كل

انسان سيفهمني ، وبأن كل انسان سيشعر شعوري اذا شاء حظه العاثر أن يُحكم عليه وأن يُسجن وهو في زهرة العمر وكمال القوة .

انني أقدّر أنه رب سائل يسأل هل الفرار من السجن مستحيل ، وهلاّ وقعت محاولة هروبٍ طوال المدة التي قضيتها فيه ؟ لقد سبق أن قلت ان السجين الذي قضى في السجن سنتين أو ثلاث سنين ، يحسب حساب هذا الرقم ، ويقدّر أن الافضل أن يمضي المدة الباقية بلا متاعب ولا مخاطر ، وأن يصبح بعد الافراج عنه مستوطناً . غير أن الذين يجرون هذا الحساب انما هم السجناء الذين حكم عليهم بالسجن مدةً قصيرة بعض القصر : أما الذين حكم عليهم بالسجن مدةً طويلة فانهم مستعدون للمخاطرة في كثير من الأحيان ... ومع ذلك كانت محاولات الهرب نادرة . أيجب أن نعزو ذلك الى جبن السجناء أم الى قسوة النظام العسكري ، أم الى ان وضع مدينتنا لا يسهل الفرار كثيرا (لانها تقع وسط سهوب مكشوفة) ؟ لا أدري ... أحسب أن هذه الأسباب جميعها كان لها أثرها ... لقد كان الهروب من سجننا صعباً . وهناك اثنان من السجناء حاولا الهروب في زماني ، وهما من المجرمين العتاة .

حين استقال الميجر أصبح آ .. ف (جاسوس السجن) وحيداً بلا حامٍ يحميه . ان آ .. ف ما يزال شاباً ، وان طبعه يزداد صلابة كلما تقدم في السن . انه شديد الجرأة ، قوي العزيمة ، ذكي جدا . ولو أفرج عنه لاستمر يتجسس ويتعاطى أعمال النصب والاحتيال بجميع الوسائل مهما تكن خسيسة معيبة ، ولكنه لن يُقبض عليه بعد الآن بسهولة ، فقد استمد من السجن خبرة واسعة . لقد تمرن على صنع جوازات سفر مزوّرة . غير أنني لا أؤكد ذلك ، لأنني سمعته من سجناء آخرين ، حتى لقد قالوا انه كان يمارس هذه المهنة في مطبخ الميجر أيام كان يذهب اليه ، وان ذلك عاد عليه بأرباح طائلة . أحسب أنه كان

مستعداً للمخاطرة بكل شيء في سبيل أن يغير مصيره • لقد أتيح لى أن أنفذ الى قرارة نفسه وأن أرى كل ما فيها من بشاعة وقبح ودمامة • ان استهتاره البارد الذى لا يتورع عن شيء ، يثير النفس ويبعث فيها اشمئزازا لا يقاومَ وتقززاً لا سبيل الى مغالبته • وأحسب أنه لو اشتهى أن يشرب خمرة وكانت السبيل الوحيدة الى ذلك هى أن يقتل انساناً ، لما تردد عن ذلك لحظةً ، على شرط أن تبقى جريمته سراً مكتوماً لا يعلم به أحد • ولقد تعلم فى سجننا أن يحسب كل شيء • وعليه انما وقع اختيار كوليكوف ، سجين « القسم الخاص » •

سبق أن تكلمت عن كوليكوف هذا ، لقد تجاوز سن الشباب ، ولكنه يفيض حرارة وحماسة وحياة وقوة ، وينعم بملكات خارقة فذة • كان كوليكوف يحس بقوته ويريد أن يعيش طويلا • ان أمثال هذا الانسان يحبون أن يعيشوا حتى حين تكون الشيخوخة قد ألمت بهم واستولت عليهم • فلو أن كوليكوف لم يحاول الفرار لاستغربت منه ذلك • ولكن كوليكوف كان قد عقد النية على الفرار • لا أدرى أى الرجلين كن أكثر تأثيراً فى صاحبه : كوليكوف أم آ •• ف ؟ ولكن أغلب الظن أنهما متكافئان ، وأنهما متوافقان من جميع النواحى • لذلك لم يلبثا أن ارتبط كل منهما بالآخر • أظن أن كوليكوف كان يعوّل على آ •• ف من أجل أن يصنع له جوازاً مزوّراً • ثم ان آ •• ف يرجع أصله الى طبقة النبلاء ، وينتمى الى المجتمع الراقى، وذلك يهيىء للرجلين فرصاً كثيرة ويتيح لهما حظوظاً سعيدة اذا هما استطاعا أن يعودا الى روسيا • لا يعلم الا الله ما الذى تفاهما عليه وماذا كانت آمالهما • ولكن لا شك أن هذه الآمال تخرج عن دائرة الآمال التى تراود أحلام المتشردين السيبيريين • ان كوليكوف ممثل بارع يستطيع أن يقوم فى الحياة بأدوار شتى ، ومن حقه أن يعقد على مواهبه آمالاً كثيرة • ان

السجن يضني أمثال هـؤلاء الناس ويخنقهم خنقاً • المهـم أن الرجلين تواطآ على الفرار من السجن •

ولكن كان يستحيل الفرار دون خفير فلا بد لهما اذن أن يضما اليهما خفيرا • وكان في احدى الفصـــائل المعسكرة في القلعـة رجلٌ بولندي متقدم في السن قليلاً ، ولكنه جم النشـــط جاد شـجاع كان يستحق مصيراً خيراً من المصير الذي انتهى اليه • انه حين وصـل الى سيبريا في الماضي شاباً ، كان قد فرّ من الجندية لأن الحنين الى الوطن قد أضنى نفسه ، فقبض عليه وجُلد ، وأُلحق بفرق التأديب سنتين • حتى اذا رجع الى فوجه بلغ من حماسته في العمل ودأبه على الخـدمة بهمة ونشاط أنه كوفىء بمنحه رتبة عريف • وكان الرجل معتداً بذاته، يتكلم بلهجة انسان يقدر نفسه تقديراً عظيماً •

كنت ألاحظه أحيانا بين الجنود الذين يراقبوننا ، لأن البـولنديين كانوا قد حدثوني عنه • أحسب أن حنينه الى وطنه كان قد استحال الى كره شـديد وبغض لا يهـدأ • ما كان له أن يحجم عن شيء ، ولا أن يتهقهر أمام أية عقبة • ولقد أدرك كوليكوف ذلك بما أوتي من بصيرة نافذة ، فاختاره شريكاً في الهرب • كان هذا العريف يسمى كوهلر • اتفق مع كوليكوف ، فضربا للفرار موعداً وحدّدا له يوماً • كنـا في شهر حزيران (يونيه) • هذه أيام القيظ الشديد • ان المناخ في مدينتنا متساوٍ ولا سيما في فصل الصيف ، وذلك أمر يناسب المتشردين كثيراً• ما كان ينبغي التفكير في الهرب من القلعة رأساً ، فالمدينة تبعد عنها مسافةً كثيرة • وكان لا بد من تنكر • ومن أجل هذا التنكر يجب الوصول الى الضاحية حيث كان كوليكوف قد أعدّ منـذ زمن طويل مكاناً يلتجىء اليه • لا أدري هل كان أصحابه في الضاحية مطلعين على السر • يجب أن نعتقد أنهم كانوا مطلعين على السر ، رغم أن هذا الأمر بقي غامضـاً

غير مؤكد • في أثناء تلك السنة ، كانت قد أقامت في ركن من الضاحية فتاة" مشبوهة السمعة جميلة المنظر اسمها فانيكا مانيكا • كانت هذه الفتاة تبشر بآمال كثيرة جاءت الأحداث بعد ذلك مصدقة لها • وكان الناس يطلقون عليها لقب « النار واللهيب » • أظن أن هذه الفتاة كانت على تفاهم مع الهاربين ، لأن كوليكوف قد قام في سبيلها بأعمال جنونية أثناء تلك السنة •

حين شُكِّلت فصائل العمل في الصباح ، رتب أصحابنا الثلاثة أمورهم بحيث يرسلون الى العمل مع السجين شيلكين ـ ومهنته مبيض ـ في تبييض الثكنات الخالية التي غادرها سجناء المعسكر • كان على ا••ف وكوليكوف أن يساعداه في نقل المواد اللازمة • وافلح كوهلر في أن يعيِّن خفيراً عليهم • ولما كان النظام يقضي بأن يعين جنديان اثنان لحراسة ثلاثة سجناء ، فقد أُلحق بكوهلر مجنّد شاب كان على كوهلر أن يدرِّبه على الخدمة بصفته عريفاً • لا بد أن يكون هذان السجينان اللذان عقدا النية على الفرار قد أثرا في كوهلر تأثيراً كبيراً حتى ارتضى أن يقرر الفرار معهم هو الرجل الجاد الذكي الحيسوب الذي لم يبق عليه أن يقضي في الخدمة العسكرية الا بضع سنين •

وصل السجناء الثلاثة والخفيران الى الثكنات في الساعة السادسة من الصباح ، وكانوا وحدهم لا يرافقهم أحد آخر • فبعد أن عملوا نحو ساعة قال كوليكوف و آ••ف لزميلهما شيلكين انهما ذاهبان الى الورشة لاحضار أداة من أدوات العمل هما في حاجة اليها • كان لا بد لهما من أن يعمدا الى المكر مع شيلكين ، ومن أن يقولا له هذا الكلام بلهجة طبيعية جداً لا تثير في نفسه أية شبهة • ان شيلكين رجل من موسكو ، مهنته بناء المواقد ، وهو ذكي ماكر قليـــل الكلام ضعيف البنية معروق الجسم • ان هذا الرجل الذي كان ينبغي أن يقضي حياته لابساً صدرة

وقفطاناً في دكان من دكاكين موسكو ، ينتمي الآن الى « القسم الخاص » في عداد أعتى المجرمين العسكريين بعد طول ترحل . هكذا شاء له القدر! لا أدري ما الذي فعله حتى استحق عقوبة قاسية كل هذه القسوة. كان شيلكين لا يظهر شيئاً من نزق أو شراسة ، وكان يعيش في السجن هادئاً مسالماً موادعاً . انه يسكر من حين الى حين كما يسكر اسكافي . ولكن سلوكه فيما عدا ذلك سلوك ممتاز . لم يطلعه أصحابنا على سرهم طبعاً ، وكان عليهم أن يضللوه . قال له كوليكوف وهو يغمز بعينه انهما ذاهبان لاحضار خمرة قد خبآها في الورشة منذ البارحة ، وذلك أمر شاق شيلكين كثيراً . لم تراوده أية شبهة ، وبقي وحده مع المجند الشاب ، بينما مضى كوليكوف و آ .. ف الى الضاحية بحراسة كوهلر .

انقضى نصف ساعة ولم يرجع الغائبون . أخذ شيلكين يفكر . برقت في ذهنه فكرة . تذكر أن كوليكوف كان يبدو عليه شيء غير مألوف ، وأنه كان يوشوش آ..ف غامزاً بعينه . لقد رآه يفعل ذلك ، وهو الآن يتذكر كل شيء . ثم ان كوهلر قد لفت انتباهه أيضاً . فحين ذهب العريف مع السجين شرح للمجند ما كان عليه أن يعمله أثناء غيابه ، وذلك أمر لم يكن من عادته أن يفعله . أصبحت شكوك شيلكين تزداد وتقوى كلما أوغل في نبش ذكرياته . وكان الوقت أثناء ذلك يمضي والسجينان لا يعودان . بلغ شيلكين أقصى حد من حدود القلق ، فقد أدرك أن الادارة قد تشتبه فيه وتعده متواطئاً مع الهاربين ، وأن جلده معرض اذن للخطر . لقد كان يمكن أن يُظن أنه كان متواطئاً معهم وأنه سمح لهم بالذهاب ، فاذا تأخر في الابلاغ عن غيابهم ، فان هذه الشبهات ستتعزز وستقوى . كان عليه اذن أن لا يضيع وقتا . وتذكر عندئذ أن كوليكوف و آ .. ف قد أصبحا رفيقين حميمين منذ مدة ، وأنهما كانا كثيرا ما يأتمران وراء الثكنات بعيدين عن الأنظار .

وتذكر أيضا أن هذه الفكرة قد راودته قبل الآن ، فتصور أنهما لعلهما يبيّتان أمراً يتفقان عليه ... ألقى شيلكين نظـرة على حارسه . كان الحارس يتثاءب متكئاً على بندقيته ، ويحك أنفه ببراءة . لذلك لم يقدّر شيلكين أن عليه أن يطلعه على خواطره . فاكتفى بأن طلب منه أن يصحبه الى ورشة الهندسة . كان يريد أن يسأل هناك عن رفيقيه هل رآهما أحد . فلما سأل هذا السؤال تبيّن له أن أحداً لم يرهما . تأكدت شكوك شيلكين . أتراهما ذهبا يسكران ويعربدان في الضاحية كما كان كوليكوف يفعل ذلك في كثير من الأحيان ؟ ولكن شيلكين رفض هذا الافتراض . فلو قد كانا يريدان ذلك اذن لاطلعاه على نيتهما ، فلا داعي الى اخفاء هذه النية عنه . فما ان وصل شيلكين من تفكيره الى هذه النقطة حتى ترك العمل ومضى الى السجن رأساً حتى دون أن يعود الى الثكنة التي كان يعمل فيها .

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حين وصل شيلكين الى رئيس العرفاء ، فأطلعه على شكوكه وشبهاته . ذُعر هذا ، ولم يشأ في أول الأمر أن يصدّق . ان شيلكين لم ينقل اليه فكرته الا في صورة شبهة . وسرعان ما جرى رئيس العرفاء الى الميجر يطلعه على الأمر ، وسرعان ما جرى الميجر الى الكومندان يبلغه النبأ . فما انقضى ربع ساعة الا كانت جميع الاجراءات اللازمة قد اتخذت . رُفع تقرير الى الجنرال الحاكم . ان هذين السجينين هم من السجناء الخطرين ، فمن الممكن والحالة هذه أن تعاقب ادارة السجن عقاباً قاسياً على فرارهما . لقد كان آ .. ف يعد من السجناء السياسيين خطأً أو صواباً . كما أن كوليكوف ينتمي الى « القسم الخاص » ، أي أنه مجرم عريق ، عدا أنه عسكري قديم . ولم يسبق لأحد أن استطاع أن يفرّ من « القسم الخاص » . وتذكر المشرفون على السجن عندئذ أن النظام يقضي بأن يحرس كلّ سجين من

سجناء « القسم الخاص » خفيران اثنان حين يذهب الى العمل . وهـذه القاعدة لم تُلتزم ، فمن الممكن أن يسيء هذا الاخلال بقواعد النظام الى جميع موظفى ادارة السجن . وسرعان ما أُرسل السعاة الى كافة القرى المحيطة بالمـدينة والى كافة المدن الصـغيرة المجاورة لابلاغ نبأ هروب سجينين . وسرعان ما جُرِّدت لملاحقة السـجينين أعداد من الجنود القوقازيين . وسرعان ما كُتب فى الأمر الى جميـع المـديريات وجميع الأقاليم المجاورة . الخلاصة أن ذعراً رهيباً قد ألم بالجميع ...

ولم يكن الاضطراب فى سـجننا أقل من ذلك . فكلما عادت من العمل جماعة من جماعات السجناء علمت بالنبأ العظيم الذى كان يجرى من فم الى فم ، فكان كل سجين من السجناء يستقبله بفرح خبيء عميق ... ان هذا النبأ ، عدا أنه يقطع رتابة الحيـاة فى السـجن ويسلّى السجناء ، هو نبأ هروب ، هـروبٍ يرجّع صدى مستحبا فى جميـع النفوس ، ويلقى هوى لدى جميع القلوب ، ويهز أوتارا ظلت غافيه وسنى خلال زمن طويل . ان نوعاً من الأمل والجرأة والجسارة قـد حرّك قلوب السجناء جميعاً ، لأنه يصـوّر لهم أن تغيير مصيرهم أمر ممكن وليس مستحيلا . « نعم ... لقد هربوا رغم كل شيء ، فلماذا نحن لا ... » . وكان كل واحد اذا خطرت بباله هذه الفكرة ينهض قائماً ويلقى على رفاقه نظرة تحدٍ وتحريض واستفزاز . اتخـذ جميع السجناء هيئة كبر وخيلاء ، ونظروا الى ضباط الصف نظرات تعـاظم واستعلاء . وهرع جميع رؤسائنا ، كما يُتوقع ذلك ، حتى لقـد وصل الكومندان نفسه . فكان السجناء يرشقونهم جميعاً بنظرة جريئة يمازجها شيء من احتقار ، ويشوبها نوع من رصانة قاسية . « هه ؟ نحن نعرف كيف ندبر أمورنا متى شئنا ! » . وتوقع الجميع أن يقوم الرؤساء بجولة تفتيشية عامة . كان السجناء يتوقعون سلفاً أن ادارة السجن ستعمد الى

اجراء تحقيق وأنها ستقوم بتفتيش • لذلك خبأ السجناء كل شيء ، فهم لا يجهلون أن ادارة السجن لا بد أن تضاعف يقظتها بعد وقوع حادث كهذا الحادث • وقد صدقت نبوءة السجناء • فانقلب السجن عاليه سافله، ولم يُترك مكان فيه دون أن يفتش تفتيشاً دقيقاً ، ولكن لم يُعثر على شيء طبعاً •

وحين دقت ساعة الذهاب الى العمل بعد الغداء ، كان عدد الخفراء الذين تولوا حراستنا مضاعفاً • وفي المساء كان الضباط وضباط الصف من الحرس يداهموننا في كل لحظة مفتشين • وقد عدونا اكثر مما كانوا يعدوننا في العادة ، فأخطأوا في عدنا مرتين ، فكان هذا الخطأ يحدث مزيداً من الاضطراب ، فاذا هم يخرجوننا من الثكنة الى الفناء ليعدونا مرة اخرى • حتى اذا أرجعونا الى الثكنة عدونا من جديد •

لم يقلق السجناء كثيراً من هذا الاضطراب ، ولم يكترثوا له ، بل كانوا يصطنعون هيئة الاستقلال وقلة المبالاة ، ولكن سلوكهم كان سلوكاً حسناً طوال تلك السهرة ، كما يحدث هذا دائماً في احوال كهذه الأحوال • « لن يستطيعوا أن يجروننا الى المشاجرة ، لن نمكنهم من استدراجنا الى خلق المتاعب » • وكانت ادارة السجن تتساءل : ترى أليس بيننا أناس متواطئون مع الفارين ؟ فأمرت بمراقبتنا والتجسس على أحاديثنا ، ولكنها لم تظفر بطائل • « ليسوا من الغباء بحيث يتركون وراءهم شركاء ! » ؟ « ان المرء يخفي سره ويكتم أمره حين يعد ضربة كهذه الضربة ! » ؟ « ان كوليكوف و آ •• ف يملكان من المكر والدهاء ما يؤهلهما لكتمان ما عقدا النية عليه • ألا انهما لمعلمان حاذقان ، فعلا فعلتهما ، دون أن يدعا لأحد أن يشتبه فيهما وأن يخطر على باله مايبيتان من أمر • لقد تبخرا تبخراً ! لو شاءا لخرجا من أبواب موصدة ، هذان الشيطانان ! » • ذلك ما كان يردده السجناء • لقد ازداد قدر كوليكوف

و آ •• ف في أنظـارهم ، وعظمت منزلتهما مائة مرة ! ان السـجناء فخورون الآن بهما • أحس الجميع أن هـذه المغامرة ستتناقل الأجيـال نبأها الى آخر جيل ، وأن عمر أخبارها سيكون أطول من عمر السـجن نفسه •

كان بعضهم يقول :

ـ يا للدماغين الذكيين !

فيضيف آخرون :

ـ هه ! كان يُظن أن الفرار مسـتحيل ••• فهاهما يهربان مع ذلك !

ويعقب ثالث قائلاً وهو يلقي على رفاقه نظرة فيها مسكنة :

ـ نعم ، ولكن من هم الذين هربوا ؟ أأنتم تستحقون أن تحـلوا لهم أشرطة أحذيتهم !

ما كان لسجين من السجناء يخاطب بمثل هذا الكلام ، أن يسكت على هذه الاهانة بحال من الأحوال ، وما كان له الا أن يرد على التحدي وأن يدافع عن شرفه وكرامته • ولكن السجناء الآن يلتزمون الصمت متواضعين • واذا نطقـوا قالوا : « هـذا حق ! ليس كل الناس مثل كوليكوف و آ •• ف • على المرء أن يبرهن على قيمته أولاً ! ••• » •

قال أحد السجناء ، وكان جالساً قرب نافذة المطبخ ، قال على حين فجأة مقاطعاً :

ـ حقاً يا رفاق ! لماذا نبقى هنا ؟ ما ذا نفعل هنا ؟ اننا نحيا بلا حياة، اننا أموات بغير موت !

قال الرجل هذا الكلام بصـــوت بطيء متراخ متثاقل ، بينما راح يفرك خده براحة يده ، ولكن كلامه كان ينطوى على ثقة خفية واقتناع مستتر •

فأجابه أحدهم قائلاً :

ـ ما تنهدك هذا ؟ ان المرء لا يهرب من السجن كما يخلع حذاءً• نحن مشدودون الى السجن شداً •••

فانبرى شاب غر متحمس يقول :

ـ ولكن هذا كوليكوف ! ألم يهرب ؟

فأجاب آخر ، وهو ينظر الى الفتى الغر نظرة شزراء :

ـ كوليكوف ؟ كوليكوف ؟ ان أمثال كوليكوف ليسوا كُثُراً •••

ـ وما قولكم فى آ••ف يا شباب ؟ ألا انه لفتى شجاع !

ـ هه ! انه قادر على أن يلف كوليـكوف لفاً متى شاء وما شاء ! انسان داهية !

ـ أتراهم قد ابتعدوا ؟ ذلك ما أود لو أعرفه ! •••

ويتصل الحديث ويتشعب • « هل هم الآن بعيدون عن المدينـة ؟ من أى جهة هربوا ؟ أى طريق سلكوا ؟ ما أضمن السبل لفـرارهم ؟ ما أقرب مديرية يلجئون اليها ؟ » • واذ كان بين السجناء رجال يعرفون الأماكن التى تجاور المدينة ، فقد أخـذ الآخرون يصـغون الى كلامهم بانتباه شديد واستطلاع نهم •

وحين وصل الحديث الى الكلام عن سكان القرى المجاورة ، أقرَّ الجميع أنهم أشرار لا يعتمد عليهم ؛ فكل من هم قربَ المدينة من سكان

أناس يعرفون ما يجب عليهم أن يفعلوه ، فلن يساعدوا الهاربين بحال من الأحوال ، حتى أنهم سيقبضون عليهم ليسلموهم .

ـ ليتكم عرفتم مدى ما يتصف به هؤلاء الفلاحون من شر ! ألا انهم بهائم خبيثة ، ألا انهم حيوانات لئيمة !

ـ فلاحون أنذال !

ـ السيبرى وغد ... انه لا يتورع عن قتل انسان فى سبيل أى شىء ...

ـ ولكن جماعتنا ...

ـ طبعاً ... سنرى من الذى سينتصر ... ان جماعتنا لا يخشون شيئاً .

ـ على كل حال ، اذا لم نفطس ، فسنسمع عن أنبائهم !

ـ لعلك تظن أنهم سيُقبض عليهم ؟

كذلك سأل سائل ، فاذا بسجين من أشد السجناء اهتياجاً يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية ويقول :

ـ أنا واثق أنهم لن يقبض عليهم أبداً !

فقال قائل :

ـ ذلك يتوقف على مجرى الأمور ...

فقال سكوراتوف :

ـ لو هربت أنا يا رفاق ، فلن يُقبض علىّ يوماً !

ـ أنت ؟

كذلك سأله أحدهم ، فما كان من الآخرين الا أن انفجروا

يقهقهون ؛ وتظاهر غـــيرهم بأنهم لا يريدون حتى أن يسمعوا كلامه • ولكن سكوراتوف كن متحمساً ، فهاهو ذا يقول بحرارة وحميا :

ـ لو هربت ما قبضوا عليّ في يوم من الأيام ! انني كثيراً ما أقول هذا لنفسي• اني لأوثر أن أمر من ثقب مفتاح على أن أدع لهم أن يقبضوا عليّ !

ـ لا تخف ! سوف تتضور جوعاً فاذا أنت تذهب من تلقاء نفسك الى فلاح من الفلاحين تسأله أن يهب لك خبزاً !

وتجددت القهقهات •

قال سكوراتوف :

ـ خبزاً ؟ أنت تكذب !

ـ ما هذا الهراء ؟ أنسيت أنك أنت وعمك فاسيا قـد قتلتما موت البقر* ، وأن ذلك هو السبب في مجيئكما الى هذا المكان ؟

تضـــاعفت القهقهات • وأظهـر الوقورون من الســجناء اسـتياء واستنكاراً •

صاح سكوراتوف يقول :

ـ أنت تكذب ! ان ميكيتكا هو الذى قصّ عليكم ذلك • لم اكن أنا القاتل بل العم فاسيا ، ثم حشرتمونى فى الأمر ظلماً ! أنا موسكوفى متشرد منذ نعومة أظفارى • اليكم هذا المثل : حين كان الكاهن يعلمنى تلاوة الصلوات ، كان يقرص أذنى قائلاً لى : « ردّد ما أتلوه عليك : اشملنى برحمتك يا رب ! » فكنت أُردد قولى : « أخذونى الى الشرطة برحمتك يا رب ! » ، الخ ••• ذلكم ما فعلته منذ نعومة أظفارى •

انفجـــر جميع الســـجناء ضاحكين • وكان ذلك كل ما يتمنـاه سكوراتوف ، فلقد كان يحب أن يكون مهرّجاً !

ولم يلبث السجناء أن عادوا الى أحاديثهم الجادة ، ولا سيما الشيوخ منهم ، والخبراء في شئون الفرار • أما الشباب والذين يتصفون بطبـاع أقرب الى الهـــدوء فكانوا يصغون الى الحـديث متطاولين برؤوسهم ، مبتجهين كل الابتهاج • كان قد تجمع في المطبخ جمهور كبير• ولم يكن هنالك أحد من ضباط الصف ، والا لمـا تجرا السجناء آن ينطلقوا في الحديث هذا الانطلاق الصريح • ولاحظت بين المبتهجين المغتبطين ترياً قصير القامة ناتيء الوجنتين ، مضحك الهيئة • ان اسمه مامتكا ، وهـو لا يكاد يتكلم الروسية ، ولا يفهم كثيراً ما يقوله الآخرون ، ولكنـه مع ذلك يمدُّ راسه في الجمهور ويصغي الى الكلام مسروراً محبوراً • قال له سكوراتوف الذي نسيه الجميع ، فلم يجد بداً من الاتجاه الى هـــذا التترى يكلمه :

ـ هيه مامتكا ! « يا كشي » ؟ *

فقال مامتكا بحرارة وهو يحرك رأسه الضخم :

ـ « ياكشي » ! أوه ••• يا كشي ! •••

ـ لن يقبضوا عليهم ؟ « يوك » ؟

فعاد مامتكا يقول وهو يحرك رأسه ، ويلوّح بذراعيه :

ـ « يوك » ! « يوك » ! •••

ـ اذا كنت تكذب فسوف أريك ، هه ؟

ـ طبعاً ، طبعاً ، يا كشي !

كذلك قال مامتكا وهو ما يزال يهز رأسه •

ـ طيب ... خذ اذن هذه « الياكشى » ! ...

قال له سكوراتوف ذلك ولطمه على رأسه لطمة أنزلت طاقيته حتى غطت عينيــه ، ثم بارح المطبــخ مسروراً كل السرور ، تاركاً التترى فى دهشة وانبهات ! ...

ظل النظام يُطبَّق فى السجن تطبيقاً صارماً قاسياً خلال أسبوع . واستمرت مطاردة الهاربين فى القرى والمدن المجاورة . كان السجناء على علم دائم بالاجراءات التى كانت تتخذها السلطة للقبض على الهاربين ، لا أدرى كيف ! ... فأما فى الأيام الأولى فقد كانت الأنباء سارة : لقد اختفى الهاربون فلا أثر لهم . أصبح السجناء لا يعمــــلون شيئاً غير أن يسخروا من الرؤساء بينهم وبين أنفسهم ، واطمأنوا على مصير رفاقهم فلا يراودهم شىء من قلق . « لن يعثروا على شىء ! لسوف ترون أنهم لن يستطيعوا القبض عليهم ! » . كذلك كان السجناء يقــول بعضهم بعض مبتهجين مغتبطين !

كنا نعلم أن جميع الفـــلاحين فى القرى المجاورة قد استنفروا ، وأنهم يراقبون الأماكن المشبوهة والغابات والوديان والشــعاب . فــكان السجناء يقولون ضاحكين :

ـ حماقات ! لا شك أنهم قد اختبأوا عند أحد !

ـ حتماً ! هؤلاء أناس عقلاء لا يخاطرون قبل أن يكونوا قد أعدوا كل شىء سلفاً !

ومضت الافتراضات الى أبعد من ذلك . فقيل فيما قيل : لعلهم قد اختبأوا فى كهف من الكهوف بالضـــاحية ريثما يهدأ الذعــر ويطول شعرهم ، ولعلهم سيمكثون هنـــالك ستة أشهر ، ثم يخرجون مطمئنين هادئين ليوغلوا فى المسير ...

الخلاصة أن جميع السجناء قد أطلقوا الأعنة لأخيلتهم . وفجاة ، بعد الهروب بثمانية أيام ، انتشرت شائعة تقول ان مكان الهاربين قد عُرف . فهبَّ السجناء يكذبون الشائعة طبعاً باحتقار شديد . ولكن ما ان أتى المساء حتى قويت الشائعة . فاضطرب السجناء اضطراباً كبيراً . وفى صباح الغد كان الناس فى المدينة قد عرفوا أن الهاربين قد تم القبض عليهم ، وانهم مقتادون فى طريق العودة . وعُرفت بعد العشاء تفاصيل جديدة : عُرف أنهم قد اعتقلوا فى قرية صغيرة تبعد مسافة سبعين فرسخاً عن المدينة . ووصل الخبر اليقين أخيراً ، اذ أعلن رئيس العرفاء الذى كان عائداً من عند الميجر أن الهاربين سيقادون الى مركز الحرس فى هذا المساء نفسه . لقد قبض عليهم اذن ، لم يبق ثمة شك فى ذلك. انه ليصعب علىَّ أن أصف الشعور الذى ألم بالسجناء حين عرفوا هذه الحقيقة . لقد اضطربوا اضطراباً عنيفاً وازدادت حركتهم وكثر نشاطهم، ولكنهم لم يلبثوا أن هدأوا وسكنوا وخمدوا . ثم سرعان ما لاحظت لديهم ميلاً الى الهزء والسخرية . أصبحوا الآن يضحكون لا من ادارة السجن بل من الفارين الحمقى الذين لم يحسنوا تدبر الأمر . فعل ذلك بعضهم فى البداية ، ثم فعلوه جميعاً بعد ذلك ، باستثناء عددٍ من السجناء حافظوا على وقارهم واستقلالهم ، لأن السخريات لا تهزهم ، فكانوا ينظرون الى الجمهرة الهائجة الطائشة نظرة احتقار ، ويلزمون الصمت فلا يتكلمون .

وعلى قدر المديح والثناء والاطراء الذى كالوه فى أول الأمر لصاحبيهم كوليكوف و آ .. ف ، أخذوا الآن يذمونهما ويقدحون فيهما ويشهرون بهما . حتى لقد كانوا يفعلون ذلك مسرورين محبورين ، كأن الرجلين قد أساءا الى رفاقهم وألحقا بهم الاهانة حين أتاحا للسلطة أن تقبض عليهما . وقيل فيما قيل : لعلهما قد عضَّهما الجوع فلم يستطيعا

أن يحتملا آلامه فذهبا الى ضيعة من الضياع يسألان الفلاحين شيئاً من خبز ، وهذا غاية الضعة والحطة والصغار فى متشرد • والحق أن هذه الروايات لم تكن صحيحة ، ذلك أن المطاردين قد اقتفوا أثر الهاربين ، حتى اذا صار الهاربون الى احدى الغابات ، أحاط بها المطاردون فأحكموا محاصرتها ، فلما رأى الهاربون أن لا سبيل لهم الى الفرار ، استسلموا ، وما كان فى وسعهم أن يفعلوا غير ذلك •

أعيد الهاربون فى المساء بحراسة رجال الشرطة ، وقد كبلت أيديهم وارجلهم • أسرع جميع السجناء نحو السياج ليروا ما سيُصنع برفاقهم • فلم يروا الا عربتى الميجر والكومندان ترابطان أمام مقر الحرس • لقد أُخفى الهاربون بعد أن أُعيد تقييدهم بالسلاسل• اقتيدوا فى الغداة الى المحاكمة • وانقطعت سخريات السجناء من رفيقيهم من تلقاء نفسها ، وانقطع احتقارهم لهما ، حين عرف السجناء التفاصيل ، حين علموا أن رفيقيهما قد اضطرا الى الاستسلام اضطراراً ، لأنهما حوصرا من كل جهة فلم يكن لهما الا أن يستسلماء واهتم جميع السجناء بالقضية اهتماماً فيه كثير من العطف والمودة •

ـ لا شك أنهم سيجلدون ألف جلدة !

ـ أوه ! أوه ! بل سيجلدون حتى الموت • قد لا يضرب آ••ف الا مائة ضربة بالعصا ، أما الآخر فلا شك أنهم سيميتونه ••• هل نسيت أنه من القسم الخاص ؟

كذب ظن السجناء • لقد حُكم على آ •• ف بأن يضرب خمسمائة ضربة بالعصا • لقد اعتبر سلوكه الماضى أسباباً مخففة • ثم ان الذنب كان أول ذنب يرتكبه • أما كوليكوف فأظن أنه قد نال ألفاً وخمسمائة ضربة • والعقوبة كما ترون طفيفة • وكان الرجلان عاقلين حكيمين ،

فلم يورّطا فى القضية أحداً ، وصرّحا بأنهما فـرا من القلعـة دون أن يدخلا أى مكان من الأمكنة •

أخذتنى الشفقة بكوهلر خاصة : لقد فقد بهذا الفعل آخـر أمل له ، عدا العقوبة التى أُنزلت فيه وهى ألفا ضربة • وقد أُرسل بعد ذلك الى سجن آخر •

لم يكد يعاقب آ••ف ، فانه قد أعفى من الضرب بفضل الأطباء • ولكنه ما ان صار فى المستشفى حتى أخذ يتباهى ويتبجح ، وأعلن أنه لن يتراجع بعد اليوم أمام أية عقبة ، وأنه سيعرف كيف يجعـل الناس تتحدث عنه وتتناقل أخباره ! أما كوليكوف فلم يتغير ، بل ظل كما كان رجلاً لبقاً رضياً رزيناً • وحين عاد الى السجن بعد انزال العقوبة فيـه كان كمن لم يغادر السجن لحظةً من اللحظات • ولكن السجناء أصبحوا لا ينظرون اليه كما كانوا ينظرون اليه من قبل ؛ فهم ، على رغم أنه لم يتغير ، قد أصبحوا فى قرارة نفوسهم ، لا يضمرون له ما كانوا يضمرونه له من تقدير واعجاب ، وأصبحوا يعاملونه معاملة الند للند •

لقد كبا نجم كوليكوف كثيراً بعد حادثة الفرار هذه • ان النجـاح يعنى كل شىء فى هذا العالم •••

١٠

الخلاص

محاولة الفرار هذه أثناء السنة الأخيرة من اقامتى بالسجن . اننى أتذكر تلك السنة الأخيرة كما أتذكر السنة الأولى وضوحاً.ولكن فيم الافاضة فى سرد التفاصيل ؟ حسبى أن أقول ان هذه السنة الأخيرة كانت أقل سنى منفاى مشقة وعذابا رغم تحرقى شوقا الى انتهاء مدة سجنى . كنت قد اكتسبت آخر الأمر كثيراً من الأصدقاء والأصحاب بين السجناء الذين استقر رأيهم على أننى رجل طيب . ان عددا كبيرا قد أخلص لى المودة وأحبنى حباً صادقاً . حتى أن جندى سلاح الهندسة قد أوشك أن يبكى حين شيعنا أنا ورفيقى الى خارج السجن ؛ وحين أفرج عنا تماما أصبح يزورنا كل يوم تقريبا فى مبنى تابع للدولة حُدِّدت اقامتنا فيه خلال الشهر الذى قضيناه فى المدينة . غير أن هناك وجوهاً قاسية متجهمة مكفهرة لم أستطع أن أحظى برضاها وأن أكتسب صداقتها ، لا يدرى الا الله لماذا ! لكأن حاجزا سميكا كان يفصل بيننا وبينها ، لكأن سداً منيعاً كان يحجبنا عنها ...

وقد تمتعت خلال تلك السنة الأخيرة بامتيازات لم أكن أتمتع بها

قبل ذلك . كنت قد وقعت بين الموظفين العسكريين في مدينتنا على اناس اعرفهم بل وعلى رجال كانوا من رفاقي في المدرسه ، فانعقدت بيني وبينهم صلات ، وبفضلهم انما اصبحت اتلقى مالاً وأكتب الى اسرتي رسائل بل وأملك بعض الكتب . كنت لم املك كتابا واحدا منذ سنين. لذلك يصعب عليّ ان اصف الشعور الغريب الذى شعرت به والانفعال الشديد الذى عانيته حين قرأت في السجن اول كتاب اتيح لى ان اقرأه. لقد أخذت ألتهمه في المساء حين اغلقت علينا الابواب ، فما زلت أقرأ الليل كله حتى مطلع الفجر . ان ذلك العدد من المجله قد بدا لى كأنه رسول هبط علي من العالم الاخر . ارتسمت حياتى الماضيه امام عينى بارزة واضحه حينداك ، وحاولت ان اعرف هل انا تخلفت وهل عاشوا كثيرا بدونى هناك ! تساءلت عما يشغل بالهم ويحرك نفوسهم ، تساءلت عن المسائل التى اصبحت تعنيهم وعن المشكلات التى اصبحت تهمهم . كنت أتلبث على الكلمات قلقا ، واقرا بين السطور ، وأحاول ان افهم من العبارات معناها الخفي ، وان ارى ما فيها من اشارات الى الماضى الذى أعرفه . كنت أقتفي آثار الأشياء التى كانت تهز الأنفعال في زمانى فما كان أشد حزنى حين اضطررت أن أعترف لنفسى بأننى اصبحت غريبا عن الحياة الجديدة ، وأننى الآن عضو في المجتمع منفصل عنه منبوذ منه ! لقد تأخرت وتخلفت . عليّ أن اعرف الجيل الجديد . لقد وقعت على مقالة مذيلة باسم انسان عزيز على نفسى فارتميت على المقالة ألتهمها التهاماً ... ولكن أصحاب اكثر المقالات الاخرى اناس لا أعرفهم . ان عاملين جدداً قد أصبحوا الآن على المسرح . أسرعت أتعرف بهؤلاء العاملين الجدد . وأحزننى أشد الحزن أن لا أملك الا هذا العدد القليل من الكتب ، وأن يكون الحصول على المزيد منها صعباً كل هذه الصعوبة. وقبل ذلك ، في عهد الميجر السابق ، كان احضار كتب الى السجن

مجازفة كبيرة ومخاطرة عظيمة . فاذا عثرت الادارة على كتاب في السجن أثناء التفتيش ، قامت مشكلة ضخمة ونشات قصة طويلة ، فأنت تُسأل من أين جئت بالكتاب ، وأنت تُتهم بأن لك شركاء تواطأت معهم . بماذا كان يمكن أن أجيب لو أُلقيت عليّ أسئلة كهذه الأسئلة ؟ لذلك عشت في السجن بغير كتب ، منطوياً على نفسي ، طارحاً مشكلات أحاول أن أحلها ، مشـــكلات تقض مضجعي وتقلقني أشد القلـق في كثير من الأحيان ... ولكن حسبي ما قلته ، فليس في وسعي أن أعبِّـر عن هذه الشجون تعبيراً كافيا في يوم من الأيام !

كان ينبغي اطلاق سراحي في الشـتاء لانني دخلت السـجن في الشتاء . سوف يخلي سبيلي في مثل اليوم الذي وصلت فيه الى السجن منذ سنين . فما كان أشد تحرقي شوقا الى حلول ذلك الشتاء السعيد !

ما كان أعظم فرحي وابتهاجي حين كنت ألاحظ أن الصيف يشارف على الانتهاء ، فأرى الأوراق تصفرُّ على الأشجار وأرى العشب يصوِّح في المروج ! لقد انقضى الصيف ... هذه ريح الخريف تئن ، وهذا هـو الثلج يهطل عاصفاً أول مرة ... ان ذلك الشتاء الذي طالما انتظرته قد حل أخيراً ... أصبح قلبي يخفق خفقانا سريعا حين أسـتشعر اقتراب الحرية . ومع ذلك ، كلما انقضى الوقت واقترب الموعد أصبحت أكثر هدوءاً وأجمل صبراً . شيء غريب . دُهشت أنا نفسي ، حتى لقـــد اتهمتُني ببرود العاطفة وقلة الاكتراث .

وأخذ كثير من السجناء يتحدثون معي ويهنئونني حين ألقـاهم في الفناء بعد انتهاء الأعمال .

ــ هيه ألكسندر بتروفتش العزيز ! سوف يطلق سراحك قريباً ، فتتركنا وحيدين نحن الأشقياء ! ...

كذلك قال لى أحدهم ، فسألته :

ـ وأنت يا مارتينوف ، متى تنتهى مدة سجنك ؟

ـ أنا ؟ بعد سبع سنين يا عزيزى ••• سبع سنين أسلخها هنا فى كدٍ وعناء •••

قال مارتينوف ذلك وتنهد ، ثم وقف ونظر الى بعيـــد شارد اللب داهلاً كأنه ينظر الى المستقبل •••

نعم ••• كان كثير من رفاقى يهنئوننى بصدق ومودة • حتى لقد بدا لى أنهم أصبحوا أكثر لطفاً وبشاشة فى معاملتى • أنا الآن لا أنتمى اليهم ، أنا لست الآن نظـــيرهم وشبيههم • انهم يودعـــوننى • وكان ك ••• زنسكى ، وهو شاب بولندى من طبقة النبلاء ، حلو الطبع هادىء وديع ، كان يحب أن يتجول مثلى فى فناء السجن • انه يأمل أن يحافظ على صحته بالتروض واستنشاق الهواء النقى بعـــد العذاب الذى يلقـاه اختناقا فى الليالى الطويلة داخل الثكنات • قال لى ذات يوم مبتســماً بينما كنا نتنزه معاً :

ـ اننى أنتظر خروجك من السجن بصبر فارغ • فمتى خرجت أنت عرفت أنا أن قد بقى من مدة سجنى عام •

يجب أن أذكر هنا عابراً أن الحرية أصبحت بفضل ما نسبغه عليها من خيالنا وفكرنا ، أزخر بالحرية من الحرية كما هى فى الواقع • كان السجناء يضخمون معنى الحـــرية • ذلك أمر يشـــترك فيه جميع من يودعون السجون • رب خادم رث من خدم الضباط يبدو للسجين كأنه ملك من الملوك ••• انه مثال الانسان الحـــر • انه بغير سلاسل تقيـد ساقيه ، انه لم يُحلق له شعر رأسه ، انه يذهب الى حيث يشاء دون خفير يحرسه •

حين هبط الغسق ، عشيةَ اطلاق سراحي ، طفت حــول السياج « آخر طواف ! » ... لقد طفت حول هذا السياج آلاف المرات خــلال هذه السنين العشرة ! ما أكثر ما تجولت وراء الثكنات أثناء السنة الأولى وحيداً حزيناً يائساً ! انني أتذكر كيف كنت أعدُّ الأيام التي كان مايزال عليَّ أن أقضيها في السجن . كان عددها عدة آلاف . يا رب ! ما أبعد ذلك العهد ! ... في هذا الركن قبع نسرنا السجين ... في هذا المكان كنت ألقى بتروف في كثير من الاحيان ... لقد اصبح بتروف لايفارقني الآن . فهو يسرع اليَّ ، ويسير الى جانبي صامتا كأنه يريد أن يحزر ما يجول في ذهني من خواطر ، ويُدهش بينه وبين نفسه لا يدري الا الله من أي شيء ! ... قلت في ذهني : وداعاً ... قلتهـــا لعــوارض الأخشاب المتشققة التي تتألف منها جدران الثكنات ... كم من أعمــار فتية وقوى معطلة دُفنت وضاعت بين هــذه الجدران دون ان يفيد ذلك أحداً ! يجب أن نعترف فنقول : ان أولئك الرجال جميعاً كانوا أناساً خارقين ... لعل أولئك الرجال جميعا كانوا خـــير أبناء شــعبنا مواهب وقدرة . غير أن هذه القوى الجبارة قد أُهدرت الى غـــير رجعة ! من المذنب في هذا ؟

نعم من المذنب ؟

وفي ساعة مبكرة من غداة ذلك المساء ، قبل أن يصطف السجناء للذهاب الى العمل ، طفت بجميع الثكنات أودِّع السجناء . ان كثيراً من الأيدي الخشنة القوية قد امتدت تصافحني بمودة ؛ وان بعض الســجناء قد صافحوني كما يصافح الرفيق رفيقه ، غير أن هؤلاء كانوا هم القلة القليلة . أما الآخرون فقد كانوا يشعرون شعوراً قوياً بأنني أصــبحت الآن شخصاً آخر تماماً ، وبأنني لست الآن واحداً منهم . كانوا يعرفون أن لي بالمدينة أناساً أعرفهم ، وأنني ذاهبٌ رأساً الى منزل « سادة » ،

أجلس الى موائدهم نداً لهم • كان السجناء يدركون ذلك ، لهـذا لم تكن مصافحتهم لى مصافحة الند للند ، رغم ما كان فيها من مودة وبشاشة ولطف • وهناك سجناء أشاحوا وجـوههم عنى ، ولم يردوا لى تحيـة الوداع • حتى لقد رشقنى بعضهم بنظرات فيها كره وبغض •

قُرع الطبل ، ومضى جميع السجناء الى العمل • بقيت وحدى • كان سوشيلوف قد نهض قبل جميع الناس وأخذ يتحرك من أجل أن يعد لى الشاى مرة أخيرة • مسكين سوشيلوف ! لقد بكى حين أعطيتـه ثيابى وقمصانى وسيور الجلد التي توضع تحت السلاسـل وقليلا من المال • وقال لى وهو يعض على شفتيه المرتعشتين : « لا •• ليس هذا •• ليس هذا ما أفقده •• اننى أفقدك أنت يا ألكسندر بتروفتش•• ما عساى فاعلاً الآن بدونك ؟ •• » •

وودّعت أيضاً آكيم آكيمتش • قلت له :

ـ قريبا يطلق سراحك أنت أيضاً •

فدمدم يقول وهو يشد على يدى :

ـ سأبقى هنا زمناً طويلاً ، طويلاً جداً •••

وارتميت عليه وتعانقنا •

وبعـد خروج السـجناء بعشرة دقائق ، بارحنا السجن أنا ورفيقى الى الأبد • ذهبنا الى ورشة الحدادة حيث كان يجب أن تحطم أغلالنا • لم يخفرنا حرس مسلحون فى هذه المرة • وانما ذهبنا الى ورشة الحدادة يصحبنا واحد من ضباط الصف • تولى تحطيم أغلالنا سجناء يعملون فى ورشة الهندسة • انتظرت كسر أغلال رفيقى ، ثم اقتربت من السندان• أدار الحدادون ظهرى ، وأمسكوا بسـاقى فمدوها على السندان •••

كانوا يتحركون كثيراً ويضطربون كثيراً • انهم يريدون أن ينفذوا عملهم بسرعة ومهارة •

أمر معلم الحدادة مساعده قائلاً :

ـ عليك بمسمار المفصل أولاً ••• أدر مسمار المفصل ••• ضعه هكذا ، ضعه جيداً ••• والآن اضربه بالمطرقة •

سقطت الأغلال • أنهضتها ••• كنت أريد أن أمسكها بيدى ، وأن أنظر اليها مرة أخرى ••• أدهشنى أنها كانت منذ لحظة تكبل ساقىّ •

قال لى السجناء الحدادون بأصواتهم التى كانت غليظة متقطعة ولكنها كانت فرحة :

ـ وداعاً ! •••

نعم ••• وداعاً ! ••• الى الحرية ، الى الحياة الجديدة ! ••• الى الانبعاث من بين الأموات !•••

كانت تلك لحظة لا سبيل الى وصفها !

حواشي

الصفحة

١٤ ★ « الأشغال الشاقة من الفئة الثانية » : هي العمل في بناء القلاع التي كانت تشاد في سيبريا للسيطرة على حركات العصيان والتمرد التي كان يمكن أن يقوم بها أهل سيبريا دائما . أما الأشغال الشاقة من الفئة الأولى فهي العمل في المناجم ، وأما الأشغال الشاقة من الفئة الثالثة فهي العمل في المصانع

١٤ ★ مدينة ك ... لعلها مدينة كوزنتسك من اقليم آلمولنسك حيث تزوج دوستويفسكي زوجته الأولى سنة ١٨٥٧ .

٣١ ★ « الشارع الأخضر » : كلمة مالوفة تعني عقوبة الجلد : لقد كان على المحكوم عليه بعقوبة الجلد أن يمر بين صفين من الجنود يحمل كل منهم سوطا ويهوى به على ظهر السجين .

٣٢ ★ ان اسم هذا الميجر هو كريفتسوف . أما الرئيس فهو الجنرال فون جراف .

٣٥ ★ ان قاتل أبيه هذا الذي أدهش دوستويفسكي لم يكن هو القاتل ، وانما القاتل أخوه الأصغر ، وقد اكتشفت الجريمة بعد عشر سنين . وسيذكر دوستويفسكي ذلك في مطلع الفصل ٧ من الجزء الثاني من « ذكريات منزل الأموات » .

٤٢ ★ كان الشعب الروسي يطلق على نزلاء سجون الأشغال الشاقة اسم « عاثري الحظ » ، أو « الأشقياء » .

٤٩ ★ « الفارتيكوتبانبوست » : ليس لهذه الكلمة معنى ، وانما كان

الصفحة

السجين يتوهم أنها لفظة فرنسية معناها حسن السلوك ، فهو ما ينفك يستعملها بهذا المعنى تندرا وتفكها .

٥٠ ★ « كاجان » : لا وجود لطائر بهذا الاسم . وتعني كلمة كاجان، في بعض اللغات الشرقية ، الملك أو الأمير .

٥١ ★ « نيفاليد » تحريف للكلمة الفرنسية « أنفاليد » التى تعنى، مشوه الحرب .

٥٢ ★ « الكفاس » : شراب مخمر يستخرج من نقع الخبز الأسود مع دقيق الشعير .

٥٥ ★ سيتحدث دوستويفسكى عن واحد من السجناء الذين كانوا ينتمون الى طبقة النبلاء قبل دخولهم السجن ، وهو آ .. ف (ارستوف) ، وذلك فى الصفحة ١٣٩ من هذا الكتاب .

٧١ ★ ان م .. كى هو الثورى البولندى ألكسندر ميرتسكى الذى حكم عليه سنة ١٨٤٦ بسجن الأشغال الشاقة مدة عشرة سنوات ثم صدر عفو عنه قبل انتهاء هذه المدة .

٧٢ ★ ان مدينة فباتكا الواقعة فى أراضى لتوانيا قد أصبحت منذ نهاية القرن السابع عشر ملجأ هذه الملة الدينية التى تحارب اصلاحات البطريق نيكون .

٨٣ ★ ان اسم سيروتكين مشتق من كلمة سيروتا ومعناها اليتيم ويقال « يتيم قازان » عن شخص يمثل دور الفقير .

٨٦ ★ « نرتشنسك » مدينة فى ترانسبايكالى كانت مركزا لمنطقة مناجم يرسل اليها السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة من الفئة الأولى . راجع حاشية الصفحة ٢٠

١٣١ ★ « برولوف » رسام روسى (١٧٩٩ ـ ١٨٥٢) ، يرجع أصله الى أسرة هوجنوتية فرنسية اسمها برولولو .

١٣٨ ★ زارت دوستويفسكى فى مدينة توبولسك سنة ١٨٥٠ ثلاث نساء من الديسمبريين هن : مورافيوفا و آننكوفا و فونفيزينا

الصفحة

اللواتي أبين الا أن يتبعن سنة ١٨٢٦ أزواجهن المنفيين الى سيبريا ٠

١٣٩ ★ « رفيق من رفاق السجن » : انه سرجي ف دوروف ، عضو حلقة بتراشفكي الذى حكم عليه بالسجن حين حكم على دوستويفسكي ، وقد ساءت العلاقة بين الرجلين أثناء اقامتهما في السجن ٠

١٤٢ ★ « السائق » صف ضابط من سلاح الهندسة ٠

١٦٨ ★ « ب ٠٠٠ » : هو جوزيف بوجوسلافسكي ، ثورى بولندى ٠

١٧٢ ★ « بونابرت » : المقصود هنا لويس نابوليون بونابرت الذى انتخب رئيسا لجمهورية فرنسا في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٨

١٨٥ ★ « فاسيا » : مصغر فاسيلي ٠

١٩٧ ★ « علبة صغيرة » : ان هذه العلبة المكعبة تمثل عند اليهود هيكل سليمان ، وقد كتبت فيها الوصايا العشر ٠

٢١٥ ★ « مرآة العدالة » : ان « مرآة العدالة » التى كانت توجد على منضدة كل محكمة روسية هي نوع من موشور مثلث قائم على نسر مذهب له رأسان ٠ وعلى كل وجه من وجوه الموشور يقرأ المرسوم الذى أصدره بطرس الأكبر بشأن اجراءات المحاكمة وحق المواطنين ٠ وكانت هذه « المرآة » تمثل السلطة الامبراطورية الموجودة في كل مكان ، وتأمر بالتزام أقصى حدود الأدب ٠

٢٤٤ ★ « الغريمان فيلادكا وميروشكا » : مسرحية هزلية من تأليف ب ج جريجوريف ، مثلث في بطرسبرج منذ سنة ١٨٣١ ثم راجت كثيرا في الأقاليم ٠

٢٤٥ ★ « كدريل » : لعل اسم كدريل أن يكون تحريفا لاسم بدريللو ٠

٢٥٩ ★ « غرفتي الصغيرة » ، أغنية روسية مشهورة جدا ٠

الصفحة

٢٦٤ ★ « الكارامنسكايا » : رقصة روسيه شعبية عنيفة جدا يصاحبها غناء في كلماته استهتار ·

٢٦٦ ★ « براهمي يرتدي مسوح الكاهن » ، لعل المقصود بالبراهمي قس من القسس ·

٣٠٢ ★ « م ··· كي » : راجع حاشية الصفحة ٧٩ ؛ لعل دوستويفسكي تعمد ان يخطيء حين قال عن م ··· كي انه لا ينتمي الى طبقة النبلاء ، وذلك حتى لا يلح على عدم مشروعية العقاب الجسدي الذي أنزل في الكسندر ميرتسكي الذي ينتمي في الواقع الى الطبقة النبيلة ·

٣٠٤ ★ « نوزدريوف » : شخصيه من شخصيات كتاب جوجول « النفوس الميتة » · ان نوزدريوف سكير عربيد مقامر ·

٣٠٤ ★ « ما تزال ذكراه حية ··· » : بيت من الشعر يجرى على الالسن مجرى المثل ؛ وهو يرد في مسرحية جريبويدوف التي عنوانها : « كثير من الفكر ضرر » وذلك على لسان تشاتسكي ·

٣١٤ ★ «تحدثت هنا عن العقوبات» : ان كل ما أرويه عن العقوبات الجسدية كان موجودا في زماني · ولكنني سمعت أن كل شيء قد تغير الآن وما يزال يتغير (هذه الحاشية كتبها دوستويفسكي) ·

٣١٨ ★ « المركيزة برنفلييه » : هي المركيزة مارين مادلين دى برنفلييه التي قتلت أباها واخوتها وأقرباء آخرين لتستولى على ميراثهم · وقد عذبت سنة ١٦٧٦ ·

٣٢٦ ★ «م ·· كي و ب ··» هما ميريكي وبوجوسلافسكي الثوريان البولنديان ·

٣٣٣ ★ « هل عندكما أوراق ؟ » : أي هل عندكما جواز سفر ·

٣٣٣ ★ « ان معي رفيقين يعملان في خدمة الجنرال وقوان » : يعني انهما في الغابة حيث يغرد طائر « الوقواق » ، أي أنهما متشردان أيضا (حاشية كتبها دوستويفسكي) ·

الصفحة

٣٤٦ ★ «هلموا نلطخ باب أكولكا بالقطران» : ان تلطيخ باب منزل تسكنه فتاة يعنى أن هذه الفتاة قد فقدت بكارتها ٠

٣٩٨ ★ « كان الجدى يعد فألا حسنا فى الاسطبلات الروسية ٠

٤٠٤ ★ « ان القصة المؤثرة التى تروى عن ملازم اسمه ايلنسكى اتهم ظلما بأنه قتل أباه قد استعمل دوستويفسكى بعضها فى موضوع « الاخوة كارامازوف » ٠

٤١١ ★ « تقع تاجا نروج على بحر أزوف ، وتقع بتروبافلوسك فى كامتشاتكا ، فالمسافة بينهما ألفا فرسخ ٠

٤٢٢ ★ « ٠ ت ٠٠سكى » هو سيمون توكارفسكى(١٨٢٣ ــ ١٩٠٠) الثورى البولندى ، مؤلف كتاب بعنوان « سبع سنوات » فى المعتقل » :

٤٣٤ ★ « ثمانية رفاق آخرين » : هم بولنديون من السجناء السياسيين ٠

٤٣٤ ★ « ب ٠٠٠ سكى » ثورى بولندى ٠

٤٣٤ ★ « ز ٠٠٠ سكى » : جوزيف زوخوفسكى ثورى بولندى ولد عام ١٨٠٠ ، وحكم عليه سنة ١٩٤٨ بالسجن مع الأشغال الشاقة عشر سنين ، ومات فى السجن سنة ١٨٥١ ٠

٤٣٦ ★ « أو ــ جورسك » : هى أوست ــ كامينوجورسك ، مدينة من سيبريا الغربية فى اقليم سيميبالاتنسك ٠

٤٣٩ ★ « هم الديسمبريون » الذين نفوا سنة ١٨٢٦ (وعددهم يربو على المائة) ٠

٤٤١ ★ « هم الديسمبريون » فى توبولسك ٠

٤٥٠ ★ « أما أنا فبحمد الله ميجر » : لم يكن هذا الميجر بالضابط الوحيد الذى يستعمل هذا التعبير ، بل كان ثمة ضباط

الصفحة

عسكريون آخرون يفعلون ذلك فى زمانى ، ولا سيما أولئك الذين ارتقوا من رتبة ضابط صف • (هامش كتبه دوستويفسكى) •

٤٦٧ ★ « قتلتما موت البقر » أى قتلا فلاحا أو فلاحة اشتبها فى أنها دعت على الماشية بالموت • ولقد كان فى سجننا قاتل من هذا النوع (هامش كتبه دوستويفسكى) •

٤٦٨ ★ « ياكشى » : كلمة تعنى باللغة التترية « طيب » ؛ و «يوك» تعنى « كلا » •

فهـــرس

الموضوع	الصفحة

الأعمال الأدبية الكاملة